العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

الجمهورية التونسية
* * *
جامعة الزيتونة
المعهد الأعلى للحضارة الاسلامية

أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة

رسالة دكتوراه مرحلة ثالثة

إعداد :
الطالب محمد الحبيب العلاني

اشراف :
الدكتور التيجاني بوريقة

السنة الجامعية
1414هـ / 1994م

العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

المقدمة

الباب الثالث: اختلاف القراءات ساعد على التوجهات النحوية الكوفية

العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

الجمهورية التونسية
* * *
جامعة الزيتونة
المعهد الأعلى للحضارة الاسلامية

أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة

رسالة دكتوراه مرحلة ثالثة

اشراف :
الدكتور التيجاني بوريقة

إعداد :
الطالب محمد الحبيب العلاني

السنة الجامعية
1414هـ / 1994م

الحمد لله

الإهـــــداء

إلى كلّ من له فضل عليّ...

أهدي هذا العمل المتواضع...

المقدمة

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبد الله الذي آتاه الله جوامع الكلم فكان أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

يندرج موضوع هذه الرسالة ضمن الدراسات القرآنية واللغوية المتعلقة باللسان العربي، هذه الدراسات التي ظهرت وتكاثرت عقب نزول القرآن وانتشار الاسلام،ودخول غير العرب في الدين الجديد، وإقبالهم على تعلم العربية وحفظ القرآن لاكتساب اللسان العربي،أدى بشيوخ العلم إلى وضع ضوابط صوتية ولغوية صيانة للكتاب الكريم.

وارتبطت الدراسات اللغوية بالسماع؛فجمعت إلى جانب القرآن وقراءاته،الشعر ولغات العرب. وهذه الظاهرة أدت إلى الاهتمام بالدراسات القرآنية واللغوية فظهرت تبعا لذلك توجهات نحوية بصرية ثمّ كوفية.

ويعتبر دور القرآن والقراءات رياديا في هذا المجال وتوجهيّا بالنسبة لمدرسة الكوفة.

وهذا ما دعانا إلى اختيار موضوع الرسالة وهو : أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة.

واختيارنا لهذا الموضوع راجع إلى جملة من الأسباب الموضوعية، أبرزها :

أولا : أهمية علم القراءات القرآنية ودوره في توجيه الدراسة اللغوية والنحوية ودفعها،على نحو سمح للعلماء بتقصي لهجات القبائل، وصون تراث اللغة العربية عبر المحافظة على العديد من الظواهر الصوتية،واللهجية واللغوية التي ما كان لها أن تحفظ لو لا

هذا العلم والعناية به.

ثانيا : حاجة المكتبة العربية إلى دراسات تجمع بين علم القراءات بمادته اللغوية وعلم النحو.

وهذا البحث ما هو إلاّ محاولة لإضافة بعض الجوانب في هذا المجال،لتقديم صورة عن علاقة الدراسات القرآنية بالدراسات النحوية اللغوية.

ثالثا : الاهتمام الخاص بعلم القراءات والحاجة العلمية الملحة التي تراود كلّ باحث للاجابة عن السؤال التالي : لماذا تعددت القراءات القرآنية لنص واحد مقطوع بصحته؟ وماهي الغاية من وراء هذا التعدد؟

رابعا : علاقة علم القراءات القرآنية بالنحو العربي كوفيّه وبصريّه، حيث كان جل أعلام اللغة من الرعيل الأول قراء ونحاة،مما يؤكد تداخل الدراسة النحوية بعلم القراءات الذي شكل أرضية خصبة لعمل النحاة واللغويين.

خامسا : محاولة الوقوف على بعض مقاييس القراء في اختيار أوجه قراءاتهم،زيادة على التواتر في النقل،وموافقة رسم المصحف الامام.

سادسا : الكشف عن العلاقة المتينة بين علم القراءات القرآنية وعلم التجويد وعلم الأصوات العربية الذي إهتم به القراء؛وكان عملهم

مادة علمية دقيقة وثرية وقع التعويل عليها في تأليف المعاجم وفي الدراسة النحوية.

سابعا : الوقوف على أهمية القراءات السبع ومدى اعتماد نحاة الكوفة وقرائها عليها.

ثامنا : لفت نظر الباحثين المعاصرين المعتنين بالدراسات القرآنية والنحوية -وما تبسطه من قضايا لغوية- لهذه المادة الثرية التي توفرها القراءات وتوظيفها توظيفا علميا.

والدافع إلى اختيار هذا الموضوع هو البحث الذي قمنا به في السنة الأولى من دراسات الحلقة الثالثة الذي هو بعنوان : أثر قراءة الصحابي في فهم القرآن (من خلال تفسير القرطبي).

ركز هذا البحث على قراءات الآحاد المنسوبة إلى الصحابة وإضافاتها المتنوعة، مما يمثل إثراء لفهم النص القرآني، عبر اختلاف القراءات المنسوبة إلى الصحابة. فكان هذا دافعا أساسيّا لمواصلة البحث في علم القراءات، فوقع الاختيار على موضوع الرسالة بتوجيه من أستاذنا الفاضل : الدكتور التيجاني بوريقة -حفظه الله- الذي اقترح هذا الموضوع لما لاحظه من صلة القراءات عموما والسبع منها خصوصا بالنحو الكوفي، وما لاحظه من استعداد لانجاز موضوع يرتبط بالقراءات ويوظفها توظيفا هادفا.

الباحث في هذا الموضوع يلاحظ أن إشكالية ، أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة،عميقة ومتشعبة حاولنا تذليلها عبر الاجابة عن السؤال التالي : كيف مكنت القراءات بمادة سماعها الثرية والمتنوعة من توجيه النحو الكوفي وجهة معينة جعلته متميزا عن نحو البصرة مثلا؟ وكيف وجهت النحاة توجيها معينا لابراز النحو الكوفي على نحو اختص به دون المدارس الأخرى ؟

وهذا ما دفع بنا إلى حلّ هذه الاشكالية الكبرى اعتمادا على تحديد التّوجه النحوي أولا الذي كانت القراءات عاملا من عوامل التأثير فيه. فكان هذا العمل يستوجب التدقيق ويحتاج إلى المقارنة بين نحو الكوفة ونحو البصرة لمحاولة ضبط تأثيرات القراءات السبع في عمل النحاة.

وهذا ما دفع بنا إلى البحث عن علاقة القياس النحوي الكوفي بالقراءات القرآنية،-والسبع منها بالخصوص- ونظرنا في القواعد النحوية الكوفية ، التي كانت القراءات عاملا من عوامل ضبطها وتحديدها،ولم نفصل منهجيا بين الدراسات الصوتية والصرفية والمعجمية والبلاغية،لأنها كانت جميعا متداخلة ركزنا عليها لابراز دور القراءات وتأثيرها في الدراسة النحوية الكوفية.

وقد اعتمدنا في بحثنا المنهج التاريخي الاستقرائي سالكين طريق المقابلة والمقارنة. فكان التدرج التاريخي طاغيا على العديد من

المباحث،اتباعا للتطور وفحصا للمتغيرات والاضافات،اعتمادا على المقابلة والمقارنة؛ مع ملاحظة الظواهر التاريخية وتطورها في المدرسة الكوفية.

كما دفع بنا البحث إلى الالتجاء إلى الطريقة الاحصائية في بعض المباحث،لما لمسنا فيها من نجاعة تعين على تحقيق الأهداف المرجوة.

أما الصعوبات فكان أبرزها :

إشكالية منهجية مرتبطة بالعنوان،حاولنا تذليلها عبر التساؤل التالي : ما هي علاقة القراءات السبع -التي انتخبها ابن مجاهد (المتوفى سنة 324هـ) بالنحو الكوفي الذي وضعت أسسه على يد شيخ مدرسته الكسائي (المتوفى سنة 189هـ) ؟ حاولنا التغلب عليها قدر المستطاع.

ومن بين الصعوبات كثافة مادة القراءات القرآنية وتشعبها، بحيث يصعب تحديد الأحكام المرتبطة بمدرسة الكوفة النحوية لأن أغلب المراجع الأمهات مختصة إما بعلم القراءات،أو بعلم النحو،عدا بعض المراجع في علم توجيه القراءات.

ومن بين الصعوبات ، افتقار مدرسة الكوفة النحوية إلى مراجع أمهات في النحو الكوفي، وصعوبة التعرف إلى كتب السلف بالنسبة إلى هذه المدرسة. كما أنّ معظم المؤلفات المتعلقة بالنحو الكوفي لم تصل إلينا ؛ من أمثال كتب الكسائي علم المدرسة الكوفية،وكتب الفراء تلميذه

-خاصة كتاب الحدود- وغيرها من الكتب الهامة،فاعتمدنا على كتاب معاني القرآن للفراء،وعلى ما كتبه ابن السكيت من خلال إصلاح المنطق.

ولم نهمل اعتماد المراجع الحديثة التي كانت موجها ومرشدا استقينا منها كيفية الملاءمة بين مباحث اللغة العربية،ومباحث القراءات القرآنية. وكانت كتب التجويد كذلك مادة ثرية وقع التعويل عليها خاصة في المباحث الصوتية مع جملة من المراجع الحديثة رغم قلتها.

وعموما فإن جملة من المصادر وقع اعتمادها أكثر من غيرها فكانت مصادر رئيسية،وكان هناك جملة مستكثرة من المراجع والمصادر الثانوية.

وقُسّمت الرسالة إلى ثلاثة أبواب :

* الباب الأول منها : دور قراء الكوفة في النهضة العلمية واللغوية.

ويحتوي على أربعة فصول :

الفصل الأول : البيئة العلمية بالكوفة.

الفصل الثاني : نشأة المدرسة النحوية الكوفية.

الفصل الثالث : دور الكسائي في تأسيس مدرسة الكوفة النحوية.

الفصل الرابع : دور القراء في تركيز المدرسة النحوية الكوفية.

* الباب الثاني : القراء السبعة وتوجهاتهم الصوتية ،

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : اهتمام القراء بالدراسات الصوتية.

الفصل الثاني : علاقة الدراسة الصوتية باللغة والنحو خاصة.

الفصل الثالث : الاستشهاد بالقرآن وتوظيف ذلك في المبادىء النحوية.

* الباب الثالث : اختلاف القراءات ساعد على التوجهات النحوية الكوفية. وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : اهتمام نحاة الكوفة بالسماع والقياس

الفصل الثاني : اهتمام نحاة الكوفة بالقراءات السبع وتسخيرها لنظرياتهم النحوية.

الفصل الثالث : نحو الكوفة نحو يعتمد على السماع ويهتم بما يعرف بالشاهد.

ونرجو أن نكون قد وفقنا وبالله المستعان.

القيروان في 23 جانفي 1994م الموافق لـ 12 شعبان 1414هـ.

الباب الأول :

دور قرّاء الكوفة في النهضة العلميّة واللغويّة

الفصل الأول :

البيئة العلميّة بالكوفة

بسم الله الرحمان الرحيم

المبحث الأوّل : تأسـيـس الكوفـــة

تأسست الكوفة بحلول عهد إسلام متميز، بدأ في العراق بعد منتصف العقد الثاني من الهجرة النبويّة، حين نزل المسلمون الكوفة لأوّل مرّة سنة ستة عشر للهجرة (16هـ)[1]. وتواصل تمصيرها وبناؤها ثلاث سنوات، وقيل أربع سنوات ، سنة سبعة عشر (17هـ)[2]؛ وسنة ثمانية عشر (18هـ)[3]؛ وقيل أيضا سنة تسعة عشر (19هـ)[4].

تم بناء الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبإشارة منه[5]، على يد سعد بن أبي وقاص وأصحابه -رضي الله عنهم-، وهي صنو البصرة تأسست بعدها بسنتين[6]. وتذكر المصادر التاريخيّة أن سعدا بن أبي وقاص هو الذي قام بتخطيط الكوفة بإعانة السائب بن الأقرع بن عوف الثقفي[7] وغيره[8]؛ مراعين في ذلك حسن الموقع وقربها من الصحراء.

1- ابن الأثير عز الدين : الكامل في التاريخ : 259/2 دار الفكر، بيروت، لبنان، 1398هـ/ 1978م .

2- ياقوت الحموي شهاب الدين : معجم البلدان : 490/4. دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1376هـ / 1957م .

3- يذكر اليعقوبي أن المسلمين نزلوا الكوفة سنة 18 هـ -في أوّلها-، واختطوا بها الخطط، وبنوا بها المنازل، ونزلها من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم ثمانون.
أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي :150/2. دار صادر، بيروت، لبنان. د.ت

4- معجم البلدان 491/4 .

5- البلاذري : فتوح البلدان : 387 .مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1407هـ / 1987م .
معجم البلدان 491/4، الطبري ،محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك : 11/5 ، ط1، دار الفكر ، بيروت ، لبنان 1407هـ/1987م ، الكامل في التاريخ : 367/2 .

6- معجم البلدان : 490/4 .

7- صحابي شهد فتح نهاوند مع النعمان بن مقرن، الذي استشهد في نهاوند سنة21هـ.
ابن حجر، أحمد بن علي : الاصابة في تمييز الصحابة. مطبعة مصطفى محمد، مصر 1358هـ/1939م

8- الزبيدي، محمد مرتضي : تاج العروس: 240/6 . ط1 بالمطبعة الخيريّة المنشأة بجماليّة مصر 1306هـ/1848م

والغـرض من تأسيسـهـا هو مـا يتـعلق خـاصّة بأمـر الجند والفـتـوح،لأن هـؤلاء كـانوا قـد نزلوا قـبل ذلك بـالمدائن[9]، ثـم بكويفـة ابن عمر[10]، فلم يلائمهم المكان؛فبعث سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وأخبره الخبر فأرسل إليه :

[إنّ العرب لا يصلحها من البلدان إلاّ ما أصلح الشاة والبعير، فلا تجعل بيني وبينهم بحرا وعليك بالرّيف][11]؛ فاستقر عندها في موضع الكوفة وكان يقال له سورستان[12].

فإذا ما نظرنا إلى موقعها الجغرافي فنجدها على مقربة من الضفّة الغربيّة للفرات الأوسط شرق مدينة الحيرة[13]، على طريق التجارة[14]، لذلك اتجهت الأنظار إليها وهاجر إليها المسلمون من العرب وغيرهم[15].

9- كان فتح المدائن في صفر من سنة ستة عشر للهجرة (16هـ)،وهي السنة الرّابعة من خلافة عمر بن الخطاب، فتحها سعد ودخلها علي بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم.
الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : 1/133-138-141. تحقيق:أوفست كونروغرافير، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

10- موضع قريب من الكوفة. معجم البلدان : 4/496 .

11- نفس المصدر : 4/492 .

12- فتوح البلدان : 271 ، معجم البلدان 4/492 .

13- يقول الحميري : (الحيرة مدينة صغيرة جاهليّة حسنة البناء طيبة الثرى،وكانت فيما سلف أكبر من نظرها بعد ذلك،لأن أكثر أهلها انتقلوا إلى الكوفة).
الحميري : الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 207. ط2 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار السراج ، بيروت ، لبنان 1400هـ / 1980م.

14- مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : 1 ،ط3، دار الرّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، 1406 هـ / 1986م.

15- فيليب حتى : تاريخ العرب : 1/309. ط4 دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،1384هـ/ 1965م.

وهي مشرفة على سهل واسع من فوق جبيل صغير[16] كانوا قد سهلوه،واختطّوا عليه المدينة[17]؛مراعين صحيّة المكان ونقاوة الهواء وخصوبة التربة ووفرة المياه.والكوفة [أرض منحدرة عن الفلاة[18] مرتفعة عن المبقّة* [19]][20] امتدحها محمد بن عمير بن عطارد[21] في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراق[22] بقوله : (إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرّها وعمقها،وسفلت عن الشام ووبائها [وبردها][23]،وجاورها

16- جبل صغير أو هضبة تسمّى كوفان : تاج العروس : 240/6.

17- نفس المصدر : 240/6.

18- الفلاة في اللغة:القفر من الأرض،وهي التي لا ماء فيها.
ابن منظور : لسان العرب : 164/15 . دار الفكر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

* أي ليست كثيرة البق والهوام؛على عكس بعض المناطق الأخرى.
د/ صالح احمد العلي : معالم المدن العراقيّة : 128.ط1،دار الشؤون الثقافية بغداد،العراق 1409هـ/1989م.

19- توجد ناحية يقال لهاالبقة على شط الفرات ، تاريخ اليعقوبى : 208/1.

20- قولة عبد المسيح بن بقيلة لسعد بن أبي وقاص، معجم البلدان : 491/4.

21- هو من أشراف أهل الكوفة وأجوادهم،ولد في عصر النبوّة-على الأرجح-وكان أحد أمراء الجند في وقعة صفين،مع على بن أبي طالب،ووفد بعده على عبد الملك بن مروان.توفي نحو 85 هـ.
ابن حجر العسقلاني : الاصابة : ترجمة : 8535. مطبعة مصطفى محمد ، نشر المكتبة التجاريّة الكبرى ، مصر1358هـ / 1939م.

22- هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن عوف الثقفي، عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان؛ كان الحجّاج يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدّماء.أسس مدينة واسط ... وأخباره كثيرة - أبقاه الوليد بعد وفاة عبد الملك .
ابن خلكان : وفيات الأعيان : 123/1 ←— 126. ط1 أحمد بابي الحلبي، المطبعة الميمنيّة بمصر، (1306هـ).

23- كذا في نسخه مخطوطة من النسخ التي اعتمدها المرحوم محمد محي الدّين عبد الحميد في تحقيقه لمروج الذهب.
المسعودي : مروج الذهب : 159/3.طبعة دار المعرفة ، بتحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، بيروت، لبنان ، د.ت.

الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها)[24]، فضلا عن كونها غزيرة الأمطار كثيرة الجداول،وفيرة العشب،مهيّأة لأن تصبح مصرا كبيرا من الأمصار الإسلاميّة[25] تشد إليه الرّحال،ويتسع لقاصديه،ويتبوّأ منزلة دينية[26]، وعلمية[27]، وسياسيّة[28]؛ تجعل منه قبّة الإسلام،ودار هجرة المسلمين،ومدينة العراق الكبرى[29]؛ تنطلق منها الفتوحات، ويعزّ الله بها الإسلام والمسلمين كما أراد لها ذلك عمر بن الخطاب،حين قال فيها : (الكوفة رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يجزون ثغورهم[30]، ويمدّون الأمصار)[31].

وقد كانت بالفعل مصدر إشعاع العروبة والإسلام،لما تميّزت به من خصوصيّات المدينة العربيّة التي ترقت شيئا فشيئا في عمرانها[32]، من

24- نفس المصدر : 159/3.

25- الأمصار الإسلامية: البصرة،وأسسها عتبة بن غزوان سنة 14هـبإذن من عمر بن الخطاب.

ثانيها : الكوفة،وأسسها سعد بن أبي وقاص سنة 17هـبإذن من عمر الخطاب.
وثالثها : الفسطاط،بأرض الكنانة - مصر-أسسها عمرو بن العاص بإذن من عمر بن الخطاب.
ورابعها : القيروان،وأسسها عقبة بن نافع سنة 51هـ.

26- كانت الكوفة موطن التشيّع،اشتهر بها أعلام في مختلف العلوم الدّينيّة.

27- برع في اللغة الكسائي،وبرع في الفقه وأصوله،أبو حنيفة.

28- كانت عاصمة الإمام على حين تولى الخلافة.

29- تاج العروس 240/6.

30- جزّ : يقال جزّ التمر يجزّ جزوزا أي يبس وأجزّ الغنم حان لها أن تجز.
الثغر : موضع المخافة / وهذه العبارة للخليفة معناها:حماية المسلمين وردّ كيد أعدائهم.
- الجوهري : الصحاح : 156/1.إعداد نديم المرعشلي،وأسامة المرعشلي ، بيروت، لبنان (1975م).

31- ابن سعد : الطبقات الكبرى : 5/6.دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان 1377هـ / 1957م.

32- بنيت بيوت الكوفة أوّل الأمر من القصب. معجم البلدان : 490/4.

البساطة إلى النعومة والترف، فبني المسجد،واستبدلت بيوت القصب باللبن بإذن من عمر بن الخطاب،بعد أن شب حريق ببيوت القصب[33].

وأقامت القبائل العربيّة المهاجرة إلى الكوفة مواطن سكناها بالقرب من المسجد،ووزعت ديارهم حوله[34]، وأصبحت عاصمة عراق العرب الذي يشمل السواد[35] والجزيرة،خلاف البصرة التي كانت عاصمة عراق العجم، يمتد إقليمها شرقا إلى خراسان[36].

33- تاريخ الأمم والملوك : 44/4.

34- سوف يأتي الحديث عن أهم القبائل التي هاجرت إلى الكوفة.

35- قال البغدادي : إنما سمي السواد سوادا،لأنّ العرب حين جاءوا نظروا إلى مثل الليل من النخل والشجر والماء،فسموه سوادا. قال أبو عبيد : كان الأصمعي يتأول في سواد العراق إنما سمّي به للكثرة. وأمّا أنا،فإنما أحسبه للخضرة التي في النخيل، والشجر،والزرع، لأنّ العرب قد تلحق لون الخضرة بالسواد،فتوضع أحدهما موضع الآخر.
تاريخ بغداد : 12/1.

36- د/تمام حسان : الأصول : 30.ط1،الشركة الجديدة، دار الثقافة ،الدّار البيضاء، المغرب الأقصى،1401هـ / 1981م.

المبحث الثاني : سبب تسمية الكوفة

اختلف المؤرخون واللغويون في معنى الكوفة،وتباينت آراؤهم،ولا إجماع من قبلهم على معنى واحد، إلا أنّ المتفق عليه هو أن اللفظة ليست من الدّخيل على اللغة العربيّة على الأرجح.

تطلق كلمة «كوفة» على الرّملة الحمراء[37]، أو الرّملة التي تخالطها الحصباء، ويقال تكوف الرّمل : استدار. وتكوف الناس: اجتمعوا. وقيل معناها : القطعة من البلاد، من قولك : أعطيت فلانا كيفة[38]. ويرى ماسنيون[39] أن أصل التسمية راجع إلى السريانيّة وتحديدا إلى الدّيارات[40]، التي شيدتها عناصر سامية عرفت عندهم بالعاقولا. (ياكيولو)[41] وهو الاسم السرياني للكوفة[42]. وبعد ازدهار الكوفة وظهور مذاهبها العلميّة في النحو والفقه والقراءات، أصبح يقال: كوّف، لمن أتى الكوفة، وتكوّف لمن صار كوفيّا وتعصب لأهلها وذهب مذهبهم[43].

37- الصحاح : 1424/4.

38- معجم البلدان : 491/4.

39- هو لويس ماسينون (Louis Massignon)، مستشرق فرنسي عني بدراسة الحلاّج والتصوف الإسلامي، ولد سنة (1883م)، وتوفي سنة (1962م)، كما ألف أيضا خطط الكوفة، وساهم بالعديد من المقالات في دائرة المعارف الإسلاميّة.
منير البعلبكي / رمزي البعلبكي : معجم اعلام المورد : 409. ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، 1412هـ / 1992م.

40- جمع دير، وهو مكان عبادة وخلوة النصارى .سيأتي تفصيل الحديث عنه.

41- معناها دائرة، أو حلقة في السريانية.
الأستاذ المختار أحمد ديرة : دراسة في النحو الكوفي : 24 . ط1 دار قتيبة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م.

42- دائرة المعارف الاسلامية : 161/8. يصدرها باللغة العربية : احمد الشنتاوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.

43- الزمخشري : أساس البلاغة : 533. دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1385هـ/1965م.

ومهما تتعدد الآراء في التسمية،فهي لا تخرج عن كون الكوفة سميت بذلك إمّا للوصف،وإمّا للفعل[44]. فعادة العرب الفاتحين اختيار تلك التسميات باعتبار غايتهم من التأسيس،أو المظاهر التي ترتبط بالمصر المؤسس؛ سواء كانت طبيعيّة أو تاريخيّة أو غيرها.

وفي تسمية الكوفة ما يتعلق بأرض الكوفة، وفيها ما يتعلق بالغاية من التأسيس حين اجتمع الجند ليروا رأيهم في أمر الموقع والفتوح[45]، أو لعلّ المكان الذي كان قرب الكوفة وأطلق عليه كويفة ابن عمر،قد أوحى إلى المسلمين ببناء موضع كبير، ومصر عظيم،يكون مركزا هامّا؛لأنّ في الكويفة معنى التصغير[46].

44- دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء : 23.

45- لسان العرب : 314/3.

46- نفس المصدر : 314/3.

المبحث الثالث : صلة الكوفة بالمدن والمواضع المجاورة لها*

كانت أرض العراق التي أقيمت على البعض منها مدينة الكوفة خصبة، أرضها طيبة،وماؤها وفير،ومناخها معتدل. ممّا جعلها مهد الحضارات الإنسانية؛تشهد بذلك المعالم العمرانية العراقية عبر العصور، وعلى امتداد مختلف الحضارات. لذلك نجد مدنا عامرة،وقرى صغيرة قرب الكوفة الفتيّة،لا نشك في كونها قد أفادت منها،وورثت بعضها ومن أهمها مدينة الحيرة[47].

أ- الحيرة : هي مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف[48]. -حيث مشهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وهذا الإسم آرامي يطابق الإسم السرياني حرتا، والعبري حاصير،ومعناها لغة المخيم[49]. ثم أصبحت الحيرة علما على المخيم الثابت لأمراء اللخميين؛[50] تحت سيادة الفرس[51]. وقد وصفها

---

* يوجد نوعان من القرى أو المدن التي تفاعلت معها الكوفة؛منها ما أسس في العصور الإسلامية ومنها ما أسس قبل ذلك.

47- قال ياقوت الحموي : سميت الحيرة لأن تبعا الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع،وقال لهم : حيروا به،أي اقيموا به. - معجم البلدان : 328/2.

48- معجم البلدان : 328/2.

49- دائرة المعارف الإسلاميّة : 161/8.

50- يقول ابن منظور : لخم حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهليّة،وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللّخمي؛كانوا نزلوا الحيرة هم وآل المنذر. لسان العرب 539/12.

51- دائرة المعارف الإسلامية : 161/8.

الحميري[52] بقوله : (والحيرة مدينة صغيرة جاهليّة،حسنة البناء،طيبة الثرى؛وكانت فيما سلف أكبر من نظرها بعد ذلك،لأنّ أكثر أهلها انتقلوا إلى الكوفة)[53].

وتعتبر الحيرة ذات أهميّة كبيرة في تاريخ العراق،وتاريخ العرب قديما وحديثا؛لانّها كانت قاعدة دولة المناذرة،التي لعبت دورا كبيرا في بناء جانب من الحضارة العربيّة،قبل مجيء الإسلام،بعد توحيد العراق وضبط حدوده[54]. ويذكر المؤرخون أن ملوك العرب كانوا قد تنصّروا في آخر أيّامهم[55]، وأكبر ما يدل على ذلك الأديرة[56] التي أقيمت في الحيرة،وفي المناطق المجاورة لها؛ومن أشهرها : دير هند[57] بنت النعمان بن المنذر[58]. فاشتهرت الحيرة وأصبحت أديرتها مصدر أخبار

52- هو الأستاذ الحافظ محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، من أهل سبته،توفي على الأرجح سنة:749 هـ.
- الروض المعطار : مقدمة المحقق ص : ز- ي.

53- الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 207.

54- معالم العراق العمرانيّة : 9.

55- تاريخ العرب : 112/1.

56- لا يخلو الدّير من خزانة كتب،يجد الرّهبان ما ينشدون فيها من تآليف متنوعة، دينيّة،وأدبيّة،وعلميّة مختلفة.
(انظر لمزيد الايضاح:مقدمة المحقق:كوركيس عوّاد لكتاب الدّيارات للشابشتي : 49)

57- وهي هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر،ابن امرئ القيس اللخميّة ، نبيلة،فصيحة، ولدت ونشأت في بيت الملك بالحيرة، ترهبت بعد موت أبيها،وأقامت في دير بنته بين الحيرة والكوفة،عرف بدير هند الصغرى.عمّرت طويلا وماتت في ديرها نحو 74هـ.
- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني : 2/ 107-108-109. ط3،دار الثقافة بيروت ،لبنان ، 1391هـ / 1971م.

58- هو النعمان (الثالث)ابن المنذر (الرّابع)،ابن منذر بن امرئ القيس اللخمي ابو قابوس؛ من أشهر ملوك الحيرة في الجاهليّة. ملك الحيرة إرثا عن أبيه،نحو سنة، 592 م،توفي نحو سنة(15ق هـ).
الكامل في التاريخ : 171/1-173.

العرب،ومصدر العلم بأنسابهم.[59] راجت بها أيضا صناعة الكتابة،ومنها انتشرت في جزيرة العرب[60].

كما تعتبر الحيرة محطة علميّة،وأدبيّة هامّة،وفد عليها عدد كبير من شعراء العرب،خاصّة في فترة المناذرة اللّخميين،الذين أدركوا بأن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرّأي العام بين العرب،يقومون بالدّعاية لمن يكرمهم من أصحاب الملك[61]. واليعقوبي يقول في ذلك : (وكانت شعراء الجاهليّة تفد عليهم -أي آل المنذر اللخميين- مثل الأعشى[62]، والنابغة[63]، وعبيد بن الأبرص[64]، وبشر بن أبي خازم[65]، وعمرو بن كلثوم[66]، والحارث بن

59- تاريخ العرب : 107/1.

60- دائرة المعارف الإسلاميّة : 161/8.

61- تاريخ العرب : 111/1.

62- هو الشاعر الجاهلي المشهور، احد اصحاب المعلقات السبع عند بعض الرّواة،اسمه ميمون بن قيس،توفي(7 ق هـ)/ 629 م.
- ابن قتيبة الدّينوري : الشعر والشعراء : 111 . ط2 تـ : د/مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان، 1405هـ / 1985م .

63- النابغة الذبياني لقب زياد بن معاوية،لقب بذلك لنبوغه في الشعر،إذ كان مقصد الشعراء فيعرضون عليه الشعر. - الشعر والشعراء : 88.

64- هو عبيد بن الأبرص بن عوف الأسدي،من مضر،ابو زياد.شاعر من الجاهليّة وحكمائها؛ قتله النعمان بن المنذر نحو سنة(25 ق هـ) من اصحاب الجمهرات، المعدودات طبقة ثانية عن المعلقات؛ عاصر امرئ القيس. - الشعر والشعراء : 84.

65- بشر بن أبي خازم،عمرو بن عوف الاسدي ؛ شاعر جاهلي فحل من أهل نجد،له قصائد جيدة في الفخر والحماسة،وله ديوان شعر طبع. توفى نحو:22 ق هـ/ 598 م.- الشعر والشعراء : 86.

66- عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، من اشهر شعره؛معلقته التي مطلعها : الا هبي بصحنك فاصبحينا.... توفي نحو(40 ق هـ)/ 584 م.
تاريخ الإسلام : الذهبي : 287/5-289 . مكتبة القدسي، مطبعة السعادة، مصر (1368هـ)

67- هو الحارثة بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي : شاعر جاهلي من أهل بادية العراق وهو أحد أصحاب المعلقات. جمع بها كثيرا من أخبار العرب ووقائعهم توفي نحو(50 ق هـ)/ 570 م . - الشعر والشعراء : 53.

حـلـزة[67]، والمتلمس[68]، وطرفة[69]، وغيرهم.)[70] والملاحظ أن من بين هؤلاء الشعراء أصحاب المعلقات[71]؛ وما بقاء شعرهم يروى إلى يوم النّاس هذا، إلاّ حسنة من حسنات الحيرة، التي تعدّ أوّل من دون الشعر.[72] كما تعكس هذه الحقائق التاريخيّة أهميّة الحيرة، ورفعة منزلتها، في تاريخ العرب قبل الإسلام، وفي تشكيل بواكير الحضارة العربيّة، بأبعادها الثقافية المتميّزة. ولذلك لم تخل الحيرة من مظاهر العمران الرّاقي، ففي «الخورنق»[73] شيّد اللّخميون قصرا كان آية في فن العمارة، عدّ وحصنا قرب الحيرة أيضا من عجائب الدّنيا.[74] هذا عدا القصور التي شيدها

67- هو الحارثة بن حلزة بن مكروه، بن يزيد اليشكري الوائلي ؛ شاعر جاهلي من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات. جمع بها كثيرا من أخبار العرب ووقائعهم، توفي نحو(50 ق هـ)/ 570 م . - الشعر والشعراء : 53.

68- هو جرير بن عبد العزى، أو عبد المسيح من بني ضبيعة، من ربيعة، شاعر جاهلي من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد، له ديوان شعر طبع. توفي نحو: (50 ق هـ)/ 569 م.
الشعر والشعراء : 52.

69- هو طرفة بن العبد، بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ولد في البحرين في باديتها، وتنقل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في ندمائه. أشهر شعره معلقته.
الشعر والشعراء : 49.

70- تاريخ اليعقوبي : الرّوض المعطار للحميري : 106.

71- المعلقات أو المذهبات، هي أوّل ما وصل إلينا من قصائد الشعر العربي، قيل أصحابها سبعة وقيل عشرة.
- د/اميل يعقوب، د/ميشيل عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب : 1170-1169/2

72- الروّض المعطار في خبر الأقطار : 106.

73- «الخورنق» هو موضع قرب الحيرة، وسمي به قصر كان بظهر الحيرة بالقرب منها ممّا يلي الشرق، على نحو ميل، وهو مقابل الفرات، يدور علي عاقول كالخندق ويرجع إلى عهد المناذرة. أضيفت إليه في العهد الإسلامي عدة إضافات، وتردد ذكره في الشعر العربي.
معجم البلدان : 375/2.

74- دائرة المعارف الإسلاميّة : 36/9.

العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

الباب الأول :

دور قرّاء الكوفة في النهضة العلميّة واللغويّة

الفصـل الأول :

البيئة العلميّة بالكوفة

بسم الله الرحمان الرحيم

المبحث الأوّل : تأسيس الكوفة

تأسست الكوفة بحلول عهد إسلام متميز، بدأ في العراق بعد منتصف العقد الثاني من الهجرة النبويّة، حين نزل المسلمون الكوفة لأوّل مرّة سنة ستة عشر للهجرة (16هـ)[1]. وتواصل تمصيرها وبناؤها ثلاث سنوات، وقيل أربع سنوات ، سنة سبعة عشر (17هـ)[2]؛ وسنة ثمانية عشر (18هـ)[3]؛ وقيل أيضا سنة تسعة عشر (19هـ)[4].

تم بناء الكوفة في خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبإشارة منه[5]، على يد سعد بن أبي وقاص وأصحابه -رضي الله عنهم-، وهي صنو البصرة تأسست بعدها بسنتين[6]. وتذكر المصادر التاريخيّة أن سعدا بن أبي وقاص هو الذي قام بتخطيط الكوفة بإعانة السائب بن الأقرع بن عوف الثقفي[7] وغيره[8]؛ مراعين في ذلك حسن الموقع وقربها من الصحراء.

1- ابن الأثير عز الدين : الكامل في التاريخ : 259/2 دار الفكر، بيروت، لبنان، 1398هـ/ 1978م .

2- ياقوت الحموي شهاب الدين : معجم البلدان : 490/4. دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1376هـ / 1957م .

3- يذكر اليعقوبي أن المسلمين نزلوا الكوفة سنة 18 هـ -في أوّلها-، واختطوا بها الخطط، وبنوا بها المنازل، ونزلها من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم ثمانون.
أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي: 150/2. دار صادر، بيروت، لبنان. د.ت

4- معجم البلدان 491/4.

5- البلاذري : فتوح البلدان : 387 .مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1407هـ / 1987م .
معجم البلدان 491/4، الطبري ،محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك : 11/5 ، ط1، دار الفكر ، بيروت ، لبنان 1407هـ/1987م ، الكامل في التاريخ : 367/2.

6- معجم البلدان : 490/4 .

7- صحابي شهد فتح نهاوند مع النعمان بن مقرن، الذي استشهد في نهاوند سنة21هـ.
ابن حجر، أحمد بن علي : الاصابة في تمييز الصحابة. مطبعة مصطفى محمد، مصر 1358هـ/1939م

8- الزبيدي، محمد مرتضي :تاج العروس: 240/6 . ط1 بالمطبعة الخيريّة المنشأة بجماليّة مصر 1306هـ/1848م

والغـرض من تأسيـسـهـا هو مـا يتـعـلق خـاصّة بأمـر الجند والفـتـوح،لأن هـؤلاء كـانوا قـد نزلوا قـبل ذلك بـالمدائن[9]، ثـم بكويفـة ابن عمر[10]، فلم يلائمهم المكان؛فبعث سعد بن أبي وقاص إلى عـمر بن الخطاب وأخبره الخبر فأرسل إليه :

[إنّ العرب لا يـصلحها من البلدان إلاّ ما أصلح الشـاة والبعير، فلا تجـعل بيني وبينهم بحـرا وعليك بالرّيف][11]؛ فاستقر عنـدها في موضع الكوفة وكان يقال له سورستان[12].

فإذا مـا نظرنا إلى موقعـها الجغرافي فنجدها على مقربة من الضـفّة الغـربيّة للفـرات الأوسط شـرق مـدينة الحـيـرة[13]؛ علـى طريق التجارة[14]، لذلك اتجهت الأنظار إليها وهاجـر إليها المسلمون من العـرب وغيرهم[15].

9- كان فتح المدائن في صفر من سنة ستة عشر للهجرة (16هـ)،وهي السنة الرّابعة من خلافة عمر بن الخطاب. فتحها سعد ودخلها علي بن أبي طالب والحسن والحسين رضي الله عنهم.
الخطيب البـغدادي : تاريخ بغداد : 133/1-138-141. تحقيق:أوفست كونروغرافير، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

10- موضع قريب من الكوفة. معجم البلدان : 496/4.

11- نفس المصدر : 492/4.

12- فتوح البلدان : 271 ، معجم البلدان 492/4.

13- يقول الحميري : (الحيرة مدينة صغيرة جاهليّة حسنة البناء طيبة الثرى،وكانت فيما سلف أكبر من نظرها بعد ذلك،لأن أكثر أهلها انتقلوا إلى الكوفة).
الحميري : الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 207. ط2 ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار السراج ، بيروت ، لبنان 1400هـ / 1980م.

14- مهدي المخزومي : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : 1 ،ط3، دار الرّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، 1406 هـ / 1986م.

15- فيليب حتي : تاريخ العرب : 309/1. ط4 دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، لبنان ،1384هـ/ 1965م.

وهي مشرفة على سهل واسع من فوق جبيل صغير[16] كانوا قد سهلوه،واختطوا عليه المدينة[17]؛مراعين صحيّة المكان ونقاوة الهواء وخصوبة التربة ووفرة المياه.والكوفة [أرض منحدرة عن الفلاة[18] مرتفعة عن المبقّة* [19]] [20]؛ امتدحها محمد بن عمير بن عطارد[21] في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراق[22] بقوله : (إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرّها وعمقها،وسفلت عن الشام ووبائها [وبردها][23]،وجاورها

16- جبل صغير أو هضبة تسمّى كوفان : تاج العروس : 240/6.

17- نفس المصدر : 240/6.

18- الفلاة في اللغة:القفر من الأرض،وهي التي لا ماء فيها.
ابن منظور : لسان العرب : 164/15 . دار الفكر ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، د.ت.

* أي ليست كثيرة البق والهوام؛على عكس بعض المناطق الأخرى.
د/ صالح احمد العلي : معالم المدن العراقيّة : 128.ط1،دار الشؤون الثقافية بغداد،العراق 1409هـ/1989م.

19- توجد ناحية يقال لها المبقة على شط الفرات ، تاريخ اليعقوبى : 208/1.

20- قولة عبد المسيح بن بقيلة لسعد بن أبي وقاص، معجم البلدان : 491/4.

21- هو من اشراف أهل الكوفة وأجوادهم،ولد في عصر النبوّة-على الأرجح-وكان أحد أمراء الجند في وقعة صفين،مع علي بن أبي طالب،ووفد بعده على عبد الملك بن مروان.توفي نحو 85 هـ.
ابن حجر العسقلاني : الاصابة : ترجمة : 8535. مطبعة مصطفى محمد ، نشر المكتبة التجاريّة الكبرى ، مصر1358هـ / 1939م.

22- هو أبو محمد الحجّاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن عوف الثقفي، عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان؛ كان الحجّاج يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدّماء.أسس مدينة واسط ... وأخباره كثيرة . أبقاه الوليد بعد وفاة عبد الملك .
ابن خلكان : وفيات الأعيان : 123/1 ←— 126. ط1 أحمد بابي الحلبي، المطبعة الميمنيّة بمصر، (1306هـ).

23- كذا في نسخه مخطوطة من النسخ التي اعتمدها المرحوم محمد محي الدّين عبد الحميد في تحقيقه لمروج الذهب.
المسعودي : مروج الذهب : 159/3.طبعة دار المعرفة ، بتحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، بيروت، لبنان ، د.ت.

الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها)[24]، فضلا عن كونها غزيرة الأمطار كثيرة الجداول،وفيرة العشب،مهيّأة لأن تصبح مصرا كبيرا من الأمصار الإسلاميّة[25] تشد إليه الرّحال،ويتسع لقاصديه،ويتبوّأ منزلة دينية[26]، وعلمية[27]، وسياسيّة[28]؛ تجعل منه قبّة الإسلام،ودار هجرة المسلمين،ومدينة العراق الكبرى[29]؛ تنطلق منها الفتوحات، ويعزّ الله بها الإسلام والمسلمين كما أراد لها ذلك عمر بن الخطاب،حين قال فيها : (الكوفة رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يجزون ثغورهم[30]، ويمدّون الأمصار)[31].

وقد كانت بالفعل مصدر إشعاع العروبة والإسلام،لما تميّزت به من خصوصيّات المدينة العربيّة التي ترقت شيئا فشيئا في عمرانها[32]، من

24- نفس المصدر : 159/3.

25- الأمصار الإسلامية: البصرة،وأسسها عتبة بن غزوان سنة 14هـبإذن من عمر بن الخطاب.

ثانيها : الكوفة،وأسسها سعد بن أبي وقاص سنة 17هـبإذن من عمر الخطاب.
وثالثها : الفسطاط،بأرض الكنانة - مصر-أسسها عمرو بن العاص بإذن من عمر بن الخطاب.
ورابعها : القيروان،وأسسها عقبة بن نافع سنة 51هـ.

26- كانت الكوفة موطن التشيّع،اشتهر بها أعلام في مختلف العلوم الدّينيّة.

27- برع في اللغة الكسائي،وبرع في الفقه وأصوله،أبو حنيفة.

28- كانت عاصمة الإمام على حين تولى الخلافة.

29- تاج العروس 240/6.

30- جزّ : يقال جزّ التمر يجزّ جزوزا أي يبس وأجزّ الغنم حان لها أن تجز.
الثغر : موضع المخافة / وهذه العبارة للخليفة معناها:حماية المسلمين وردّ كيد أعدائهم.
- الجوهري : الصحاح : 156/1.إعداد نديم المرعشلي،وأسامة المرعشلي ، بيروت، لبنان (1975م).

31- ابن سعد : الطبقات الكبرى : 5/6.دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان 1377هـ / 1957م.

32- بنيت بيوت الكوفة أوّل الأمر من القصب. معجم البلدان : 490/4.

البساطة إلى النعومة والترف، فبني المسجد،واستبدلت بيوت القصب باللبن بإذن من عمر بن الخطاب،بعد أن شب حريق ببيوت القصب[33].

وأقامت القبائل العربيّة المهاجرة إلى الكوفة مواطن سكناها بالقرب من المسجد،ووزعت ديارهم حوله[34]، وأصبحت عاصمة عراق العرب الذي يشمل السواد[35] والجزيرة،خلاف البصرة التي كانت عاصمة عراق العجم، يمتد إقليمها شرقا إلى خراسان[36].

33- تاريخ الأمم والملوك : 44/4.

34- سوف يأتي الحديث عن أهم القبائل التي هاجرت إلى الكوفة.

35- قال البغدادي : إنما سمي السواد سوادا،لأنّ العرب حين جاءوا نظروا إلى مثل الليل من النخل والشجر والماء،فسموه سوادا. قال أبو عبيد : كان الأصمعي يتأول في سواد العراق إنما سمّي به للكثرة. وأمّا أنا،فإنما أحسبه للخضرة التي في النخيل، والشجر،والزرع، لأنّ العرب قد تلحق لون الخضرة بالسواد،فتوضع أحدهما موضع الآخر.
تاريخ بغداد : 12/1.

36- د/تمام حسان : الأصول : 30.ط1،الشركة الجديدة، دار الثقافة ،الدّار البيضاء، المغرب الأقصى،1401هـ / 1981م.

المبحث الثاني : سبب تسمية الكوفة

اختلف المؤرخون واللغويون في معنى الكوفة،وتباينت آراؤهم،ولا إجماع من قبلهم على معنى واحد، إلا أنّ المتفق عليه هو أن اللفظة ليست من الدّخيل على اللغة العربيّة على الأرجح.

تطلق كلمة «كوفة» على الرّملة الحمراء[37]، أو الرّملة التي تخالطها الحصباء ، ويقال تكوف الرّمل : استدار. وتكوف الناس: اجتمعوا. وقيل معناها : القطعة من البلاد، من قولك : أعطيت فلانا كيفة[38]. ويرى ماسنيون[39] أن أصل التسمية راجع إلى السريانيّة وتحديدا إلى الدّيارات[40]، التي شيدتها عناصر سامية عرفت عندهم بالعاقولا. (ياكيولو)[41] وهو الاسم السرياني للكوفة[42]. وبعد ازدهار الكوفة وظهور مذاهبها العلميّة في النحو والفقه والقراءات، أصبح يقال: كوّف، لمن أتى الكوفة، وتكوّف لمن صار كوفيّا وتعصب لأهلها وذهب مذهبهم[43].

37- الصحاح : 1424/4 .

38- معجم البلدان : 491/4.

39- هو لويس ماسينون (Louis Massignon)، مستشرق فرنسي عني بدراسة الحلاّج والتصوف الإسلامي، ولد سنة (1883م)، وتوفي سنة (1962م)، كما ألف أيضا خطط الكوفة، وساهم بالعديد من المقالات في دائرة المعارف الإسلاميّة.
منير البعلبكي / رمزي البعلبكي : معجم اعلام المورد : 409. ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، 1412هـ / 1992م.

40- جمع دير، وهو مكان عبادة وخلوة النصارى .سيأتي تفصيل الحديث عنه.

41- معناها دائرة، أو حلقة في السريانية.
الأستاذ المختار أحمد ديرة : دراسة في النحو الكوفي : 24 . ط1 دار قتيبة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان، 1411هـ/1991م.

42- دائرة المعارف الاسلامية : 161/8 . يصدرها باللغة العربية : احمد الشنتاوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس.

43- الزمخشري : أساس البلاغة : 533. دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1385هـ/1965م.

ومهما تتعدد الآراء في التسمية،فهي لا تخرج عن كون الكوفة سميت بذلك إمّا للوصف،وإمّا للفعل[44]. فعادة العرب الفاتحين اختيار تلك التسميات باعتبار غايتهم من التأسيس،أو المظاهر التي ترتبط بالمصر المؤسس؛ سواء كانت طبيعيّة أو تاريخيّة أو غيرها.

وفي تسمية الكوفة ما يتعلق بأرض الكوفة، وفيها ما يتعلق بالغاية من التأسيس حين اجتمع الجند ليروا رأيهم في أمر الموقع والفتوح[45]، أو لعلّ المكان الذي كان قرب الكوفة وأطلق عليه كويفة ابن عمر، قد أوحى إلى المسلمين ببناء موضع كبير، ومصر عظيم،يكون مركزا هامّا،لأنّ في الكويفة معنى التصغير[46].

44- دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء : 23.

45- لسان العرب : 314/3.

46- نفس المصدر : 314/3.

المبحث الثالث : صلة الكوفة بالمدن والمواضع المجاورة لها*

كانت أرض العراق التي أقيمت على البعض منها مدينة الكوفة خصبة، أرضها طيبة،وماؤها وفير،ومناخها معتدل. ممّا جعلها مهد الحضارات الإنسانية؛تشهد بذلك المعالم العمرانية العراقية عبر العصور، وعلى امتداد مختلف الحضارات. لذلك نجد مدنا عامرة،وقرى صغيرة قرب الكوفة الفتيّة،لا نشك في كونها قد أفادت منها،وورثت بعضها ومن أهمها مدينة الحيرة[47].

أ- **الحيرة** : هي مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف[48]. -حيث مشهد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وهذا الإسم آرامي يطابق الإسم السرياني حرتا، والعبري حاصير،ومعناها لغة المخيم[49]. ثم أصبحت الحيرة علما على المخيم الثابت لأمراء اللخميين[50]؛ تحت سيادة الفرس[51]. وقد وصفها

---

* يوجد نوعان من القرى أو المدن التي تفاعلت معها الكوفة؛منها ما أسس في العصور الإسلامية ومنها ما أسس قبل ذلك.

47- قال ياقوت الحموي : سميت الحيرة لأن تبعا الأكبر لما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك الموضع،وقال لهم : حيروا به،أي اقيموا به. - معجم البلدان : 328/2.

48- معجم البلدان : 328/2.

49- دائرة المعارف الإسلاميّة : 161/8.

50- يقول ابن منظور : لخم حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهليّة،وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللّخمي؛كانوا نزلوا الحيرة هم وآل المنذر. لسان العرب 539/12.

51- دائرة المعارف الإسلامية : 161/8.

الحميري[52] بقوله : (والحيرة مدينة صغيرة جاهليّة،حسنة البناء،طيبة الثرى؛وكانت فيما سلف أكبر من نظرها بعد ذلك،لأنّ أكثر أهلها انتقلوا إلى الكوفة)[53].

وتعتبر الحيرة ذات أهميّة كبيرة في تاريخ العراق،وتاريخ العرب قديما وحديثا؛لانّها كانت قاعدة دولة المناذرة،التي لعبت دورا كبيرا في بناء جانب من الحضارة العربيّة،قبل مجيء الإسلام،بعد توحيد العراق وضبط حدوده[54]. ويذكر المؤرخون أن ملوك العرب كانوا قد تنصّروا في آخر أيّامهم[55]، وأكبر ما يدل على ذلك الأديرة[56] التي أقيمت في الحيرة،وفي المناطق المجاورة لها،ومن أشهرها : دير هند[57] بنت النعمان بن المنذر[58]. فاشتهرت الحيرة وأصبحت أديرتها مصدر أخبار

52- هو الأستاذ الحافظ محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، من أهل سبته،توفي على الأرجح سنة:749 هـ.
- الروض المعطار : مقدمة المحقق ص : ز- ي.

53- الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 207.

54- معالم العراق العمرانيّة : 9.

55- تاريخ العرب : 112/1.

56- لا يخلو الدّير من خزانة كتب،يجد الرّهبان ما ينشدون فيها من تآليف متنوعة، دينيّة،وأدبيّة،وعلميّة مختلفة.
(انظر لمزيد الايضاح:مقدمة المحقق:كوركيس عوّاد لكتاب الدّيارات للشابشتي : 49)

57- وهي هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر،ابن امرئ القيس اللخميّة • نبيلة،فصيحة، ولدت ونشأت في بيت الملك بالحيرة، ترهبت بعد موت أبيها،وأقامت في دير بنته بين الحيرة والكوفة،عرف بدير هند الصغرى.عمّرت طويلا وماتت في ديرها نحو 74هـ.
- أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني : 2/ 107-108-109. ط3،دار الثقافة بيروت ،لبنان ، 1391هـ / 1971م.

58- هو النعمان (الثالث)ابن المنذر (الرّابع)،ابن منذر بن امرئ القيس اللخمي ابو قابوس؛ من أشهر ملوك الحيرة في الجاهليّة. ملك الحيرة إرثا عن أبيه،نحو سنة، 592 م،توفي نحو سنة(15ق هـ).
الكامل في التاريخ : 171/1-173.

العرب،ومصدر العلم بأنسابهم.[59] راجت بها أيضا صناعة الكتابة،ومنها انتشرت في جزيرة العرب[60].

كما تعتبر الحيرة محطة علميّة،وأدبيّة هامّة،وفد عليها عدد كبير من شعراء العرب،خاصّة في فترة المناذرة اللّخميين،الذين أدركوا بأن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرّأي العام بين العرب،يقومون بالدّعاية لمن يكرمهم من أصحاب الملك[61]. واليعقوبي يقول في ذلك : (وكانت شعراء الجاهليّة تفد عليهم -أي آل المنذر اللخميين- مثل الأعشى[62]، والنابغة[63]، وعبيد بن الأبرص[64]، وبشر بن أبي خازم[65]، وعمرو بن كلثوم[66]، والحارث بن

59- تاريخ العرب : 107/1.

60- دائرة المعارف الإسلاميّة : 161/8.

61- تاريخ العرب : 111/1.

62- هو الشاعر الجاهلي المشهور، احد اصحاب المعلقات السبع عند بعض الرّواة،اسمه ميمون بن قيس،توفي(7 ق هـ)/ 629 م.
- ابن قتيبة الدّينوري : الشعر والشعراء : 111 . ط2 تـ : د/مفيد قميحة، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان، 1405هـ / 1985م .

63- النابغة الذبياني لقب زياد بن معاوية،لقب بذلك لنبوغه في الشعر،إذ كان مقصد الشعراء فيعرضون عليه الشعر. - الشعر والشعراء : 88.

64- هو عبيد بن الأبرص بن عوف الأسدي،من مضر،ابو زياد.شاعر من الجاهليّة وحكمائها؛ قتله النعمان بن المنذر نحو سنة(25 ق هـ) من أصحاب المجمهرات، المعدودات طبقة ثانية عن المعلقات؛ عاصر امرئ القيس. - الشعر والشعراء : 84.

65- بشر بن أبي خازم،عمرو بن عوف الاسدي ؛ شاعر جاهلي فحل من أهل نجد،له قصائد جيدة في الفخر والحماسة،وله ديوان شعر طبع. توفى نحو:22 ق هـ/ 598 م.- الشعر والشعراء : 86.

66- عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، من اشهر شعره؛معلقته التي مطلعها : الا هبي بصحنك فاصبحينا.... توفي نحو(40 ق هـ)/ 584 م.
تاريخ الإسلام : الذهبي : 287/5-289 . مكتبة القدسي، مطبعة السعادة، مصر (1368هـ)

67- هو الحارثة بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي : شاعر جاهلي من أهل بادية العراق وهو أحد أصحاب المعلقات. جمع بها كثيرا من أخبار العرب ووقائعهم توفي نحو(50 ق هـ)/ 570 م . - الشعر والشعراء : 53.

حـــلـــزة[67]، والمتلمس[68]، وطرفـة[69]، وغيـرهم.)[70] والملاحـظ أن من بـين هؤلاء الشعـراء أصحـاب المعلقات[71]؛ ومـا بقـاء شـعـرهـم يروى إلى يوم النّاس هذا، إلاّ حسنة من حسنات الحيرة.التي تعدّ أوّل من دون الشعر.[72] كما تعكس هذه الحقائق التاريخيّة أهميّة الحيرة،ورفعة منزلتها،في تاريخ العرب قبل الإسلام،وفي تشكيل بواكير الحضارة العربيّة،بأبعادها الثقافية المتميّزة. ولذلك لم تخل الحيـرة من مظاهر العمـران الرّاقي، ففي «الخورنق»[73] شيّد اللّخميـون قصرا كان آية في فن العمارة،عدّ وحصنا قرب الحيـرة أيضا من عـجائب الدّنيا.[74] هذا عدا القصور التي شيدها

67- هو الحارثة بن حلزة بن مكروه،بن يزيد اليشكري الوائلي ؛ شاعر جاهلي من أهل بادية العراق،وهو أحد أصحاب المعلقات. جمع بها كثيرا من أخبار العرب ووقائعهم،توفي نحو(50 ق هـ)/ 570 م . - الشعر والشعراء : 53.

68- هو جرير بن عبد العزى،أو عبد المسيح من بني ضبيعة، من ربيعة، شاعر جاهلي من أهل البحرين،وهو خال طرفة بن العبد، له ديوان شعر طبع.توفي نحو: (50 ق هـ)/ 569 م.
الشعر والشعراء : 52.

69- هو طرفة بن العبد،بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمرو.شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ولد في البحرين في باديتها،وتنقل في بقاع نجد،واتصل بالملك عمرو بن هند،فجعله في ندمائه. أشهر شعره معلقته.
الشعر والشعراء : 49.

70- تاريخ اليعقوبي : الرّوض المعطار للحميري : 106.

71- المعلقات أو المذهبات،هي اوّل ما وصل إلينا من قصائد الشعر العربي، قيل أصحابها سبعة وقيل عشرة.
- د/اميل يعقوب، د/ميشيل عاصي : المعجم المفصل في اللغة والأدب : 1169/2-1170

72- الروّض المعطار في خبر الأقطار : 106.

73- «الخورنق» هو موضع قرب الحيرة،وسمي به قصر كان بظهر الحيرة بالقرب منها ممّا يلي الشرق،على نحو ميل،وهو مقابل الفرات،يدور على عاقول كالخندق ويرجع إلى عهد المناذرة. أضيفت إليه في العهد الاسلامي عدة إضافات،وتردد ذكره في الشعر العربي.
معجم البلدان : 375/2.

74- دائرة المعارف الإسلاميّة : 36/9.

العـــديد من الأثـرياء[75]. وقـد قـام بعض خلفـاء العبّاسـيين بتـوسـيع قـصـر «الخورنق»،لما أعجبوا من جماله وروعته. كما أنّ بعض الخلفاء زار الحيرة، وأقام فيهـا لطيب هوائهـا،وصفـاء جوّهـا،وعـذوبة مـائهـا[76]. ويظهـر أن القبـائل العـربيّة قد هاجـر العديد منهـا إلى الحيـرة قبل مـجيء الإسلام؛ فنجد فيها عربا من قبيلة [مذحج[77]، ومن قبيلـة حمير[78]، وطـي[79]، وكلب[80] وتميم[81]][82] . وازداد عـدد هـؤلاء بعـد الفـتح الإسـلامـي[83]، وانتـقلـوا إلى

75- كـان لبني بقيلة مثلا،قصر على ملك عبد المسيح بن بقيلة الغسـاني. الدّيارات : 154. ط2 منشـورات مكتبـة المثنى، مطبـعـة المعـارف ببـغـداد ، العـراق ، 1386هـ / 1966م

76- مروج الذّهب : 104/2.

77- يقـول ابن منظور : مـذحج ، أبو قـبيلة مـن اليمن،وهو مـذحج بن يحـابر،بن مـالك ابن زيد،بن كهلان بن سبأ.
لسان العرب : 364/2.

78- حمـير: بطن عظيم من القحطانيّة، ينتسب إلى حمير بن سبأ،بن يشجب،بن يعرب، بن قحطـان، واسم حمـير العرنج. قـال الهمداني : (حمـير في قحطان ثلاثة : الأكبر والأصغر والأدنى).
- عمر رضا كحالة : معجم القبـائل العربيّة : 305/1-306. ط5، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، 1405هـ / 1985م.

79- طي : قبيلة قحطانيّة قديمة خرج أسلافها من جبل أجأ وسلمى المعروفين قديما باسم جبلي طيء،ثم باسم جبلي شمر، بعد أن استولت عليها شمر وأزاحت قبيلة طيء منها. معجم القبائل العربيّة 688/2.

80- كَلب : بطن من خثعم،من أنمار بن أراش من القحطانيّة، كانت مسـاكنه بالحجاز ـ هذا ما يرجح ـ وانظر مزيد التفصيل:مادة كلب .
معجم القبائل العربيّة 990/3-991.

81- تميم : بطون عربيّة عديدة،قيل:هي فرع من بني عمر، من سفيان،من ثقيف.وقيل غير ذلك.
معجم القبائل العربيّة 124/1-133.

82- معجم البلدان : 378/2.

83- يذكر الدّكتور فيليب حتّى أن عدد سكان الكوفة والبصرة في أوّل عهودهما،قد فاق المائة ألف نفس لكلّ واحدة منهما. تاريخ العرب : 309/1.

الكوفة التي ورثت الحيرة[84]، وأفادت من ميراثها بعد أن خربت ولم يزل عمرانها يتناقص، منذ بنيت الكوفة إلى أيّام المعتضد.[85] يقول الحميري : (ولم يزل عمران الحيرة يتناقص، منذ بنيت الكوفة إلى أيّام المعتضد، فإنّه استولى عليها الخراب؛ وكان فيها ديارات كثيرة ورهبان، لحقوا بغيرها من البلاد لاستيلاء الخراب عليها)[86].

إنّ بقاء الحيرة عامرة منذ الفتح الإسلامي إلى آخر أيام المعتضد، يفسر بكونها كانت متنفسا لبعض المقيمين بالكوفة وبغيرها من المناطق المجاورة، فهي مركز لهو وتحرر، بسبب وجود المسيحيين ودياراتهم[87]، التي لا يخلو من وسائل اللهو.[88] ولا نشك في أن استمرار الصلة بين الكوفة والحيرة إلى فترة متأخرة، قد جعل العرب المسلمين يأخذون، مع إضفاء البعد الإسلامي

84- يقول الحميري : (وكانت مدّة الحيرة من أوّل وقت عمارتها إلى أوّل خرابها عند بناء الكوفة، خمسمائة سنة وَبضعا وثلاثين سنة) .
الروّض المعطار فى خبر الأقطار : 208

85- هو المعتضد بالله، أحمد أبو العبّاس، ابن ولي العهد الموفق، طلحة بن المتوكل، بن المعتصم، بن الرّشيد. ولد سنة: ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة (857 م)، بويع المعتضد بالخلافة في سنة: تسع وسبعين ومائتين (279 هـ)، توفي المعتضد-على الأرجح-سنة: تسع وثمانين ومائتين للهجرة (902 م).
السيوطي : تاريخ الخلفاء : 430. دار الجيل، بيروت ، لبنان ، 1408هـ/ 1988م.

86- الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 208.

87- تختلف الدّيارات باختلاف مواضعها، فمنها ما تسنم قمم الجبال، أو ما توسد ضفاف الأنهار، ومنها مااقترب من المدن والأرياف، أو ماانفرد في البراري والقفار؛ ولا يرى دير من الدّيارات إلاّ وهو محصن بسور مكين شاهق، يدفع عنه شر الهجمات ويقيه غائلة المعتدين عليه... ويشترط في كلّ دير كنيسة يصلي فيها الدّيرانيون، كما يشترط فيه أن يحتوي على صوامع تستوعب من فيه من رهبان.
الشابشتي : الدّيارات : : 49، تحقيق : كوركيس عواد، ط2، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ، مطبعة المعارف بغداد، 1386هـ / 1966م.

88- يقول الشابشتي : (هذه الدّيارات بالنجف بظاهر الكوفة-وهو أوّل الحيرة-وهي قباب وقصور تسمى ديارات الأساقف) .
الدّيارات : 236.

على ما يؤخذ،دون حرج أو كلفة. فلم يغفلوا عن أخبار العرب قبل الإسلام،ولم يغفلوا عن نقل أشعارهم وتدوينها، -كما سلف ذكره- ومن ثم اعتمادها في اللغة وفي الدّراسات القرآنيّة عموما؛ ومن ثم تأخذ المسألة بعدا دينيّا شرعيّا،لأنّ الإسلام قد حث على حفظ اللغة العربيّة لّما نوّه بشأنها،لأنّها لغة التنزيل.

وقد كان أهل الكوفة-كما سنرى-أهل رواية،خلصوا للعلوم النقليّة خلوصا كبيرا. فاصطبغ ميراث الحيرة الأدبي بصبغة إسلاميّة وأضيف إليه الكثير فيما بعد.

كذلك أثرت حضارة الحيرة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة الجديدة الفتيّة، لأنّ موقف أهل الحيرة الإيجابي من الفتح الإسلامي -وهم أهل تجارة ولهم حضارة-ضمن للحيرة مكانة طيبة في الدّولة،[89] نفسر بها بقاء الحيرة طيلة عهود في ظلّ الإسلام عامرة نشطة.

89- معالم العراق العمرانيّة : 10.

ب) علاقة الكوفة بالبصرة[90] :

تعتبر البصرة أهمّ محطّة استفادت منها الكوفة،برغم ظهور النّزاع والاختلاف بين علماء المصرين[91]. لذلك يستوجب البحث وقوفنا قليلا عند البصرة ونشأتها الأولى،لنحاول كشف العلاقة العلميّة بينها وبين الكوفة،والبحث عن مواطن الإفادة[92].

تم إنشاء البصرة*في خلافة عمر بن الخطاب،قبل إنشاء الكوفة[93]، لتأمين استقرار الجند المقاتلة وعوائلهم،عن طريق تثبيت نظم إداريّة لتيسير الحياة المدنيّة[94].

فاجتهد الخليفة في تمصير مدن تكون منطلقات للفتوحات، وقواعد للجنود، فازدهرت الفتوحات في عهده ازدهارا كبيرا.

وكان موقع البصرة بين الطرق،فأصبحت موطن هجرة،وتجارة، ومركز احتكاك متشعب الميادين، فكثر سكانها؛وأصبحت من أعظم المناطق الحضريّة، ونمت فيها حياة فكريّة واقتصادية،طغت على

90- اصل التسمية : البصرة معرب بس را من الفارسيّة ومعناها:كثير الطرق، وقيل الأرض الغليظة،أو الحجارة الرخوة التي فيها بياض. قال ابو عمرو : البصرة أرض حجارتها جصّ وبها سميت البصرة،وقيل غير ذلك.
- لسان العرب : 66/4-67.
- القاموس المحيط:مادّة بصرة.

91- سيأتى الحديث عن بعض الاختلافات النحويّة واللغويّة.

92- كانت الكوفة عالة على البصرة في العديد من المجالات العلميّة برغم تفوقها هي الأخرى فى مجالات سيأتى تحديدها.

* اختلف المؤرخون في سنة تأسيسها لكن الأشهر سنة (14 هـ) حيث اختط عقبة بن غزوان المنازل بها،وبنى مسجدا. الرّوض المعطار : 105.

93- قيل إنّ الكوفة انشئت بعد البصرة بستّة اشهر وقيل بعدها بسنتين. معجم البلدان 432/1.

94- خطط البصرة ومنطقتها : الدّكتور صالح احمد العلي : 5 .طبع ونشر المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، العراق 1406 هـ / 1986م.

دورها العسكري الذي أسست من أجله[95]. وهي أوسع من الكوفة، وأكثرها سكانا[96].

وسبب تأسيس البصرة هو تأمين راحة الجنود الفاتحين،وتهيئة الظروف الملائمة لنجاح مهامّهم العسكريّة، يقول الحميري[97] : (وسبب بنائها أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو على حرب العراق يستنبئ،ماالذي غيّر ألوان العرب ولحومهم، فكتب إليه : إنّ العرب لا يوافقها إلاّ ما يوافق إبلها من البلاد،فابعث سلمان[98] وحذيفة[99] رضي الله عنهما، وكانا رائدي الجيش،ليرتادا منزلا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر...).

وقد ذكر هذا السبب في اختيار الكوفة أيضا، ذلك أن المدينتين قد أسستا لنفس البواعث. ومن هذا المنطلق كانت هنالك العديد من أوجه الاتفاق بين المصرين؛أهمّها أن غالبيّة سكانهما من المقاتلة العرب الذين قدموا من شبه الجزيرة،وكان العديد منهم من نفس العشائر، تميم وبكر، وعبد القيس، وعشائر الحجاز؛ لا يفصلهما عن الجزيرة حاجز

95- خطط البصرة ومنطقتها : 5.

96- جاء في الرّوض المعطار : (وكسرت البصرة أيّام خالد القسري،فوجد طولها فرسخين في مثلهما،والكوفة ثلثا البصرة)
الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 105.

97- نفس المصدر : 105.

98- هو أبو عبد الله سلمان الفارسي،صحابي مشهور،شهد مع النّبيّ غزوة الخندق وبقيّة المشاهد،وشهد فتوح العراق.توفي سنة(32 هـ).
الاصابة : 2/60-61.

99- هو حذيفة بن اليمان العبسي،من كبار الصحابة،روى الكثير من الأحاديث، شهد فتوح العراق،واستعمله عمر على المدائن. توفي سنة(36 هـ).
الإصابة : 1/316-317.

مائي[100] .

وتطابقت المدينتان في العصر الأموي على مستوى التنظيم الاداري، فكان يليهما وال واحد[101]ـ في الغالب -.وأول من تولى ولاية المصرين هو زياد بن أبية[102]، ولذا لقب بوالي المصرين. لكنّ هذا التشابه بين الكوفة والبصرة لا يصل إلى حدّ التطابق بين المدينتين، بسبب اختلاف سمة الحياة في كلّ منهما عبر مرور الزمن، ولا أدلّ على ذلك من المفاخرات[103] التي روتها كتب التاريخ،ومن اختلاف الاهتمامات الفكريّة باتجاهاتهما ومدارسهما[104]، ممّا دفع باعلامهما إلى التنافس في عديد الميادين العلميّة. وما يهمنا من هذا التنافس هو أن جزءا كبيرا منه يتعلق بعلم اللغة والنحو، وبعلم أصول الفقه،وبعلم القراءات القرآنيّة، حيث تكامل فيها الفريقان عن غير قصد،فكانت الكوفة بذلك كالتّوأم للبصرة، والعكس كذلك[105].

100- انظر قولة عمر بن الخطاب السالفة.

101- وليهما في العصر الأموي : أ) زياد وابنه عبيد الله • ب) الحجاج بن يوسف.
ابن خلدون : التاريخ 5/3-15 .ط2،دار الفكر،بيروت. لبنان 1408هـ / 1988م.
ميزان الاعتدال : الذهبى : 355/1.

102- اختلف المؤرخون في اسم ابيه، فقيل :عبيد الثقفي وقيل:أبو سفيان، ولدته أمّه سميّة في الطائف،وكانت جارية الحارث بن كلدة الثقفي.
نشأ زياد داهية، وبعد وفاة الإمام علي امتنع على معاوية بن أبي سفيان،وتحصن في قلاع فارس(بعد وفاة الامام علي بن أبي طالب)فأدعاه معاوية أخا،لما رأى من جلده ونفاذه،وألحقه بنسبه،وولاه على الكوفة والبصرة.
تاريخ الطبري : 162/6.
تاريخ ابن الأثير : 195/3.

103- الرّوض المعطار فى خبر الأقطار : 106.

104- خطط البصرة ومنطقتها : 6.

105- عبد الرحمان السيد : مدرسة البصرة النحويّة : 39.

وبحث كلا الفريقين على الأدلّة والحجج الدّامغة لتبرير ما توصّلوا إليه من آراء في النحو، واللغة، والفقه خاصّة، معتمدين على الرّواية والسماع والقياس.[106] فاهتمت الكوفة بوضع أصول الفقه لوجود أبي حنيفة فيها، مقابل اهتمام البصرة بالأصول النحويّة.[107] فكان لها الفضل في هذا الميدان على الكوفة لاعتمادها المنطق اليوناني[108] حيث استفاد منه علماء الإسلام في الاستدلال النحوي، والفقهي، بالاعتماد على الاستدلال المنطقي، الذي هو عبارة عن استخراج نتيجة من مقدمة أو أكثر، لعلاقة تجمع بينهما، وهو عبارة عن استنتاج[109].

وبرز في البصرة أعلام عديدون وضعوا القواعد وثبتوا الأسس العامّة للبناء العلمي، منهم: الخليل بن أحمد الفراهيدي[110]

106- يقول الجرجاني: (القياس في اللغة عبارة عن التقدير، وهو عبارة عن ردّ الشيء إلى نظيره.)
الجرجاني: محمد بن علي: التعريفات: 181-182. ط3، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1408هـ / 1988م.

107- د/ شوقي ضيف: المدارس النحويّة: 153. ط6، دار المعارف القاهرة ج.م.ع، 1409 هـ / 1989م.

108- طوّع العرب المسلمون المنطق اليوناني واستخدموه في كثير من العلوم، جاء في كشاف اصطلاحات الفنون: (علم المنطق، ويسمى علم الميزان إذ به توزن الحجج والبراهين، وهو علم بقوانين تفيد معرفة طرق الانتقال من المعلومات إلى المجهولات وشرائطها، بحيث لا يعرض الغلط في الفكر).
التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون: 33/1. دار قهرمان للنشر والتوزيع، استانبول، تركيا، 1404 هـ / 1984م.

109- الأصول: 72-73.

110- هو أبو عبد الرّحمان الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي، إمام في النحو، وضع علم العروض، له معرفة بالايقاع والنغم (وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض)، ألف كتاب العين،
وفيات الأعيان: 172/1-173.

ويــونـــس بن حــبـيب[111]، وســــيبـويــــــه[112]، والأخـــــفـــش الأوســـط[113]، وغيرهم. اتصل بهم أعلام الكوفة وأخذوا عنهم وتلاقحت أفكارهم جميعا ممّا دعّم مسار التفكير اللغوي عموما والنحوي خصوصا.

وإذا كانت الكوفة قد ورثت الحيرة فإنها كانت ذات شأن آخر مع البصرة،لأنها احتكت بها وظهرت بمظهر المتنازع معها والمنافس لها، فكان التمايز في شتّى الميادين غالبا.

ج - علاقة الكوفــة ببغداد[114] :

لقبـت بغـداد بمدينــة السـلام تيـمّنا باسـم من أسـماء اللـه

111- هو أبو عبد الرّحمان يونس بن حبيب الضّبّي الولاء البصري، من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، سمع من العرب، وروى عن سيبويه فأكثر، وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها.توفي حوالي:182هـ.
السيوطي : بغية الوعاة : 365/2.ط2 ، دار الفكر ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، بيروت ، لبنان،1399هـ / 1979م.

112- هو عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث بن كعب، أصله فارسي،ونشأ بالبصرة،وأخذ عن الخليل ويونس بن حبيب؛ يعتبر إمام البصريين في النحو وله فضل تركيز دعائم مدرسة النحو البصريّة. الف الكتاب في النحو.
بغية الوعاة : 229/2.

113- هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء،النحوي البلخي، أحد نحاة البصرة،أخذ عن سيبويه وأبي عبيدة،وغيرهما،وهو الذي زاد في العروض بحر الخبب. ألف العديد من التآليف.توفي سنة(215 هـ)وقيل غير ذلك.
وفيات الأعيان : 208/1.

114- أصل التسمية فيها أربع لغات : بغداد بدالين مهملتين، وبغداذ معجمة الاخيرة، وبغدان بالنون،ومغدان، تذكر وتؤنث،وبغداذ في الفارسية:عطيّة الصنم.وقيل في شأنها غير ذلك. تاريخ بغداد : 59/1 .
الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 109.

115- معجم البلدان : 391/4.

الحـــــسنى،على مـــــــــا ورد في معـجم البلدان[115] وفي الـرّوض المعطار[116]. والمهمّ من أمـر عـاصمة الخلافة العبّاسيّة،أنها احتضنت نحاة الكوفة ونحاة البصرة،أزمنة عديدة ،وكانت قصور خلفائها[117] ومجالسهم، حافلة بمناظرة علماء النحو،من البصرة والكوفة.

كان أبو جعفر المنصور[118] قد مصّر بغداد،وانتقل إليها من الهاشميّة[119]، وشـــرع في عمـــارتهـــا سنة خمس وأربعين ومـــائة بعـد الهجرة(145هـ) ونـزلها سنة:تسع وأربعين ومائة بعد الهـجرة (149هـ)[120]. واشباعا لرغبته في إعمار المدينة الجديدة،انتقل إليها العديد من أنصار الدّولة،من كلا المصرين البصرة والكوفة، وكذلك العديد من الأعلام.

ونزل بغداد سبعة خلفاء:هم المنصور، والمهدي، وموسى الهادي، وهارون الرّشيد، ومحمد الأمين، وعبد الله المأمون، والمعتصم*[121]، واشترك هؤلاء جميعا في عنايتهم باللغة العربيّة،لغة القرآن واللغة الرّسميّة

115- معجم البلدان : 391/4.

116- الروّض المعطار في خبر الأقطار : 111.

117- سوف يأتي الحديث عن علاقة الكسائي بهارون الرشيد.

118- هو عبد الله بن محمد بن علي،بن العبّاس،أبو جعفر المنصور،ثاني خلفاء بني العبّاس،وهو والد الخلفاء العبّاسيين جميعا، كان أديبا،فقيها،محبّا للعلماء.تولّى الخلافة سنة:(136 هـ)،توفي(158 هـ)/ 775 م.
تاريخ الطبري : 292/9.

119- معجم البلدان : 457/1.

120- نفس المصدر : 457/1.

* بنى المعتصم بالله مدينة سامرا سنة 222 هـ حين ضاقت بغداد بجنده،واتسعت رقعة الخلافة في عهده اتساعا كبيرا. توفي سنة(227 هـ)/ 841 م.
تاريخ بغداد : 342/3.

121- الروّض المعطار : 110.

للدّولـــة، داعين إلى التـصـدّى لظاهـرة اللّحن[122]؛ التي طـغت على اللســان العـربي وشـابته؛ ممّا جعل تسـرب الخطإ ممكنا في اللغـة،وأخـطر منه في قـراءة آيات القـرآن[123]. والملاحظ أن مـشـروع حـفظ القـرآن الكريم من التـحـريف واللـحن،وحـفظ اللغـة العـربيّة، تحـملت أعـباءه الدّولة الإسلاميّة منذ الجمع العثماني،ثم في العهـود اللاّحقة. فلم يتأخـر الأمويون عن هذا الأمـر ولا غيـرهم. بل لعلّه من حسن السيـاسة أن تتـولّى الدّولة تبنّى هذا العمل الضّخم،رغبة منهـا في كسب تأييـد العلماء،والعامّة،بمـا تقوم به من تثبيت شخصيّة الأمّة،وصون تراثها،وحفظ هويتها.

وممّا يسّر قـيام العلمـاء بدورهم،انتـقـالهـم بين الكوفـة وبغـداد، أوالبـصـرة وبغـداد،وبين البـصـرة والكوفـة،لذلك كـانت أهـميّة بغـداد بما سـمـحت به من تلاقـح بين عـلمـاء المـصـرين بالغـة،ومن قـيـام للـمـدرسـة البـغـداديّة اللـغـوية والنـحـويـة.فـيـمـا بعـد، فـمـن ذلـك أن الفـرّاء ألـف الحـدود فـي النحـو فـي قـصـر الخليفـة المأمـون ببـغـداد[124]؛ وهـذا إن دلّ على شيء فـإنما يـدل على اعـتنـاء الخلفـاء العـبـاسيين بـاللغـة،واهـتـمـامـهـم

122- اللحن لغة ترك الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك. يقال:رجل لاحن،ولحّان ولحّانة،ولحنة أي يخطئ، واللحن في القـراءة والأذان،هو التطويل فـيـمـا يـقـصـر والقصر فيما يطال.
لسان العرب : 379/13.
التعريفات : 191.

123- فسّر ابن خلدون أسباب ظهور اللحن بقوله : (وكانت الملكة -أي اللغوية- الحاصلة للعرب من ذلك،أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد،لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني... غير متكلفين فيه لصناعة يستفيدون ذلك منها، إنما ملكة في السنتهم يأخذها الآخر عن الأول،كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغاتنا، فلما جاء الإسلام،وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول،وخالطوا العجم،تغيّرت تلك الملكة بما القى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين).
المقدمة : ابن خلدون : 753-754.ط1ـ المطبعة الأزهريّة المصرية (1311هـ).

124- وفيات الأعيان : 288/1.

بها. وألف كتاب معاني القرآن،وأملاهما على الناس في مسجد الكوفة[125]. وكان أصحاب النبوغ العلمي،في البصرة أو الكوفة،سرعان ما ينتقلون إلى بغداد؛ التي تعتبر أهمّ محطّة علميّة لها صلة بالكوفة بعد البصرة؛ بالرّغم من كونها متأخرة في تأسيسها على واسط،التي لها صلة قرابة أيضا بالكوفة،في عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي.

د - واسط[126] :

أسست مدينة واسط في العهد الأموي،على يد الحجّاج بن يوسف الثقفي،سنة:أربع وثمانين للهجرة (84 هـ)،وفرغ منها سنة ست وثمانين للهجرة (86 هـ)[127].

وهي نصفان متقابلان على شط دجلة،وفي كلّ جانب مسجد[128]، وقد جعلها الحجّاج في كرش من الأرض بين الجبل،وبين الكوفة والبصرة[129]، وبين الأهواز[130]، وهي خصبة الأرض سرعان

125- نفس المصدر : 288/1.

126- واسط:مدينتان على جانبي دجلة، والمدينة القديمة في الجانب الشرقي، وابتنى الحجّاج مدينة في الجانب الغربي وجعل بينهما جسرا .
الرّوض المعطار في خبر الأقطار : 599.

127- معجم البلدان 348/5. وقد اختلف في سنة تأسيسها.

128- الاصطخري : المسالك والممالك : 58.دار القلم ٤
تحقيق : د/محمد جابر عبد العال الحيني، الجمهورية العربيّة المتحدة، 1381هـ / 1961م.

129- معجم البلدان : 348/5.

130- مدينة متصلة بالجبل، بينها وبين أصبهان خمسة وأربعون فرسخا،فتحها حرقوص بن زهير السعدي في خلافة عمر بن الخطاب.
الرّوض المعطار : 61.

مـا ازدهرت،وصـارت مـوطنا للهـجـرة[131]. وسـبب بنائهـا-يـتـمـثـل على الأرجح-في أنّ الحجّاج أراد أن يستقلّ بالمقاتلة الذين بعث بهم إليه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان،ليستعين بهم على إخماد الثورات،وقمعها، وتثبيت سلطان بني أميّة في العراق.[132]

ولم يكن الحجّاج ليثق بأهل الكوفة ولا بأهل البصرة،فاستقلّ بهولاء الجند،ورغب في بناء مدينة يباهي بها المدن، ولم تلبث واسط أن اشتهرت بعد فترة وجيزة من تأسيسها؛وأصبحت مونل العلماء خاصّة في علم القراءات، فاشتهر بها العديد من القراء[133]، الذين ألف جلهم في علم القراءات[134]، ونسبوا إلى واسط،واتصل سندهم في القراءة بسند الكوفيين من القراء.

وليس من الغريب أن تشتهر واسط بالاقراء والقراءة على نهج مؤسسها الحجّاج بن يوسف الثقفي، الذي بدأ

131- يقول الدّكتور صالح أحمد العلي : (لقد ظلت واسط مدينة عامرة طوال العهود العبّاسيّة، ولكن لم تذكر المصادر عن تطوّر عمرانها وخططها قبل القرن السادس الهجري،إلاّ نصوصا قليلة).
معالم العراق العمرانيّة : 141.

132- الكامل في التاريخ 93/4.

133- لقد ترجم ابن الجزري في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء لثمانين قارئا ينسبهم إلى واسط، أورد منهم الذهبي في كتابه معرفة القراء الكبار تسعة وعشرين.

134- (لقد عدّ أقدم مؤلف في القراءات وصل إلينا،والمنسوب إلى يحي بن يعمر، والمعنون له بالقراءة،من أول الكتب التي ألفت في هذا العلم. وهذا الكتاب قد ألف في واسط وصاحبه توفي سنة:(89 هـ)،وواسط عمرت سنة:(86 هـ)،ممّا يدلّ على سرعة اشتهار هذا الموضع.وقد بقي كتابه معتمدا إلى القرن الرّابع الهجري).
انظر مزيد التفصيل : فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي : 147/1.نقله إلى العربيّة : د/فهمي أبو الفضل،الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنشر ، القاهرة ، مصر،1391هـ/1971م

حـــياتـــه مؤدبا* في الطائف[135]، واشتهر بحفظه للقرآن،وكان قد ساهم وحرص على ضبط المصاحف،وقام بعمليّة التثمين،والتعشير، متصدّيا للتصحيف،آمرا بوضع علامات للحروف المشتبهة[136].

ويبقى الحديث عن إفادة الكوفة من واسط،أو إفادة واسط منها باحتكاك علماء المصرين،وبهجرة بعضهم إلى هذا البلد أو ذاك واردا،على عكس الحديث عن بعض المواضع الأخرى مثل المدائن[137]، التي لم يعمّر بهـا مقام المسلمين طويلا،زيادة على خرابها منذ أزمان متقدمة[138]، إذ لا تعدو أن تكون سوى محطة عابرة؛عرفت مجدا كبيرا في عهد الفرس[139]، وخلفتها في دورها البصرة،والكوفة،على عهود المسلمين.

---

* يختلف معنى المؤدب،عن معنى المعلّم،يقول الجاحظ-وهو أقرب إلى ذلك العصر-: [وقالوا إنما اشتق المعلم من العلم،واسم المؤدب من الأدب،وقد علمنا أنّ العلم هو الأصل،والأدب هو الفرع، والأدب إمّا خلق،وإمّا رواية،وقد أطلقوا اسم المؤدب على العموم.]
رسائل الجاحظ : 203.ط2، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1411هـ / 1991م .

135- وفيات الأعيان : 124/1.

136- يقول ابن خلكان : (ثم كثر التصحيف،وانتشر بالعراق،ففزع الحجّاج بن يوسف إلى كتّابه،وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات...)
انظر مزيد التفصيل في:وفيّات الأعيان 125/1.

137- كانت المدائن مملكة دار الفرس،اختاروها من بين مدن العراق،ويسميها الفرس طيسفون اتخذها سلمان الفارسي مقرا،وإليه تنسب.
تاريخ اليعقوبي : 320/1-321.

138- الرّوض المعطار فى خبر الأقطار : 529.

139- تاريخ اليعقوبي : 320/1-321.

المبحث الرّابع : مواطنو الكوفة

تميّزت الكوفة هي والعديد من الأمصار، بكونها مدينة عربيّة إسلاميّة، ابتدعها العرب المسلمون، ولم يرثوها من حضارة سابقة. فكان أوّل من دخلها الصحابة، ومن بعدهم استقر بها التابعون، وكان عددهم في الكوفة، أكبر من عددهم في البصرة. فهذا ابن سعد[140] يعدّ مائة وخمسين صحابيّا ممّن دخلوا الكوفة. وفي رواية أخرى يذكر أن العدد كان أكبر من ذلك، إذ يقول : (هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر) [141]. غير أن هؤلاء الصحابة لم يستقروا جميعا بالكوفة، بل بقي منهم قلّة صحبة سعد بن أبي وقاص، ثم كانت الهجرة إليها اختياريّة.[142]

أمّا أشهر من دخلوها من الصحابة فهم: (علي بن أبي طالب[143]، وسعد بن أبي وقاص[144]، وسعيد بن زيد[145].

140- الطبقات الكبرى : 66/6.

141- نفس المصدر 9/6.

142- مدرسة الكوفة : 6-7.

143- علي بن أبي طالب، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، القرشي الهاشمي أبو الحسن. ولد قبل البعثة بعشر سنين، وربي في حجر النبي ولم يفارقه. اشتهر بالعلم، والفتيا، وبويع بالخلافة بعد مقتل عثمان. توفي سنة (40 هـ).
الإصابة : 501/2.

144- سعد بن أبي وقاص الزهري القريشي، صحابي مشهور، شهد بدرا والحديبية وسائر المشاهد، وهو الذي كوّف الكوفة، وفتح القادسيّة، وولاّه عمر بن الخطاب أمر الكوفة ثم عزله، توفي سنة (58 هـ).
ابن عبد البرّ : الاستيعاب : 18/2-19. هامش كتاب الإصابة في تمييز الصحابة.

145- سعيد بن زيد، بن عمرو، بن نفيل، بن عبد العزى العدوي، أحد العشرة المبشرين بالجنّة توفي سنة (50هـ) بالكوفة .
الإصابة : 44/2.

وعبد الله بن مسعود[146]، وعمّار بن ياسر[147]، وخباب بن الأرت[148]، وسهل ابن حنيف[149]، وحذيفة بن اليمان[150]، وقتادة بن ربعي[151]، وأبو مسعود الأنصاري[152]، وأبو موسى الأشعري[153]، وسلمان الفارسي[154]، والبراء بن عازب[155]، وعبيد

146- عبد الله بن مسعود،بن غافل الهذلي،حليف بني زهرة، صحابي أسلم في أوّل الدّعوة،وهاجر الهجرتين، شهد فتوح الشام،وسيره عمر إلى الكوفة ليفقههم في الدّين.تولّى أمر الكوفة في عهد عثمان ثم عزله. توفي بالمدينة سنة(32 هـ)
الإصابة : 360/2.

147- عمّار بن ياسر، بن عامر، بن كنانة،حليف بني مخزوم، كان من السابقين الأوّلين إلى الإسلام، هاجر إلى المدينة،وشهد المشاهد، استعمله عمر بعد وفاة النبي على الكوفة، قتل مع علي بصفين سنة:(37 هـ).
الإصابة : 506-505/2.

148- خباب بن الأرت،مولى أمّ أنمار الخزاعيّة،من الصحابة السابقين للإسلام،شهد بدرا وما بعدها،ونزل الكوفة وتوفي بها سنة(37 هـ).
الإصابة : 416/1.

149- سهل بن حنيف،بن واهب،بن أوس الأنصاري، من أهل بدر. روى عن النبيّ-صلّى الله عليه وسلم - وعن زيد بن ثابت. ولاه الإمام علي في خلافته على البصرة بعد الجمل ثم شهد صفين معه. توفي بالكوفة سنة:(38 هـ).
الإصابة : 86/2.

150- تقدمت ترجمته في ص:19.

151- صحابي كان عاملا على مكّة، ذكره ابن حيّان في الصحابة.
الإصابة : 216/3.

152- هو عقيب بن عمرو، بن عدي، بن حارثة الأنصاري،شهد أحدا وكانت له صحبة.
الإصابة : 494-493/2.

153- هو عبد الله بن قيس بن سليم، أسلم بمكة وهاجر إلى أرض الحبشة،وقدم المدينة والرّسول صلّى الله عليه وسلم بخيبر، وكان ضمن وفد الاشعريين. ولى البصرة في عهد عمر بن الخطاب،وافتتح الأهواز،ثم ولاه عثمان على الكوفة. تولّى التحكيم بصفين،ولم يكن مواليا لعلي بن أبي طالب. توفي بعد سنة أربعين،على اختلاف في ذلك.
الاستيعاب : 175-173/2.

154- تقدمت ترجمته في ص:19.

155- البراء بن عازب،بن الحارث بن عدي، يرجع إلى الأوس من الأنصار،له ولأبيه صحبة. شهد مع علي الجمل،وصفين، وقتال الخوارج،ونزل الكوفة وابتنى بها دارا. توفي:(72 هـ).
الإصابة : 147-146/1.

بن عازب[156]، وقرظة بن كعب[157]، وزيد بن أرقم[158]، والحارث بن زياد[159]، وغيرهم كثير كالمغيرة بن شعبة[160]، الذي وَلِي الكوفة في زمن عمر، ثم عزله عثمان بعد مقتل ابن الخطاب)[161].

وأشهر من بقي بالكوفة واستقرّ بها من الصحابة[162]: سعد بن أبي وقاص الذي اختطها، وعمّار بن ياسر[163]، ثم عبد الله بن مسعود، الذي وصلها سنة واحد وعشرين للهجرة (21 هـ) قادما من حمص[164]،

156- اخو البراء بن عازب، أحد العشرة الذين وجههم عمر من الصحابة إلى الكوفة مع عمّار بن ياسر.
الإصابة : 437/2.

157- قرظة بن كعب،بن ثعلبة بن،عمرو الأنصاري الخزرجي. كان ممّن وجهه عمر إلى الكوفة يفقه أهلها، له صحبة.توفي بالكوفة وكان من أنصار علي .
الإصابة : 223/3.

158- زيد بن أرقم،بن زيد،بن قيس،بن النعمان،بن الخزرج.غزامع النبي سبع عشرة غزوة،شهد صفين مع علي ومات بالكوفة سنة:(66 هـ) .
الإصابة : 542/1.

159- الحارث بن زياد الأنصاري الساعدي،شهد بدرا والخندق.
الإصابة 78/1.

160- هو المغيرة بن شعبة،بن أبي عامر،يرجع نسبه إلى ثقيف،أسلم قبل الحديبية وشهد بعد النبي عليه السلام فتوح الشام والعراق، اشتهر بالدّهاء.ولي الكوفة في عهد عمر،وأقره عثمان بعده،ثم عزله وبايع معاوية وولاه الكوفة،فاستمر على امرتها حتى توفي سنة:(50 هـ) .
الإصابة : 432/3.

161- الطبقات الكبرى : 9/6.

162- أورد اليعقوبي أن عدد النازلين من الصحابة بالكوفة ثمانون.
تاريخ اليعقوبى : 2/ 150.

163- تولى عمّار بن ياسر.وعبد الله بن مسعود بيت المال في الكوفة،بعد عزل سعد ابن أبي وقاص من ولايتها.
الاستيعاب : 20/2.

164- الطبقات الكبرى : 9/6.
الاستيعاب : 315/2.

ثم المغيرة بن شعبة الذي وليها في عهد عمر بن الخطاب،وغيرهم...

وكان المجتمع الكوفي قد تدرّج في تركيبته من كثرة العرب الأقحاح في باديء الأمر وهي القبائل العربيّة التي هاجرت إلى الكوفة عند فتحها،ومعظمها من أهل اليمن،ومن نزار،ومن ربيعة ومضر، ومن قبل هاجر عرب الحيرة إلى الكوفة بعد تمصيرها،وهم من مذحج وحمير، وطي،وكلب،وتميم[165]، ثم ما لبث العدد أن تطوّر[166]؛ مع الحفاظ على أصول التعامل بين القبائل العربيّة التي انقسمت على أساس نزعاتها، فكانت مواقعها في الكوفة متباينة، فخطط أهل اليمن في الجانب الشرقي، وخطط نزار في الجانب الغربي،وبقيت نزعة التعصب للجنس العربي سائدة،تلتمس من صلابة وصعوبة هذا المجتمع الذي لا يرغب في الخضوع لسلطة الولاة الذين تعينهم الدّولة،منذ سعد بن أبي وقاص.

وكان أهل الكوفة قد تذمّروا من ولاية سعد بن أبي وقاص، وعمّار بن ياسر، كما تذمّروا أيضا من تولّي سعيد بن جبير للقضاء على سعة علمه وصدق ورعه،وتعللوا بأنّه من الموالي[167]. ممّا يؤكد تأصّل العصبيّة القبليّة التي تأبى الخضوع لغير العربي، أو لعلّه خوف الحجّاج من سعيد بن جبير، دفع به إلى عزله لعدم رضاه عن أعماله، على الرّغم

165- معجم البلدان : 491/4.

166- قال الشعبي :(كنا نعد اهل اليمن 12الفا،وكانت نزار 8 آلاف).هذا الإحصاء بتاريخ: (264 هـ).
معجم البلدان : 492/4.

167- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : 108/1. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،1409هـ / 1988م.

من توليته إيّاه للقضاء[168].

ويظهر أن هذه النزعة قد وقعت تذكيتها مع تولّي بني أميّة لأمر المسلمين،زيادة على أنّ البيئة الكوفيّة بيئة مضطربة،خاصّة بعد الفتنة الكبرى.

ومع العنصر العربي الذي يعدّ العنصر الأساسي نجد الفرس، وهم العنصر الثاني. وهؤلاء هاجروا إلى الكوفة،لأنها من أقرب المدن الإسلاميّة الحديثة إليهم. وتدعّم أمرهم بعد قيام الدّولة العبّاسيّة لإعتمادها عليهم عسكريّا[169]، فكثر عددهم. ثم نجد كذلك عنصرا ثالثا،وهو عنصر الأعاجم من الأنباط[170]، الذين اشتغلوا بالزراعة حول الكوفة،لأنّ بعض العرب كانوا يترفعون على أمثال هذه الصنائع ويرونها من اختصاص العبيد، ثم نجد السريان الذين سكنوا الحيرة،والمناطق المجاورة لها،وأطلقوا عليها حيرتا[171].

هذه الأمشاج من الأجناس،جعلت من المجتمع الكوفي مجتمعا طبقيّا،انقسم إلى طبقات يمثلها بالدّرجة الأولى،الأثرياء من العرب،ثم

168- البراقي : تاريخ الكوفة : 237. ط4، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،لبنان،1407هـ / 1987م.

169- (3) انصرف الموالي من الفرس في عهد الدّولة الأمويّة عن المهن الصغرى إلى الإندماج في الجيش الأموي وكان عددهم قد ازداد من ثلاثة آلاف في جيش بني أميّة لابن الزبير سنة:(66 هـ) إلى مائة الف من الذين حاربوا في دير الجماجم مع ابن الأشعث.
تاريخ الأمم والملوك : 1072/2.

170- يقول الجاحظ : (إنّ اهل الكوفة نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب).
الجاحظ : البيان والتبيين : 19/1.

171- دائرة المعارف الإسلاميّة : 161/8.

الموالي والعبيد،الذين أسلم منهم الكثير واختلطت أنسابهم بأنساب العرب،وكانت الحياة الاقتصادية مبنيّة على نشاطهم اليومي،ومجهودهم في التجارة،والصناعة،والزراعة.[172] ويأتي في درجة دنيا الأجانب من الفرس،والنبط،والسريانيّة الذين لم يسلموا،[173] هذا مع وجود أقليات أخرى كان دورها وتأثيرها محدودين،في خضمّ هذا المجتمع الكبير[174].

وخلاصة القول هي أن المجتمع الكوفي كانت تمثله طبقة أرستقراطيّة عربيّة،ثم طبقة الموالي،والطبقة الشعبيّة من العرب،وأخيرا طبقة الأعاجم،ويمكن أن نطلق عليهم كلمة الأجانب.

172- دراسة فى النحو الكوفى : 34.

173- نفس المرجع 35.

174- منهم اليهود والنصارى والهنود والأقباط المصريون.
تاريخ العرب : 309/1.

المبحث الخامس : الكوفة بيئة علميّة وأدبيّة

هنالك مجموعة من العوامل كانت قد تظافرت مع بعضها، لتجعل من الكوفة بيئة علميّة،وأدبيّة،من طراز رفيع:وأساس هذه العوامل: العامل الدّيني.

أ) العامل الدّيني : كان هدف المسلمين،حين خرجوا من جزيرة العرب،هو نشر الدّين الإسلامي،فدخلوا لأجل ذلك في مواجهة مع الفرس والرّوم أكبر دولتين عاصرتهما. ولا يكفي القوّة العسكريّة للأبقاء على الأمصار المفتوحة،بل يجب تركيز تعاليم الإسلام،ليندمج غير العرب في حياة المسلمين،ويتفقهوا في الدّين عبر حفظ القرآن الكريم ومدارسته.

وقد تفطن عمر بن الخطاب إلى هذه المسألة.فأراد للكوفة أن تكون منارة قرآنيّة لوجود عديد القراء بها. روى ابن ماجة بسنده عن قرظة بن كعب[175] قال : (لمّا سيرنا عمر إلى العراق، مشى معنا وقال : أتدرون لم شيّعتكم ؟ قالوا : نعم تكرمة لنا، قال : ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ النّحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرّدوا القرآن وأقلّوا الرّواية عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّمْ وأنا شريككم.)[176] فكانت مهمّة هذه البعثة التعليميّة،مدعّمة للدّراسة القرآنيّة التي تستند على الحفظ والتفسير،مع ما يصاحب ذلك من أقوال مأثورة.[177]

175- تقدمت ترجمته في ص : 30.

176- ابن ماجة : السنن : 9/1.

177- حذّر عمر بن الخطاب من الاكثار من الرّواية : لترسيخ حفظ القرآن الكريم، وحتى لا يستهان بالأحاديث وبروايتها فيكذب على النبي،ووفاء لمنهج النبيّ من خشيته لاختلاط القرآن بالأحاديث، فنهى عن رواية الأحاديث.

وكانت بعثه عمر بن الخطاب،أولى البعثات التعليميّة المتخصصة في الدّراسات القرآنيّة بعد وفاة النبيّ عليه السلام[178] والتي لم تلبث أن تدعمت بوصول عبد الله بن مسعود،وعمار بن ياسر[179]، فالتف حولهم -خاصّة منها عبد الله بن مسعود- عدد كبير من التابعين من قراء الكوفة،نذكر منهم:علقمة بن قيس أبو شبل النخعي[180]، الفقيه الكبير الذي أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن مسعود، ومسروق ابن الأجدع بن مالك أبو عائشة[181]، الذي أخذ هو أيضا عن ابن مسعود، وأبو عبد الرّحمان السلمي مقرىء الكوفة[182]، وعمرو بن ميمون[183]، وزرّ بن حبيش أبو مريم،وهو ممّن ضبط القراءة وأخذها من

178- كانت أوّل بعثة قرآنية إلى المدينة،قبل الهجرة إليها،في عهد النبي،وأوّل مبعوث لهذه المهمّة هو الصحابي مصعب بن عمير، وأعانه على ذلك ابن أمّ مكتوم. سيأتي بيان ذلك. انظر ص : **125**.

179- وصفهما عمر بن الخطاب بالنجباء،وأمر بالاقتداء بهما.
الإصابة : 361/2

180- هو علقمة بن قيس،بن عبد الله،بن مالك،خال ابراهيم النخعي،ولد في حياة النبيّ عليه السلام،وكان من أحسن الناس صوتا بالقرآن،أخذ علمه من عبد الله بن مسعود. توفي سنة اثنين وستين (62 هـ).
ابن الجزري : غاية النهاية : 294/2. ط3 ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ / 1982م.

181- هو من تلاميذ عبد الله بن مسعود، تابعي مشهور،انتصب في الكوفة يقرىء ويفقه. توفي سنة ثلاث وستين (63 هـ).
غاية النهاية : 294/2.

182- هو عبد الله بن حبيب،بن ربيعة،أبو عبد الرّحمان الضرير،مقرىء الكوفة، انتهت إليه القراءة تجويدا وضبطا،أخذ قراءته عن علي بن أبي طالب،وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود،وزيد بن ثابت،وأبي بن كعب. أقرأ في مسجد الكوفة أربعين سنة،وأخذ عنه العديد. توفي بعد سنة سبعين قيل:(74 هـ).
غاية النهاية : 413/1-414.

183- هو عمرو بن ميمون الأودي الكوفي. أبو عبد الله، التابعي الجليل. أخذ القراءة عرضا عن عبد الله بن مسعود وروى عن عمر بن الخطاب. توفي سنة خمس وسبعين.
غاية النهاية : 603/1.

أفواه القراء[184]، وغيرهؤلاء كثير، ممّن قرأوا بالكوفة وأقرأوا بها، وانتقلوا في البلاد لتلقي القراءة، فبلغ عددهم أكثر من مائتين وثلاثين قارئا، عدا تلاميذهم ورواتهم ممّن أقرأوا بالكوفة طوال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبويّة[185]. فأمكن بذلك الحديث عن مدرسة للقراءة والإقراء بالكوفة لها لونها ونمطها الخاص الذي تميّزت به عن باقي مدارس القراءة في العالم الإسلامي آنذاك[186].

ولم يقتصر أغلب أعلام الكوفة من القراء على العناية بالقرآن الكريم وضبطه، بل اهتموا كذلك بالعلوم الدّينيّة الأخرى، فجمعوا بين الحديث والقراءة واللغة والنحو، فتكونت مع مدرسة القراءة[187]، مدرسة للفقه[188]، ومدرسة للحديث[189]، ومدرسة للغة والنحو[190]، وهي متأخرة نسبيّا من حيث

184- هو زرّ بن حبيش، بن حباشة الأسدي الكوفي، أبو مطرّف، عرض على عبد الله بن مسعود، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، فكان قارئا بارعا وكان عبد الله بن مسعود يسأله عن العربيّة. توفي في دير الجماجم سنة اثنين وثمانين (82 هـ).
غاية النهاية : 294/1.

185- غاية النهاية في طبقات القراء : الفهارس 412/2 فما بعدها.

186- سوف يأتي الحديث عن هذه المدارس في موضعه.

187- كان أشهر أعلام مدرسة القراءة من التابعين: أبو عبد الرّحمان السلمي، وزرّ بن حبيش الكوفي الأسدي، وعاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي وغيرهم...

188- تعود جذور مدرسة الفقه إلى الصحابة الثلاثة : عمّار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، الذي دامت مدّة خلافته بالكوفة خمس سنوات إلاّ ثلاثة أشهر؛ على ما ذكره ابن حجر في الإصابة. وجاء بعدهم من التابعين: عامر بن شراحيل الشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي وثلاثتهم متعاصرون.

189- كانت في العهود الأولى للكوفة، بسبب استدلال الصحابة بالحديث، رغم اتسامهم بقلة روايتها، إلى أن ظهرت مدرسة الرّاي، على يد أبي حنيفة وأتباعه، فانقسم عندها المسلمون إلى مدرستين.
مدرسة الكوفة 28-29.

190- أشهر من أسس هذه المدرسة الكسائي (ت : 189هـ) وهو القارىء السابع وتلميذه يحي بن زياد الفرّاء. سيأتي الحديث عنهما.

النشـأة، هي ومدرسة الحديث[191].

ولم يغفل الكوفيون عن العناية باللغة والأدب بدافع ديني، وهو تقديس اللغة العربيّة، فاعتنت الكوفة برواية الأشعار القديمة، وصنعة دواوين الشعر، برغم قلّة التحري التي اتصفت بها في جمعها للأشعار، فكثر لذلك الوضع[192].

وكان لوجود بني أسد في الكوفة، دور كبير في تركيز دعائم اللسان العربي في هذا المصر، فبنو أسد أولو فصاحة[193] وبيان، عنوا بالقرآن الكريم عناية كبرى، وخلصوا للثقافة العربيّة الأصيلة[194]. ومن أكبر أدلة ذلك أعلام الكوفة الكبار، من القراء والنحاة، الذين ينسبون إلى بني أسد، منهم: عاصم بن أبي النجود[195]، الذي كان مولى لبني أسد، وشعبة بن عيّاش راويه[196]، كان أسديّا أيضا،

191- بالنسبة لمدرسة اللغة والنحو في الكوفة، كانت عالة على مدرسة البصرة، لأنّ النحو نشأ بصريّا. وأمّا بالنسبة لمدرسة الحديث، فإنّ الكوفة اشتهرت بوضع الحديث، بما جعلها محلّ ريبة واحتياط من قبل المحدثين. ولا يعني ذلك أنه لم يكن بها أعلام محدّثون. الأصول : 40 - المدارس النحوية : 158.

192- المدارس النحويّة : 153.

193- يقول أبو الحسن على الجرجاني معرفا الفصاحة : (الفصاحة في اللغة عبارة عن الإبانة والظهور، وهي في المفرد خلو من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس، وفي الكلام خلوصه عن ضعف التأليف، وتنافر الكلمات مع فصاحتها.. والفصاحة عند المتكلم هي ملكة يقتدر بها على التعبير على المقصود بلفظ فصيح.)
التعريفات : الجرجاني : 89.

194- لم يتأثروا باللسان الأعجمي، كما تأثرت بها عرب التخوم، مع الروم والفرس والحبشة، كما حافظوا على أبرز سمات المجتمع القبلي العربي بنزعاته، غير ما نهى عنه الإسلام.

195- ستأتي ترجمته وافية : انظر ص : **149**.

196- هو شعبة بن عيّاش، بن سالم، أبو بكر الأسدي الكوفي راوي عاصم، ولد سنة، خمس وتسعين، كان من أيمّة السنة، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة (193هـ).
غاية النهاية في طبقات القراء : 1/325-326-327.

والكسائي،[197] كان مولى لبني أسد،وهو الذي جمع العديد من اللغات باتساعه في الرّواية[198].

يقول السيوطي : (والذين عنهم نقلت العربيّة،وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي،من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين منهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اُتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف)[199].

وهكذا يبرز عامل التدين الذي كان دافعا قويّا،ليكون في الكوفة أعلام،سعوا إلى تركيز الإسلام،محافظين على العلوم الشرعيّة،لأنّها شعار الدّولة وأساس التشريع، وبالرّغم من التقلبات السياسيّة،فإنّ عامل التّدين التحم في كثير من الأحيان والفترات مع العامل السياسي .

ب) العامل السياسي : بقيت الكوفة-كما هو معلوم- محافظة على نمط المجتمع القبلي، وذلك أمر هام في تحليلنا لطبيعة هذا المجتمع الذي لا يخفي اهتزازه،[200] واعتداده بنفسه[201]. وقد ظهر ذلك خاصّة،في تمرّده على سلطة الولاة الذين نصبهم عمر بن الخطاب،وهو

197- سيأتي الحديث بإسهاب عن الكسائي علم المدرسة النحوية الكوفيّة. ترجمته في غاية النهاية رقمها 2212 : 535/1 ← 540.

198- قيل انه كان أوحدهم في الغريب .
غاية النهاية : 538/1.

199- السيوطي : المزهر في اللغة والأدب : 128/1، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان.د.ت.

200- أورد ابن العماد في أحداث سنة (34هـ) ما يلي : (فيها أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص،ورضوا بأبي موسى الأشعري،وكتبوا فيه إلى عثمان فأقره،ثم ردّ عليهم سعيدا،فخرجوا إليه ومنعوه من الدخول،وهو اليوم المذكور في صحيح مسلم المسمّى بيوم الجرعة).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب : 40/1.

201- يقول الطبري عن أهل الكوفة : (عدّة لكون إن كان).
تاريخ الأمم والملوك : 502/4.

المتصف بالحزم الكامل أيّام خلافته، حتى قال فيهم : (من عذيري من أهل الكوفة، إن استعملت عليهم القويّ فجّروه، وإن وليت عليهم الضعيف حقّروه)[202] وذلك الأمر يؤكد لنا تأكيدا قاطعا بقاء العصبيّات العربيّة في هذه البيئة، كما يمككنا من تفسير كثير من الأحداث التي عرفتها الكوفة وعاشتها، خاصّة بعد الفتنة الكبرى، التي نشأ عنها اختلاف كبير بين المسلمين[203].

فالكوفة بيئة شغب متواصل، ويمكن تلخيص حديثنا في مجموعة من الأحداث التي عرفت في الكوفة بسبب العامل السياسي وما ترتب عنها من آثار فيما يلي :

1) نشأة مدرسة الرّأي الفقهيّة في الكوفة، على يد أبي حنيفة، وذلك بسبب اتصاف الكوفة بوضع الأحاديث في فترة ما بعد الفتنة الكبرى، وتواصل ذلك مع نشأة الفرق الإسلاميّة المعارضة خاصّة الشيعة[204]، وذلك إلى حدود سنة (132 هـ) مع قيام الدّولة العباسيّة، وكان الإمام مالك بن أنس[205] يطلق على الكوفة دار الضّرب، أي دار وضع

202- فتوح البلدان : 277.

203- تنازعوا في الخلافة، ونشأت الفرق الإسلاميّة منذ بدء ذلك الخلاف ومنذ التوتر الذي حدث فيها في أواخر عهد الخليفة عثمان، وبعد مقتله وفي خلافة الإمام علي الذي اتخذها مركزا له، وما تبعها من أحداث عسكرية عديدة وكبيرة سببها انشقاق الخوارج بعد التحكيم بين علي ومعاوية ومقتل الحسين بعد ذلك وزيد بن علي، إلخ... معالم العراق العمرانية : 42.
راجع أيضا : ابن قتيبة الدينوري : الإمامة والسياسة : 44/1 فما بعدها.

204- جاء في تعريفات الجرجاني : (الشيعة هم الذين شايعوا عليّا رضي الله عنه وقالوا : إنة الإمام بعد رسول الله، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده.) التعريفات 129.

205- إمام دار الهجرة، ومؤسس المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، ألف كتاب الموطأ في الحديث ورتبه بحسب مسائل الفقه (ت : 179 هـ)، انتشر مذهبه بالحجاز والبصرة وماوالاها، وبافريقية، والمغرب، والأندلس، ومصر.
محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة : 27. المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة (1349هـ).

الأحاديث[206]. فضعف الإعتماد على الرّواية من جرّاء ذلك.

2) دعم الخلفاء العبّاسيين لعلماء الكوفة يدلّ عليه صلة الكسائي والفراء مثلا بالخلفاء،والإنتصار لهما في النحو واللغة، كذلك كان الوضع بالنسبة لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة الذي أدناه الرّشيد بسبب ولائه له، وفتاويه التي كثيرا ما اعتمد فيها على الحيل الفقهيّة[207].

3) نشأة الفرق السياسيّة والكلاميّة،كانت بسبب مقتل عثمان بن عفان،وما نتج عن ذلك من حوار وجدل،دفع المسلمين إلى الاختلاف؛ وعلّل كلّ فريق آراءه اعتمادا على الوسائل المتاحة عقليّا ونقليّا[208]. وكان لحملة العلم الدّيني،منزلة خاصّة في التأثير على الرّأي العام في خضمّ هذه الأحداث[209]؛ وهي المصر الذي ينسب إلى التشيّع[210]؛ منذ خلافة الإمام علي،وحتّى قيام الدّولة العبّاسيّة التي لبست عباءة التشيّع هي الأخرى، وتمت بيعة أبي العبّاس السفاح في الكوفة، وخطب فيهم قائلا : (يا أهل الكوفة أنتم محلّ محبّتنا،ومنزل مودّتنا، لم

206- يقول ابن شهاب الزهري : (يخرج الحديث من عندنا شبرا،فيعود في العراق ذراعا.)
ضحى الإسلام : أحمد أمين : 152/2 .ط 10،دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان.

207- تاريخ الخلفاء : 291-292.

208- بدأ النشاط النقلي منذ القرن الأوّل للهجرة،في نصفه الثاني،وتواصل إلى أن دونت العلوم النقليّة،ولم تظهر نزعات المنطق والرأي إلاّ في القرن الثاني.

209- روى المسعودي في اختلاف هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. قال : (فمضى -أي زيد- عليها إلى الكوفة وخرج عنها، ومعه القراء والاشراف، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي،فلمّا قامت الحرب، انهزم اصحاب زيد، وبقى في جماعة يسيرة، فقاتلهم أشدّ قتال).وهذا يبرز منزلة حملة العلم الدّيني وتأثيرهم في الرّأي العام الكوفي المتشيع آنذاك.
مروج الذهب : 218/3.

210- قال الفرزدق الشاعر للحسين بن علي-وهو في طريقه إلى الكوفة-: (قلوب الناس معك،وسيوفهم مع بني أميّة). تاريخ الأمم والملوك : 386/5.

تفتروا عن ذلك،ولم يثنكم تحامل أهل الجور، فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدت في أعطياتكم مائة مائة فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير.)[211]. ولم تبق الكوفة خالصة للتشيع ولولاءاتها العبّاسيّة،فسرعان ما انقلبت بحكم طبيعتها التي تفرض عليها مثل هذه المواقف المتأرجحة الغامضة.

ج) **العامل الثقافي** : يعتبر العامل الثقافي من أهمّ العوامل المؤثّرة،خاصّة في فترة ما بعد التأسيس،واعتبارا لبقاء العصبيّات القبليّة، فإنّ الكوفة لم تكن منفتحة انفتاح البصرة التي كانت محطـة تتلاقح فيها الثقافات،باعتبار كثرة الأجانب في هذا المصر،حيث نجد أكثرهم يتجهون إليها لأنهم كانوا يجدون الحياة فيها مستقرة آمنة. «فكثرة الأجانب في البصرة،واشتراك البصريين في الأعمال التّجاريّة التي هيأهالهم مركز البصرة، ووقوعها في مفترق الطرق التّجاريّة تتلاقى عندها من الشمال والجنوب والشرق والغرب... كلّ ذلك جعل من سكان البصرة سواء أكانوا عربا أم موالي، شعبا شبه موحّد.»[212]. لكنّ التأثيرات الثقافيّة-على ما يبدو-قد وردت على الكوفة من البصرة،لقرب هذه الأخيرة من مركز الثقافات. «كانت البصرة مرفأ تجاريّا للعراق،على خليج العرب،وكانت أقرب من الكوفة إلى مدرسة جنديسابور الفارسيّة التي كانت تدرس فيها الثقافات اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة.»[213]

وبقيت هذه المؤثرات محدودة في القرن الأوّل عموما

211- تاريخ الخلفاء : 257.

212- نفس المصدر : 14-15.

213- المدارس النحويّة : 21.

بالرّغم من أن الكوفة قد اجتمع فيها أجناس عديدة، فبقيت محافظة على نمط المجتمع القبلي المنغلق على نفسه. واعتنى أهل الكوفة باللغة العربيّة،وبالرّواية،وبالأنساب،ولم يطغى القياس على مناهج أعلامهم، طغيانه على مناهج أعلام البصرة.إلاّ منذ بداية القرن الثاني.

ولم يمنع خلوص الكوفة العربيّة للثقافة العربيّة الإسلاميّة التي ركز دعائمها السلف من الصحابة والتابعين،من انخراط بعض أعلامها في مذاهب وفرق متنوعة ، كان الكسائي مثلا منسوبا إلى التشيّع[214] إحين يترجم له بعض الأعلام المتأخرين من الشيعة الأماميّة[215]] بالرّغم من عدم ظهور ذلك في مواقفه[216]. وكان تلميذه الفرّاء منسوبا إلى الإعتزال والتشيّع،وهو الذي عدّ متمم بناء مدرسة الكوفة النحويّة[217]، وعدّ من القراء[218] وغير هؤلاء كثيرون.

214- اختلطت أسس التشيع فيما بعد،ببعض جذور الموروثات الثقافيّة الدينيّة الفارسيّة. والأرجح هو أنّ الكسائي لم يكن شيعيّا،لأنه كان مقربا من هارون الرّشيد الذي قاوم التشيّع.

215- هو الشيخ المحدث،عبّاس بن محمد رضا ابن أبي القاسم القمّي،ولد سنة (1294هـ) في إيران،وتوجه سنة (1316هـ) إلى النجف،واهتم بحلقات الدرس، له تآليف عديدة في التاريخ وتراجم الشيعة وغيرها بلغت 45 مؤلفا. توفي سنة (1359هـ).
عبّاس القمي : الكنى والألقاب 5/1 ⟵ 15.ط2 ، مؤسسة الوفاء،بيروت،لبنان، 1403هـ / 1983م.

216- لم يظهر التشيع في مواقف الكسائي،نظرا إلى كونه اهتم باللغة،والنحو،وشغف بالقراءات التي كان سنده فيها عن شيخه حمزة الزيات،الذي كان هو الآخر منسوبا إلى التشيع يتصل سند قراءته بجعفر الصادق. والغالب على الكوفة تشيّعها لذلك نسب جلّ أعلامها إلى التشيّع.

217- معجم البلدان : 10/7.

218- ألف معاني القرآن،والمصادر في القرآن،وله اختيارات في القراءة. ترجم له ابن الجزري واعتبره من القراء.
غاية النهاية 371/2 ترجمة رقم:3842.

وفي نهاية المطاف، يمكن القول بأن الكوفة قد ساهمت مساهمة كبرى في نشأة العلوم النقليّة، وفي ضبط القرآن الكريم ضبطا دقيقا، خاصّة ما كان من إعرابه وإعجامه[219]، وظلت برغم جسامة الأحداث التي مرّت بها مركزا فكريّا هامّا، ظهر فيه عدد كبير من العلماء والمؤرخين، اهتموا بأخبار الكوفة التي أثرت في مجرى التاريخ العربي الإسلامي[220].

وهكذا يتبين للباحث من خلال ما سبق التعرض إليه، أن الكوفة حملت مشعل العلوم برغم كلّ التعثرات، خاصّة منها السياسيّة[221]، والعلوم المقصودة هنا خاصّة، هي العلوم النقليّة المتعلقة بكتاب الله[222]، ثم علم اللغة.

219- الاعجام : نقط الحروف، الإعراب :ضبط أواخر الكلمات.
انظر في ذلك : المعجم المفصل في اللغة والأدب 161/1.
قال الزركشي : أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدّؤلي، وذكر أيضا أن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحي بن يعمر. وذكر أبو الفرج أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود أن ينقط المصاحف، وذكر الجاحظ أن نصر بن عاصم أوّل من نقط المصاحف وكان يقال له نصر الحروف.
الزركشي : البرهان في علوم القرآن : 250/1-251.ط3 ، دار الفكر ، بيروت، لبنان ، 1400هـ / 1980م.

220- ألف السيد حسن بن السيد أحمد البراقي -من الشيعة- تاريخ الكوفة : كتاب جمع فيه أخبار الكوفة وما حولها (ت : 1332هـ). معالم العراق العمرانيّة : 42.

221- لأنّ العلوم عادة لا تزدهر مع الاضطرابات السياسيّة.

222- يقول الدّكتور عبد الفتاح شلبي : (أشهر الأعلام بالكوفة الذين اشتغلوا بالعلوم النقليّة وخاصّة منها القراءات : علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمر بن شرحبيل، والحرث بن قيس، والرّبيع بن خيثم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرّحمان السلمي، وزر بن حبيش، وعبد الله بن نضلة، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، وسعيد بن جبير، والنخعي والشعبي.
أبو علي الفارسي : عبد الفتاح شلبي : 13-14.

وكانت رغبتهم جامحة في الحفاظ على الطابع العربي،الذي يولى عناية خاصّة بالأنساب والشعر، ويولى عناية بالشرعيّات (دراسة القرآن والحديث والأحكام). وكان التراث العربي خادما للتراث الإسلامي،أو بالأحرى وقع تطويعه ليكون كذلك.

وبذلك كانت الكوفة رائدة نهضة علميّة وأدبيّة،جعلت منها والبصرة أهمّ مصرين تشد الرّحال إليهما لطلب مختلف العلوم والفنون، في مرحلة من مراحل عطاء الحضارة العربيّة الإسلاميّة[223].

223- تاريخ العرب : 309/1.

الفصل الثاني :

نشــأة الـمدرســة النحويّة الكوفيّة

المبحث الأول : النحو

أ- تعريفه :

هو علم تعرف به كيفيّة التركيب العربي صحّة وسقاما، وكيفيّة ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه[1]، ويشمل النحو الإعراب[2]، وموضوعه التراكيب العربيّة من حيث الإعراب والبناء وغيرها[3]، وقيل في النحو غير ذلك[4]، وقد أرجع ابن خلدون[5] أسباب وضع النحو إلى الخشية من فساد الملكة اللسانيّة، والخشية من ضياع القرآن والحديث. يقول : (والسمع أبو الملكات اللسانيّة، ففسدت بما ألقي إليها ممّا يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منها أن تفسد تلك الملكة رأسا يطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم. فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات

1- كشاف اصطلاحات الفنون : 17/1.

2- يقول ابن منظور : (والإعراب الذي هو النحو، إنما هو الابانة عن المعاني بالألفاظ). لسان العرب : مادة نحا.

3- التعريفات : 240.

4- يقول الجرجاني : وقيل : (النحو علم يعرف به أحوال الكلم، من حيث الاعلال). وقيل : (علم بأصول يعرف بها صحّة الكلام وفساده). التعريفات : 240.

5- هو العلامة عبد الرّحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد بتونس سنة (732هـ)، وارتحل إلى الشام ومصر بعد نشأته العلميّة بتونس، من أشهر تآليفه: تاريخه ومقدمته الذي عنون له بـ : "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" توفي بمصر سنة (808هـ).
شجرة النور الزكية : 227-228.

والقواعد،يقيسون عليها سائر أنواع الكلام،ويلحقون الاشباه بالاشباه، مثل أن الفاعل مرفوع،والمفعول منصوب،والمبتدأ مرفوع)[6].

نتبيّن ممّا قاله ابن خلدون أن العرب قبل وضع قواعد اللغة كانوا ينطقون لغتهم بسلامة وسلاسة، ولم تفسد ألسنتهم إلاّ بفساد سماعهم، أي أنّ المستعربين كانوا يلحنون فيؤثرون على تلك الملكة اللسانيّة التي كانت غير مشوبة باللحن[7]. كما يفهم من كلام ابن خلدون أن قواعد النحو اعتمد في وضعها على السماع المستعين بالقياس، لاستخراج الكليّات الضروريّة للغة العرب،التي اتسعت دائرة لسانها وكثرت لهجاتها وأساليب كلامها.

ب- أهـمـيّـتـه :

وقد أُعتبر علم النّحو من أشرف العلوم لتعلّقه بالكلام العربي،وبالقرآن الكريم،فاعتنى به العرب المسلمون عناية بالغة، وكان السلف الصالح يقول : (أعربوا الكلام لتعربوا القرآن)[8]. وتظهر أهميته في أنه حفظ اللسان العربي من الاضطراب،وحفظ القرآن من اللحن، والتحريف[9]، وسمح لغير العرب بحذق لسان التنزيل،والاهتمام بالعديد من العلوم الأخرى،التي كانت نشأتها متقاربة وعلم النحو،وفي نفس الوقت خادمة للقرآن شكلا ومضمونا.

6- المقدمة : 754.

7- اللحن عيب لساني، يقوم على تحريف الكلام عن قواعد الصرف والنحو، لاسيما الإعراب.كما يقوم أيضا،على مخالفة النطق الفصيح،واللفظ السليم.
المعجم المفصل في اللغة والأدب : 1062/1.

8- حاجي خليفة : كشف الظنون : 1934/2 . دار الفكر، بيروت، لبنان، 1402هـ / 1982م.

9- يراد به تغيير اللفظ دون المعنى. التعريفات : 53.

ج- نشأته :

تكاد تجمع أغلب الرّوايات التاريخيّة[10] أن الآمر بوضع الأصول الأولى للنحو، هو الإمام علي بن أبي طالب، وأن الآخذ عنه هو أبو الأسود الدّؤلي[11]، وأخذ عن أبي الأسود نصر بن عاصم البصري[12]، وأخذ عن نصر أبو عمروبن العلاء البصري[13]، وأخذ عن أبي عمرو الخليل بن أحمد[14]، وأخذ عن الخليل سيبويه[15]، وأخذ عن سيبويه أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش[16]، في سلسلة متصلة ذكرها المؤرخون وأصحاب التراجم[17].

وهكذا تبدو النشأة البصريّة للنحو واضحة المعالم، غير أنّ هذه الرّوايات برغم ما يدعمها من اجماع تبقى قابلة للنقاش، لأنه

10- شذ عن هذا الاجماع احمد بن فارس اللغوي، يقول في كتابه الصاحبي في فقه اللغة : (إنّ العربيّة والعروض كانا معروفين قديما، ثم أتت عليها الأيام وقلّ في أيدي الناس حتّى جاء أبو الأسود فجدد العربيّة، وجاء الخليل فأحيا العروض).
ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة : 10.

11- هو ظالم بن عمرو بن سفيان، أبو الأسود الدّؤلي، قاضي البصرة، أخذ القراءة عن عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، توفي سنة(69هـ). نسب إلى التشيع وهو أول من نقط المصحف.
غاية النهاية : 346-345/1.
بغية الوعاة : 23-22/2.

12- هو نصر بن عاصم الليثي، تابعي، كان ينسب إلى الخوارج، وكان نحويّا فقيها قارئا، ألف في العربيّة واشتهر بمساهمته في رسم المصاحف.
غاية النهاية : 336/2.
بغية الوعاة : 341-313/2.

13- هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله، واسمه زبان. المازني النحوي البصري المقرئ، كان إمام البصرة في القراءات والنحو واللغة. أخذ عن التابعين وكان من أعلم الناس بأيّام العرب وبالشعر وباللغة وهو احد القراء السبعة، اشتهر بالعلم والزهد، توفي سنة(154هـ).
غاية النهاية : 288/1 ← 292.
بغية الوعاة : 232-231/2.
وفيات الأعيان : 386/1.

14- تقدمت ترجمته : انظر ص : ٤١.

15- تقدمت ترجمته : انظر ص : ٤٢.

16- تقدمت ترجمته : انظر ص : ٤٤.

17- إنباه الرّواة : 6/1. بغية الوعاة 314-313/1.

من غير الممكن أن يؤسس علم بأكمله من طرف شخص واحد؛ ذلك أن علم النحو العربي من خلال كتاب سيبويه بلغ أرقى درجات النضج والكمال،ولا يمكن أن يتمّ ذلك في فترة وجيزة،مثل الفترة الفاصلة بين أبي الأسود وسيبويه. ويدعم هذا الرّأي اختلاف الرّوايات التاريخيّة في المقدار الذي شارك به أبو الأسود، يقول الزبيدي : (سئل أبو الأسود عمّن فتح له الطريق إلى الوضع في النحو،وأرشده إليه فقال : تلقيته من علي ابن أبي طالب رحمه الله، وفي رواية أخرى قال : ألقى علي أصولا احتذيت عليها.)[18].

وإذا كان أبو الأسود قد بدأ الجهود النحويّة في البصرة منذ منتصف القرن الأوّل للهجرة تقريبا،فإنّ المرحلة التاريخيّة التي تدرج فيها النحو من أبي الأسود إلى الخليل بن أحمد تبلغ زهاء المائة سنة ، (كانت وفاة الخليل حوالي سنة 170هـ وكانت وفاة أبي الأسود سنة 69 هـ) أو بالأحرى أربعة أجيال عرفت فيها البصرة علم النحو، وتطوّر الجدل والبحث فيه، ولانجد في كتب التاريخ أو التراجم ما يشير إلى اشتغال الكوفة بالنحو في هذه الفترة،بل بقيت تنقل عن البصرة في أحسن الحالات،إلى أن التقى الكسائي بالخليل بن أحمد الفراهيدي فأخذ عنه، وكان قد أخذ عن معاذ الهرّاء قبل ذلك في الكوفة.

هذه نشأة النحو كما أوردتها كتب التراجم والنحو، لكن ابن فارس اللغوي[19] يقرر بأن العربيّة والعروض كانا معروفين قديما،ثم أتت

18- الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين : 13. ط1 ، مكتبة الخانجي. مصر ، 1954م.

19- هو أبو الحسين،احمد بن فارس الرّازي اللغوي، اشتهر بكثير من العلوم واتقن اللغة وألف فيها،واشتهر كذلك بالأدب وقول الشعر.توفي سنة:390هـ وقيل:395هـ. وفيات الأعيان : 1/35-36.

عليهما الأيّام وقلاّ في أيدي النّاس، حتى جاء أبو الأسود فجدد العربيّة وجاء الخليل فأحيا العروض؛[20] غير أن ما قاله ابن فارس لا نجد ما يؤيده إذ لا دليل على دعواه، وإن كانت دعواه مقبولة نظريا، إلا أنّها قابلة للنقاش والتثبت، وإن كانت الفكره ليست مستحيلة. لكن ما يلفت النظر هو أن العرب والمسلمين، فكروا في نهاية القرن الأول الهجري في وضع قواعد اللغة العربية خوفا عليها من الوهن والاندثار حسب رأيه[21]؛ ولم يكن ذلك مطروحا في الفترة السابقة على نزول الوحي، لسلامة الملكة اللسانيّة عندهم على ماذكره ابن خلدون. ومن هذا المنطلق نحاول البحث في الأسباب الرّئيسيّة لوضع النحو.

د- أسباب وضعه :

حاول العديد من الباحثين المعاصرين حصر الأسباب الرئيسيّة التي دفعت المسلمين العرب إلى وضع قواعد دقيقة للغتهم، وقد أرجع أغلب البحاثه[22] مشروع وضع النحو إلى الأسباب التالية :

أسباب دينيّة، أهمّها حفظ الكتاب العزيز من اللحن والتحريف لأن ظاهرة اللحن أصبحت في ذلك العصر بلوى عامّة[23].

-20 انظر مزيد تفصيل : د/ إبراهيم السامرائي :تنمية اللغة العربيّة في العصر الحديث 147. منشورات جامعة الدّول العربيّة، مطبعة الجبلاوي، 1393هـ 1973م.

-21 أرجع بعض المستشرقين وضع النحو إلى عصور متأخرة، ونسبوا وضعه إلى الأعاجم المستعربين في العصر العبّاسي، رائدهم في ذلك أن أشهر النحاة ليسوا عربا خلصا مثل سيبويه والكسائي. لكن نشأة هؤلاء عربيّة إسلاميّة جعلتهم عربا في ألسنتهم وفي علومهم وقد أخذوا عن عرب خلص، ولم ينشأوا بين الأعاجم فيمكن القول عندها إن ثقافتهم أعجمية.
انظر مثلا قول جولد زيهر في كتابه : مذاهب التفسيرالإسلامي ص:46. ترجمة عبد الحليم النجار نشر : دار اقرأ. د.ت.

-22 ضحى الإسلام : 243 فما بعدها.
الأصـــول : 22 فما بعدها.
المدارس النحوية : 11 فما بعدها.

-23 المدارس النحوية : 11-12-13.

أسباب قوميّة،متمثلة في اعتزاز العرب بلغتهم إلى درجة الخوف عليها من الفساد، وأخرى اجتماعيّة،دفعت غير العرب إلى حذق اللغة العربيّة لاسيما وهي اللغة الرّسميّة للدّولة،وهي لغة الغالب،ولغة القرآن[24]. ثم انتهى إلى إضافة سبب عقليّ، متمثل في أن العقل العربي في تلك المرحلة أصبح قادرا على رصد الظواهر اللغويّة وتسجيلها تسجيلا تطّرد فيه القواعد،وتنتظم الأقيسة انتظاما يهيء لنشوء علم النحو ووضع القوانين الخاصّة به[25].

ومع ذلك، فإننا نرى سببا محوريّا لا يمكن التغاضي عنه بحال، سبب يتعلق باللغة العربيّة نفسها موضوع علم النحو العربي، هذه اللغة بلغت ذروتها ونضجها بنزول القرآن الكريم فكان اللسان العربي أعرق الألسنة وأبلغها[26]،وأعرق اللغات الساميّة[27] آنذاك.

-24 ارجع الدّكتور تمام حسان نشأة النحو إلى ثلاثة أسباب : دينيّة وسياسيّة وقوميّة. الأصول : 22 فما بعدها.

-25 المدارس النحويّة : 12.

-26 يقول الشيخ عبد الباقي الزرقاني : (فكان القرشيون يستملحون ما شاءوا، ويصطفون ماراق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صوب وحدب،ثم يصقلونه ويهذبونه ويدخلونه في دائرة لغتهم المرنة،التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة وعقدوا لها راية الإمامة).
مناهل العرفان في علوم القرآن : عبد الباقي الزرقاني : 139/1. ط3 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1408 هـ/1988م.
ما قاله الزرقاني نجد له جذورا قديمة منذ القديم، مثاله ما ذكره أبو نصر الفارابي في كتاب الحروف.
أبو نصر الفارابي : كتاب الحروف : 146. ط2 ، دار المشرق بيروت ، لبنان ، المطبعة الكاثوليكية ، 1410هـ / 1990م.

-27 يقول الدّكتور علي عبد الواحد وافي معرّفا اللغات السامية : (ويطلقون اسم اللغات السامية على لغات هذه الأمم،وما تفرّع منها،وعلى بعض لغات أخرى ظهر لهم انتماؤها إلى الفصيلة نفسها التي تنتمي إليها هذه اللغات. فمدلولها يشمل اللغات الآكاديّة (الآشوريّة-البابليّة)،والآراميّة والكنعانيّة.(الفينيقيّة والعبريّة) والعربيّة،واليمنيّة القديمة،والحبشيّة، وأول من استخدم هذا الوصف في اطلاقه على هذه اللغات العالمان الالمانيّان : شلو تزر [Schlozer] وايكهورن [Elchhorn] في أواخر القرن الثامن عشر.
د/ علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة : 7. دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، مصر.د.ت.

وهنا لا بأس من عرض رأي "بروكلمان" عن تطور الشعر العربي قبل البعثة حيث يقول : (وتمتاز هذه اللغة الشعريّة بالوفرة الهائلة في الصيغ، كما تدل بوحدة طريقتها في تكوين الجملة على درجة من التطوّر أعلى منها في اللغات السامية الأخرى)[28]. ويضاف إلى ما قاله بروكلمان، خضوع اللغة العربيّة إلى قواعد الإعراب، ممّا يؤكد بلوغها طورا من الاكتمال لم تبلغه اللغات الأخرى. كما أن كتابة لغة معربة، أو النطق بلغة معربة، يتطلب ذهنا واعيا وعقلا ناميا، ليطابق بين المعاني التي في نفسه، وبين الرّموز التي على أواخر الكلمات المنطوق بها.[29]

ومهما اختلف علماء النحو في تحديد مفهوم الإعراب، فإن وجوده في اللغة العربيّة دليل على نضج اللغة، واستكمالها لخصائص اللغة الكاملة، فأمكن بذلك رصد ظواهرها، وتعقل صيغها لاستخراج القواعد النحويّة واللغويّة؛ وقد كان عرب نجد أمناء على اللغة العربيّة، وأصحاب المبادرة في التعريب،[30] لأنهم أولو فصاحة وبيان، حفظوا اللغة، وحافظوا عليها.

28- كارل بروكلمان : فقه اللغات السامية : فقرة 30/24. ترجمة : د/ رمضان عبد التواب. مطبوعات جامعة الرّياض ، المملكة العربيّة السعوديّة، 1397هـ/1977 م.

29- د/ أحمد سليمان ياقوت : ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم : 3، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر ، 1403هـ / 1983م.

30- تأثر عرب التخوم بالفرس والحبشة والرّومان فعرض اللحن لألسنتهم. وبقي عرب نجد ممّن كانوا وسط الجزيرة في سلامة، لكنهم ضبطوا مقاييس في التعريب لا تخرج عن قواعد الفصاحة عندهم.
الحروف : 146. دار المشرق، مطبعة الكاثوليكيّة ، بيروت، لبنان 1389 هـ/1969م.

وأكبر الأدلّة ما قيل حول نشأة الشعر ، حيث لم يشارك في ذلك كلّ العرب بالطبع،بل لم يشارك فيه إلاّ عرب وسط الحجاز،وكلّ نجد وما حولها،بالإضافة إلى جهة الفرات، على حين لم يسهم في ذلك العرب الذين كانوا تحت حكم الرّومان في سوريا إلاّ بالسماع فحسب.[31]

31- فقه اللغات السامية : فقرة 30/24.

المبحث الثاني : الكـوفة والنحـو

لم تكن الكوفة بمعزل عن الدّراسة النحويّة منذ بداية النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة على الأرجح،لأنّ أعلامها من النحاة والقراء واللغويين كانوا يتمتعون بمؤهلات علميّة،مكنتّهم من وضع أسس نحو الكوفة، لكنّه قبل ذلك بقي النحو بصريّا،يسير بخطى ثابتة من حيث الدّراسة والتعليل حيث كان نسق نموّه بطيئا[32]، بسبب دقة مسائله وضرورة الإستناد في تخصيصها إلى سند عقليّ متين،تمثل في تطويع المنطق اليوناني شيئا فشيئا. وبقي الأمر على ذلك أربعة أجيال[33]، قبل أن يلتقي الكسائي بالخليل بن أحمد،فيتعلّم ضبط المسائل،ثم يرحل إلى البادية[34]. وفي نفس الوقت كانت الآراء تفد على الكوفة مصطبغة بهذا المنهج الكوفي ممثلا بأبي جعفر الرّؤاسي[35] شيخ الكسائي،ثم الكسائي والفرّاء[36]، اللذين عدّا بحق المؤسسين لنحو الكوفة بعد أن

32- يقول الدّكتور فيليب حتّى : (إلاّ أنّ النحو العربي نفسه ينمّ عن نشوء بطيء طويل،وقد اصطبغ بتأثير المنطق اليوناني.)
تاريخ العرب : 310/1.

33- إذا اعتبرنا بداية سلسلة النحو البصري من ابي الأسود إلى الخليل فإن وفاة أبي الأسود كانت سنة(69 هـ)وكانت وفاة الخليل سنة(170هـ)ومن ثم كانت المدة الزمنيّة بين وفاة العلمين أكثر من قرن من الزمان نشأ فيه أربعة اجيال من النحاة، طوّروا المسائل وهذبوا المادّة النحويّة.

34- سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن الكسائي.

35- يرى الدّكتور مهدي المخزومي انّ القدامى ابوا إلاّ أن يذكروا أشخاصا قبل الكسائي،وأن ينسبوا إليهم المشاركة في إقامة هذه المدرسة،من بينهم أبو جعفر الرّؤاسي،ومعاذ بن مسلم الهرّاء،معللا رأيه بغياب أقوال في النحو منسوبة إلى هؤلاء أو مؤلفات خصوا بها.
مدرسة الكوفة : 74-75.

36- ستأتي ترجمته .

أخذا نحو البصرة، وغيّرا فيه،ونهجا في دراسته نهجا مستقلاّ،سار عليه المنتسبون إلى هذه المدرسة[37].

ويغلب على منهج الكوفيين[38] انطباعه بالثقافة العربيّة الأصيلة، دونما تأثر بالغ بالمناهج الموروثة من الثقافات التي ورثها المسلمون وأثرت في علومهم. وتتسم الدّراسة الكوفيّة لعلم النحو بأنها وصفيّة تقريريّة،تبتعد عن التعليل الفلسفي[39] والتعقيد. ولهذا لا يمترى أحد فيقول إنّ الكوفة لم تكن لها مدرسة مستقلّة في النحو. وقد حاول بعض الدّارسين ، نفي صفة المدرسة عن نحو الكوفة متعللا باختلاف آراء علماء الكوفة أنفسهم،مثل اختلافات الكسائي والفرّاء،وهما رأس مدرسة الكوفة. كما ادّعى البعض الآخر،أن الفرّاء رأس المدرسة البغداديّة[40]، التي تكونت في بغداد بعد الفرّاء بنحو مائة سنة[41].

وقد نرى بروكلمان،في كتابه تاريخ الشعوب الإسلاميّة،يقلّل من شأن المناظرات التي كانت تدور بين أنصار الكوفة وأنصار البصرة مبرزة التنافس النحوي، بقوله[42] : (وقد افترض العرب فيما بعد،

37- مدرسة الكوفة : 74.

38- سوف يأتي بيان خصوصيّاته.

39- د/ عبده الراجحي : دروس في المذاهب النحوية : 90، ط2. دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت، لبنان. 1408هـ/1988م.

40- يقول كارل بروكلمان [وفي بعض الرّوايات أن تلميذ الكسائي الفراء درس تفسير القرآن في مسجد الكوفة ومهما يكن من شيء فقد كان أكثر مقامه ببغداد]. تاريخ الشعوب الاسلاميّة : 193، ترجمة : نبيه أمين فارس - منير البعلبكي، ط1 دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1408هـ / 1988م.

41- نفى المستشرقين قايل صفة المدرسة عن النحو الكوفي على نهج بروكلمان. انظر مزيد تفصيل : المدارس النحويّة : 156.

42- تاريخ الشعوب الاسلاميّة : 194.

استنادا إلى روايات التاريخ الأدبي، أن الخلاف كان قائما بين مذهبين لغويين هما مذهب البصرة،ومذهب الكوفة،وأن الخلاف لم يسوّ إلاّ بعد أجيال، عندما اندمج المذهبان وتوحّدا في مدرسة بغداد، ولكن يظهر لنا أن المنافسات الفرديّة بين علماء هاتين المدرستين،-البصرة والكوفة- قد بولغ فيها إلى حدّ لا مبرر له.) وأيّده البعض؛لكنّ واقع الأمر يعكس ذلك ويفند هذه الادعاءات[43]، لأنّ هذه المدرسة كان لها وجود فعلي بسبب استقلال مصطلحاتها[44]، واستقلالها بآراء نحويّة،في مقابل ما للبصرة من آراء، وقد ضبط هذه الخلافات أعلام متأخرون[45].

43- نرى بعض المتقدمين من المتعصبين للمدرسة البصريّة -منهم أبوحاتم السجستاني- ينفون قيام مدرسة الكوفة النحويّة ويرجعون ظهور بعض علماء الكوفة على علماء البصرة إلى العامل السياسي.
المدارس النحويّة : 175.

44- سوف يأتي بيان ذلك.

45- يقول السيد احمد البراقي : [(وقد ضبط أبو البركات عبد الرّحمن بن أبي الوفاء الأنباري (المتوفي سنة : 577هـ) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين : المسائل الخلافيّة بين الفريقين فأنهاهما إلى 102 مسألة. وتبعه في ذلك أبو البقاء العكبري عبد الله بن الحسن النحوي الضرير (المتوفي سنة: 616هـ) في كتابه (التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) وزاد جلال الدّين السيوطي (المتوفي سنة : 911هـ) نقلا عن ابن إياس مسألتين : (انظر الأشباه والنظائر 147/2 ط : حيدر آباد))]
تاريخ الكوفة : 436.

المبحث الثالث : أعـــلام نـــحـــو الكـــوفـــة

المتصفح إلى ما ذكره الزبيدي في كتابه "طبقات النحويين واللغويين" يجده يذكر العديد من أعلام النحاة الكوفيين، غير أنّ إسهامهم في بلورة النحو الكوفي كان متفاوتا، خاصّة إذا تتبعنا ترجمة هؤلاء الأعلام كلّ على حدة، وحاولنا التماس جانب الإفادة أو الإضافة فيما وقع إقراره من أصول نحو الكوفة، فيظهر عندها فريقان من النحاة الكوفيين ، فريق بنى وطوّر ، فريق حفظ وروى وهذّب ونقح.

ويعتبر علي بن حمزة الكسائي -الذي سيفرد له فصل خاص به- رأس مدرسة الكوفة النحويّة، يليه تلميذه الفراء يحي بن زياد. وقد اخترنا من الفريقين جملة من الأعلام يحسن بنا الوقوف قليلا عند كلّ واحد، والتماس آثار الإفادة والزّيادة في الجانب النحوي، ولنبدأ بالفرّاء :

أ- يحي بن زياد الفرّاء

هو يحي بن زياد بن عبد الله بن منصور الدّيملي[46]، الفرّاء[47] أبو زكريّا، عدّه الزبيدي في كتابه من أبرع الكوفيين في علمهم[48]، ولد سنة أربع وأربعين ومائة (144هـ) في عهد أبي جعفر المنصور[49]، ونشأ بالكوفة وتربّى على شيوخها. وكانت أسرة الفرّاء موالية لمنقر من تميم، أو لأسلم من أسد، على خلاف في ذلك[50].

46- نسبة إلى الدّيلم وهو إقليل بالبلاد الفارسيّة.

47- يقول السيوطي : (قيل له الفرّاء ،لأنّه كان يفري الكلام [يحسن تقطيعه وتفصيله]) انظر : بغية الوعاة 333/2.

48- طبقات النحويين واللغويين : 143.

49- تاريخ الخلفاء : 260-262
[(تولى المنصور:(137هـ) وتوفي (158هـ)].

50- وفيات الأعيان : 228/2.

وكانت نشأته في بيئة علميّة متميّزة، أشرب قلبه فيها حبّ مجالس العلم، وحبّ النظر العقلي،خاصّة وأن مذهب الإعتزال قد اعتنقه معظم شباب تلك المرحلة، فأحبّ الفرّاء الفلسفة وعلم الكلام على نهج المعتزلة[51].

وانتقل الفرّاء بين الكوفة وبغداد،وكان أكثر مقامه بها[52]. وأخذ الفرّاء العلم عن معاصريه من أعلام علم اللغة والقراءات، فروى عن قيس بن الرّبيع[53]، وروى عن مندل بن علي[54]، ويونس بن حبيب[55]، والكسائي،وكان شديد التأثر به ، قال القفطي : (قال الفرّاء : قال لي قوم : ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في العلم ؟ فأعجبتني نفسي فناظرته وزدت ، فكأنّي كنت طائرا أشرب من بحره.)[56] وهذه الرّواية تدل على مصاحبة الفراء للكسائي أكثر من غيره ممّن أخذ عنهم،فغلب عليه اشتهاره باللغة والنحو،كما تبرز مكانة

51- بغية الوعاة : 333/2، المدارس النحويّة : 192.

52- وفيات الأعيان : 229/2، بغية الوعاة 333/2.

53- هو قيس بن الرّبيع الأسدي،أبو محمد الكوفي،من ولد قيس ابن الحارث روى عن كثيرين،منهم:أبو اسحاق السبيعي،والمقدام بن شريح،وابن أبي ليلي،وكان كثير التجوال لأخذ الرّواية، وثقه العديد من المحدثين،واخذ عليه إساءة الحفظ عند الكبر.
ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب : 391/8 فما بعدها. طبعة دار صادر، بيروت، لبنان 1387هـ/1968م. مصورة على ط1،حيدر آباد، الهند. 1325هـ/1908م.

54- مندل بن علي العنزي،أبو عبد الله الكوفي، روى عن الأعمش،وعاصم الأحول، وحميد الطويل،والحسن ابن الحكم النخعي،وغيرهم. لا يعتمد المحدثون على روايته وهو متهم بالضعف متروك الحديث.ولد سنة(103هـ) وتوفي سنة(167هـ) تهذيب التهذيب : 398/10-399.

55- تقدمت ترجمته. ص: ٤٤.

56- القفطي : إنباه الرّواة إلى أنباه النحاة : 264/2. ط1 دار الكتب المصريّة ومطبعتها ج.م.ع 1371هـ - 1952م.

الكسائي العلميّة.

لكن الفرّاء جمع خصالا علميّة متنوعة؛ فكان فقيها مفسّرا عالما بأيّام العرب وأنسابها[57]؛ كما اهتمّ بالعلوم الحكميّة، فذكر عنه أنه اهتمّ بالطبّ والنجوم[58]، وهو من قراء القرآن، وله اختيارات عللها في كتابه معاني القرآن، كما ترجم له ابن الجزري في غاية النهاية، وعده من القراء[59]؛ غير أن تفوق الفرّاء بدا واضحا في اللغة والنحو، ممّا جعل بعض كتب التراجم تورد أقوالا مبالغا فيها، لتنبّه إلى قيمة الرّجل من هذه الناحية، كان أبو العبّاس أحمد بن يحي[60] يقول : (لولا الفرّاء ما كانت عربيّة، ولولا الفرّاء لسقطت العربيّة)[61]. وفي تاريخ البغدادي : (وكان يقال : النحو الفرّاء، والفرّاء أمير المؤمنين في النحو)[62].

وقد عاصر الفرّاء هارون الرّشيد، وثبت قربه منه، لقرب الكسائي أستاذه منه.[63] ثم كانت علاقته بعد ذلك وطيدة بالمأمون، الذي كان يقرب المعتزلة ويقول بآرائهم، ولا يعلل قرب الفرّاء بالعامل المذهبي فحسب، لأنّ فضله العلمي لا يُنكر، وتبحره في اللغة لا نزاع فيه.

57- بغية الوعاة : 333/2،
إنباه الرّواة : 264/2،
تاريخ بغداد: 149/14 .

58- بغية الوعاة : 333/2.

59- غاية النهاية : 371/2 ترجمة رقم 3842.

60- هو أحمد بن يحي بن زيد الشيباني بالولاء ابو العبّاس المعروف بثعلب إمام الكوفيين في اللغة والنحو. سوف تأتي ترجمته وافية.
وفيات الأعيان : 30/1.

61- طبقات النحويين واللغويين : 144

62- تاريخ بغداد : 149/14 .

63- يقول القفطي : (كان الكسائي قد ادب الأمين وأدب قبله الخليفة هارون الرّشيد.)
إنباه الرواة : 260/2.

وخير دليل على ذلك ما ذكر ثمامة بن الأشرس المعتزلي،[64] عن مؤهلات الفرّاء العلميّة قبل أن يلقي المأمون -وكان كثير التردد على بابه ليلقاه- فقال : (فرأيت أبّهة أديب،فجلست إليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحرا، وفاتشته عن النحو فوجدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته رجلا فقيها عارفا باختلاف القوم، وبالنجوم ماهرا،وبالطب خبيرا، وبأيّام العرب وأشعارها حاذقا، فقلت من تكون ؟ وما أظنك إلاّ الفرّاء، فقال : أنا هو. فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون. فأمر بإحضاره وكان سبب اتصاله به.)[65] وهذه الحادثة تعكس لنا بصدق مكانة الفرّاء وثقافته السائده في عصره التي دعمها الخلفاء أنفسهم.

ولم يقف بالفرّاء طلب العلم عند حدّ،فقد كان كثير المدارسة والبحث في اللغة والنحو خصوصا،متعلقا بالكليات والجزنيات، يقول الفرّاء : (أموت وفي نفسي من (حتّى) شيء لأنها تجلب الحركات الثلاث)[66].

ولقد وصل به شغفه باللغة والنحو إلى درجة قصوى، عبّر عنها حتّى في مرضه وهذيانه،فكان يهذي نحوا ، قال سلمة بن عاصم[67] : (دخلت عليه في مرضه -أي الفرّاء- وقد زال عقله وهو يقول : إن نصبا فنصبا، وإن رفعا فرفعا.)[68]، ولاحاجة إلى التعليق.

64- هو ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن : من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين، كان له اتصال بالرشيد ثم بالمأمون، من تلاميذه الجاحظ، سمي أتباعه الثماميّة. تاريخ بغداد : 145/7.

65- وفيات الأعيان : 229/2.

66- شذرات الذهب : 19/2.

67- هو أبو محمد سلمة بن عاصم النحوي، أخذ عن الفرّاء وكان ثقة عالما حافظا، صنف : معاني القرآن، غريب الحديث، المسلوك في النحو. بغية الوعاة : 596/2.

68- بغية الوعاة : 333/2.

* منهجه في الدّراسة النحويّة :

لعلّ ما رأيناه ووقفنا عليه من الثقافة المتنوعة للفرّاء،يجعلنا نعتقد بأن منهجه سوف يكون مصطبغا بالجديد من تلك الثقافة الموسوعيّة،خاصّة ما كان من أمر الفلسفة،وعلم الكلام، لأنّ المعتزلة قد اشتهروا ببراعتهم في هذين العلمين[69]. وإذا أردنا بحق أن نقف على خصوصيّات هذا المنهج،فمن البديهي أن نطلع على ما ألفه الفرّاء في النحو خاصّة،وفي اللغة عامّة. وأشهر ما ألف في النحو ولم يصلنا كتاب الحدود[70]، الذي خصته كتب التراجم والتاريخ بالذّكر.وأثنت على مادّته العلميّة بما فيه الكفاية.

وقد حاول بعض المعاصرين استشراف المباحث الخاصّة بهذا الكتاب حيث يقول : (ويبدو لي أنّ كتاب الحدود وما تضمنه من فصول. من حدّ الإعراب في أصول العربيّة، وحدّ النصب المتولد من الفعل. وحدّ (من وربّ) وحدّ العدد، وغير ذلك من الحدود التي تعرض لموضوعات النحو المختلفة -كما ذكر ابن النديم[71]- عمل ضخم.)[72].

ولا يخالف الفرّاء أستاذه الكسائي في الأسس العامّة لمنهجه.

69- ينفي الجاحظ عن الفرّاء معرفته بعلم الكلام إذ يقول : (دخلت بغداد حين قدمها المأمون في سنة أربع ومائتين (204 هـ) وكان الفرّاء يحبّني وانا اشتهي أن يتعلم شيئا من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع).
وفيات الأعيان : 229/2.
نقول : جل الرّوايات تنفي ما نسب قوله إلى الجاحظ، وإذا صح هذا القول،فلعلّ الجاحظ يقصد علم الكلام على طريقته هو وأنصاره الذين نسبوا إليه وسمّوا الجاحظيّة.

70- شذرات الذهب : 19/2.

71- الفهرست : 100.

72- مدرسة الكوفة : 125-126.

فنجده -أي الفراء- يتسع في الرّواية اتساعا كبيرا، مستخدما الأشعار والأقوال، والقراءات الشاذّة، ومن ثم تنوعت دائرة سماعه. وقد برز ذلك خاصّة، في كتابه معاني القرآن. كما يتسع الفرّاء في القياس، فيقيس على الشاذ القليل النادر، وقد يغرق في ذلك إغراقا يبعده عن النقل[73]، معتمدا في ذلك كله على الأدلّة*، حتّى عدّ أبرع من يجيد الاستدلال؛ جاء في تاريخ بغداد : (ما أحد برع في علم الأدلّة على غيره من العلوم.)[74]، ومع ذلك فقد كان الفرّاء دقيقا واضحا، قويّ الحجّة، شهد له بذلك شيخه الكسائي نفسه، حين طُلب منه أن يقارن بين تلميذه الأحمر[75] وتلميذه الفرّاء، قال الخطيب : (قيل للكسائي : الفرّاء أعلم أم الأحمر ؟ فقال : الأحمر أكثر حفظا، والفرّاء أحسن عقلا، وأبعد فكرا، وأعلم بما يخرج من رأسه.)[76].

ويبدو أن ميل الفرّاء إلى الاعتزال، قد ساعده على الجدل والمناظرة*، فوظفها في علم النحو، واللغة مبكتا نحاة البصرة ممّن جادلوه وناظروه، وهذه إحدي الوقائع كما رواها البغدادي : (حدّث سلمة قال :

73- المدارس النحويّة : 195-196 .

* الدّليل في اللغة هو المرشد وما به الارشاد، وفي الاصطلاح : هو الذي يلزم العلم به العلم بشيء آخر. وحقيقة الدّليل هو ثبوت الأوسط للأصغر واندراج الأصغر تحت الأوسط. كشاف اصطلاحات الفنون : 392/1

74- تاريخ بغداد : 153/14.

75- انظر ترجمته بدايه من ص :**74**.

76- تاريخ بغداد : 153/14.

* الجدل هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة لتصحيح كلامه، وهو خصومة في الحقيقة. أمّا المناظرة فهي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب.
التعريفات : 74-231-232.

خرجت من منزلي فرأيت أبا عمر الجرمي[77] واقفا على بابي، فقال لي: يا أبا محمد امض بي إلى فرّائكم هذا، فقلت له امض. فانتهينا إلى الفرّاء وهو جالس على بابه يخاطب قوما من أصحابه في النحو ، فلمّا عزم على النهوض قلت له : يا أبا زكريا، هذا أبو عمر صاحب البصريين يحبّ أن تكلمه في شيء، فقال : نعم ! ما يقول أصحابك في كذا وكذا قال كذا وكذا، قال : يلزمهم كذا وكذا ويفسد من جهة كذا وكذا، قال : فألقى عليه مسائل وعرّفه الالزامات فيها، فنهض وهو يقول : يا أبا محمد : ما هذا الرّجل إلاّ شيطان -يكرر ذلك مرّتين أو ثلاثا-).[78] ولم يكن ذلك الموقف الذي وقفه الجرمي، إلاّ تعبيرا عن خروج الفرّاء عن المعتاد بما فاق به مخاطبه من أدلّة، لم يجد ما يرد به عليها. فتعمقه في النحو الكوفي يظهر من خلال ما أضافه الفرّاء من مصطلحات نحويّة خالف بها مصطلحات البصريين[79]، والأمثلة على ذلك عديدة.[80]

وبعض الباحثين المحدثين يبوّئونه منزلة المؤسس الحقيقي والإمام الأكبر لمدرسة الكوفة النحويّة[81]، لأنه يرى أن الكسائي لم يكن مماثلا له في دقّة العقل وحسن التقعيد. ودليل ذلك ما كان يستخدمه من ألفاظ الفلاسفة في مؤلفاته، مستفيدا من الفلسفة اليونانيّة[82].

77- هو صالح بن إسحاق، أبو عمر الجرمي البصري. من قبائل اليمن، كان فقيها عالما بالنحو واللغة، قدم بغداد، وأخذ النحو عن الأخفش ويونس، واللغة عن الأصمعي وأبي عبيدة، وحدّث عنه المبّرد. مات سنة خمس وعشرين ومائتين وخلف العديد من التصانيف. بغية الوعاة :8/2 .

78- تاريخ بغداد : 153/14 .

79- المدارس النحويّة : 195 فما بعده.

80- دراسة في النحو الكوفي : 213-214-215 فما بعد.

81- المدارس النحويّة : 204-205.

82- مدرسة الكوفة : 124 .

غير أن الفرّاء برغم تميّزه وتفرّده بما سلف ذكره من الخصال، لم يحد عن الأصول العامّة التي وضعها الكسائي، فكانت مادّة بحثهما واحدة مع اختلاف جزئي في المنهج[83].

ويعدّ الفرّاء أيضا رافع بناء مدرسة الكوفة النحويّة،بما وضعه من أصول،وبما خلفه من مؤلفات،أفاد منها من جاءوا بعده. وهذه المدرسة لم يكتمل بناؤها بالطبع جملة واحدة. فالنحو الكوفي ليس بدعا من النحو العام الذي نشأ في البصرة،وتطور بناؤه شيئا فشيئا،وكان للظروف العلميّة والتاريخيّة الدّور الأكبر في ذلك ولعبت السياسة دورها[84].

* **مؤلفات الفرّاء :**

ذكر ابن النديم أن أهمّ ما ألفه الفرّاء كتاب الحدود، وحاول الدّكتور مهدي المخزومي تعداد المباحث التي كان الفرّاء قد فصلها في هذا الكتاب فبلغت ستين حدّا. ونرى جلّ الرّوايات التي أوردت خبر تأليف هذا الكتاب قد أشارت إلى أهميته وهذه رواية البغدادي قال : (أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي قال : أمر أمير المؤمنين المأمون الفرّاء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، وأمر أن يفرده في حجرة من حجر الدّار، ووكل به حواري وخدما يقمن بما يحتاج إليه حتّى لا يتعلق قلبه وتتشرف نفسه إلى شيء، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصيّر له الورّاقين يكتبون حتّى صنّف

83- معجم الأباء : ياقوت الحموي : 10/7.

84- استنادا إلى رواية ثمامة بن الأشرس فإن الفرّاء قد أفاد من الثقافات الأجنبيّة. مدرسة الكوفة : 125.

الحدود في سنين وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى النّاس وابتدأ يملي كتاب المعاني.)[85]. فالمتصفح لهذه الرواية يلاحظ الأهمية العظيمة التي نالها الفرّاء من قبل أصحاب السلطة والسلطان،وما ذلك إلا دليلا على مكانته العلمية وريادته...

لاشك أن أوّل انطباع يحصل لدى قارئ هذه الرواية هو أهميّة هذا الكتاب،وأنّه من أكبر ما ألف الفرّاء في النحو واللغة،لأنّه استفرغ جهود سنين مع التفرّغ الكامل، وجلّ ما ألف الفرّاء بعد ذلك عالة على كتابه الأوّل الذي لم يصلنا -مع الأسف الشديد- ولمزيد الوقوف على أهميّة هذا المؤلف وما حواه،نورد ما أوردته بعض الأمهات من اشعار تمدح وتوضح أهمية هذا السّفر الهام والعظيم ، أنشد أبو الجهم السمري[86]:

يَا طَالِبَ العِلْمِ التَمِسْ عِلْمَ مَا * أَلَّفَهُ الفَرَّاءُ فِي نَحْوِهِ
أَفَادَ مَنْ يَأْتِيهِ مَا لَمْ يَكُنْ * يَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَحْوِهِ
سِتِّينَ حَدّاً قَاسَهَا عَالِمًا * أَمْلَهَا بِالحِفْظِ مِنْ شَدْوِهِ
عَلَى كَلاَمِ العَرَبِ المُنْتَقَى * مِنْ كُلِّ مَنْسُوبٍ إِلَى بَدْوِهِ
سِوَى مَعَانٍ وَلُغَاتٍ لَقَدْ * أَرْشَدَهُ اللّهُ وَلَمْ يُغْوِهِ
وَجَمْعَ مَا احْتِيجَ إِلَى جَمْعِهِ * وَالوَقْفَ فِي القُرْآنِ أَوْ بَدْوِهِ
وَمَصْدَرَ الفِعْلِ وَتَصْرِيفَهُ * فِي كُلِّ فَنٍّ جَاءَ مِنْ نَشْوِهِ
وَصَنْفَ المَقْصُورَ وَالمَمْدُودَ وَالتَّـ * ـحْوِيلَ فِي الخَاطِينَ أَوْ شَلْوِهِ[87]

85- تاريخ بغداد : 14/149-150.

86- هو احمد بن يوسف،بن القاسم،بن صبيح العجلي بالولاء، المعروف بالكاتب، وزير من كبار الكتّاب، من اهل الكوفة،ولي ديوان الرّسائل للمأمون،واستوزره بعد احمدابن ابي خالد الأحول، توفي ببغداد. كان فصيحا، قوي البديهة يقول الشعر الجيّد، له رسائل مدونة.
تاريخ بغداد : 5/216.

87- الشلو والشلا لغة : الجسد والجلد من كلّ شيء.
لسان العرب 14/442.
بحر الشعر : السريع.

وأهمّ ما يمكن استخلاصه من هذه الأبيات،هو أن كتاب الحدود هذا لم يكن خاصا بالنحو، بل جمع كذلك ألوانا من التفسير، وأحكام الوقف المتعلقة بالقرآن وقراءاته، وعلم التصريف واللغة. فكان بذلك موسوعة لغوية نحويّة تفسيريّة على نهج ما ألفه في معاني القرآن الذي اشتهر هو الآخر ووصل إلينا لحسن الخظ ،وأفاد منه الكوفيون والبغداديون. وتذكر كتب التراجم مع كتاب معاني القرآن[88]، مؤلفات عديدة أخرى،أفاد منها علماء العربيّة إفادة كبرى، ذكروا منها عناوين عديدة،منها ما يتعلق بالقراءات والتجويد مثل : كتاب الوقف والإبتداء، وكتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف.

ومنها ما يتعلق باللغة والنحو، فنجد من ضمن ما ألف الفرّاء كتابا في اللحن عنوانه : ما تلحن فيه العامّة[89].

كما ألف الفرّاء في النحو كتاب : المذكّر والمؤنث، وألف في اللغة مشكل اللغة الصّغير ومشكل اللغة الكبير[90] وألف المقصور والممدود، وله أيضا كتب أخرى بلغ بها مجموع كتبه التي ألفها ثلاثة وثلاثين كتابا[91]، ذكرت متفرقة في كتب التراجم[92]. وهكذا توفرت

88- أنجز الأستاذ المختار احمد ديرة،دراسة حول كتاب معاني القرآن للفرّاء،وقدمت هذه الدّراسة كرسالة ماجستير من جامعة الفاتح طرابلس.
انظر : الأستاذ المختار احمد ديرة : دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفرّاء.

89- بغية الوعاة : 333/2.

90- بغية الوعاة : 332/2.

91- دراسة في النحو الكوفي : 79 فما بعد.

92- انظر : البغدادي : تاريخ بغداد 154/14 فما بعد، وانظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان 242/11-243 وغيرها من كتب التراجم.

للفرّاء الظروف التي مكنته من التفرغ للعلم والتدوين فأفاد واستفاد.

توفي الفرّاء على أشهر الرّوايات سنة 207 هـ (في بداية القرن الثالث الهجري) بعد أن نحت ذكر اسمه في سجلّ نحاة العربيّة الذين لم يقصّروا في تأدية واجبهم،وشغفوا بهذه اللغة العريقة أيّما شغف.

ب- سلمة بن عاصم :

عدّه الزبيدي في الطبقة الرّابعة،وهو من أشهر تلاميذ الفرّاء وأصحابه،وردت ترجمته متفرقة في جملة من المصادر المشهورة[93]. كان سلمة واسع الحفظ مع الأداء له والمراجعة[94]، خاصّة ما كان من كتاب معاني القرآن الذي ينقله من أصحاب الفرّاء[95].

وكان سلمة يراجع شيخه الفرّاء في مجالس إملاء كتاب "معاني القرآن"،فيجد بعض السهو،فيناظر الفرّاء فيرجع عنها[96]. وقد تبوّأ سلمة منزلة علميّة رفيعة،بسبب سعة اطلاعه وحذقه لمنهج الفرّاء، حتّى صارت أوثق الأسانيد في تلقي نحو الكوفة هي (ثعلب عن سلمة بن عاصم عن يحي بن زياد الفرّاء)[97] شهد له بذلك ثعلب بقوله : (كان سلمة حافظا لتأدية ما في الكتب)[98]. وبذلك عدّ سلمة ممّن ركزوا دعائم

93- انظر : الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين 150.

94- ذكر صاحب معجم الأدباء أنّ سلمة بن عاصم كان أحد ورّاقي الفرّاء حين بدأ يملي كتاب المعاني.
ياقوت الحموي : معجم الأدباء : 12/20،دار المستشرق ، بيروت ،لبنان ، د.ت

95- طبقات النحويين واللغويين : 150.

96- إنباه الرّواة : 56/2.

97- طبقات النحويين واللغويين : 150.

98- إنباه الرّواة : 56/2.

نحـو الكوفـة،بما نقله من المســائل،وحـفـظه،وطلب مراجـعـتـه ومـذاكـرته وأضاف ما يمكن إضافته.

وهذا مـا يمكن أن نطلق عليه "الـصبغة التـراكمـيّة لمسائل النحـو الكوفي"*، والتي تكون كلّ مدرسـة علمـيّة في حـاجة إليـهـا. ولـم يكتف هذا العلم الكوفي بـالحـفـظ والنقل وتقـرير المســائل، بل تـفـرّد كـذلك بمؤلفـات قيّمـة[99]، منهـا : كـتـاب "مـعـاني القـرآن" الذي أراد بتـأليـفـه -على الأرجح- استـدراك مـا فـات الفـرّاء،أو مـا سـهـى عنه،أو الاسـتـقـلال ببـعض المســائل والآراء،فـألف هذا الكـتـاب على نهـجـه الخـاصّ. والمؤسف أن هذا المؤلف لـم يصل إلينا. ومـن تآليـفـه أيضـا المسلوك في العـربيّة، ولـم يصل هو الآخر، وألف كتاب "غـريب الحديث"[100]، وغيرها كثير فليعد إلى كتب الطبقـات طالب المزيد[101]. وبذلك عـدّ سلمة مـحـدّثا[102]، مثلمـا عـدّ قارنا[103]، روى عنه أسـتـاذه يحـي بن زياد الفـرّاء، وروى القـراءة عـن أبـي الحـارث

---

* إذا تعددت الآراء واختلفت،ونقل الخلف أقوال السلف،هيأ ذلك الأمر لقيام مدرسة لها تراثها ومراجعها وآراؤها،وهذا ما حصل للنحو الكوفي مثل غيره من نحو المدارس الأخرى.

99- معجم الأدباء : 243/11.

100- إنّ اتصـاف الكوفـة بوضع الأحـاديث لوجـود المعـارضـة بهـا،لا ينفي عـن أعلامـهـا عنايتهم بالعلوم النقليّة،وعلى رأسها علوم الحـديث،وأكبر دليل على ذلك هو عناية سلمة بن عاصم وغيره بعلم الحديث والرواية والنقل عموما.

101- ذكـر له صاحب هدية العـارفين كـتـاب الحلول،زيادة على كـتـاب "مـعـاني القـرآن" و"غريب الحديث".
إسماعيل باشا البغدادي : هديّة العارفين من كشف الظنون : 395/5. دار الفكر، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/ 1982م.

102- تاريخ بغداد : 134/9.

103- غاية النهاية : 311/1، ترجمة رقم 1367.

الليث بن خالد[104]، وكانت وفاته سنة سبعين ومائـــتين من الهجرة النبويّة (270هـ - 884م)[105]. توفي سلمة بعد أن ترك ميراثا نحويّا أفاد منه بلا شك علماء نحو الكوفة بالخصوص وأضافوا لبنات في بناء مدرسة الكوفة النحويّة.

ج- ابن السكيت :

هو يعقوب بن إسحاق[106] أبو يوسف بن سكيت، من الطبقة الثالثة، ولد سنة (186هـ-802م) بحوزستان[107] ثم التحق ببغداد للتعلّم منذ الصّغر.

كان ابن السكيت عالما بنحو الكوفيين، وعلم القرآن، واللغة، والشعر، أخذ عن البصرين والكوفيين. فأشهر من أخذ عنهم من الكوفيين: يحي بن زياد الفرّاء وأبو عمرو الشيباني[108]، والأثرم[109]، وابن

104- ثقة معروف، حاذق ضابط، عرض على الكسائي وهو من جلّة أصحابه وروى الحروف عن حمزة بن القاسم الأحول وعن اليزيدي، روى القراءة عنه عرضا وسماعا سلمة بن عاصم صاحب الفرّاء توفي سنة أربعين ومائتين (240 هـ).
انظر : غاية النهاية 34/2.

105- هذا ما رواه ابن الجزري في غاية النهاية بينما ذكر اسماعيل باشا البغدادي أنه توفي سنة (310هـ) وهو مستبعد.

106- كان ابن إسحاق من أصحاب الكسائى عالما بالعربيّة والشعر.

107- منطقة بين البصرة وفارس.
المسالك والممالك : 62.

108- هو إسحاق بن مرار الشيباني بالولاء، لغوي وأديب من رمادة الكوفة، سكن بغداد ومات بها، أخذ عنه جماعة منهم احمد بن حنبل. الف كتبا عديدة منها "كتاب اللغات" و"كتاب الخيل" و"كتاب النوادر"
وفيات الأعيان : 65/1.

109- هو علي بن المغيرة أبو الحسن الأثرم، قال الخطيب : صاحب النحو والغريب واللغة توفي سنة (232 هـ)
بغية الوعاة : 206/2.

الأعرابي[110] من البصريين[111]. رتبه السيوطي في المرتبة الثانية بعد ابن الأعرابي من حيث سعة اطلاعه وإحاطته بالرّواية وتحقيقه للمسائل. يقول : (ولم يكن بعد ابن الأعرابي مثله)[112].

اتصل ابن السكيت بالمتوكّل العبّاسي لتأديب ولديه وصار من ندمائه، لكن ذلك لم يدم طويلا لأنّ المتوكّل كان سببا في مقتله على ما روته كتب التراجم والتاريخ،[113] لأنه كان شيعيّا[114]. أمّا عن مكانته العلميّة فإنّ ابن السكيت يعدّ من أعلم الناس باللغة والشعر،وقد صنف في ذلك التصانيف العديدة، مهتمّا خاصّة بإصلاح المنطق، ممّا يوحي بانتشار موجة اللّحن في اللغة العربيّة على عهده، وكتابه إصلاح المنطق من أشهر كتبه وهو مطبوع.[115] وألف كذلك "كتاب القلب والإبدال" وهو من المباحث النحويّة التي لها علاقة وطيدة بالدّراسة الصوتيّة، وألف كتاب النوادر ،وكتاب الألفاظ ،وكتاب الأضداد ،وغيرها[116].

110- هو محمد بن زياد أبو عبد الله بن الأعرابي، كان نحويّا عالما باللغة والشعر، وله من كتب : النوادر، الأنواء، معاني الشعر، تفسير الأمثال وغيرها من الكتب. ولد سنة(150هـ)وتوفي سنة(233 هـ).
بغية الوعاة : 1/105-106 .

111- بغية الوعاة 2/249 .

112- نفس المصدر 2/249 .

113- كان ذلك سنة (244هـ) على ما حققه السيوطي ، انظر : تاريخ الخلفاء : 409، بغية الوعاة : 2/349

114- معجم البلدان : 20/51 .

115- الأعلام : 8/195 .

116- معجم الأدباء : 20/52 .

د- أبو العبّاس ثعلب :

هو أحمد بن يحي بن يسار الشيباني ولاء، ولد ببغداد سنة مائتين، واشتهر بالنحو، واللغة والأدب[117]، والقراءات[118].

أخذ ثعلب العلم عن أعلام معروفين، منهم ابن الأعرابي الذي اشتهر بملازمته له، وأخذ عن سلمة بن عاصم فحفظ كتب الفرّاء، وكان ممثلا لنحاة الكوفة، في مقابل المبرّد الذي كان يمثل نحاة البصرة في بغداد[119].

ألف الإمام ثعلب كتاب المجالس الذي وصل إلينا من دون المراجع الأخرى الكوفيّة التي ضاع معظمها، فكان كتابه المجالس حافظا لتراث الكوفة اللغوي والنحوي مبرزا تطوّرها وثراءه.

ويبدو أن الإمام ثعلب من العلماء الذين شكلوا همزة الوصل بين نحو الكوفة ونحو البصرة، لينصهرا ويظهرا في مذهب النحو البغدادي فيما بعد[120]، لأن ثعلبا سبق إلى بغداد قبل غيره من المنافسين البصريين. يقول أبو الطيب اللغوي متحدّثا عن سند ثعلب في علومه : (كان ثعلب يعتمد على ابن الأعرابي في اللغة، وعلى سلمة بن عاصم في

117- بغية الوعاة : 398/1.

118- ترجم له ابن الجزري في غاية النهاية فقال عنه : (ثقة كبير له كتاب في القراءات روى القراءة عن سلمة بن عاصم ويحي بن زياد الفرّاء) غاية النهاية في طبقات القرّاء : 148/1.

119- انظر : مقدمة المحقق الدّكتور عبد الجليل عبده شلبي لكتاب : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ص 12. ط1 دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.

120- كان المبرد يتزعم نحاة البصرة في بغداد. الزجاج : معاني القرآن وإعرابه : 16 (مقدمة المحقق عبد الجليل شلبي).

النحـو، ويروي عن ابن نجـدة[121] كـتـب أبي زيد[122]، وعن الأثـرم[123] وأبـي عبيدة[124] وعن أبي نصـر[125] كتب الأصمعي[126]، وعن عمـرو بـن أبـي عمرو[127] كتب أبيه)[128]*.

وعلى هذا الأساس كان انتقال نحاة الكوفة والبصرة إلى بغداد، عاملا ممهدا لقيام المدرسة البغداديّة النحويّة، فالجيل الذي عاصره ثعلب

121- ترجم له ياقوت في معجم الأدباء وقال عنه :(مشهور في اهل الأدب، وله خطّ مرغوب فيه، قرأ على الفضل بن الحباب الجمحيّ).
معجم الأدباء : 188/18.

122- هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن قيس،يرجع نسبه إلى الأنصار، جدّه صحابي جليل روى عنه سيبويه وغيره، كان إماما نحويا صاحب تصانيف أدبيّة ولغويّة عديدة توفي سنة:(225هـ).
بغية الوعاة : 582/1-583.

123- تقدمت ترجمته : انظر ص :69.

124- هو معمر بن المثنّى اللغوي البصري أبو عبيدة مولى بني تيم، أخذ عن يونس بن حبيب وأبي عمرو، نسب إلى الخوارج وكان عالما بالأنساب والأيّام واللغة، صنف العديد من الكتب توفي سنة(209 هـ).
بغية الوعاة : 296/2-297.

125- هو عبد الملك بن عصام أبو نصر البغدادي مقرى، قرأ على أبي بكر بن مجاهد، قرأ عليه أحمد بن اسماعيل الظاهري.
انظر : لابن الجزري : غاية النهاية 470/1.

126- عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعي الباهلي : إمام اللغة وأحد الأعلام فيها وفي الشعر والأدب وأنواع العلم روى القراءة عن نافع وأبي عمرو والكسائي.
غاية النهاية : 470/1.

127- ذكره الزبيدي في الطبقة الثالثة من اللغويين الكوفيين، وقال توفي سنة:(231هـ).
بغية الوعاة : 228/2، طبقات اللغويين والنحويين : 224.

128- بغية الوعاة : 396/2.

*- من أهم ما صنف أبوزيد : لغات القرآن، اللغات، النوادر، تخفيف الهمز الواحد، الأمثال، قراءة أبي عمرو.
نفس المصدر : 583/1.
صنف الأصمعي عديد المصنفات منها : غريب القرآن، المقصور والممدود، كتاب الأضداد، كتاب أصول الكلام، كتاب القلب والابدال، كتاب معاني الشعر، وغيرها من الكتب.
نفس المصدر : 113/1.

جيل جمع بين الأخذ عن نحاة الكوفة ونحاة البصرة الذي تيسر في بغداد،فكان ثعلب يدرّس في المسجد نفسه الذي يدرّس فيه المبرّد[129]، فكثرت بينهما المناظرات[130]، ونشأ جيل جديد من النحاة جمع بين مزايا المدرستين[131].

والمتأمّل في شيوخ ثعلب يجد أنّ هذا الرّجل قد سعى إلى الإحاطة باختصاصات متنوّعة،بحسب ما أملته عليه ثقافة عصره وزيادة، فقد ألف في القراءات، وفي غريب القرآن،ومعاني القرآن[132] وإعرابه[133]، وأتقن نحو الكوفة ونحو البصرة[134]، توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين[135]، وهو من الطبقة الرّابعة.

129- معاني القرآن وإعرابه : 12.

130- معجم الأدباء : 136/5، بغية الوعاة : 397/1.

131- كانت نشأة تلاميذهما (ثعلب والمبرّد) على الخوض في دقائق نحو الكوفة، والبصرة،والتّعمق في جزئياته،ثم اصطفى من جاءوا بعدهم مذهبا غلب عليه في مرحلة أولى نحو الكوفة أو نحو البصرة،ثم خلص ليصبح المذهب أو المدرسة البغداديّة في النحو.
المدارس النحويّة : 245.

132- بغية الوعاة : 298/1.

133- نفس المصدر 299/1.

134- يدلّ على ذلك ما رواه ياقوت في معجم الأدباء،من أن ثعلبا عرف كتاب سيبويه من قراءته الخاصّة،وقد أكّد الدّكتور شوقي،علم ثعلب بنحو البصرة حين تحاور مع الرّياشي يقول : (وفي محاورة بينه وبين الرّياشي لسنة (230) للهجرة ما يدلّ دلالة واضحة أنّه كان قد حذق النحو الكوفي والبصري جميعا.)
معجم الأدباء 120/5-121،
المدارس النحوية : 225.

135- بغية الوعاة : 297/1.

هـ- الأحمـر :

هو علي بن الحسن،وقيل ابن المبارك،من الطبقة الثانية، يعدّ من أبرز أعلام مدرسة الكوفة،وهو من السابقين الأُوَل الذين ساهموا مساهمة فعّالة في جمع المادّة النحويّة. شهد له الكسائي نفسه بالبراعة وكان استخلفه لتعليم أبناء الرّشيد. قال فيه : (ما أعرف في أصحابي أحدا مثله في الفهم والصّياغة ولست أرضى لكم غيره)[136]. ولعلّه انحاز في تعيينه حتّى لا يؤتى بمن ينافسه،لأنّ الأحمر كان من أنصار الكسائي، وكان قد اشتهر بكثرة حفظه،وهو أوّل الكوفيين تأليفا في علم التصريف على ماروي في ذلك[137].

والأحمر من المساهمين الكبار في جمع مادّة نحو الكوفة، خاصّة من حيث الشواهد،التي فاق في إتقانها الفرّاء علم المدرسة الكوفيّة بعد الكسائي؛ يقول ثعلب : (كان الأحمر يحفظ أربعين ألف شاهد في النحو، وكان مقدما على أفراد في حياة الكسائي، وأملى الأحمر شواهد النحو، فأراد الفرّاء أن يتمّمها فلم يجتمع له الناس كما اجتمعوا للأحمر، فقطع.)[138]، كما يروى أن الأحمر ناظر سيبويه في مجلس يحي بن خالد البرمكي[139]. توفي سنة (294 هـ).

136- بغية الوعاة : 159/2.

137- معجم الأدباء : 5/13.

138- بغية الوعاة : 159/2.

139- ابن الأنباري : الانصاف في مسائل الخلاف : 703/2، المكتبة العصريّة للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1407هـ / 1987م .

و- علي بن سلمان الأخفش الأصغر :

هو من الطبقة الخامسة، يعدّ حلقة من حلقات المدرسة البغداديّة برغم انتسابه إلى الكوفة، روى عن المبرّد وثعلب وغيرهما[140]، ولم يحظ الأخفش الأصغر بما حظي به العديد من النحاة -قبله وبعده- من حسن المعيشة[141]. ولعلّ ذلك الأمر قد أثر عليه فجعله غير مستقرّ الحال فلم يتوفّر له ما توفّر لغيره من شهرة وكرامة. تذكر كتب التراجم أنه تنقل بين بغداد ومصر وحلب، ولعلّ المرزباني[142] لم ينصفه حين قال فيه : (لم يكن الأخفش بالمتسع في الرّواية للأشعار والعلم بالنحو،وما علمته صنف شيئا،ولا قال شعرا،وكان إذا سئل عن مسألة ضجر وانتهر من يسأله.)[143]. للأخفش مؤلفات : ذكر منها : شرح سيبويه - أي الكتاب - والأنواء ، والتثنية ، والمهذب وغيرها من التآليف والتصانيف[144]، ولعلّه في ترحاله قد أفاد بعلمه خاصّة ما كان من نزوله بمصر وذهابه إلى حلب. وهو معتبر في علماء نحو الكوفة. أمّا ضيق باله ونهره لمن يسأله فالأرجح أنه راجع إلى شظف عيشه وقلّة حظّه في الدّنيا فلم يتمكن من الإشعاع،ولم يشتهر فأثر كلّ ذلك على مزاجه[145]، توفي الأخفش الأصغر سنة (315هـ).

140- وفيات الأعيان : 332/1.

141- نفس المصدر : 333/1.

142- هو محمد بن عمران بن موسى المرزباني، إخباري مؤرخ اديب،أصله من خراسان،ألف التصانيف العديدة،توفي سنة(384 هـ).
الأعلام : 319/6.

143- وفيات الأعيان : 332/1،
بغية الوعاة : 168/2

144- بغية الوعاة : 168/2

145- نفس المصدر : 168/2.

ز- أبو بكر بن الأنباري :

عدّ في الطبقة السّادسة ؛ اسمه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري نسبة إلى الأنبار، -وهي منطقة على الفرات قرب بغداد- كان مولده سنة(271 هـ). أخذ عن ثعلب وعن غيره، وكان كثير الحفظ حريصا على طلب العلم. كان أبو بكر الأنباري موسوعيّ الثقافة واسع الإطلاع، فهو نحوي وأديب، ولغوي ومحدّث وقارئ، وكان يحفظ الكثير من الشعر. يقول السيوطي : (وكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهدا في القرآن، وكان يملي من حفظه لا من كتاب)[146]، ومهما تحدثت الرّوايات عن كثرة حفظه إلى درجة المبالغة أحيانا[147]، فإنّ ما يهمّنا من شخصيّة أبي بكر أنه كان معتبرا من بين أعلام مدرسة الكوفة النحويّة، وهو أحد من دعموا النحو الكوفي بالعلل المنطقيّة دعما لم يتوافر لشيخه ثعلب[148]، زيادة على ما أضافه من آراء تتعلق بنحو الكوفة[149]. وأبو بكر القارئ من أوّل القراء الذين أقرأوا بالقراءات العشـــر، وقرأوا بها[150]. وهو بذلك قد جمع بين النحو، والقراءات، على نهج أسلافه من أعلام نحاة الكوفة وقرائها. أشهر تلاميذ أبي بكر بن الأنباري : الحسين بن خالويه[151]، وأبو

146- نفس المصدر : 212/1

147- يقول السيوطي : (وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا بأسانيدها.) بغية الوعاة 212/1.

148- المدارس النحويّة : 239.

149- ابن هشام : المغني : 157، السيوطي : همع الهوامع 212/1.

150- ابن الجزري : منجد المقرئين ومرشد الطالبين : 30، دار الكتب العلميّة ، بيروت لبنان ، 1400هـ/ 1980م .

151- هو صاحب كتاب الحجّة في القراءات السبع، دخل بغداد سنة (310 هـ) وهي تعج بالعلماء، فنشأ في بيئة علمية، توفي بحلب سنة:(370 هـ)، إخذ عن أعلام منهم ابن مجاهد، وابن دريد، وابن الأنباري، والسيرافي. عاصر المتنبي، وابن جني. إنباه الرواة إلى أنباه النحاة : 325/1.

إسماعيل القالي[152]، والدّار قطني[153]، وغيرهم، عاصر أبا بكر بن مجاهد فشهد له بالتفوق وسعة الإطلاع. ألف أبو بكر في اللغة والنحو، وفي علم القراءات،وألف في الحديث والأدب، أشهر ما ذكر له من التصانيف:الزاهر في اللغة، وأدب الكاتب،والمقصور والممدود، والواضح في النحو، والأضداد والمشكل، والمذكو والمؤنث،والوقف والابتداء[154]. من مؤلفاته ما هو مفقود،ومنها ما هو مخطوط،ومنها ما هو مطبوع[155]. توفي أبو بكر سنة:(328 هـ)[156].

152- هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون،ولد سنة:(288 هـ) وقدم بغداد سنة:(303 هـ) فأخذ عن علمائها وخرج سنة:(328هـ) منها،ودخل قرطبة سنة:(330هـ) وصنف بها النوادر،والأمالي،والمقصور والمدود،وغيرها من التصانيف توفي سنة: (356هـ).
بغية الوعاة : 453/1.

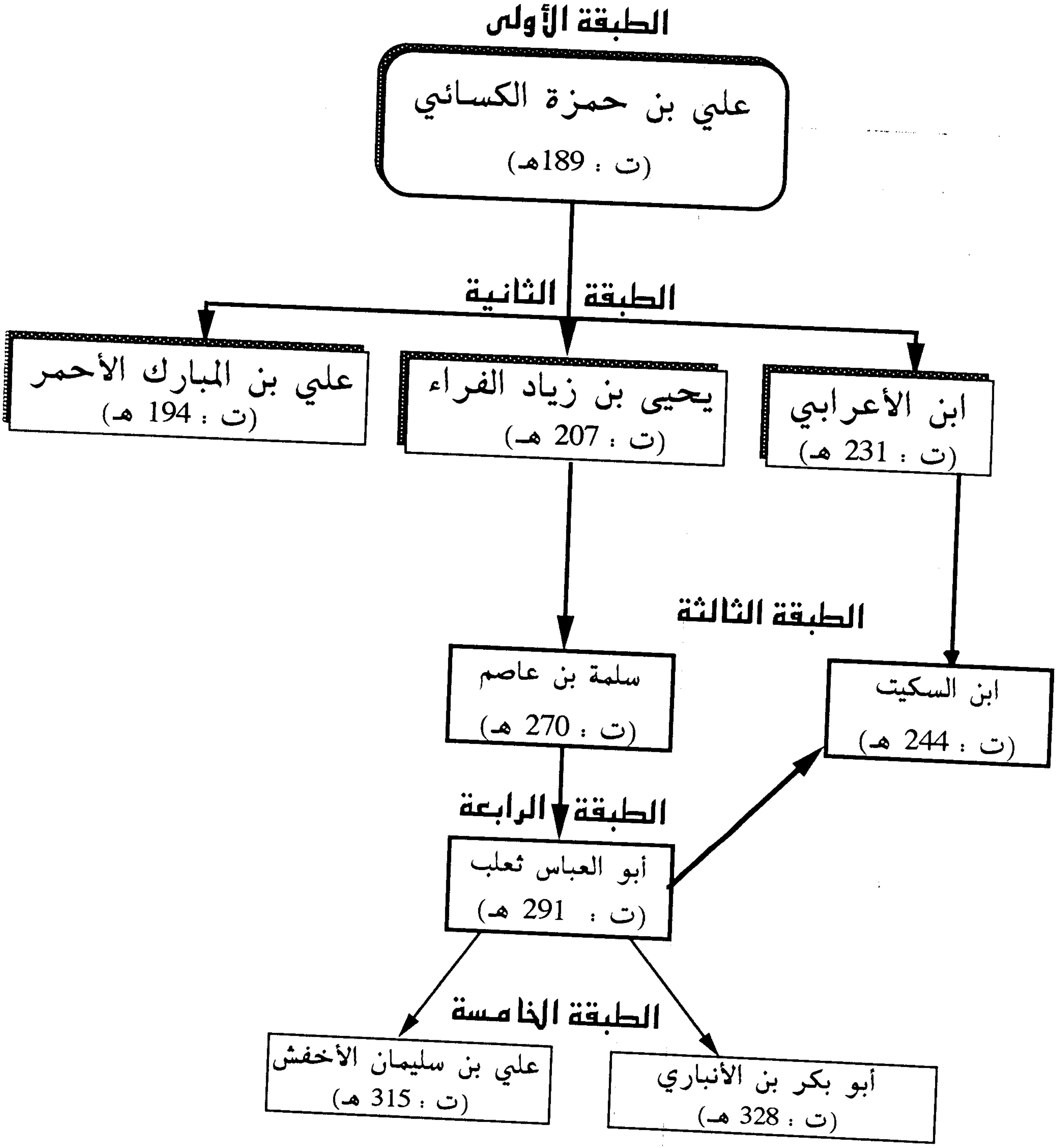
153- هو شيخ الإسلام.أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد البغدادي، كان مولده سنة ست وثلاثمائة (306 هـ)،سمع الكثير، وارتحل في كهولته إلى مصر والشام، وصنّف التصانيف،منها : السنن،وكتاب المختلف والمؤتلف، وكتاب العلل،والاستدراك على الصحيحين. توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. **(385 هـ)**.
وفيات الأعيان : 331/1.

154- بغية الوعاة : 213/1.

155- الأعلام : 334/5.

156- بغية الوعاة : 214/1.

أشهر أعلام مدرسة الكوفة النحوية *



* أُعتمد في وضع هذا المشجر على: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي. ومدرسة الكوفة للمخزومي.

المبحث الرّابع : أهمّ ما ألف في النحو الكوفي*

لقد أُلّفت الكتب العديدة في نحو الكوفة، منذ قيام هذه المدرسة -خاصة بعد قدوم الكسائي من البادية- إلى حدود النصف الأوّل من القرن الرّابع الهجري. لكنه لم يصلنا ممّا روي عن الرّواة إلاّ النزر اليسير.

ويعتبر كتاب معاني القرآن للفرّاء من أهمّ ما ألف في هذا المجال، وكذلك كتاب مجالس ثعلب، وبعض الكتب الأخرى[157]. غير أن هذه المؤلفات لم تخلص للنحو، لأنها كانت تحتوي على التفسير واللغة وعلم التصريف، وغيرها من مباحث القرآن، من أوجه القراءات، وبعض أوجه الفصاحة والبيان. ولم تأخذ شكل التآليف النحويّة المستقلة، المبوبة بحسب مباحث علم النحو إلاّ في فترة متأخرة. ويمكن تقسيم هذه المؤلفات إلى ثلاثة أقسام :

I) أ- مؤلفات تناولت مسائل النحو والتصريف متفرقة، وأدرجتها مع جملة من العلوم كالتفسير، والقراءات، التي كانت تحتوي على بعض الدّراسات الصوتيّة واللهجيّة، والمباحث اللغويّة مثل كتاب معاني القرآن للفرّاء[158].

---

* يندرج ضمن ذلك الكتب التي تحدثت عن النحو الكوفي والبصري، أو البصري والبغدادي والكوفي أو غيرها من مذاهب النحو.

157- مثل إصلاح المنطق لابن السكيت الذي وصل إلينا وكتاب معاني القرآن للكسائي ومعاني القرآن لثعلب وغيرها من الكتب التي لم تصلنا. وإصلاح المنطق كتاب في اللغة عامّة.

158- دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفرّاء : 115.

ب- مـؤلفـات تناولت بعض الأبواب النحـويّة وأفـردتهـا بالدّراســة مـثل كـتب : المذكـر والمؤنث[159]، والعــدد ، وغـيـرهـا من المؤلفات ، وجلّ هذا الصنف من المؤلفات ألفه نحاة كوفيون.

II) - مؤلفات تجمع بين النحو الكوفي والبصري خاصّة في مرحلة انتقال النحاة إلى بغداد وتلاقح آرائهم[160]، فنتج عن ذلك :

أ- مـؤلفـات لكوفـيين طغى عليـهـا نحـو الكوفـة وذكـرت مسائـل من نحو البصرة[161] للمقارنة.

ب- مـؤلفـات لبـصـريين طغى عليـهـا نحـو البـصـرة وذكـرت مسائـل مـن نحو الكوفة[162] للمقارنة.

III) هذه المرحـلة كـانت بعـد ظهـور مـدرسـة بغـداد وتشـعب الدّراسـات النحـويّة ،التي تميّزت عندهـا بالمقـارنـة والتـرجـيح للأصـوب، بالرّغم من انتمـاء المؤلفين في هـذا المجـال إلى مـدارس نحـويّة مـعـروفـة. فظهرت :

أ- مـؤلفات تعـرض للمسـائل الخلافيّة بين نحاة البـصـرة ونحـاة الكوفة ،نذكـر أشهـر مؤلفين في هذا المجال وهمـا أبو البركـات ابن الأنباري الذي ألف كـتـاب "الإنــصـاف فـــي مـســائل الــخـــلاف"، وأبو البـقـاء

159- الف "المذكر والمؤنث" أبو بكر بن الأنباري و ألف قبله الفرّاء كتابا بنفس العنوان. بغية الوعاة : 87/2 .

160- برع من رجال المدرسة البغداديّة النحويّة : أبو علي الفارسي، وابن جنّي، وابن كيسان وابن شقير وابن الخياط.
تاريخ بغداد : 335/1 ،
بغية الوعاة : 302/1.

161- المدارس النحويّة : 245.

162- نفس المرجع:245.

العكبري[163]، الذي ألف كتاب "التبيين في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين".

ب- ثم جاءت في مرحلة لاحقة -مع المدرسة المصريّة والمدرسة الأندلسيّة في النحو- مؤلفات تذكر أيضا الآراء الخلافيّة، وتتوسع أكثر في الترجيح بينها،خاصّة ما كان من ابن هشام الأنصاري[164] في مصر،الذي ألف الكتب العديدة في النحو. ومن أهمها كتاب مغني اللّبيب الذي تعرض فيه للخلافات النحويّة بين الكوفيين والبصريين معللا أسباب الخلاف،مستقلا ببعض الآراء في كثير من الأحيان.

IV) المرحلة الحديثة وهي من بداية القرن الرّابع عشر الهجري إلى يومنا الحاضر،وقد كانت التآليف النحويّة في هذه الفترة متميّزة بالمختصرات النحويّة أو الشروح عليها،وهذه سمة بارزة في هذه الحقبة التاريخيّة؛ غير أنّ الملفت للإنتباه،هو ظهور كتاب استقل بالنّحو

163- هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين،محب الدّين أبو البقاء الكبري. ولد في أوائل سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ببغداد وأصله من عكبرا،أخذ معظم علمه عن أبي يعلي القرّاء،ولازمه حتّى برع في المذهب والخلاف والأصول،له تآليف عديدة.توفي سنة:ست عشرة وستّمائة. (616 هـ).
بغية الوعاة : 2/38-39.

164- هو أبو محمد عبد الله جمال الدّين بن يوسف،بن احمد بن عبد الله،بن هشام الأنصاري المصري،ولد بالقاهرة عام ثمان وسبعمائة من الهجرة (708هـ-1309م)، له سعة إطلاع وبراعة بالنحو،بدت واضحة في كثرة مؤلفاته، كان منهجه على أثر بن جنّي، قال عنه ابن خلدون : (مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربيّة،يقال له ابن هشام،أنحى من سيبويه.)
انظر : ابن هشام الأنصاري:مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد.

الكوفي ، للكنغراوي[165]، المعنون بـ : الموفي في النحو الكوفي.

ثم تأتي المؤلفات الأكاديمية الحديثة التي تميّزت بميزتين :

أ- الخلوص لدراسة مدرسة من المدارس النحويّة لاستخلاص سمات نحو تلك المدرسة،أو الإعتماد على مؤلف لأحد الأعلام،أو تناول شخصيّة نحويّة من مدرسة من المدارس،وتسليط الأضواء عليها من جميع الجوانب[166].

ب- البحث في المؤثرات التي حامت حول مدرسة من المدارس والكشف عن درجة إسهامها وتأثيرها في بناء تلك المدرسة[167].

165- هو عبد القادر بن عبد الله الكنغراوي الأصل الإستانبولي، أبو طلحة ، قاضي حنفي له اشتغال بالتاريخ والنحو، صنف كتبا بالعربيّة والتركيّة وانتقل في بلدان عديدة من المشرق العربي حيث ولي بها القضاء (توفي عن سبعين سنة) سنة 1349هـ/1931م.
الأعلام : 4/40-41.

166- مثاله كتب :
مدرسة البصرة : د/ حسنين السيد. الفرّاء : د/ احمد مكي الأنصاري.
مدرسة الكوفة : د/ مهدي المخزومي.أبو علي الفارسي : د/ عبد الفتاح شلبي.
المدارس النحويّة : د/ شوقي ضيف.دراسة : الكسائي : د/ احمد مكي الأنصاري.
دراسة في النحو الكوفي : الأستاذ المختار أحمد ديرة.

167- نحو القراء الكوفيين : خديجة مفتي، رسالة ماجستير/جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، طبع ونشر المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، 1406هـ/1985م.

الفصل الثالث :

دور الكسائي في تأسيس مدرسة الكوفة النحويّة

المبحث الأوّل :

الكسائي : نشأته وحياته العلميّة.

لا غرابة إذا ما رأينا اختلافا بين المحدثين في من هو مؤسس المدرسة النحويّة الكوفيّة، لأنّ أشهر أعلامها قد اشتهرا بسعة الاطلاع وبطول الباع في شتّى العلوم والفنون،حتّى أصبح من العسير ترجيح كفة أحدهما على الآخرعلى المستوى العلمي والمعرفي. لكن صاحب كتاب مدرسة الكوفة يعتبر الكسائي هو المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة النحويّة[1]، على عكس الأستاذ شوقي ضيف الذي يعتبر الفرّاء،الواضع الحقيقي لأسس هذا البناء الفريد من نحو الكوفة العربي[2].

ونرى أنّ القضيّة ليست في الكشف عن رجحان أحد القولين على الآخر،لأن كلاّ من هذين العلمين قد أبدى ما عنده فاستفاد من أتى بعده. والمتفحص لكتب التراث وأمهات تاريخ الطبقات،يلاحظ أنّه ثمة إجماع على أن الكسائي هو مؤسس هذه المدرسة،وأن الفرّاء طالب من طلابه المتفوقين،ممّا يحيلنا مباشرة إلى أهميّة الكسائي ورفعة منزلته العلميّة،فضلا عن كونه قارئا من القراء السبعة،رتبه ابن مجاهد سابع القراء،بعد أن كان يعقوب الحضرمي سابعهم، وهذه الشهادة لها قيمتها العلميّة والتاريخيّة والمعرفيّة، فمن هو علي بن حمزة الكسائي ؟.

1- لا ينفرد الكسائي بهذا الفضل لوحده بالطبع،بل كذلك الفرّاء لكن الكسائي هو شيخ الفرّاء كما انه هو الأسبق في الصناعة،متميزا بلونه الذي نحى نحوه الفرّاء واضاف اليه.
مدرسة الكوفة : 74 ⟵ 97.

2- المدارس النحويّة : 196.

أ - اسمه ونسبه وكنيته : هو علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان، من ولد بهمن بن فيروز[3]، يرجع نسبه إلى الفرس. وهو مولى لبني أسد[4]. كان من أهل باحمشا[5]. ودخل الكوفة في صغره، واشتهر بكونه منها[6] وكنيته أبو الحسن[7]. ونعته الكسائي لقبا بسبب إحرامه في كساء[8]، ولد سنة (119 هـ) -على المشهور-، وترعرع بالكوفة[9]. هذا تقريبا أهمّ ما نجده في جملة من كتب التراجم، عن اسم الكسائي ونسبه وكنيته، والملفت للانتباه هو أنه ليس عربيّا، فهو من موالي بني أسد، كان منذ نشأته تواقا إلى معرفة اللغة والإلمام بها. وكان من طلبة الخليل هو وسيبويه علم النحو البصري. هذا الأمر يعكس العناية الكبرى التي كان يوليها غير العرب للعربيّة، لترفع من درجتهم، وتزيد من حظوتهم، في مجتمع تدعّم فيه أمر الموالي من

3- تاريخ بغداد : 404/13.
معجم الأدباء : 166/13.

4- أسد : اسم عدّة قبائل، منها ما كان بالكوفة، ومنها ما كان بالبصرة، وكان بالكوفة بنو أسد بن خزيمة. معجم القبائل العربيّة : 21/1.
نسب الكسائي إلى بني أسد ولاء. إنباه الرّواة : 256/2، ترجمة رقم : 456.

5- باحمشا : منطقة بين أوانا والحظيرة، كانت بها وقعة للمطلب بن مالك الخزاعي أيّام الرّشيد.
إنباه الرّواة : 256/2.

6- معجم الأدباء : 167/13.

7- أحمد بن أبي عامر الأندرابي : قراءات القراء المعروفين بروايات الرّواة المشهورين : 119. تحقيق أحمد نصيف الجنابي، ط3، مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان، 1407هـ/1986م.

8- تاريخ بغداد : 404/11، مروج الذهب : 354/3، بغية الوعاة : 162/2.

9- يقول ابن الجزري : قال الحافظ أبو العلاء الهمذاني : (وبلغني أن الكسائي عاش سبعين سنة) توفي على الأرجح-وكما أكدّه ابن الجزري-سنة (189هـ) فتكون سنة ولادته : (119 هـ).
غاية النهاية : 539/1-540.

الفرس، فأصبحوا من ذوي الحظوة ينتصر لهم الخلفاء العبّاسيون،ويرفعون من شأنهم[10].

ب - مراحل حياته العلميّة وأشهر مشايخه :

نشأ الكسائي في الكوفة،في وسط علمي زاخر بالاعلام في مختلف ضروب العلم،إذ كان معاصرا لأبي حنيفة النعمان[11]، كما اشتهر بما أنتجته من قراء، حيث خصت الكوفة عن غيرها من أمصار القراء بما يقارب نصف السبعة:إذ يكفيها فخرا أن منهم عاصم،وحمزة، والكسائي.

يقول الكسائي : (أدركت أشياخ أهل الكوفة القرّاء الفقهاء : ابن أبي ليلى[12]، وأبان ابن تغلب[13]، والحجّاج بن أرطأة[14]، وعيسى بن

10- ضحى الاسلام : 2/34-35

11- هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي،الفقيه الإمام الكوفي، ولد سنة: 80 هـ،وتوفي سنة(150 هـ) كان فقيها بارعا في القياس،اشتهر بالرّأي والاجتهاد، ومذهبه من أكبر المذاهب الفقهيّة.
وفيات الأعيان : 2/163-166.

12- هو أبو عبد الله الأنصاري الكوفي، محمد بن عبد الرّحمان بن أبي ليلى القاضي، روى عنه الكسائي القراءة عرضا. يعتبر من أكبر أعلام الكوفة في القراءة والفقه. توفي سنة :(148 هـ) / 765م
غاية النهاية : 2/165.

13- هو أبو سعد أبان بن تغلب الرّبعي الكوفي النحوي، قرأ على عاصم وأبي عمرو الشيباني وروى عن علي بن الحسين،وسمع من العرب،وصنف غريب القرآن وغيره. توفي سنة(145 هـ) / 762م
غاية النهاية : 1/4.
بغية الوعاة : 2/404.

14- هو الحجّاج بن أرطأة بن ثور النخعي، قاض من أهل الكوفة، كان من رواة الحديث وحفاظه، وولي قضاء البصرة، توفي بالري أو بخراسان سنة:145هـ- 762م
تاريخ بغداد : 8/230.

عمـر الهمـداني[15]، وحمـزة الزيـّات[16])[17].

وتذكـر كتب التـراجم أنّ أخـذه اللغة والنحـو كـان عن مـعـاذ الهرّاء[18]، والرّواسي[19]، في الكوفة،ثم أخـذ في مرحلة ثانية عن أعلام من البصرة،على رأسهم الخليل ين أحمد الفراهيدي.

واستكمل الكسـائي أخـذ الرّواية في اللغـة،بعـد خـروجه من البصرة إلى البوادي يسمع من العرب،الذين بقوا على سليقتهم ولم تشبهم شـائبة اللحن. حكى الفـرّاء عن أستـاذه الكسـائي قـال : (إنما تعلم الكسـائي النحو على الكبـر، وكان سبب تعلمه أنّه جاء يوما وقـد مشى حتّى أعـيا، فجلس إلى الهبّاريين - وكان يجالسهم كثيرا - فقال : «قد عيّيت، فقالوا له : تجالسنا وأنت تلحن ! قـال : كيف لحنت ؟ قـالوا له : إن كنت أردت من التـعب، فـقل (أعـيـيت) وإن كنت تريد من انقطاع الحـيلة فـقل (عـيـيت) [فحققه] فأنت من هذه الكلمـة لحنت.» ثم قـام من فـوره ذلك يسـأل عمّن

15- هو أبو عـمـر عيسى بن عـمر الهمـداني الكوفي القـارئ الأعـمى،مقرئ الكوفة بعد حمزة الزيات،قال فيه سفيان الثوري :(أدركت الكوفة وما بها أحد أقرأ من عيسى الهمداني)، قرأ عليه الكسائي. توفي سنة: 156هـ .
غاية النهاية : 613/1.

16- سنأتي ترجمته. انظر ص : **151**.

17- ابن مجـاهد ، أبو بكر :السبعة في القراءات : 78- تحقيق د/شوقي ضيف، ط2 ، دار المعارف بمصر،1400هـ/1980م.

18- هو أبو مسلم معاذبن مسلم الهرّاء،مولى محمد بن كعب القرظي، من قدماء النحويين،كان شيعيّا.توفي سنة:187هـ.
بغية الوعاة : 2/290-291.

19- هو محمد بن الحسن بن أبي سارة الرّؤاسي أبو جعفرابن أخ معاذ الهرّاء، ينسب إليه السيوطي وضع كتاب في النحو . عدّ أوّل الكوفيين في ذلك،(وقيل غير ذلك)ذُكر أبو جعفر في طبقات القراء، وله اختيارات في القراءة، لم يحدد تاريخ وفاته.
بغية الوعاة : 1/82-83.

يعلّم النّحو، فأرشدوه إلى معاذ الهرّاء، فلزمه حتّى أنفذ ما عنده.)[20]

هذه الرّواية تشير إلى أحد شيوخ الكسائي في النحو، هو معاذ الهرّاء الذي،أخذ عنه الكسائي في مرحلة ما وهو في الكوفة قبل أن ينتقل إلى البصرة ليلقي الخليل بن أحمد الفراهيدي. وما يلاحظ كذلك من هذه الرّواية هو أنّ الكسائي تعلم النحو على الكبر،كما ورد في الرّواية المنسوبة إلى الفرّاء.واهتمّ أوّل أمره بالقراءات وكان واحدا من بين طلبة العلم، لم يسطع نجمه إلاّ في مرحلة لاحقة من رحلاته.

وقد عاصر الكسائي مرحلتين سياسيّتين هامتين: تمثلت إحداهما -وهي وجيزة- في انهيار الدّولة الأمويّة، وتمثلت الثانية في ولادة الدّولة العبّاسيّة حين بويع أبو جعفر المنصور في الكوفة سنة (132هـ)[21].

ويمكن أن نحصر مراحل تكوين الكسائي واشعاعه العلمي في ثلاث :

I) المرحلة الكوفيّة الأولى في تلقي العلم اعتمادا على الرّواية وحذق القراءات خاصة،ولم يكن الكسائي عندها نحويّا،ولا لغويّا،بل كان قارئا سمع من بني أسد ونطق بلسانهم.

II) المرحلة البصريّة ثم التجوال بالبوادي وهي الفترة العلميّة

-20 إنباه الرّواة : 258/2.

-21 كان عمر الكسائي آنذاك ثلاث عشرة سنة تقريبا،وكانت الكوفة تعجّ بالشيعة آنذاك،وبدا نجم الموالي من الفرس في الصعود وهم الذين انضمّوا إلى الجيوش الأمويّة من قبل. وأعانوا على قيام الدولة العبّاسيّة.
انظر ص : 32.

الحقيقيّة حيث تعلم الكسائي النحو، ثم تدعّم علمه باتساع دائرة سماعه، وبدأت تتبلور عنده بعض الآراء المستقلّة، أفضت فيما بعد إلى قيام مدرسة لغويّة مستقلّة.

III) المرحلة الثالثة : بدأت في الكوفة حيث التقى الكسائي بأعلامها في القراءات، واشتهر عندهم بالقراءات واللغة والنحو. ثم لم يلبث أن انتقل إلى بغداد ليعلم أبناء الخليفة المهدي، فأدب ابنه هارون الرّشيد الذي أدنى الكسائي منه حين تولى الخلافة وانتصر لآرائه العلميّة في أكثر من موقف أمام نحاة البصرة.

وقد دلت رواية الفرّاء السّابقة على المرحلة الأولى، وتدلّ هذه الرّواية على المرحلة الثانية ، قال الفرّاء : (ثم خرج إلى البصرة. فلقي الخليل وجلس في حلقته، فقال له رجل من الاعراب : تركت أسد الكوفة وتميمها وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة ! فقال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة)*.[22] وتدل الرّواية التالية على المرحلة الثالثة من حياة الكسائي العلميّة حين تفرّد بلونه الخاص في القراءة وبرع في اللغة والنحو وشهادة الخطيب البغدادي تؤيّد ذلك : (دخل الكسائي الكوفة. فجاء إلى مسجدالسبيع وكان حمزة بن حبيب الزيات يقرئ فيه.

فتقدم الكسائي مع أذان الفجر.. فلما صلّى حمزة قال : من

---

* تقسم جزيرة العرب إلى خمسة أقسام: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن، وجبل السراة هو الحدّ بين تهامة ونجد ، ومكة من تهامة، والمدينة من نجد، وأرض اليمامة والبحرين إلى عمان إلى العروض.
الرّوض المعطار : 141-188-572.

22- إنباه الرّواة : 258/2. تاريخ بغداد : 405/11.

تقدّم في الوقت. قيل له : الكسائي أوّل من تقدّم.. فابتدأ بسورة يوسف. فلما بلغ إلى قصّة الذئب[23] قرأ (فَأَكَلَهُ الذّيبُ) بغير همز. فقال له حمزة : الذّئب بالهمزة.فقال الكسائي : وكذلك أهمز الحوت.﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوْتُ﴾؟[24] قال : لا، قال:فلم همزت الذّئب ولم تهمز الحوت؟ وهذا فأكله الذّئب وهذا فالتقمه الحوت؟ فرفع حمزة بصره إلى خلاد الأحول،فتقدم إليه في جماعة من أهل المجلس فناظروه فلم يصنعوا شيئا، فقالوا : أفدنا يرحمك الله، فقال لهم الكسائي.. تقول إذا نسبت الرّجل إلى الذّئب قد استذأب الرّجل، ولو قلت استذاب بغير همز لكنت إنما نسبته إلى الهزال، تقول قد استذاب الرّجل إذا استذاب شحمه بغير همز، وإذا نسبته إلى الحوت تقول قد استحات الرّجل أي كثر أكله لأنّ الحوت يأكل كثيرا لا يجوز فيه الهمز فلتلك العلّة همز الذّئب ولم يهمز الحوت. وفيه معنى آخر. لا يسقط الهمز من مفرده ولا من جميعه وأنشدهم :

أَيُّهَا الذِّئْبُ وَابْنُهُ وَأَبُوهُ * أَنْتَ عِنْدِي مِنْ أَذْؤُبٍ ضَارِيَاتِ[25] *

ونجد كذلك رواية أخرى تطلعنا على المرحلة الثالثة من حياة الكسائي العلميّة-هي المرحلة الحاسمة التي بدأت رسميّا باشتهار الكسائي،وسطوع نجمه عاليا-،روى القفطي قال : (وكان السبب في اتصاله بالرّشيد،أنّه كان عند المهدي مؤدب يؤدّب الرّشيد.فدعا المهدي به يوما وهو يستاك، فقال له : كيف تأمر من السواك ؟ فقال : «استك» يا

23- سورة يوسف : 13/12 - 17

24- سورة الصافات : 142/37

25- تاريخ بغداد : 405/11.

* بحر الخفيف.

أمير المؤمنون فقال المهدي : إنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثم قال : التمسوا لنا من هو أفهم من ذا. فقالوا : رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريبا، فكتب بإشخاصه من الكوفة. فساعة دخل عليه قال : يا عليّ بن حمزة : ما تأمر من السّواك ؟ قال : سك يا أمير المؤمنين، قال : أحسنت وأصبت.)[26].

والذي نلاحظه من هذه الرّواية هو :

- أنّ الكسائي لم يبق طويلا في الكوفة بعد قدومه من البوادي وشخوصه من البصرة.
- أنّ مناظرة الكسائي لحمزة وتلاميذه في قراءته من سورة يوسف سبب شهرته، وشهادة الفرّاء له بالبراعه لدليل قاطع على ذلك.
- أنّ الخلفاء كانوا مهتمين بالحفاظ على سلامة اللغة، وحفظ أبنائهم من اللحن، ويظهر ذلك من مقياس المهدي في اختياره لمؤدّب ولده.
- أن المؤدب في ذلك العصر كانت تشترط فيه زيادة على حفظ القرآن وإتقان القراءات معرفة باللغة، والنحو، والأدب، وشيء من التفسير[27].

ج- منزلة الكسائي العلميّة :

لا شك في أن هذه المراحل الثريّة من حياة الكسائي العلميّة قد جعلته يتبوّأ منزلة مرموقة، في عصر تميّز بنشأة علوم اللغة وتفرعها

26- إنباه الرّواة : 259/2.

27- بدات هذه المقاييس تتبلور، منذ عهد الحجّاج بن يوسف الثقفي. فكان الكسائي أوّل أمره ذا ثقافة تقليديّة تعتمد الحفظ والرّواية، بحسب مشايخه في المرحلة الأولى من حياته العلميّة، ثم أصبح بعد ذلك علما في اللغة والنحو في المرحلة الثانية والثالثة.

وبنشأة العلوم الشرعية،فكانت شهادات معاصريه فيه والعلماء من بعده متفاوتة، لكنها معترفة بفضله وسعة علمه وطول باعه في المعرفة،وشهادة أبو بكر بن الأنباري خير دليل على ذلك حيث يقول[28] : (اجتمعت في الكسائي أمور لم تجتمع لغيره، فكان واحد النّاس في القرآن يكثرون الأخذ عنه، حتّى لا يضبط الأخذ عليهم. فيجمعهم، ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من أوّله إلى آخره وهم يسمعون،حتى كان بعضهم ينقط المصاحف على قراءته،وآخرون يتبعون مقاطعه ومبادئه،فيرسمونها في ألواحهم وكتبهم. وكان أعلم الناس في النحو،وواحدهم في الغريب.)[29]

لقد برز الكسائي مقرئا بارعا اجتمع الناس على قراءته بسبب حذقه لفنّ القراءات، كيف لا!وهو الذي نشأ قارئا ودعّم هذا المسار عندما أصبح من أشهر قراء الكوفة مثله مثل عاصم وحمزة، ومع ذلك فقد كان الكسائي ضابطا للرّواية دقيقا في تبليغها[30]. اشتهر الكسائي بالنحو واللغة،وغلبت شهرة فقه اللغة عليه فيما بعد، فيقدمه المستشرقون من الباحثين-في علم اللغة-على أنّه "فيلولوجي"[31]، (philologue) لأنّه كان قد اتسع في رواية اللغات الشاذّة،مقارنا بينها،باحثا عن الوجه الفصيح منها[32]. جاء في إنباه الرّواة : قال القعقاع المقرئ : (كنت مع الكسائي فأتاه أعرابيّ فقال أنت الكسائي ؟ قال : نعم، قال :

28- سبقت ترجمته في ص :76.

29- إنباه الرّواة : 264/2.

30- كانوا ينقطون المصاحف على حرفه وقراءته.

31- انظر : Encyclopédie de l'Islam Tome V p : 171. Edition Française .

32- قراءة الكسائي للفظ الذئب والذّيب وكيف استدل لكلّ وجه منهما.

"كوكب" ماذا ؟* قال : (دُرِّيٌّ) و(دَرِّيٌّ) و(دِرِّيءٌ). فالدُّرِّيُّ يشبّه بالدّرّ، والدَّرِّي جار، والدِّرِّيءُ يلمع. قال : ما في العرب أعلم منك)[33].

وإذا كان البصريون قد اعتبروا اتساع الكسائي في الرّواية أمرا أساء إلى اللغة لأنّ الفصاحة عندهم محصورة في جملة من القبائل، فإن اتساعه في نظر الباحثين المعاصرين حسنة من حسنات البحث الجاد[34]، إذ لا يمكن بحال التغاضي عن جانب كبير من اللّهجات واللغات العربيّة[35]، التي حفظت القراءات القرآنية جانبا كبيرا منها. والمعلوم أنّ الكسائي استخدم سعة اطلاعة في مناظرة سيبويه عديد المرّات. يقول كارل بروكلمان : (وكان ينافس سيبويه في علم النحو أحد قرّاء القرآن [السبعة] الكسائي الكوفي الذي سبق له أن علّم الرّشيد نفسه)[36]. وإذا كان علي بن حمزة قد اشتهر بالاقراء أكثر من اشتهاره بفقه اللغة والنحو خاصّة قبل معرفة الخلفاء فلإنّه نشأ مقرئا وتعلّم النحو على الكبر وبقي وفيّا لدوره كقارئ. قال خلف[37] للكسائي يوما : (قرأت القرآن صغيرا، وأقرأت النّاس كبيرا وطلبت الآثار فيه والنحو)[38]. وربما كانت غلبة اشتهاره بالاقراء على اشتهاره باللغة والنحو بسبب إقرائه العامّة في

* إشارة إلى الآية الكريمة من سورة النور [«الزجاجة كأنها كوكب درّيّ» آية : 35].

33- إنباه الرّواة : 265/2.

34- مدرسة الكوفة : 347.

35- يرى الدّكتور شوقي ضيف أنّ البصريين والكوفيين كلاهما تعاونوا على إثبات اللغات الشاذّة مع اختلاف في الغاية.
المدارس النحويّة : 177.

36- تاريخ الشعوب الإسلاميّة : 193

37- أحد رواة حمزة الزيات شيخ الكسائى في القراءات، سوف تأتى ترجمته.

38- تاريخ بغداد : 408/11.

المسجد فيجتمع له خلق كثير لتصحيح القراءة، بينما كانت آراؤه اللغويّة والنحويّة مقتصرة على صفوة من المهتمين، أمثال :الفرّاء .وسلمة بن عاصم، والأحمر وغيرهم.لكنه بالرّغم من كلّ ما سلف ذكره عن إمكانات الكسائي العلميّة ،ونبوغه في الرّواية وفي التفرّد بلونه اللغوي النحوي في مرحلة خاصّة من حياته العلميّة، فإنّه قد سجل على الكسائي جهله بالشعر، ونجد ذلك واردا في بعض كتب التّراجم أو بعض المعاجم، يقول ياقوت الحموي : (روى الزّبير عن إسحاق الموصلي[39] قال : ما رأيت رجلا منسوبا إلى العلم أجهل بالشعر من الكسائي)[40]. وقال أيضا : (كان الكسائي من أشد خلق الله تسكعا في تفسير شعر، وما رأيت أعلم بالنحو قط منه ولا أحسن تفسيرا، ولا أحذق بالمسائل، المسألة تشق من المسألة والمسألة تدخل على المسألة)[41].

ولئن كان في هذه القولة ما ينقص من شأن الكسائي على مستوى معرفته بالشعر، فإنّ باقي القولة يؤكّد خصال الكسائي العلميّة السالفة الذكر. وإذا صحّ هذا النقل فإنّ ذلك يعني قلّة معرفته بالشعر وأنواعه وبحوره وفصيحه وسقيمه، لأنّ علم العروض بدأ مع الخليل؛ أو لعلّ هذا الإدّعاء ناتج عن استناد الكسائي إلى المسموعات الشاذّة بما في ذلك الشعر خاصّة أن أصحاب المذهب البصري قد شككوا في

39- هو ابو محمد اسحاق بن ابراهيم .المعروف بابن النديم الموصلي. كان من العلماء باللغة والاشعار، وأخبار الشعراء .وأيام الناس، اشتهر بالحديث .والفقه .وعلم الكلام، وبمنادمة الخلفاء، وبالغناء والظرف. توفي سنة خمس وثلاثين ومائتين:(235هـ). وفيات الأعيان : 202/1 ⟵ 205 .

40- معجم الأدباء : 14/188-189 .

41- نفس المصدر : 14/188-189 .

المسموعات التي اعتمدها مدّعين بأنّه قد أفسد بها النحو[42]، يقول ابن خلكان : (ولم يكن له في الشعر يد حتّى قيل : ليس في علماء العربيّة أجهل من الكسائي بالشعر)[43]. ونرى أن اتهام الكسائي بالجهل بالشعر، باطل. باعتبار أنه ألف كتابا في الشعر. ولا يمكن أن يؤلف عالم في فن من الفنون إلاّ إذا كان ذا باع فيه.

د- حرفه المختار في القراءات :

بدأ الكسائي حياته العلميّة قارئا أخذ عن حمزة بن حبيب الزيات، وبعد تعلمه النحو وتجواله في البوادي يسمع من الاعراب، أصبحت له مقاييس خاصّة في اختيار القراءة. وأصبح له حرف مختار، أطلق عليه حرف الكسائي أو قراءة الكسائي. يقول الأندرابي[44] متحدّثا عن الكسائي :

(وكانت العربيّة علمه وصناعته، فاختار من قراءات الماضين من الأئمّة قراءة متوسطة فقرأ بها ولم يخالفهم في شيء قرأ به فيها)[45].

أوّل ما نستنتجه هو أنّ الكسائي اعتمد النقل والرّواية في اختيار حرفه، ولم يحد عن الأثر، لكنّه وفق مقاييس النحو واللغة عنده، بنى اختياره لحرفه المقصود.

ثم إن مخالفة الكسائي لأستاذه حمزة في بعض الأوجه من

42- لم تكن الكوفة وحدها متهمة بوضع الشعر فالبصرة كانت كذلك أيضا.

43- وفيات الأعيان 330/1.

44- هو أحمد بن أبي عمر أبو عبد الله المعروف بالأندرابي نسبة إلى بلدة قرب بلخ، قاري مشهور.
معجم البلدان : 498/1.

45- قراءات القراء المعروفين بروايات الرّواة المشهورين : 120.

القـــراء ة،لا يعنـي خطأ قــراءة حــمـزة،ولكنه اجـتـهــاد في الرّواية من الكسائي كما سلف ذكره. ويمكن أن نحدد عوامل اختيار الكسائي لحرفه في القراءة أو بالأحرى الدّوافع إلى :

- عامل التشيّع[46] في اختيار الكسائي يؤكده سند قراءته التي أخذها عن حمزة وهذا الدّافع يندرج ضمن مقاييس الرّواية.

- عـامل الانتـمـاء إلى الأسـديين والولاء لهم بشـيـوع الإمـالة الكبـرى فـي قـراءة الكسـائي التي نـقلهـا أبو عـمـرو الدّورى عنه وهو راوي أبي عمرو بن العلاء البصري.

- عـامل المعرفة اللغـويّة والنحويّة الذي وجّه اختيـاره كذلك. فـالكسـائي الذي اتسـعت دائرة سمـاعه تكونت لديه ملكة ترجح الأفصح في اللغة على الفصيح.

والمعلوم هو أنّ الكسـائي التـزم بقـراءة حمـزة الزيات شيخـه لمدّة طويلة ثم انتقل إلى اختيار قراءة اختص بها لم يخـالف فيها الرّواية بل كان اختياره مـوجها بمؤهلاته اللغوية والنحويّة المكتسبة فيما بعد. ولا نجد فيمـا اختار الكسـائي من وجوه القـراءة ما كـان محور طعن النحاة واللغويين، على ما يعرف في الكتب المختصّة.إلاّ نادرا.

46- كنّا قد تعرضنا إلى أنّ مسألة التشيّع عند الكسائي مسألة غير عميقة فلم يظهر هذا التشيع في مواقفه،غير أن المتعاطفين مع الشيعة ترجم لهم في تراجم اعلام الشيـعة،ثم لا نشك في أنّ سند قراءة الكسـائي ومن اخذ عنهم كفـيل بقـبول قراءته من قبل العامّة. ولا يمكن استبعاد هذا السبب،بحال من الأحوال. إلا أن مصاحبة الكسائي للرّشيد واشتهار الخليفة العبّاسي بمقاومة الشيعة يجعلنا نشكك في صحّة الرّواية التي تنسبه إلى الشيعة.

المبحث الثاني :
دور الكسائي في تأسيس مدرسة الكوفة النحويّة

إنّ شخصيّة الكسائي فريدة من نوعها،فهو زيادة على ما كان يتمتع به من مؤهلات علميّة،قد استمال إليه الخلفاء العبّاسيين فصار من الذين لهم حظوة عندهم،وهذا ما أعانه فعلا على الشهرة والتفاف الآخذين عنه دون أن يحطّ ذلك من قيمته العلميّة، وملازمته للرّشيد تنفي عنه تهمة التشيّع.

أ- علاقة الكسائي بالخلفاء :

بدأ الكسائي علاقته مع البلاط العبّاسي منذ عهد الخليفة المهدي[47]؛ فكان مؤدّب هارون الرّشيد، صاحبه إلى أن صار خليفة المسلمين[48]. ولعلّ جملة من الأمور قد ساهمت في تقريب الكسائي من قصر الخلافة أهمها : - انتسابه إلى الكوفة التي وقف أهلها أوّل الأمر مع الدّولة العبّاسيّة ظنّا منهم أنها دولة شيعيّة[49].

- اشتهاره بالقراءة والنحو،وشهادة العلماء فيه خاصّة ما كان

47- إنباه الرّواة إلى انباه النحاة : 259/2.

48- توفي الكسائي في عهد الرّشيد ودفنه في نفس اليوم الذي دفن فيه أبا يوسف صاحب أبي حنيفة.
وفيات الأعيان : 331/1

49- يقول السيوطي : [أخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال : (كنّا عند الرّشيد فقال : بلغني أنّ العامّة يظنّون فيّ بغض علي بن أبي طالب، ووالله ما أحبّ أحدا حبّي له، ولكنّ هؤلاء أشد النّاس بغضا لنا،وطعنا علينا،وسعيا في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم.ومساهمتنا إيّاهم ما حويناه،حتّى إنّهم لأميل إلى بنى اميّة منهم إلينا)].
تاريخ الخلفاء : 293.

من الكسائي في مجلس حمزة القارئ ،وابكاته للحاضرين في ذلك المجلس حين قرأ من سورة يوسف.

- أنّ الكسائي لم يكن مناوئا للحكم العبّاسي ،أو متعصبا لفكرة ما ،تحول بينه وبين رضا الخلفاء العبّاسيين عنه[50].

- عناية الخلفاء العبّاسيين بتأديب أبنائهم، وتقريب العلماء من بلاطاتهم خاصّة في عهد هارون الرّشيد الذي تتلمذ على الكسائي، وكان من طلبته النجباء[51].

وقد بلغ من تقريب الرّشيد[52] للكسائي أنّه كان يؤمه في الصلاة ويؤدّب أبناءه ويناظره في النحو بل إنّ الرّشيد أضفى على عمل النحاة بعدا رسميّا للحفاظ على لغة القرآن .

دخل القاضي أبو يوسف[53] على الرّشيد وعنده الكسائي يحدثه، فقال : يا أمير المؤمنين قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك، فقال الرّشيد : (النحو يستفرغني لأنّني أستدلّ به على القرآن والشعر)[54] .

50- ابن السكيت مثلا قتل بسبب تشيّعه ولم يشفع له علمه في حضرة المتوكل.
بغية الوعاة : 349/2

51- روى السيوطي عن سعيد بن مسلم قال : (كان فهم الرّشيد فهم العلماء، انشده العماني في صفة فرس : كأنّ اذنيه إذ تشوفا * قادمة أو قلما محرّفا
فقال الرّشيد : دع كأنّ وقل : تخال أذنيه، حتّى يستوي الشعر)
تاريخ الخلفاء : 292.

52- كان الفضيل بن عياض يحبّ الرّشيد ويعتبره سدّا بين فتنة الأمّة أو نجاتها.
تاريخ الخلفاء : 284.

53- هو يعقوب بن ابراهيم يرجع نسبه إلى الانصار، من اهل الكوفة وهو صاحب أبي حنيفة، فقيه حافظ تولّى القضاء في عهد الرّشيد،وهو أوّل من لقّب بقاضي القضاة،نسب إليه أوّل تأليف في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة توفي سنة(205 هـ).
وفيات الأعيان : 2/ 303 ← 308.

54- معجم الأدباء : 175/14.

وكـان الرّشـيـد يعظم الكسـائي لتـأديبـه إيّاه[55]، ولعلوّ أخـلاقـه، وإخلاصـه وتحريه الذي اتصف به، وقـد زاد الكسـائي العلمـاء حظوة بما أدخله من زيّ علميّ فـي تقـاليـدهـم ، حدّث أبو عمـر الدّوري قـال : (لم يغيّر الكسـائي شيئا من حـاله مع السلطان إلاّ لباسه قـال فـرآه بعض علمـاء الكوفيين وعليه جـربانات عظام[56]، فقـال له : يا أبا الحسن مـا هذا الزّيّ ؟ قـال : أدب من أدب السـلطان لا يثلم دينا ولا يدخل في بدعـة، ولا يخـرج عن سنة)[57]. وعن تحـريه الشديد فـي تبليغ العلم يقـول الفـرّاء : (لقيت الكسـائي يومـا فرأيته كالباكـي، فقلت له : مـا يبكيك ! فـقـال : هذا الملك يحـي بن خـالد[58]، يوجّه إليّ فـيحضـرني، فـيسألني عن الشـيء، فإن أبطأت في الجـواب لحقني منه عتب، وإن بادرت لم آمن الزلل ، قـال : فقلت له ممتحنا : يا أبا الحسن، من يعتـرض عليك ! قل مـا شئت، فـأنت الكسـائي : فـأخـذ لسـانـه بيده وقـال : قطعـــه الله إذن إن قلت مـا لا أعلم)[59]. ومن ثم تظهـر الأسـباب العمـيقـة التي جـعلت الرّشـيد يتمسك بالكسـائي.

55- تاريخ بغداد 406/11

56- جربان : القميص بالكسر والضمّ وتشديد الباء المفتوحة، جيبه، وجربان السّيف غمده.

57- تاريخ بغداد : 411/11.

58- هو يحـي بن خـالد البـرمكي وزير هـارون الرّشـيد. ولـد سنة (120هـ/ 738م وتـوفي سنة (190هـ/ 805م. يعتبر مؤدب الرّشـيد ومعلمه ومربيه. سجنه الرّشيد بعد أن نكب البرامكة إلى أن مات.
وفيات الأعيان : 243/2.

59- إنباه الرّواة : 266/2.

ب- دور الكسائي في تركيز دعائم نحو الكوفة :

إذا أردنا أن نقف على الدّور الحقيقي للكسائي النحوي فإنّه من غير الممكن فصله عن دور الكسائي القارئ، لأنّ حظ القراءات من مصادر الدّراسة النحويّة الكوفيّة ريادي، ولأن مؤسس هذه المدرسة وأستاذها إمام من أئمّة القراءة هو علي بن حمزة الكسائي. وثقافته عربيّة اسلاميّة محضة، لم يعرف عنه أنّه اتصل بالثقافات الأجنبيّة، أو تأثر بها، فهو من الذين ينهجون المنهج الذي سلكه القراء من اعتماد على النقل، واعتداد بالرّواية، وهو من الذين يروون القراءات متصلة السند ويعتدون بما روي من قراءات في دراسة العربيّة، لأنها من القرآن. وما كان من القرآن فهو أجدر بالتفصيل وأولى بالقبول[60].

فالكسائي من خلال ما وصف به ملك ثقافة روائيّة هيمنت على ثقافته عموما، وسنده في القراءات يرشد إلى اطلاعه على العديد من الرّوايات في القراءات المتواترة. فقد أخذ عن يعقوب بن جعفر[61] واسماعيل بن جعفر[62] ما أقرأه لهما نافع المدني[63].

وأخذ عن العبّاس بن الفضل الأنصاري ما رواه عن أبي عمرو البصري، وابن كثير المكي[64]. كما ناظر الأصمعي،وروى عنه هذا الأخير حروفا،زيادة على أخذه على حمزة الزيات شيخه الأوّل في

60- مدرسة الكوفة : 346.
61- سوف تأتي ترجمته : انظر ص : 142
62- سوف تأتي ترجمته : انظر ص : 142
63- سوف تأتي ترجمته : انظر ص : 140
64- سوف تأتي ترجمته : انظر ص : 144

القراءات،واشتراكه وأبا عمرو البصري في الدّوري[65] راويا عنهما. وكان سند حرفه المختار معتمدا على رواية ابن أبي ليلى،عن الإمام علي بن أبي طالب[66]. كلّ هذا يتعلق بمشايخه من القراء الذين أفاد منهم الكسائي، فكانت دائرة سماعه متسعة كما سلف الاشارة إليه.

أمّا مشايخه من النحاة فإنّ أهمّ شخصيّة أفاد منها الكسائي - زيادة على ما ذكر من اتصاله بمعاذ بن مسلم الهرّاء[67]، وأبي جعفر الرّواسي[68]، الذين أخذ عنهما الدّرس قبل ذهابه إلي البصرة- هي شخصيّة الخليل بن أحمد الفراهيدي.الذي يعتبر نقطة الانطلاق الرّئيسيّة في حياة الكسائي العلميّة لسببين اثنين :

- أولهما : علم الخليل الغزير،ومنهجه المتميّز.وتفرّده عن غيره من علماء عصره بالمبادرة العلميّة،والتفرغ الكامل للدّراسة اللغويّة والنحويّة. فأثر ذلك في الكسائي لينطبع هو الآخر برغبة التأسيس والبناء العلمي،في عصر تنافس فيه العلماء.

- ثانيهما : رسمه المنهج العلمي للكسائي حين رغبه في الخروج إلى البادية،وتوسيع دائرة سماعه،لما وجد فيه من مؤهلات علميّة وأخلاقيّة،يسّرت له الخروج والتجوال والأخذ،ثم التحصيل والتوظيف العلمي.

65- هو ابو عمر، حفص بن عمر، بن عبد العزيز، بن صهبان بن عدي البغدادي النحوي الدّوري،نسبة إلى الدّور (موضع ببغداد). رحل في طلب القراءات،وقرا بسائر الحروف السبعة والشواذ،توفي سنة(248 هـ).
غاية النهاية : 255/1.

66- ابن النديم الفهرست : 45، دار المعرفة . بيروت . لبنان. د.ت

67- تقدمت ترجمته. انظر ص : 87.

68- تقدمت ترجمته. انظر ص : 87.

وزيادة على الخليل، نجد من علماء البصرة الذين أفادوا الكسائي، مجموعة اشتهرت بعلمها في ذلك العصر. فقد ثبت اتصال الكسائي بالأخفش الأوسط[69] في البصرة، واطلاعه على منهج التأليف عند علمائها. يقول الأخفش : (سألني -أي الكسائي- أن أؤلف له كتابا في معاني القرآن، فألفت كتابا في المعاني، فجعله أمامه. وعمل عليه كتابا في المعاني، وعمل الفرّاء كتابا في ذلك عليهما)[70]. إذا صحت هذه الرّواية فإنّ تأثر الكسائي بالبصريين في التأليف لا شك فيه خاصّة أن الأخفش الأوسط كان معتزليّا[71]، والفرّاء نسب إليهم، ولا يخفى فضل هؤلاء على علماء عصرهم من حيث منهج التأليف. ولنا في الجاحظ أفضل مثال على ذلك[72].

وثبت أخذ الكسائي عن يونس بن حبيب البصري[73]، الذي أجازه ليتصدّر مجلس الدّرس[74].

والمتأمّل لشيوخ الكسائي عموما، يجد فريقين على مستوى الاختصاص : فريق برع في القراءة والاقراء، وروى الحروف ودقق، وضبط الرّواية، وتفرّغ لذلك طيلة حياته. وفريق برع في اللغة والنحو، وفسح المجال للغوص فيهما، ورسم المنهج في القياس والتعليل.

69- تقدمت ترجمته.

70- بغية الوعاة : 590/1.

71- بغية الوعاة : 590/1.

72- تميزت مؤلفات الجاحظ ببراعة الأسلوب ووضوح الفكرة والهدف فكتب لمؤلفاته بالبقاء وأقبل عليها الدّارسون في كلّ عصر.

73- تقدمت ترجمته.

74- بغية الوعاة : 365/1. مدرسة الكوفة : 98.

ومن ثم خلط الكسائي بين منهج القراء، ومنهج اللغويين والنحاة، وهذه العمليّة لا بأس من الكشف عنها باستقراء أحكام قراءته ومقارنة ذلك بما تفرّد به من آراء نحويّة كوفيّة. وهذا العمل يتطلب بحثا مستقلا نتركه لمن يرغب في تتبع الموضوع وزيادة التعمق فيه.

غير أن بعض الأمثلة تفيدنا في طرق هذا المبحث، والسؤال يطرح نفسه : كيف وفق الكسائي بين ثقافته في القراءات وثقافته في النحو؟

إنّ مثال سيطرة القراءة عليه: اختياره للامالة[75] في حرفه الذي أخذه عن حمزة وغيره من القراء، معتبرا في ذلك البيئة التي عاش فيها، والتي غلبت عليها الإمالة بوجود بني أسد. وهو من مواليهم. ثم انتشار حرف ابن مسعود في الكوفة منذ سنة 21 هـ حين قدمها. زيادة على تشيع رجال حمزة الذي قرأ عن جعفر الصادق[76]، وهو اختيار في الإمالة يدلّ على غلبة الثقافة الأثريّة على ثقافة الكسائي النحويّة.

وبالرّغم من اجتهاد النحاة في ضبط قواعد الإمالة وحصرها، أمثال سيبويه، والفرّاء، فإنّ العديد من الإمالات عند الكسائي لا تنضبط بقاعدة عامّة شاملة[77]، شأنه في ذلك شأن أبي عمرو بن العلاء البصري

75- الإمالة ظاهرة من الظواهر التي شاعت في اللغة العربيّة، ويرجع سببها إلى الانسجام الصوتي، والتماس الخفّة.
د/ عبد الفتاح شلبي : الإمالة في القراءات واللهجات العربية : 254، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة ، القاهرة.د.ت.

76- هو أبو عبد الله.جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي، زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أحد الأئمة الاثنى عشر على مذهب الإمامية.ولد سنة:80 هـ وله كلام في صنعة الكيماء وغيرها. من أشهر تلاميذه جابر بن حيّان الصوفي الطرسوسي،توفي بالمدينة سنة(148هـ).
وفيات الأعيان : 105/1 .

77- سيأتي الحديث عن الإمالة عند الكسائي في الدّراسة الصوتيّة في الباب المقبل.

برغم اختلافهما في منهج الدّراسة اللغويّة والنحويّة.

ودليل ثبوت اختيار الكسائي على أسس نحويّة أنّه لم يردّ أحد من النحاة المشهورين القدامى حرفا من أحرفه،إلاّ ماكان من تحقيق الهمزتين من قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)[78]. وقد شاركه في التحقيق جمهرة من القراء السبعة ورواتهم وهم:حفص، وحمزة، وابن عامر،وخلف البزار. والاعتراض كان من نحاة البصرة الذين خالفوا المذهب الكوفي وأصوله النحويّة[79].

وإذا كان الكسائي قد تجاذبه منهجان أحدهما مقيّد بالرّواية والنقل والآخر اعتمد فيه القياس على المسموع،قياسا وتعقلا[80]، فإنّ اتساعه في القياس ليس أقل شأنا من اتساعه في الرّواية.

ولقد اتسع الكسائي في القياس اتساعا جعل بعض معاصريه يضجّون منه،ويعتبرونه انتهاكا لحرمة القياس والنحو،وإفسادا للّغة،وهذا ما تجلّى في قول اليزيدي[81] شعرا:

كُنَّا نَقِيسُ النَّحْوَ فِيمَا مَضَى * عَلَى لِسَانِ العَرَبِ الأُوَّلِ
فَجَاءَ أَشْيَاخٌ يَقِيسُونَهُ * عَلَى لَغَى أَشْيَاخِ قُطْرَبُّلِ* [82]

وكان هذا القول من اليزيدي إنكارا لقياس الكسائي على

78- السجدة: 32/24.

79- د/أحمد مكي الأنصاري: الدّفاع عن القرآن: 46. ط1، دار القبلة للثقافة الإسلاميّة، مكّة المكرمة، المملكة العربية السعودية، مطابع أبو الفتوح،1405هـ/1985م

80- مدرسة الكوفة: 112.

81- ترجمته في وفيات الأعيان: 230/2 ⟵ 232

* أعراب سكنوا قرب بغداد. وقطربّل المكان الذي أقاموا فيه. معجم البلدان: 4/371-372

82- بحر السريع.

الشاذّ في اللغة ، حتّى اعتبره لغى بعض الأعراب،الذين سمع منهم الكسائي.

وكان علي بن حمزة من أوّل الكوفيين خوضا في القياس واختيارا للون خاص منه كان بعيدا عن مناهج المتكلمين، بحكم الثقافة العربية الصرفة الغالبة على الكسائي. وكان يعتد بالقياس ويعتمده حتى اعتبره نحوا،وهذا ما يلتمس من قوله :

إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعْ

فَإِذَا مَا أَبْصَرَ النَّحْوَ الفتَى مَرَّ فِي الْمَنْطِقِ مَرًّا فَاتَّسَعْ[83,84]

وقد تميز عمل الكسائي في القياس،بكونه يقيس على الكثير الذي هو الأصل عند جميع النحاة،ويقيس كذلك على القليل النادر الذي ينقسم بدوره قسمين :

1- قليل في السماع،ولكنه مقيس عليه (غير شاذّ في القياس).

2- قليل في السماع،ولكنه غير مقيس عليه (شاذّ في القياس).

ويقيس على النظير المختلف فيه بين النحاة وغير المختلف،ثم يضيف قياسا افتراضيّا،أي على غير مسموع أصلا.[85]

ويعتبر هذا المنهج في القياس أهمّ ما أفاد به الكسائي تلاميذه من مدرسة الكوفة،خاصّة ما كان من أمر الفرّاء الذي توسع هو كذلك في القياس،وضبط ما كان وضعه الكسائي ضبطا محكما،وخالفه أحيانا

83- بحر الرّمل.

84- إنباه الرّواة إلى أنباه النحاة : 267/2.

85- محمد عاشور السويح : القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة :241. ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، مصراته، الجماهيرية العربية الليبية، 1406هـ/1986م.

وبذلك تميّز لون مدرسة الكوفة النحويّة،من خلال طريقتها في القياس التي دعمت أركانها،رغم اعتراض بعض نحاة البصرة على هذا النمط الجديد في التعامل مع التراث اللغوي. والمهمّ في هذا القياس أنه كان موضوعيّا في تعامله مع اللغة العربيّة فلا يصحّ بحال إغفال جزء هام من تراث اللغة العربيّة بدعوى الشذوذ. ومن الذي حكم عليه بالشذوذ؟! ومن ثم ظهر فضل الكسائي على مدرسة الكوفة اللغوية النحويّة،صاحبة الأحرف والقراءات.

ج- مؤلفات الكسائي :

ذكرت كتب التراجم مجموعة هامّة من مؤلفات الكسائي لم يصل إلينا منها إلاّ كتاب واحد في اللغة،يتحدث عن لحن العامّة عنون له "ما تلحن فيه العامّة"[86].

والملاحظ-بعد قراءة عناوين مؤلفاته-أن الكسائي ألف في جملة من العلوم،ومن المؤكد أن هذه المؤلفات هامّة- يُؤسف لعدم وصولها إلينا- وبالرّغم من اشتغال الكسائي بالرّحلة في طلب العلم على كبره وكذلك تفرّغه للسلطان فإن المؤلفات التي تحدثت عنها كتب التراجم مصنفة إلى أربعة أنواع :

*) ما يتعلق بعلم القراءات : أفرد الكسائي كتابا للقراءات وعنون له بـ "القراءات"[87]، ولعلّ هذا المؤلف قد جمع فيه الكسائي ما سمعه وما رواه من الأحرف مع الإشارة إلى حرفه المختار.

86- مدرسة الكوفة : 102.

87- غاية النهاية : 539/1.

ثم ألف كذلك في مباحث جزئيّة مثل "كتاب الهاءات"[88]، وكتاب "مقطوع القرآن وموصوله"[89].

*) ما يتعلق بعلم النحو : ألف الكسائي النحوي كتاب "العدد"،وهو من المباحث المعقدة في النحو،وألف كتاب "النحو"،لعلّه جمع فيه ما تلقاه من علم البصريين بالنحو وأضاف إليه آراءه النحويّة،مع ما أودعه فيه من شواهد وقراءات وأشعار،على نهج التآليف التي ألفت في تلك المرحلة،والتي كانت تجمع جملة من علوم اللغة والنحو والتفسير والقراءات،خاصّة ما ينسب إليه من تأليف "معاني القرآن".

*) ما يتعلق بالأدب : ألف الكسائي كتبا في النوادر : الكبير والأوسط والأصغر،كما ألف كتاب أشعار[90]، نعتها السيوطي بأشعار المعاياة[91].

*) ما يتعلق باللغة : أهمّ ما ألف (ماتلحن فيه العامّة).

هذه إذن جهود الكسائي،وهذه مؤلفاته التي انطبعت بطابعها مؤلفات أعلام جاءوا بعده،كما أخذ هو عن أعلام سبقوه علما وزمنا، خاصّة ما كان من كتاب سيبويه علم مدرسة البصرة.

ولعلّ اشتهار تآليف شيوخ البصرة،على تآليف شيوخ الكوفة، قد عاق نشر مؤلفات أعلام الكوفة،ومنها مؤلفات الكسائي فكان من الممكن أن يكون شأن الباحثين المعاصرين معها شأنا عظيما.

88- نفس المصدر : 539/1.

89- نفس المصدر : 539/1.

90- غاية النهاية : 539/1.

91- بغية الوعاة : 164/2.

الفصل الرّابع :

دور القراء في تركيز المدرسة النحويّة الكوفيّة.

المبحث الأوّل :

حقيقة علم القراءات

إنّ الوقوف على حقيقة تعريفات هذا العلم يضعنا في إطار البحث عن العلاقة التي تربط علم القراءات بعلم النحو. لأنّ القراءات القرآنيّة المتعددة لنصّ القرآن أثارت حولها جدلا منذ عصر التنزيل. لذلك يجب أن نتدرج في البحث عن معنى القراءة، ثم القراءات، ثم علاقتها بالأحرف، والفرق بينهما ثم الفرق بين القرآن والقراءات.*

أ- **معنى القراءات** : القراءات في اللغة جمع قراءة.

يقال[1] : (قرأت الشيء قرآنا جمعته وضممته[2]) وهو الأصل.

والكتاب قرأ وقرآنا وقراءة[3] : تلاه ولفظ به مجموعا فهو قارئ جمع قرأة وقرّاء وقارئون[4]. والتلاوة مرادف القراءة[5].

وتدور لفظة "قراءة" على الألسن في اللغة العربيّة ليراد بها المعاني التّالية :

---

* سوف يقع تعريف علم التجويد والبحث عن الفرق بينه وبين علم القراءات في الباب الثاني الخاصّ بالصوتيّات.

1- الصحاح : الجوهري : 1/64-65.

2- يقول الزمخشري:(ما قرأت هذه الناقة سلاقط : ما ضمت أي حملت ولدا). أساس البلاغة : 499.

3- يقال : (قرأ الكتاب يقرأه (بفتح الرّاء) ويقرؤه (بضمّ الرّاء) قرأ (بإسكان الرّاء) وقراءة وقرآنا فهو مقروء.) :
لسان العرب : 1/123.

4- معجم متن اللغة : أحمد رضا : 4/519-520. دار مكتبة الحياة. بيروت. لبنان، 1379هـ/1960م.

5- تاج العروس : مادّة قرأ.

I- الابلاغ : يقال قرأ فلان عليك السلام يقرأه أي أبلغك[6] .

II-النطق بالمكتوب أو التلاوة والتلفظ. يقال: يقرأه قراءة أي تلاه وتلفظ بما كتب فيه[7].

III- المطالعة : يقال قرأ الكتاب قراءة ؛ أي ألقى النظر إليه وطالعه[8].

هذه أهمّ المعاني اللغويّة التي وردت في المعاجم،وهي لا تخرج عن معاني الجمع والضمّ والتلاوة. ومن ثم سمّي الكتاب العزيز قرآنا لأنّه يجمع الآيات والسور، فتضمّ بعضها إلى بعض[9]، فتقرأ سرّا أو جهرا بحسب حال القارئ[10]، ومنه قوله تعالى : [(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) -القيامة 75/17-18-19].

وأمّا معنى القراءة في اصطلاح علماء القراءات فهي تفيد أربعة معاني[11] كالتالي :

I- العرض والاستظهار : سواء كان العرض عرضا لأجزاء مفردة من القرآن في حالة الصلاة، أو في غيرها كالختمة.

II- قراءة خاصّة لكلمة واحدة من القرآن،أو لجزء معين منه[12].

6- لسان العرب : 125/1.

7- معجم متن اللغة : 519/4.

8- المعجم الوجيز : 494، ط1 دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، مصر، 1400 هـ/ 1980م

9- جلال الدّين السيوطي:الاتقان في علوم القرآن:99، المكتبة الثقافية،بيروت، لبنان، د.ت.

10- لسان العرب : 42/3-43.

11- Encyclopédie de l'Islam : Tome V : P : 129. Edition Française

12- السبعة في القراءات : 45.

III- قراءة خاصّة لكلّ القرآن : مثل قراءة ابن مسعود وقراءة الكوفيين[13] وغيرها من القراءات الأخرى.

IV- هذا المعنى الأخير اتفق عليه القرّاء وأجمعوا عليه وهو ما آتفقت عليه الرّوايات والطرق عن إمام من أئمّة القراءة في حرف من حروف القرآن[14].

ويعدّ علم القراءات من أشرف العلوم الشرعيّة لتعلقه بالقرآن، أداء ونطقا لحروفه،وكلماته وآياته. وقد أُحصيت في كتب التراث العربي الإسلامي نسبة هامّة من المؤلفات التي عنيت بهذا العلم،وطوّرته وهذبته، عبر التاريخ العلمي الإسلامي.

جاء في كشف الظنون : (علم القراءة يبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة. ومباديه مقدمات تواتريّة[15])[16]. وقد عدّه المسلمون من أمهات العلوم،وألفوا فيه التآليف،وبحثوا فيها عن طرق الرّوايات لصون القرآن من التحريف،ثم قسموا القراءات تقسيما بنوه على أصول علميّة واضحة[17].

أمّا نسبة القراءات إلى القراء،فهي من

13- يراد بهم عاصم وحمزة والكسائى فى القراء السبعة ، ثلاثتهم من الكوفيين.

14- النشر في القراءات العشر : محمد بن الجزري الشافعي : 9/1، دار الكتب العلميّة،بيروت،لبنان، د.ت.

15- المقدمات التواتريّة:هي القراءات التي نقلت إلينا نقلا متواترا،على السنة قوم لا يتصوّر تواطؤهم على الكذب. التعريفات : 96.

16- كشف الظنون : 1317/2.

17- وهي أركان القراءة الصحيحة، سيأتي بيانها.

باب التنظيم العلمي حتى يعرف المتواتر منها[18] من الآحاد[19]، ويعرف المشهور منها[20] من الشاذ[21].

ونرى القراء في اصطلاحاتهم يطلقون على القراءة معنى الحرف[22]، فيقال: حرف نافع، وحرف الكسائي، وابن الجزري يقول: «(ونعتقد أن معنى إضافة كلّ حرف من حروف الاختلاف إلى من أضيف إليه من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث أنه أضبط له، وأكثر قراءة وإقراء به وملازمة له، وميلا إليه، لا غير ذلك.)»[23] فهو من باب الملازمة للشيء. ويضيف ابن الجزري ليؤكد بأن نسبة القراءات إلى القرّاء نسبة تجوّز وليس حقيقة قوله: (وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم، لا إضافة اختيار ورأي واجتهاد)[24].

18- عدّ ابن الجزري القراءات العشر متواترة.

19- يقول الجرجاني: وأمّا المشهور فهو كلام يسمعه من رسول الله واحد، ويسمعه من الواحد جماعة، ومن تلك الجماعة أيضا جماعة، إلى أن ينتهي إلى المتمسك. التعريفات: 96.

20- يقول الجرجاني: وأمّا الخبر الواحد فهو كلام يسمعه من رسول الله واحد، ويسمعه من ذلك الواحد واحد آخر، ومن الواحد الآخر آخر، إلى أن ينتهي إلى المتمسك.
التعريفات: 96-/97.

21- في القراءات الشاذ هو ما خالف أحد أركان القراءة الصحيحة. ويختلف تعريفه باختلاف المبحث المقصود.
التعريفات: 124.

22- يطلق هنا على القراءة أو الرّواية.

23- النشر في القراءات العشر: 52/1.

24- نفس المصدر: 52/1.

ومهما يكن من أمر فإن تأكيد ابن الجزري على ذلك،وتأكيد غيره من العلماء،لم يمنع من طرح مسألة القراءات -منذ القديم- طرحا يتسم بالاختلاف إلى درجة الغلوّ والشك[25]؛ عدا الطرح السنّي الذي جعل مقاييس الرّواية والنقل فيصلا في هذا المجال.

ثم نرى المستشرقين[26]، وبعض الباحثين من المحدثين[27]، يطرحون قضيّة القراءات واختلافاتها طرحا استرداديّا،أدّى بهم إلى الطعن في صحّة ورود القرآن الكريم بصورة غير مباشرة[28].

ومن هذا المنطلق،يحسن بنا الوقوف قليلا عند مسألة الأحرف والقراءات التي سالت في شأنها أقلام عديدة،تدون مواقف العلماء فيها وآراءهم. ونودّ هنا ألاّ نطيل في هذه المسألة ونتناول هذا المبحث من زاوية ما يهمنا في هذا الموضوع.

25- أثار الباقلاني في كتابه "نكت الانتصار لنقل القرآن" هذه القضيّة وردّ على الطاعنين من القدامى الرّدود المناسبة،مستعرضا دعاويهم،محدّدا نحلهم ومذاهبهم.

26- يمكن الرّجوع مثلا إلى ما ألفه : عبد الفتاح القاضي،في الرّد علي جولدزيهر في مسائل متعلقة بالقراءات،من خلال تأليفه : القراءات في نظر المستشرقين والملحدين. كما يمكن الرّجوع إلى مقدمة آرثر جفري لكتاب المصاحف تأليف أبي داود السجستاني. وقد ردّ على بعضها الأستاذ أحمد البيلي في كتابه : أحمد البيلي : الاختلاف بين القراءات : 91،ط1 ، دار الجيل والدار السودانيّة للكتب ، 1408هـ / 1988م.

27- اعتبر طه حسين تعدد القراءات معضلة من معضلات القرآن ، يقول : (إنّ القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتّى كثرت قراءاته، وتعددت اللهجات فيه. وتباينت تباينا كثيرا جدّ القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه فأقاموا له علما أو علو ما خاصّة.) : في الأدب الجاهلي : 98. يظهر طه حسين-من خلال هذا القول- ، متأثرا بالمستشرقين،إذ كثيرا ما يردّد آراءهم.

28- انظر كتاب:الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها : د/ حسن ضياء الدّين عتر. ط1 ، دار البشائر الإسلاميّة ، بيروت ، لبنان ، 1409هـ / 1988م.

ب- الأحــرف والقراءات :

يرجع تعدد الأحـرف والقراءات القـرآنيّة إلى أصول تفسّر بها وترجع إليهـا، وأهمّ هذه الأصول هو حـديث الأحـرف السـبعة الذي رواه العديد من الصحابة بلغوا سبعة وعشرين[29]. وهذا الحديث الذي أطـلق عليه "حـديث الأحـرف"،ورد في كتب السنّة بصيغ مـختلفـة من حيـث اللفظ، متفقة في معنى تعدد الأحرف،واعتبر بعضهم هذا الحديث متواترا[30].

وهذا نصّ إحـدى الرّوايات : قـال رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم : (إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)[31]. وظاهر نصّ الحـديث أن القرآن نـزل على أوجه متنوعة بلغـت سبعـة[32].

هذه الأوجه،جعلت مـواقف كثير من الفـرق والحسـاسيّات المذهبيّة مـتنوعة

29- منهم عمر بن الخطاب وأبي بن كعب، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وغيرهم.
شرح النووي على مسلم : 100/4.
فتح الباري : ابن حجـر : 20/9.

30- غيث النفع في القراءات السـبع : الصّفاقسي : 9،بهـامش سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهى، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان. د.ت

31- رواه البـخاري في فضـائل القـرآن : 27/5، باب التـوحيـد 53، بـدء الخـلق : 6، مرتدين: 9 خصومات : 4 . ورواه مسلم : باب المسافرين:270 وأبو داود وتـر : 22.ورواه الترمـذي : قرآن:9 والنسـائي : افتتاح:27 ورواه أحـمـد في مسنده 5-41-114-124-127-128-132 .
المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : 418/6

32- جـاء في دائرة المعـارف الإسلاميـة:"سبع" أو سبـعة، هو الرّقم سبـعة، وله مـدلول خاصّ عند المسلمين : (243/11).

بعد عصر التنزيل[33]؛ وقد ذهب المفسرون والشراح مذاهب شتّى في تفسير هذا الحديث، ومنهم من اعتبره مشكلا[34]. ويرجع الأمر في ذلك إلى سببين رئيسيين : أولهما حقيقة المراد من الرّقم سبعة في هذا الحديث، لأنّ منهم من اعتبره للكثرة فحسب، على نهج العرب في استعمالهم للسبعة والسبعين والسبعمائة[35]، ومنهم من اعتبر عين العدد هو المقصود. وأمّا السبب الثاني، فيرجع إلى تحديد معنى الحرف[36] في الحديث. ويرى مكي بن أبي طالب القيسي[37]، أن القراءات جزء من الأحرف لأنّ الجمع العثماني نزل من سبعة أحرف إلى حرف قريش[38]، وبقي ما وافق المصحف العثماني من القراءات مندرجا ضمن ذلك الحرف[39]. وأمّا

33- يقول الباقلاني : (وقد قال الملحدون إنّ القرآن مدخول، وإنّه غير ثابت ولا مضبوط وأنّ فيه لحنا وتناقضا، وزعم قوم من الرّافضة أنه بدّل وغيّر.. وقال خلق من المعتزلة : وشذوذ من ضعفة القراء لا يعرف لهم ناصر... وقال قوم من الفقهاء والمتكلمين : يسوغ إعمال الرّأي في إثبات القرآن وأوجهه إذا كانت صوابا في اللغة، وإن لم تقم حجّة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بتلك المواضع، وهذا ما أنكره أهل الحق وأبوه أيضا.)
أبو بكر الباقلاني : نكت الانتصار لنقل القرآن : 59-60. منشأة المعارف الإسلاميّة، دار بورسعيد للطباعة ج.م.ع ، 1401هـ / 1981م.

34- ينظر في دراسة الدّكتور محمد التومي في المجلة الزيتونيّة : العدد 223/5 السنة الجامعيّة. 1978م-1979م.

35- دائرة المعارف الإسلاميّة : 243/11.

36- حرف كلّ شيء طرفه ووجهه وحافته وحدّه وناحيته والقطعة منه، والحرف أيضا واحد حروف التهجي كأنّه قطعة من الكلمة : النشر في القراءات العشر : 23/1.

37- هو أبو محمد، مكي بن أبي طالب القيسي. ولد سنة (355 هـ) بالقيروان وانتقل منها إلى الأندلس. اشتهر بسعة علمه في القراءات والحديث، ثم العربية والأدب. ألف العديد من المصنفات. توفي سنة (437 هـ).
معجم الأدباء : 168/19.

38- محمد بن جرير الطبري : جامع البيان في تفسير آي القرآن : 62/1، ط4، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980م.

39- الابانة عن معاني القراءات : مكي بن أبي طالب : 51-52.

الأحرف السبعة. ومهما اختلفت الآراء وتعددت الشروح والتأويلات[40]، فإن القراءات -التي هي جزء من الأحرف السبعة- متواترها وآحادها وشاذها قد حفظت للعربيّة تراثها اللغوي الثري بلهجاته العديدة وبصوره الفنية الرّائعة، وبإعجازه اللغوي، دون تضادّ بين هذه القراءات الصحيحة أو تناقض.

يقول ابن الجزري : (فإنّ اختلاف القراء كلّ حق وصواب نزل من عند الله وهو كلامه لا شك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي. والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكلّ مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب لا يحتمل الخطأ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب.)[41]

ويعلم المختصون في علم القراءات أنّ أهمّ ركيزة يبنى عليها هذا العلم هي التلقي الشّفوي، فالصحابة تلقوا القرآن من فيّ النبيّ وكانوا حريصين على تبليغه مثلما سمعوه منه، ولم ينشأ الاختلاف في القراءة إلاّ عن تفرّق الصحابة -الذين سمعوا النبيّ يقرأ بأوجه متنوعة- واعتقاد النّاس أنّ القراءة المتلقاة عن صحابيّهم صحيحة، وما عداها خاطئ[42].

40- يمكن الرّجوع إلى كتاب "الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن": الشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي. وإلى كتاب : "الأحرف السبعة ومنزلة القراءة منها": الدكتور حسن ضياء الدين عتر. وهي مباحث متأخرة، زيادة على الكتب المصادر في ذلك، مثل الابانة والمرشد الوجيز لأبي شامة، وغيرها من الأمهات في هذا المجال.

41- النشر في القراءات العشر : 52/1.

42- ما كان من موقف عمر بن الخطاب، إزاء هشام بن حكيم بن حزام حين كذبه لمّا قرأ من سورة الفرقان بوجه لم يسمعه من الرّسول، وذهابهما إلى الرّسول واقراره لذلك. نصّ الحديث ورد في كتاب : فنون الافنان في عيون علوم القرآن : ابن الجوزي : 196-197-198، تحقيق : د/حسن عتر، دار البشائر الاسلامية ط1، 1408هـ/1987م.

"فإذا علمنا أنّ قراءات القرآن هي الوثيقة التاريخيّة التي نطمئنّ إليها في فقه اللغة الفصحى من جميع نواحيها... أدركنا أهميّة دراستها بطريقة علميّة، إذ أن هذه القراءات على اختلاف رواياتها سجلّ دقيق لما كان يجري في كلام العرب من تصرّفات صوتيّة ولغويّة"[43]. هذا كلام باحث قد وقف على مناهج العصر اللغويّة وتفطن إلى أهميّة المادّة العلميّة التي توفرها القراءات، وقد تفطن ابن الجزري في عصره إلى أهميّة هذه الدّراسة للقراءات وهذا التعدد،فكانت نظرته علميّة لكنها من زاوية مختلفة، يقول : (وأمّا فائدة اختلاف القراءات وتنوعها،فإن في ذلك فوائد غير ما قدمنا من سبب التهوين،والتسهيل،والتخفيف على الأمّة. ومنها ما جاء في نهاية البلاغة،وكمال الاعجاز،وغاية الاختصار، وجمال الايجاز، إذ كلّ قراءة بمنزلة الآية، ... ومنها سهولة حفظه، وتيسير نقله على هذه الأمّة،إذ هو على هذه الصفة من البلاغة والوجازة، فإنّه من يحفظ كلمة ذات أوجه أسهل عليه وأقرب إلى فهمه وأدعى لقبوله من حفظه جملا من الكلام،تؤدّي معاني تلك القراءات المختلفات لا سيما فيما كان خطه واحدا،فإنّ ذلك أسهل حفظا وأيسر لفظا)[44].

يتضح ممّا سبق أنّ النقل والرّواية هما خاصيّة علم القراءات، لأنّ من أحكام القراءة ما لا يمكن احكامه إلاّ بالتلقي الشفوي[45]

43- د/ عبد الصبور شاهين : أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي : 9. ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني، 1408هـ / 1988م.

44- النشر فى القراءات العشر : 52-53.

45- كان علم التجويد مندرجا ضمن علم القراءات ثم نما وتدرج في الانفصال بداية من القرن الخامس الهجري.

مثل التفخيم[46]، والترقيق[47]، والمد[48]، والقصر[49]، والادغام[50]، والاظهار[51]، والاخفاء[52]، والروم[53]، والاشمام[54]، والابدال[55]، والنقل[56]، والاقلاب[57]، والحذف[58]،

46- هو سمن يعتري الحرف المراد تغليظه،فيملأ الفم حال النطق . القواعد والاشارات في أصول القراءات : الحموي : 51. ط1 ، دار القلم، دمشق، سوريا، 1406هـ/1986م.

47- هو نحول يعتري الحرف،على ضدّ ما قبله . نفس المصدر : 51.

48- هو طول زمان صوت الحرف ، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر : الدمياطي : 157/1 ، تحقيق : د/محمد شعبان اسماعيل. ط1، عالم الكتب، بيروت ، مكتبة الأزهريّة ، مصر،1407هـ/ 1987م.

49- هو عبارة عن المدّ الطبيعي الذي يقوم به جسم الحرف، ويتم به وزانه : نفس المصدر : 43.

50- لغة:إدخال شيء في شيء، اصطلاحا : جعل الحرفين حرفا مشددا وجعل المراد إدغامه كالمدغم فيه.
القواعد والاشارات : 43.

51- هو النطق بكلّ من الحرفين بعد صيرورتهما جسما واحدا على كمال زنته وتمام بنيته. القواعد والاشارات : 45.

52- الاخفاء :وهو في الغنّة عند النون الساكنة لفظا،ليدخل التنوين وذلك إذالم يلق حرف حلق.وفي الخاء والغين المعجمتين خلاف للجمهور، والمشهور عدم الغنّة عندها. نفس المصدر : 45-46.

53- هو إذهاب أكثر الحركة وإبقاء جزء منها حال الوقف،وفائدته الاعلام بأصل الحركة لترتفع جهالة السامع.
القواعد والاشارات : 51.

54- هو ضمّ الشفتين من غير صوت،دليلا على ضمّ الوقوف عليه،(هذا في القراءات)
نفس المصدر : 51.

55- مثاله في الهمزة : التقاء همزتين من كلمتين؛الأولى مضمومة والثانية مفتوحة يبدل حرف قالون مثلا الثانية واوا من قوله تعالى [(ٱلسُّفَهَاءُ وَلَا إِنَّهُمْ) البقرة: 13/2].

56- هو نوع من تخفيف الهمز يفعله أهل نجد يقول سيبويه : (واعلم أن الهمزة إنما فعل بها هذا من لم يخففها لأنه بعد مخرجه).
الكتاب : 548/3.

57- هو إبدال النون والتنوين قبل ميما خالصة «كسميع بصير»

58- مثاله في الهمزة من رواية قالون عن نافع:[(ثُمَّ إِذَا شَا أَنشَرَهُ) عبس: 22/80]

والاثبات[59]، والالحاق[60]، والإمالة[61]، والفتح[62]، وما بينهما[63]، وتخفيف الهمزة[64]، وما إلى ذلك..لا يكفي المصحف المكتوب لتعلمه وتعليمه[65].

ثم سرعان ما تبلورت الأصول التي بني عليها قبول قراءة ما، فلا تقبل القراءة،ولا تعدّ من القرآن الكريم،ولا يتعبّد بتلاوتها،إلاّ إذا توفرت فيها شروط ثلاثة،نصّ عليها ابن مجاهد في كتابه السبعة في القراءات[66]، وزادها غيره من بعده توضيحا وتأصيلا ومن أشهر من اهتمّ من القراء المتأخرين بهذه المسألة : ابن الجزري.

وتتلخص هذه الأصول فيما يلي :

I- التواتر في النقل.

II- موافقه وجه من وجوه اللغة العربيّة.

III- موافقه ذلك الوجه لرسم مصحف من المصاحف العثمانيّة[67].

59- مثاله فى الهمزة.

60- الالحاق:زيادة حرف أو حرفين على أحرف كلمة لتوازن كلمة أخرى. معجم اللغة والادب : 209/1.

61- الإمالة:هو أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء وهي كبرى وصغرى.

62- الفتح : القراءة بدون إمالة.

63- ما بينهما : يسمّى التقليل لأن لفظ الإمالة يعني النحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألف نحو الياء نحوا كبيرا،والتقليل ما بين الفتح والإمالة،يمكن أن نطلق عليه إمالة صغرى.

64- تسهل الهمزة فى مواضع عند بعض القراء مثاله عند قالون وورش.

65- لبيب السعيد :الجمع الصوتى الأوّل : 111، ط2، دار المعارف، القاهرة ج.م.ع، د.ت.

66- كان اختيار ابن مجاهد قائما على أساسين : أ-ما حدث به الشيوخ مسندا إلى الإمام القارئ.ب - رسم المصحف.

67- يقول ابن الجزري : (كلّ قراءة وافقت العربيّة ولو بوجه،ووافقت أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالا،وصحّ سندها،فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها،بل هي من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن.) النشر : 9/1

والحقيقة أن هذه الأركان أو الأصول ليست مما لم يتبلور إلاّ في عصور متأخرة عن عصور التأليف في القراءات، بل كانت ضمنيّا معمولا بها ،لأنّ علماء القراءات بداية من القرن الثاني كانوا قد قاموا بتجميع مادّة القراءات،وفصلوا الشاذّ منها على حدة[68]، متفطنين في ذلك إلى جزء من الأصول التي وضعت فيما بعد.[69] فكان أن قدموا القراءات المتواترة على غيرها من القراءات. واعتمدوا الرّسم المصحفي ثم أوجه اللغة، فكان عملهم ذلك مدعّما لعلم القراءات وكان التأليف فيها قد مرّ بمراحل وأطوار، من الجمع إلى التهذيب ،ثم الاحتجاج والتوجيه ،وأخيرا الاختصار والجمع بالقراءات ونظم القصائد في ذلك، مثل الشاطبيّة وطيبة النشر[70].

ذلك أهمّ ما يتعلق بالقراءات، أمّا الأحرف فمعناها أشمل من القراءات، يقول أبو العبّاس المهدوي[71] : (وأصحّ ما عليه الحذّاق من أهل النظر في معنى ذلك،أنّ ما نحن عليه في وقتنا هذا من القراءات، هو بعض الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن)[72]. وإذا كان الأمر كذلك ،ومن منطلق تفسير السبعة الأحرف بعين العدد المقصود فإن بعض

68- د/ حسين عطوان : القراءات القرآنيّة في بلاد الشام : 7، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1402هـ/1982م.

69- كان ذلك بتفاوت في نزعاتهم الأثريّة أو القياسيّة العقليّة.

70- الأولى اختصرت كتاب التيسير لأبي عمرو الداني، والثانية حوت ما جاء في كتاب النشر.

71- هو أحمد بن عمّار بن ابي العبّاس الإمام أبو العبّاس المهدي،نسبة إلى المهديّة بالمغرب، رحل وقرأ على العديد من معاصريه في القراءات، الف التآليف، منها التفسير والهداية في القراءات السبع توفي بعد الثلاثين وأربعمائة. غاية النهاية : 92/1.

72- منجد المقرئين: 54.

الأعلام، منهم ابن قتيبة الدّينوري[73]، يرى أن الأحرف السبعة هي سبعة أوجه من الاختلاف في قراءة القرآن-وردت في كتابه : تأويل مشكل القرآن-

الوجه الأوّل : أن يُختلف في إعراب كلمة أو في حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها نحو : ((البُخْلَ [74] والبَخَلَ[75]، وَمَيْسَرَة[76]، ومَيْسُرَة[77]، وما هنّ أمّهاتِهم[78] وما هنّ أمهاتُهُمْ))[79] [80].

الوجه الثاني : أن يُختلف في إعراب كلمة أو في حركات بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها على غير التضادّ، ولا يزيلها عن صورتها في الخطّ، وذلك نحو قوله تعالى : ((رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا[81]، وَرَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا))[82][83]. و((إذْ

73- هو ابو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة النحوي اللغوي، ولد في الكوفة سنة 213هـ، وسكن بغداد مدّة، أخذ عن جلّة من علماء ذلك العصر وولي قضاء الدّينور، ثم اشتغل بالتدريس في بغداد. يعتبره العلماء إمام مدرسة بغداد النحويّة التي جمعت بين مذهبي البصريين والكوفيين. له مصنفات عديدة. توفي سنة(270 هـ).
بغية الوعاة :

74- رواية حفص عن عاصم.

75- قرأ بذلك حمزة الزيات

76- رواية حفص عن عاصم.

77- قرأ بذلك الكسائي وغيره.

78- رواية حفص عن عاصم .

79- قرأ به عاصم وغيره .

80- الآيات على التوالي من سورة النساء : 37/4، البقرة : 280/2، المجادلة : 2/58 .

81- قرأ بذلك ابن كثير.

82- قرأ بذلك نافع .

83- سورة سبأ : 19/34.

تَلَقَّوْنَهُ[84] وَتَلِقُونَهُ[85])[86] [وَادَّكَرَ بَعْدَ إِمَّةٍ[87] وبَعْدَ أُمَّةٍ[88]][89].

الوجه الثالث : أن يكون الاختلاف في تبديل حروف الكلمة دون إعرابها بما يغيّر معناها، ولا يغيّر صورة الخطّ بها في رأي العين، نحو : (نُنْشِرُهَا[90] ونُنْشِزُهَا[91])[92] و(فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ[93] وَفُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ[94]) -سورة سبأ : 34/23و(يَقُصُّ الحَقَّ[95] وَيَقْضِ الحَقّ[96])[97].

الوجه الرّابع : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغيّر صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها نحو [(إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً)[98] و(إِلاَّ زَقْيَةً وَاحِدَةً)[99]] -يس 36/29و[(كَالصُّوفِ المَنْفُوشِ)[100] و(كَالعِهْنِ

84- قرأ بذلك نافع.
85- قرأ بذلك نافع وغيره.
86- سورة النور:15/24
87- قرأ به مثلا ابن عبّاس وهشام بن حكيم وعائشة.
88- قرأ به نافع وغيره.
89- سورة يوسف:12/45
90- قرأ بها نافع
91- قرأ بها ابن عامر والكوفيون (عاصم وحمزة والكسائى)
92- سورة البقرة : 2/ 259.
93- قرأ بها نافع مثلا.
94- قرأ بها ابن عامر الشامي.
95- قرأ به نافع مثلا.
96- قرأ به أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن يعمر وعثمان الثقفي.
97- الأنعام : 6/ 57.
98- قرأ به نافع مثلا.
99- قرأ به ابن مسعود.
100- قرأ به عبد الله بن مسعود.

المَنفُوشِ)[101]][102].

الوجه الخامس : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها في الخطّ، ويزيل معناها، نحو (الٓمٓ تَنْزِيلُ الكِتَابِ)[103] في موضع (الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ)[104].

الوجه السادس : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنّه قرأ - [(وجاءت سكرة الحق بالموت)[105]][106].

الوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزّيادة أو بالنقص في الحروف والكلم. نحو : (تَجْرِي تَحْتَهَا)[107] وَمِنْ (تَحْتِهَا)[108]. (فَإِنَّ اللَّهَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ)[109]. و(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ)[110]. ورأي ابن قتيبة هذا، يعدّ رأيا محترما في مجال تفسير الأوجه السبعة. توصل إليه بعد استقراء وفحص وملاحظة. والملاحظ أن من جاءوا بعده. لم يختلفوا عنه كثيرا في تعليل أوجه القراءات. فالطبري شيخ القراء والمفسرين في عصره يرى بأنّ الأحرف تتفق فيما يفهم منها أي لا تتناقض في المعاني وتختلف في السماع يقول : (هي سبعة أحرف مؤتلفة المفهوم. مختلفة

101- قرأ به نافع مثلا.
102- سورة القارعة : 5/100
103- مخالف للرّسم لا يقرأ به.
104- البقرة : 2/ 1.
105- قراءة سعيد بن جبير.
106- الآية (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ) سورة قٓ :50/ 19
107- سورة التوبة : 100.
108- قرأ به مثلا قالون عن نافع.
109- سورة المتحنة: 60/6.
110- قرأ به حفص عن عاصم.

المسموع)[111]. ويوافقه على ذلك مكيّ بن أبي طالب القيسي، فيذكر أنّ الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، هي لغات متفرّقة في القرآن ومعاني في ألفاظ تسمع في القراءة، مختلفة في السمع، متفقة في المعنى، نحو تبديل كلمة بأخرى وصورة الخطّ متفقة أو مختلفة، وزيادة كلمة ونقص أخرى، وزيادة حرف ونقص آخر، وتغيير حركات في موضع حركات. أخر، وإسكان حركات، وتشديد وتخفيف وتقديم وتأخير، وشبه ذلك ممّا يسمع ويميّز بالسمع[112].

ويأتي بعد ذلك شيخ القراء محمد بن الجزري الشافعي ليقول في شأن هذه المسألة: (وقد تدبّرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال:

- اختلاف اللفظ والمعنى واحد.
- اختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد.
- اختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.)[113].

وعموما، فإنّ الأوجه من الاختلافات السبعيّة التي عرض لها أشهر علماء القراءات وعللوا بها الأحرف السبعة قد تنوّعت،[114] وكثر

111- الإبانة: 54.

112- نفس المصدر: 53.

113- النشر فى القراءات العشر: 1/49-50.

114- يرى مذهب من مذاهب الرّأي في الأحرف السبعة أنها سبعة أصناف من المعاني أنزل الله القرآن عليها هي: (أمر ونهي، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه وأمثال) واستدل أهل هذا الرّأي بأحاديث جلها ضعيفة.
بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن: 1/216. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. ط3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1400هـ/1980 م.

الخوض فيها، لكنّ ما أورده ابن قتيبة ومكي وابن الجزري يبدو أقرب إلى الاقناع، بالرّغم من كونه اجتهادا قابلا للتعقل إذا ما كان الحديث محكما، ومن باب التأويل له إذا ماآعتبر حديث الأحرف السبعة مشكلا، لأنّه ورد بلفظ أربعة أحرف وثلاثة أحرف[115].

ج- مصطلح القراءة والمعاني التي يدور حولها:

إنّ المتأمّل في المعاني اللغويّة للفظة "قرأ" كمصطلح لغوي في العربيّة[116] يجد له مدلولات متعددة، لا يكاد يعنينا منها في مبحثنا هذا إلاّ معنى الجمع والعرض والتلاوة،الوارد ذكره في التعريف السابق حين تحدّثنا عن القراءات.[117]

بيد أن معنى لفظة قارئ ولفظة قراء عرفت مدلولات متنوعة منذ نزول القرآن، تكاد تبتعد شيئا ما عن المعاني اللغويّة.

لقد أصبح القرّاء من المهاجرين -أي الذين حفظوا جزءا من القرآن في أوّل الدّعوة- يقومون بإقراء إخوانهم من الأنصار، وعلى رأس هؤلاء -مثلما هو معروف في كتب السيرة- الصحابي مصعب بن عمير[118]، والصحابي عبد الله بن أمّ مكتوم[119].

115- نكت الانتصار : 109 فما بعدها.

116- نهتم هنا خاصّة بصيغة اسم الفاعل لفعل قرأ ⟵ جمعه قراء.

117- انظر ص : 110.

118- هو مصعب بن عمير،بن هاشم،بن عبد مناف،أحد السابقين إلى الإسلام، كنيته أبو عبد الله. شهد بدرا واستشهد في أحد هاجر إلى المدينة قبل هجرة النبي إليها ليفقه أهلها في الدّين. الإصابة : 3/401-402.

119- هو عمرو بن أمّ مكتوم الأعمى القرشي العامري كان قديم الإسلام بمكّةثم هاجر إلى المدينة ونزل دار القراء، كان يؤذن لرسول الله صلّى الله عليه وسلم مع بلال، شهد القادسيّة ومات بها، ولم يسمع له بذكر بعد عمر بن الخطاب. الإصابة : 2/516-517. الاستيعاب : 2/250-251.

روى البخاري عن البراء بن عازب[120] قال : (أوّل من قدم علينا من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مصعب بن عمير، وابن أمّ مكتوم فجعلا يعلماننا القرآن)[121]. وذاع أمر هذين الصحابيين في المدينة فأطلق على دارهما "دار القرّاء"[122]، وأوّل من حمل لقب المقرئ بمعناه الإسلامي والاصطلاحي الأوّل،الصحابي مصعب بن عمير الذي أقرأ المسلمين في المدينة قبل هجرة النبيّ إليها وتدعمت القراءة والإقراء بمقدم النبي عليه السلام،فتد عمت العناية بالقرآن،وظهر من الأنصار زيد بن ثابت[123]، متقنا للقراءة والاقراء شهد له الرّسول بذلك.

عن زيد بن ثابت قال : "قدم رسول الله صلّى الله عليم وسلّم المدينة وقد حفظت سبع عشرة سورة فقرأت عليه فأعجبه ذلك[124]. ثم تسابق الصحابة بعد ذلك في اتقان تلقى القرآن،وحفظه بعد ما أمر النبيّ بكتابته[125]، فتعلم العديد من الصحابة الكتابة بعد غزوة بدر، وكان أغلب هؤلاء الكتبة من القراء، فاقترن الاقراء والقراءة بالكتابة وتعلم زيد

120- انظر ص :**29**.

121- فتح الباري : 328/10.

122- الاستيعاب : 494/2.

123- هو زيد بن ثابت،بن الضحاك،يرجع نسبه إلى مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبو سعيد،اشتهر بكتابة الوحي وحفظ القرآن، شهد أحدا والمشاهد بعدها،وكان يكتب للنبي رسائل اليهود،ويقرأ رسائلهم له. واشتهر بالفرائض توفي بعد الأربعين للهجرة. الاصابة *544-543/1*

124- تذكرة الحفاظ : 31/1.

125- عن أبي سعيد الخدري،أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : (لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه،وحدّثوا عني ولا حرج،ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.) أخرجه مسلم في كتاب الزهد:72، وأخرجه الدّارمي بلفظ آخر في مقدمة:42،وأخرجه أحمد بن حنبل : -21-39 12-3. المعجم المفهرس : 533/5. نص الحديث في البخاري : (لا تكتبوا عنّي شيئا سوى القرآن).

بن ثابت في جماعة من غلمة الأنصار[126]، ثم انتشرت الكتابة بين أبناء الأنصار حتّى بلغت النساء فتعلمت حفصة زوج النبيّ على يد الشفاء[127] تقول:(دخل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنا عند حفصة فقال: (ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة)[128]).واتسع الناس بعد ذلك في استعمال الخطّ،وأصبح لكثير من القراء صحف خاصّة كتبوا فيها ما تلقوه من القرآن[129]، واستمرّت الرواية الشفهيّة وكانت هي العمدة قبل وبعد استخدام رموز الأعراب والأعجام[130]، لأنّ علم القراءات مبني على الرواية والرّسم واللغة كما سبق بيان ذلك[131].

وتميز هؤلاء القراء الكتبة بحمل العلم الدّيني، فعرفوا الناسخ والمنسوخ،وعرفوا المحكم والمتشابه،ووعوا التفسير الذي تلقوه من النبيّ وهو متعلّق بآيات متفرقة من الكتاب، ثمّ فهموا الأحكام التّي تلقوها واجتهدوا في فهم الآيات،واستنباط الأحكام بعد النبيّ لما يجد من

126- الرّوض الأنف : السهيلي : 92/2. مطبعة الجمّاليّة بمصر ،1332هـ / 1914م.

127- الشفاء بنت عبد الله،بن عبد شمس العدويّة،من قوم عمر بن الخطاب، كانت تكتب في الجاهليّة،أسلمت قبل فتح مكة.
الحاكم النيسابوري : المستدرك : 56/4. طبعة دار الفكر ، بيروت.د.ت.

128- سنن أبي داود : 337/2. دار إحياء السنة النبويّة، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان.د.ت.

129- سيرة ابن كثير : 669/4-670. تحقيق : مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة،بيروت،لبنان،1402هـ/1982م.

130- (وضعت بصبغ يخالف لون المداد نقطة فوق الحرف للفتحة،وبجانبه للضمّة وأسفله للكسرة،وللغنّة نقطتان) -على عهد أبي الأسود-
ابن كثير : فضائل القرآن : 89.

131- كان الاعجام هو الخطوة الأخيرة لتمييز الحروف المتشابهة بعضها من بعض، وكان ذلك في عهد الحجّاج مستعينا بنصر بن عاصم،ويحي بن يعمر، والمرجح أن ذلك كان قبل سنة(89 هـ)لأنّ الحجّاج توفي سنة(95 هـ)ويحي بن يعمر توفي سنة(129 هـ).
وفيات الأعيان : 344/1.

الأحداث، فأصبح مدلول القارئ هو التبحر في العلوم الدينية والإقراء والإفتاء والاشتغال بها.[132]

يقول ابن خلدون : (إنّ الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدّين يؤخذ عن جميعهم ، وإنما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه، ومتشابهه ومحكمه،وسائر دلالاته بما تلقوه من النبيّ صلّى الله أو ممّن سمعه منهم ومن عليتهم،وكانوا يسمّون لذلك القرّاء، أي الذين يقرأون الكتاب،لأنّ العرب كانوا أمّة أميّة فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم)[133]. ثم عظمت أمصار الاسلام،وذهبت الأميّة[134]، فازداد أهل العلوم اختصاصا في اختصاصهم، وأصبح مصطلح القارئ أو المقرئ مقتصرا على من اختص في إقراء القرآن - أو كان علم القراءات من جملة العلوم التي يتقنها فيقال مثلا : "المحدث القارئ النحوي"[135].والقارئ عند القراء هو من اهتم بالرّوايات وعرف الأسانيد وأنواع القراءات. ويزيد علماء القراءات بعد ذلك هذه المصطلحات تدقيقا وضبطا بحسب مراتب التدرج في هذا العلم، يقول ابن الجزري : (والمقرئ : العالم بها -أي القراءات- رواها مشافهة... والقارئ

132- وقف المحتجّون للقراءات من الرّسم مواقف مختلفة، فبعضهم عدّه حجّة،وبعضهم لم يعتمده،فالقراء أهل الرّواية والأثر اعتمدوه، ولم يعتمده فريق النحاة ممن تبنّوا القياس والنظر.
د/ عبد الفتاح شلبي : رسم المصحف والاحتجاج به : 55، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ج.م.ع1380هـ/1960م.

133- المقدمة : 46.

134- نفس المصدر : 446.

135- اشتهر العديد من الأعلام بتنوع اختصاصاتهم، أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي، والكسائي،والفراء،ويونس بن حبيب،وغيرهم.

المبتدي،[136] من شرع في الافراد،[137] إلى أن يفرد ثلاثا من القراءات، والمنتهي من نقل من القراءات أشهرها)[138]. ولم يحد من جاءوا بعد ابن الجزري عن هذا التعريف، فكان القراء يتفاوتون جمعا وحفظا وإتقانا للرّواية، محافظين على أدنى المراتب رغم انحراف المفاهيم،[139] فاليوم يطلق لفظ المقرئ على من يجيد تلاوة القرآن ولو برواية واحدة بينما كان يطلق في عصر ابن الجزري على المتبحّر في القراءات.

د- القرآن والقراءات :

من الواضح أن تعدد قراءات القرآن قد طرح فيما بعد مسألة هامّة من قبل الشارحين لحديث الأحرف-وقع طرحها بعمق كبير- ، أفرزت طروحات كلاميّة ارتبطت بقضيّة خلق القرآن، وبآراء المعتزلة في ذلك[140].

فهل يوجد فرق بين القرآن وبين القراءات ؟ أم أنّ القراءات هي عين القرآن الكريم؟ أم أنّ حقيقة الأوّل لا تنفصل ولا تعزل عن حقيقة الثاني ؟

*** تعريف القرآن الكريم :** أورد الجرجاني التعريف التالي : (هو المنزل على الرّسول المكتوب في المصاحف، المنقول عنه

136- ألف الإمام أبو القاسم، علي بن عثمان بن الحسن القاصح العذري البغدادي كتاب : "سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي" وذلك في القرن الثامن الهجري.

137- الافراد : معرفة أحكام قراءة متواترة، كمعرفة رواية قالون وورش عن نافع.

138- منجد المقرئين : 3.

139- يطلق لفظ المقرئ اليوم على المجيد لتلاوة القرآن وفق قواعد التلاوة والتجويد، مع معرفة بالمقامات الموسيقيّة.

140- ينظر مثلا إلى ما أورده الزركشي من أقوال عن كيفيّة نزول القرآن. البرهان : 229/1.

نقلا متواترا بلا شبهة، والقرآن عند أهل الحق هـو العلم اللّدني الاجمالي الجامع للحقائق كلها)[141]، ولئن كان الجزء الثاني من التعريف قد أشار إلى الكلام القديم الذي ليس حرفا ولا صوتا والذي يدلّ القرآن عليه[142]، فإنّ الجزء الأوّل من التعريف لا يختلف عمّا نجده في كتب أصول الفقه حين تعرف القرآن[143].

يقول الشيخ الخضري ملخصا ما قاله القدامى : (الكتاب هو القرآن، وهو اللّفظ العربي المنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم للتدبر والتذكر المنقول متواترا، وهو ما بين الدّفتين المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، فالعربيّة جزء ماهيته)[144]؛ فقوله إنّ العربيّة جزء ماهيته يؤكّد متانة الصّلة بين القرآن والقراءات التي هي بدورها جزء من الأحرف.

يقول الزركشي[145] : (واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمّد صلّى الله عليه وسلّم للبيان والاعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي، المذكور في كتبة الحروف أو كيفيّتها ، من تخفيف وتثقيل وغيرهما)، فهو من خلال هذا القول يفرق بين القرآن الوحي ،المراد به التحدي والاعجاز وهو معنى

141- التعريفات : 174.

142- الاتقان : 43-44.

143- محمد بن علي الشوكاني : إرشـــاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول : 30-31، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان. 1339 هـ/1979م.

144- محمد الخضرى بك : أصول الفقه : 260. ط1،، المطبعة الرّحمانيّة بمصر ، المكتبة التجاريّة الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، 1352هـ / 1933م.

145- البرهان : 318/1.

ما أورده الجرجاني من أن القرآن هو العلم اللّدنّي الاجمالي الجامع للحقائق كلها وبين اختلاف ألفاظ الوحي في القراءة والمعنى الجزئي على غير التضاد. وإذا كانت العربيّة جزء من ماهية القرآن فلا يمكن القول بالتغاير بين القرآن والقراءات[146]، يقول الزركشي :(ولست أنكر تداخل القرآن بالقراءات، إذ لا بدّ أن يكون الارتباط بينهما وثيقا)[147]. وهذا يعني أن القراءات الصحيحة التي تلقتها الأمّة بالقبول جزء من القرآن لأنها مرتبطة به ارتباط الجزء بالكلّ.[148]

ونرى فريقا ثانيا يقول بأن القرآن هو عين القراءات وأن القراءات هي عين القرآن وفي ذلك نظر،[149] لأنّ القراءات على اختلاف أقسامها لا تشمل كلمات القرآن كلها، بل هي موجودة في بعض ألفاظه فحسب.[150] كذلك فإنّ لفظ القراءات يشمل ما شذ منها وهو ما لا يتعبّد

146- يقول الدّكتور جميل علوش : (فالقرآن هو الأصل والقراءات فرع، وموقع القراءات من القرآن كموقع اللهجاتمن كلام العرب شعره ونثره، فكما لا يجوز أن تسدّ لفظة اللهجات عن لفظة كلام العرب، ولا أن تقع موقعها كذلك لا يجوز أن تسدّ القراءات مسدّ القرآن ولا أن تقع موقعه).
د/ جميل علوش : ابن الأنباري وجهوده في النحو : 315. ط1، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا- تونس ،1401هـ / 1981م.

147- البرهان : 318/1.

148- اتحاف فضلاء البشر : 69/1.

149- يرى الدّكتور محمد سالم المحيسن أنّ القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد مستدلا بظاهر المعنى اللغوي ، القرآن مرادف للقراءة،والقراءات جمع قراءة وبذلك يتحد المعنيان... ونرى أن طرح هذه القضيّة لا يكون بمثل هذه البساطة، لأنّه ليس ثمّة في العربيّة ترادف.
د/محمد سالم المحيسن : في رحاب القرآن الكريم :209/1-210.مكتبة الكليّات الأزهريّة بمصر، 1400هـ/1980م.

150- يتفق جميع القراء في العديد من أوجه القراءة سواء ما تعلق بالأصول أو بفرش الحروف.

بتلاوته بإجماع الفقهاء والقراء[151].

أمّا الرّأي الذي تركن إليه النفس فهو أنّ القرآن والقراءات ليسا متغايرين تغايرا تامّا،وليسا متحدين اتحادا حقيقيّا، بل بينهما ارتباط وثيق، ارتباط الجزء بالكلّ. غير أن الاستدلال من قبل النحاة بالقراءات لم يكن مراعيا لمسألة التواتر والشهرة وغيرها من التقسيمات والتفصيلات[152].

هـ - الاحتجاج للقراءات وعلاقته بالنحو :

نشأ الاحتجاج مع القراءة والتفسير في عهدهما الأوّل كملاحظات بسيطة،فابن عباس[153] قرأ "ننشرها" من قوله تعالى: [(وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا) (البقرة : 259/2)]واحتج لذلك بالقرآن الكريم قال تعالى : [(ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) (عبس: 22/8)] وهذا احتجاج للقرآن بالقرآن.

وترجع الأسباب الأولى لنشأة الاحتجاج إلى اختلاف المصاحف[154]، أو اختلاف لهجات القبائل،ثم كان في مرحلة لاحقة بسبب الاختلافات النحويّة الرّاجعة بالدّرجة الأولى إلى الاختلاف في إعراب الكلم وحركاته، ثم تطوّرت مسألة الاحتجاج بتنوّع الآراء،من السلف إلى

151- النشر في القراءات العشر : 9/1.
منجد المقرئين : 16.

152- الاتقان في علوم القرآن : 75/1.

153- هو عبد الله بن العبّاس،بن عبد المطلب،بن هاشم،بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عمّ الرّسول. ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، لقب بحبر الأمّة لسعة علمه في الدّين وفقهه،ولي البصرة وكان مع جيش على بن أبي طالب يوم صفين، توفي بالطائف سنة(68 هـ).
الإصابة : 2/ 322 ⟵ 326.

154- النشر : 27/1.

الخلف، فظهرت نزعات جديدة في الاحتجاج بدخول القياس إلى معترك الحياة العلميّة، ليصبح معتمدا في أصول الفقه، والنحو، وعلم الكلام[155].

وكانت النزعة الطّاغية على القراء نزعة أثريّة، تعتمد الرّواية والنقل عن الشيوخ، مع الاحتجاج بالرّواية والاعتناء برسم المصاحف عناية كبرى. ويلجأ الأثريون من القراء إلى تغليط القراءات الغير المرويّة وإن كانت جائزة في العربيّة[156]، ثم طغى القياس على الأثر في مرحلة ما[157]، وبلغ الأمر ببعض النحاة إلى ردّ بعض ما تواتر من القراءات، مثل قراءة ابن عامر الشامي من قوله تعالى: [(وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ) (الانعام: 137/6)] وقراءة حمزة (الأرْحَامِ) بالكسر من قوله تعالى: [(واتَّقُوا اللَّهَ الذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ) (النساء: 1/4)].

والذي تجب ملاحظته هو أنّ أمر الاحتجاج يدور حول ثوابت وركائز أساسيّة، تهتم الأولى بالرّواية وكيفيّة نقل القراءة المراد الاحتجاج لها أو عليها، والنقل مقدم ومعتبر عند أهل الأثر الذين يرون بأن الاحتجاج يكون ثانويّا في صورة تواتر القراءة، ولا يرون تخالفا بين القراءة المتواترة وصحتها من حيث اللغة العربيّة[158]. أمّا إذا خالفت التواتر، فهي محلّ نظر بعد ذلك[159].

155- أبو علي الفارسي: 427.

156- حادثة ابن شنبوذ تؤكّد ذلك.

157- هناك روّاد لمدرسة القياس الصرف منهم الزمخشري وأبو علي الفارسي.

158- يرى الدّكتور أحمد مكي الأنصاري أن القراءة المتواترة هي بالضرورة موافقة للغة العربيّة. نظرية النحو القرآني: 52

159- يقول الأستاذ عبد الوهاب حمّودة: (فإنّه لا ينبغي أن يقاس القرآن على شيء، بل الواجب أن يقاس عليه، فهو النصّ الصحيح الثابت المتواتر، وليس هناك نصّا ممّا يستشهد به يشبهه في قوة إثباته، وتواتر روايته، والقطع بصحته في متنه ولفظه). القراءات واللهجات: 129.

أمّا الرّكيزة الثانية المتعلقة برسم المصاحف ومدى موافقة القراءة لهذا الرّسم العثماني، فإنّ القدامي من المحتجين قد وقفوا من رسم المصحف مواقف مختلفة، فكان القراء[160] يحتجون برسم المصحف[161]، تدعيما لثوابت الرّواية التي من أسسها اتباع الرّسم وعدم الحياد عنه. وقد خالف هذه النظرة وهذا الموقف فريق من النحاة يمثلون مدرسة القياس والنظر مثل أبي علي الفارسي[162] فيما بعد. وهذا ما يجعلنا نجزم بأن أمر الاحتجاج قد تطور بتطوّر مدارس القراءات والنحو. فالقراء حين بدأوا الاحتجاج كانوا في حاجة إلى مقاييس معينة تضبط أمر الاحتجاج للقراءات، للافضاء إلى قراءات تستوفي الشروط الموضوعة والاقرار بقرآنيتها وصحتها، وذلك ما حسم بالفعل بتسبيع ابن مجاهد، الذي جمع جملة من القراءات كانت معروفة، وبوّأها منزلة خاصّة ليحسم في أمر اختيار القراءات المتواترة المشروطة بالشروط السالفة.

ومهما اختلفت وتنوّعت اتجاهات المؤلفات وتوجهاتها في مجال الاحتجاج، من منتصرة لقارئ من السبعة مثلا دون غيره من القراء، أو توثيق غير السبع مثلما فعل ابن جني[163]، وابن خالويه[164]، في توجيه القراءات الشاذّة أو الاحتجاج للقراءات وكشف عللها[165]، فإنّ

160- كان سيبويه والفرّاء يحتجان برسم المصحف
161- رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات : 55
162- انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : 2/80-82 ، معجم الأدباء : 7/232 .
163- ابن جني في كتابه المحتسب في توجيه القراءات الشاذة من كلام العرب.
164- ابن خالويه في كتابه الشواذ في القراءات.
165- أبو علي الفارسي : 160.

ذلك كان موازيا لتطوّر فقه اللغة من ناحية،وللدّراسات النحويّة إجمالا، بما صاحبها من قيام مدرستي البصرة والكوفة ثم المدرسة البغداديّة فيما بعد. وكان مبرزا أيضا لحظ القراءات المتعددة،من الاحتجاج النحوي نفسه. فالقراءات لم تكن وحدها عمدة النحاة في إقامة البناء النظري النحوي، لأنّ الشعر مادّة تزاحم القراءات[166]، ولها أهميّة كبرى في الاحتجاج اللغوي[167]، ولم تكن القراءات آنذاك مدونة كلها ولم تفصل عن بعضها إلاّ بداية من القرن الثاني كما سبق ذكره .

ومن خلال تتبع الباحث لمراحل تدوين القراءات وتطوّر عمل النحاة يمكن أن نلمس حظ القراءات من تطور الدّرس النحوي[168]، وهذا العمل أنتج مدرسة القياس الصرف[169]، التي ردّت بعض القراءات المتواترة ممّا دفع بـ"جولد زيهر" إلى التشكيك في صحّة النصّ القرآني ودقته.

يقول :(وفي وقت متأخر فقط، اجتهد الذكاء وحدّة الذهن في قواعد العربيّة، بكلّ وسائل الفطنة،لتسويغ صحّة المواضع المشار إليها من جهة العربيّة، ولا يتخلف النحاة البصريون والكوفيون في حدّة الذّهن والبصر بعلاج المشاكل عن بني وطنهم من الفقهاء. أمّا المدرسة

166- يقول كارل بروكلمان : (كذلك بدات دراسة النصوص الشعريّة نفسها في وقت مبكّر ايضا،وكانت تستهدف البحث في مؤسسات الحياة البدويّة،وأوضاعها التي تؤلف قوام القصائد البدويّة).
تاريخ الشعوب الإسلاميّة : 193.

167- الأصول : 92-93.

168- ألف عفيف دمشقيّة :أثر القراءات في تطوّر الدّرس النحوي.

169- كان سيبويه ومن بعده ابو علي الفارسي ومن بعدهما الزمخشري يعتمدون على القياس اعتمادا كبيرا.
ابو علي الفارسي : 427-428.

القديمة فلم تحاول ذلك،بل آثرت في صدق وأمانة.أن تبقي نصّ الوحي على ما يعتوره من مآخذ)[170].

المتمعن في قول جولد زيهر يلاحظ أنّـــه أغفل :

1) أن علم الاحتجاج -إذا صحت العبارة- قد تطوّر جنبا إلى جنب وعلم النّحو،وكان ذلك قد زامن عمليّة الجمع اللغوي، من شعر وأقوال وأحاديث، لتبدأ بعدها عمليّة الاحتجاج.
2) أن بعض الطّاعنين في بعض القراءات يمثلون مدرسة القياس الصرف.
3) أن مدرسة الأثر كانت في مقابل مدرسة القياس والنظر، ولم يحصل انصهار الأولى في الثانية.
4) أن اختلاف القراءات.لم يكن من مآخذ نصّ الوحي.

ومما يؤيد ذلك قول الأستاذ عبد الوهاب حمودة : (إنّ الاختلاف في كثير من القراءات،مرجعه إلى اختلاف اللغات،وتعدد اللهجات، وهناك نوع من القراءات لا يرجع إلى اختلاف اللهجات. وإنما هي أوجه تجري في الفصيح من كلام العرب، واردة على سنّة العرب من صرف عنايتها إلى المعاني ونظرها إلى الألفاظ نظر الوسائل فلا ترى بأسا في إيراد اللفظ على وجهين أو وجوه، ما دام المعنى الذي يقصد بالخطاب باقيا، في نظمه ومأخوذا من جميع أطرافه، وفي هذا توسعة على القارئ وعدم قصره على حرف، لأنّ القرآن حفظ كثيرا من طرق البيان، وتقرير أساليب الخطاب وفنون التعبير.)[171].

170- مذاهب التفسير الإسلامي : 46

171- القراءات واللهجات : 121.

ممّا سبق بيانه يظهر لنا ترابط القراءات بالنحو، وعلاقة القراء بالعمل اللغوي النحوي،الذي تطوّر مع أساليب التعليل خاصّة مدرسة القياس الصرف،حيث ينطلق كلّ عالم من أرضيته المعرفيّة ليعمل عمله في الثروة اللغويّة التي يواجهها. ويعتبر العمل الاحتجاجي للقراءات والمسمّى توجيه القراءة في مرحلة لاحقة،مجالا واسعا عمّق به النحاة والقراء صلتهم بالقرآن واللغة العربيّة والنحو العربي.

المبحث الثاني :

صلة الكوفة بالقراءات السبع

قد يتساءل المرء عن صلة الكوفة بالقراءات السبع.وهل كانت هذه البيئة الكوفية مهيأة لتحمل روايات القراء السبعة ؟

إنّ مثل هذه التساؤلات التي ننطلق منها،تعكس لنا إشكاليّة منهجيّة في هذا البحث.لأنّ الحديث عن القراءات السبعة -بصفة رسميّة جدّا- والاختصاص بنقلها وتأليف التآليف الكبيرة عنها أو فيها نجده قد بدأ بتأليف ابن مجاهد[172]: السبعة في القراءات[173] -أي بداية القرن الرّابع- وإذا علمنا ذلك فمن حق الباحث أن يسأل عن علاقة القراءات السبع بمدرسة الكوفة النحويّة التي اكتمل بناؤها قبل ذلك[174]، وابن مجاهد كان معاصرا لمدرسة بغداد النحويّة ؟!

حتّى نصل إلى حلّ هذه الاشكاليّة،لابدّ أن نجيب على بعض الأسئلة الفرعيّة طوال مسار البحث الذي بين أيدينا.لنستعين على حلّ المشكل الرّئيسيّ.

أولا:إلى أيّ عهد ترجع مسألة التسبيع أو التمييز بين

172- أوّل من ألف في القراءات على ما ذكره ابن الجزري هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفي سنة(244 هـ)والذي جمع في كتابة خمسة وعشرين قارنا مع السبعة المعروفين،ثمّ تلاه أحمد بن جبير بن محمد الكوفي،المتوفي(258 هـ) الذي جمع كتابا في قراءات الخمس،وتتالت التآليف إلى أن جاء ابن مجاهد.
النشر فى القراءات العشر : 34-35.

173- توفي ابن مجاهد سنة 324 هـ ، تحدث ابن الجزري عن تسبيع ابن مجاهد فبيّن كراهة العلماء له لأنّه ادخل في توهّم أن القراءات هي الأحرف السبعة -وذلك غير صحيح- فأصبحت القراءات الأخرى ينظر إليها بمنظار الشذوذ. وانتقد الجعبري أيضا ابن مجاهد لأنه لم يبين مقصوده من هذا التسبيع -حسب رأيه-
منجد المقرئين : 71-72.

174- الاكتمال يقصد به تبلور أهم الآراء وظهور الاختيارات الكبرى في المنهج النحوي الكوفي.

القراءات ؟ وما هي المقاييس المعتبرة في هذه العمليّة ؟

ثانيا: هل عرفت الكوفة عددا معنيا من القراءات ؟ كم كان ؟ وهل كانت قراءات الأعلام السبعة المعروفين تروى، ويتناقلها قرّاء الكوفة ونحويها بصرف النظر عن روايتهم لها أو اكتفائهم باختياراتهم ؟

ثالثا: هل هذه القراءات متشابهة في الوحدة الزمنية - أم كان بينها تفاوت ؟

رابعا: كيف تفاعل القرّاء والنحاة الكوفيون مع هذه القراءات وما هو مدى اعتمادهم عليها في بناء النحو الكوفي، الذي اختصّ بكلّ ميزات النحو المستقلّ المفضي إلى قيام مدرسة بأصولها، ومصطلحاتها وعقليتها وتأويلها؟ كل ذلك يتطلب الإجابة والايضاح. والذي تجب ملاحظته مع الترجيح أنّه في النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة تكونت حول بعض التابعين في المدينة ومكّة والكوفة والبصرة مدارس للقراءة[175]، كان قد وضع أسسها صحابة النبيّ لمّا استقل أشهرهم بالإقامة

175- اشتهرت المدينة كمدرسة للقراءة اسسها الصحابي ابي بن كعب الذي يتصل سند قراءة نافع المدني به وتجاوزت هذه القراءة المدينة لتنتشر في مكّة بسندها إلى عبد الله ابن كثير، وفي البصرة بسندها إلى أبي عمرو بن العلاء. وفي الكوفة ليتصل سندها بعلي بن حمزة الكسائي.
وكانت مع مدرسة أبي رضي الله عنه مدرسة زيد بن ثابت -في المدينة هي الأخرى-
ونجد مدرسة ابي موسى الاشعري بالبصرة التي يتصل سند أبي عمرو بها.
ونجد مدرسة عبد الله بن مسعود بالكوفة الذي يتصل سنده بعلي بن حمزة الكسائي.
ونجد مدرسة ابي الدرداء بدمشق الشام، يتصل سند ابن عامر الشامي بها، ومن المعلوم أن سند كلّ قراءة سبعية يتصل باكثر من صحابي لما لها من صفة التواتر.
يراجع في ذلك : النشر في القراءات العشر : 1/8-9.
أبو عمر والدّاني : التيسير في القراءات السبع : 8-9-10. ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1984م.
اختلاف القراءات وأثره في التفسير واستنباط الأحكام : عبد الهادي حميتو. طبعة مرقونة. من ص : 34 ←—— 49.
رسالة ماجستير بالمغرب الأقصى بدار الحديث الحسنيّة. العام الدراسي : 1379 هـ-1400هـ/ 1979م-1980م.

في الأمصار المشهورة[176]، ثمّ اشتهرت كلّ قراءة في مصرها،وربما اشتهر مصر واحد بكثرة قراءاته. وتعددت تآليف الجمع في القراءات.

وكانت طريقة تعليم القراءات معتمدة الرّواية والمشافهة بالتلقي المباشر من الشيخ إلى تلاميذه، وهي طريقة مشابهة لطريقة تعليم الحديث النبوي. فنجد عبارة:"أخذ القراءة عنه عرضا" وعبارة: "روى القراءة عنه" مبثوثة في كتب التراجم المتعلقة بطبقات القراء. ضف على ذلك أنّ هذه الرّواية للقراءات المعتمدة على المشافهة تستند إلى التوثيق والكتابة.

فاستخدامهم عبارة:"له نسخة عنه" يؤكد بأنّ النصّ المقروء من قبل الطالب على شيخه،كان صورة من عدّة صور مضبوطة بالشكل[177]؛ وقبل محاولة حلّ الاشكاليّة المنهجية نستعرض القراء المشهورين في الأمصار الإسلاميّة باستخدام ترتيب الشاطبيّة والتيسير وما درج عليه علماء القراءات المتأخرون مع ملاحظة صلة السبعة بالكوفة.[178]

نافع المدني[179] : البدر الأوّل :

هو إمام المدينة في القراءة والاقراء... أقرأ بها

176- تاريخ التراث العربي : 146/1.

177- نفس المرجع : 146/1-147.

178- وقع الاعتماد على الكتب التالية في اخراج تراجم البدور السبعة في القراءات : -قراءات القراء المعروفين : الأندرابي - التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو الدّاني - غاية النهاية في طبقات القراء : ابن الجزري - السبعة في القراءات : ابن مجاهد ... معرفة القراء الكبار : الذهبي...

179- هو أبو عبد الرحمن،نافع بن عبد الرحمن (الليثي)،ابن أبي نعيم المدني،مولى جعونة،ويقال جعونة بن شعوب الليثي،حليف حمزة بن عبد المطلب. قراءات القراء المعروفين : أحمد بن أبي عمر المعروف بالأندرابي : 51. تحقيق د/أحمد نصيف الجنابي. ط1 ، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان.1407هـ/1986م.

ستين عاما،[180] واجتمع الناس على قراءته التي أخذها عن جماعة من التابعين نقلا عن جماعة من الصحابة،[181] قال عنه ابن مجاهد : (وكان عالما بوجوه القراءات متبعا لآثار الأئمة الماضين ببلده. آخذا القراءة عن جماعة من التابعين)[182].

توفي نافع سنة تسع وستين ومائة (169هـ).بعد أن تخرج على يديه أعلام من القراء طاف العديد منهم بالبلاد،ورووا قراءته ونقلوها. وبرع من تلاميذه راويان اشتهرا بحمل قراءته بعده هما:قالون[183]، وورش[184].

ولم يكن نافع مكتفيا برواية حرفه،بل كان يقرئ بجميع القراءات التي أخذها عن التابعين وبرع في ضبطها ونقلها،[185] واختار

180- نفس المصدر : 62.

181- نفس المصدر : 63.

182- السبعة في القراءات : 61.

183- هو أبو موسى،عيسى بن مينا،بن وردان،بن عيسى،بن عبد الصمد،بن عمرو،بن عبد الله المدني، مولى للأنصار يقال إنه كان ربيب نافع،وأنه هو الذي لقبه به لجودة قراءته،لأنّ قالون بلسان الروم «جيّد»،وكان قالون يعلم العربيّة،توفي قالون سنة خمس ومائتين:(205هـ) في أيام المأمون.
ابن الباذش : الاقناع في القراءات السبع : 58-59 . تحقيق : د/عبد المجيد قطامش.
ط1 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، 1403هـ / 1983م.

184- هو عثمان بن سعيد المصري،يرجع نسبه إلى الأقباط،وجدّه من الموالي،ولد سنة عشرة ومائة (110هـ)،واشتغل بالقرآن والعربيّة،فمهر فيهما،واتخذ لنفسه مقرأ اعتمادا على مقاييس في اللغة والأثر. قيل لقب بورش لشدة بياضه.
غاية النهاية : 502/1-503.

185- يقول ابن الجزري : (أورد الدّاني رواية عن أبي دحية،معلّى بن دحية المصري،قال: «سافرت بكتاب الليث بن سعد إلى نافع لأقرأ عليه، فوجدته يقرئ النّاس بجميع القراءات،فقلت له : يا أبا رويم ما هذا ؟ فقال لي : سبحان الله أحرم ثواب القرآن. أنا أقرئ الناس بجميع القراءات حتى إذا كان من يطلب حرفي أقرأته به»)
غاية النهاية : 304/2.

لنفسه قراءة نسبت إليه نسبة تجوّز، وأصبحت حرفه المختار[186].

أمّا تلاميذ نافع الذين كانوا على صلة بنظرائهم من أعلام القراءات في الأمصار الإسلاميّة المشهورة، فنذكر منهم: يعقوب بن جعفر[187]، الذي كانت له صلة علميّة بأبي عمر الدّوري -راوي أبو عمرو البصري والكسائي- وعلي بن حمزة الكسائي، اللذين رويا القراءة عرضا عليه[188].

ونجد من تلاميذ نافع من كان كوفيّا وهو خالد بن مخلد القطواني[189] فقد روى القراءة عن نافع المدني، وقد عاصر القطواني الكسائي وأعلام الكوفة في النحو والقراءات.

وهذا عبد الله بن إدريس[190]، من تلاميذ نافع كوفيّ، توفي سنة: اثنتين وتسعين بعد المائة للهجرة (192 هـ)، شهد في علمه الكسائي وأحمد ابن حنبل وغيرهما[191]، وقد نسب للقراءة عن عبد الله بن كثير[192].

ومن تلاميذ نافع، اسماعيل بن جعفر، أخ يعقوب ابن جعفر، قرأ على نافع، وعلى أعلام في القراءة

186- جماع قراءة قالون وورش : الجمع بين القراءتين عند علماء القراءات المتأخرين يسمّى حرف نافع أو قراءة نافع.

187- يعقوب بن جعفر ابن ابي كثير الأنصاري المدني، روى عن العديد من الأئمة ورووا عنه كذلك، ذكره ابن مجاهد. السبعة في القراءات : 63 .
غاية النهاية : 389/2.

188- غاية النهاية : 390/2.

189- هو خالد بن مخلد ابو الهيثم القطواني البجلي الكوفي، روى القراءة عن نافع. توفي بين إحدى عشرة ومائتين إلى خمس عشرة. غاية النهاية : 1/ 269 .

190- غاية النهاية : 309/1.

191- نفس المصدر : 409/1-410.

192- فند ابن الجزري ذلك.
غاية النهاية : 410/1.

مثـــل ابـــن جمّـــاز[193]، وابـن وردان[194]، ثم أخـذ عنه الكســـائي وأبو عبيد القاسم بن سلام[195]، وأخـذ عنه الدّوري راوي البصري والكسـائي[196]، وخلف بن هشـام[197]، أخـذ عنه كـذلك، وغـير هؤلاء. توفي إسمـاعيل بن جعفر في بغداد،سنة ثمانين ومائة من الهجرة[198].

ومن تلامـيـذ نافع خـارجـة بـن مـصـعب[199]، الذي جـمـع في الرّواية بين الأخـذ عن نـافع والأخـذ عـن حـمـزة شيخ الكسـائي. وكـانت وفاته سنة ثمانية وستين بعد المائة من الهجرة (168هـ).

أمّا نافع المدني شيخ هؤلاء فقد اشترك وأبا عمـرو البصري في أخذهما القراءة عن يزيد بن رومان[200].

193- سليمـان بن مسلم بن جمّاز،أبو الرّبيع،مولاهم المدني،مقرى ضابط،عرض على أبي جعفر المدني (من القراء العشرة)،ثم عرض على نافع،واقرأ بحرف أبي جعفر ونافع.توفي بعد السبعين والمائة للهجرة:(170هـ).
غاية النهاية : 315/1 ترجمة رقم 1387.

194- ابن وردان : عيسى بن وردان أبو الحارث المدني، إمام مقرئ وراو ضابط،عرض على أبي جعفر المدني،وعرض على نافع، شارك نافعا في الاسناد. توفي حدود الستين ومائة: 160هـ .
نفس المصدر : 616/1 ترجمة رقم : 2510.

195- تقدم ذكره

196- ستأتي ترجمته.

197- هو خلف بن هشـام بن ثعلب بن خلف يرجع نسـبـه إلى بني أسـد ونسـب إلى بغداد ولد سنة خمسين ومائة (150هـ) وكان قارئا نحويا قرأ على الكسـائي وغيره وكان خلف يأخذ بمذهب حمـزة. توفي سنة عشرين ومـائتين (220هـ) ببغداد.
نفس المصدر : غاية النهاية : 272/1-273-274.

198- نفس المصدر : 163/1.

199- هو خارجة بن مصعب أبو الحجاج الضبعي السّرخسي أخذ القراءة عن نافع وأبي عمرو وله شذوذ كثير عنهما وروى عن حمزة حروفا. توفي سنة ثمان وستين ومائة (168هـ) . غاية النهاية : 268/1.

200- هو أبو روح يزيد بن رومان المدني مولى الزبير، فقيه قارئ روى عنه نافع وأبو عمرو ومالك بن أنس وغيرهم. توفي سنة عشرين بعد المائة (120هـ) .
نفس المصدر : 381/2.

هؤلاء بعض تلاميذ نافع الذين أشارت كتب التراجم إلى أنهم قد جمعوا عددا لا بأس به من الأحرف ليتجاوز بذلك سند نافع مدينة الرّسول، فيشمل: الكوفة والبصرة ومصر والشام واليمن وغيرها من البلاد[201].

عبد الله بن كثير[202] : البدر الثاني.

هو إمام أهل مكّة في القراءة والإقراء، ولد بها سنة خمس وأربعين من الهجرة النبويّة (45 هـ)[203]، قرأ على عطاء بن أبي رباح[204]، وعلى عبد الله بن عبّاس، وذكر له أبو عمرو الدّاني غيرهم من المشايخ[205]، مثل عبد الله بن السائب المخزومي[206]، ومجاهد بن

201- كانت قراءة نافع مقتصرة على المدينة أوّل الأمر ولم تكن هذه القراءة منتشرة بشمال افريقيا مثلا، لكن انتشار المذهب المالكي في الفقه كان سببا في نشرها لأن نافعا شيخ مالك بن أنس.

202- هو عبد الله بن كثير بن المطلب أبو محمد مولى عمرو بن علقمة الكناني من بني عبد الدّار.
قراءات القراء المعروفين : 65.

203- غاية النهاية : 1/443-445.

204- هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم ولد سنة سبع وعشرين وتوفي سنة أربع عشر ومائة (114هـ) فقيه محدّث قارئ مفسر، روى عن ابن عبّاس وغيره.
ابن حجر : تهذيب التهذيب : 7/199←203.

205- التيسير : 8
السبعة في القراءات : 64-65
غاية النهاية : 1/443 ←—— 445.

206- عبد الله بن السائب بن مخزوم، قارئ أهل مكّة، له صحبة، روى القراءة عرضا عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب. توفي سنة سبعين (70هـ).
غاية النهاية : 1/420.

207- هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي، كان أحد الأعلام في القراءة والتفسير بمكة. توفي سنة (104هـ).
تهذيب التهذيب : 10/42.

جبر[207]. وكان ابن كثير عالما بالعربيّة[208]، توفي سنة عشرين بعد المائة الأولى من الهجرة(120 هـ)وترك الناس مجتمعين على قراءته، بالرّغم من وجود أعلام في إقراء القرآن عاصروه، واشتهروا مثله بالقراءات. نذكر من هؤلاء: حميد بن قيس الأعرج[209]، ومحمد بن عبد الرّحمن بن محيصن السهمي[210]، اللذين رويت قراءاتهم وأحرفهم بعد ذلك في كتب الشواذ في القراءات*.

وأشهر من أخذ عن ابن كثير وسمع منه قراءاته وأحرفه: أبو عمرو البصري، والخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي روى القراءة عنه، وشبل بن عبّاد[211]، وسفيان بن عيينة[212]، وحمّاد بن سلمة[213]،

207- هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي، كان احد الأعلام في القراءة والتفسير بمكة. توفي سنة (104هـ).
تهذيب التهذيب : 42/10.

208- غاية النهاية : 443/1.

209- أبو صفوان المكي القارئ، ثقة أخذ القراءة عن مجاهد بن جبر وروى عنه سفيان بن عيينة وأبو عمو بن العلاء وغيرهم. توفي سنة ثلاثين ومائة (130هـ).
نفس المصدر : 265/1.

210- هو محمد بن عبد الرّحمن بن محيصن أبو عبد الله السهمي، أخذ القراءة عن مجاهد ودرباس مولى ابن عبّاس وكان عالما بالعربيّة.
قراءات القراء المعروفين : 75.

* من أشهر الكتب التي اختصت برواية الشاذّ من القراءات وإفراده بالتآليف:
مختصر القراءات الشاذّة : ابن خالويه.
المحتسب في تبيين وجوه القراءات الشاذّة والايضاح عنها : ابن جنّي.
البدور الزاهرة في القراءات الشاذّة : عبد الفتّاح القاضي.

211- شبل بن عبّاد أبو داود المكي مقرئ، ثقة ضابط من أصحاب ابن كثير ولد سنة سبعين للهجرة (70 هـ) قرأ على ابن محيصن وابن كثير، توفي سنة ثمان وأربعين.
غاية النهاية : 324/1.

212- انظر ترجمته في غاية النهاية : 308/1.

213- حمّاد بن سلمة بن دينار أبو سلمة البصري الإمام الكبير. روى القراءة عرضا عن عاصم وابن كثير توفي سنة سبع وستين ومائة (167هـ).
غاية النهاية : 258/1.

وغيرهم[214] وهكذا أخذت البصرة القراءة عن مكّة ولا يستبعد أخذ الكوفة بعدها عن البصرة. والرّواية عنها.

أبو عمرو بن العلاء[215] البصري : البدر الثالث :

كان أبو عمرو قارئ أهل البصرة ومقرئهم الذي تمسكوا بقراءته[216] وكان عالما بالقرآن وقراءاته وباللغة العربيّة. ويرجع الفضل في ذلك إلى نشأته بأرض الحجاز،وإلى الأعلام الذين أخذ عنهم. وكان أبو عمرو واسع الاطلاع أصبح بفضل مؤهلاته العلميّة مرجع البصرة في اللغة والنحو والقراءات[217] ، توفي أبو عمرو بالكوفة[218]. من أشهر مشايخه سعيد بن حبير[219]، الذي كان يقرأ بقراءة بن مسعود،وبقراءة زيد بن ثابت وعرض على ابن عبّاس وعرض أبو عمرو عليه[220].

أمّا تلاميذ أبي عمرو الذين أخذوا عليه القراءة عرضا فنذكر منهم : خارجة بن مصعب[221]، الذي أخذ عنه وعن نافع لكنّه روى كثيرا من الشذوذ عنهما ولم يتابع،ثم روى عن حمزة

214- السبعة في القراءات : 65-66.
غاية النهاية : 1/443-444.

215- أُختلف في اسمه على احد وعشرين قولا،أشهرها زبان. بغية الوعاة : 2/231.
أساس البلاغة : 188. يضبط معاني أشهر أسماء أبو عمرو بن العلاء.

216- قراءات القراء المعروفين : 83.

217- بغية الوعاة : 2/231.

218- غاية النهاية : 1/258.

219- انظر ترجمته في غاية النهاية : 1/305.

220- غاية النهاية : 1/306.

221- خارجة بن مصعب أبو الحجّاج الضبعي السرخسي،أخذ القراءة عن نافع،وأبي عمرو. غاية النهاية : 1/268.

222- نفس المصدر : 1/268.

أيضا[222]، ونذكر كذلك حمّاد بن زيد[223]، الذي روى الحروف عن عاصم ابن أبي النجود[224]، وعبد الله بن كثير زيادة على ما أخذه من أبي عمرو. توفي حمّاد سنة تسع وسبعين بعد المائة الأولى من الهجرة (179هـ). ونذكر كذلك العبّاس بن الفضل الأنصاري[225]، الذي روى عن أبي عمرو وعن نافع وعن ابن كثير، واشتهر بمناظرته للكسائي في شأن الإمالة[226]. توفي العبّاس بن الفضل سنة ثمانية وستين بعد المائة الأولى من الهجرة[227].

كما يعتبر هارون بن موسى العتكي الأزدي[228]، تلميذ أبي عمرو من أشهر القراء والرّواة للقراءات، وأوّل من ألف في الشاذ منها[229] وتتبعه، روى القراءة عن عاصم بن أبي النجود على قراءة أبي عمرو البصري، توفي هارون قبل المائتين من الهجرة[230].

222- نفس المصدر : 268/1.

223- حمّاد بن زيد بن درهم أبو اسماعيل البصري روى عن عاصم بن أبي النجود وعبد الله بن كثير وأبي عمرو بن العلاء. توفي سنة تسع وسبعين ومائة (179هـ).
غاية النهاية : 258/1.

224- ستأتي ترجمته.

225- هو العبّاس بن الفضل بن عمرو بن عبيد الأنصاري البصري تولى قضاء الموصل ثقة من أكابر أصحاب أبي عمرو بن العلاء توفي سنة ست وثمانين ومائة (186هـ).
غاية النهاية : 353/1-354.

226- نفس المصدر : 354/1.

227- نفس المصدر : 354/1.

228- غاية النهاية : 348/2.

229- قاله أبو حاتم السجستاني.
نفس المصدر : 248/2.

230- نفس المصدر : 248/2.

231- غاية النهاية : 470/1.

ويعدّ الأصمعي المشهور باللغة والأدب ورواية الشعر ورواية القراءات، ممن أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ونافع، وروى عن الكسائي حروفا، وكان مشتهرا بالغريب والأخبار والملح والنوادر وبحسن العبارة، كما اشتهر بكثرة مناظرته لسيبويه.[231] تعتبر هذه السلسلة ذهبية، نختمها بيونس بن حبيب[232] البصري النحوي القارئ، الذي روى عن أبي عمرو وروى عن الكسائي وغيرهما، واعتبر من الثقاف.[233] توفي سنة سبع وستين ومائتين (267 هـ).

هؤلاء بعض تلاميذ أبي عمرو، ذكر بعضهم أيضا في طبقات القراء[234]، والغاية من ذكر البعض منهم في هذا المقام هو الوقوف على حقيقة انتشار القراءات المتواترة وعدم اكتفاء قراء كلّ مصر برواية قراءاتهم فحسب، بل كانوا يروون المتواتر والشاذ أيضا مع تمييزه.

ابن عامر الشامي[235] : البدر الرّابع .

هو إمام القراءة في الشام، من التابعين وأسبق القراء السبعة. أخذ عن المغيرة بن أبي شهاب[236] المخزومي الذي أخذ بدوره عن عثمان

231- غاية النهاية : 470/1.

232- تقدمت ترجمته.

233- غاية النهاية : 406/2.

234- نفس المصدر : 406/2.

235- هو عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبد الله بن عمران اليحصبي.
السبعة القراءات : 86.

236- هو المغيرة بن أبي شهاب المخزومي الشامي، أخذ القراءة عرضا عن عثمان بن عفان، وأخذ القراءة عنه عرضا عبد الله بن عامر. توفي سنة واحد وتسعين (91هـ).
غاية النهاية : 305/2-306.

بن عفان[237]، فيكون بذلك سند ابن عامر أقرب الأسانيد وأعلاها. توفي ابن عامر بدمشق سنة (118هـ).

من أشهر من قرأ عليه إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي مهاجر[238]، ويحي بن الحارث الذماري[239]، الذي أخذ عنه الوليد بن مسلم[240]، والذي أخذ عنه ورّاق خلف قراءة ابن عامر الشامي مع اتقانه لقراءة حمزة ابن حبيب الزيات، وهكذا تلتقي القراءات في الكوفة من قبل عصر التسبيع.

أمّا انتشار قراءة ابن عامر على عصر ابن مجاهد فإنّ أهل الشام كانوا عليها على الغالب،وبلاد الجزيرة إلاّ نفرا من أهل مصر.[241]

عاصم بن أبي النجود[242]: البدر الخامس (من قراء الكوفة).

نستهل الحديث عن قراء الكوفة الثلاثة -عاصم وحمزة والكسائي- من البدور السبعة بعاصم ابن أبي النجود أوّلهم.

كان عاصم قارئ أهل الكوفة بعد أبي عبد الرّحمان السلمي[243]، من الطبقة الثانية بعد التابعين[244].

237- غاية النهاية : 305/2.

238- نفس المصدر : 425/1.

239- نفس المصدر، 425/1.

240- هو أبو العبّاس الدّمشقي،روى القراءة عرضا عن يحي بن الحارث الذماري ونافع وغيرهما، توفي سنة:خمس وتسعين ومائة (195هـ).

241- السبعة فى القراءات : 87.

242- هو عاصم بن بهدلة أبي النّجود،أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي الحناط. غاية النهاية : 346/1.

243- قراءات القراء المعروفين : 95.

244- نفس المصدر : 108.

ينسب عاصم بن أبي النجود إلى بني أسد. قرأ على عدد كبير من الأعلام المعروفين مثل الأعمش[245]، وابن عيينة[246]، والثوري[247]، وعطاء ابن أبي رباح[248]، وقرأ على أبي عبد الرّحمان السلمي[249].

وكان عاصم رحمه الله نحويّا فصيحا إذا تكلم. توفي سنة سبع وعشرين بعد المائة الأولى(127) من الهجرة[250]، في أيّام آخر خلفاء بني أميّة مروان الحمار، ابن محمد بن مروان، الذي كانت نهاية ملكه سنة (132هـ)[251].

من أشهر تلاميذ عاصم حفص بن سليمان الكوفي الذي روى قراءته هو وشعبة بن عياش[252]، وقد أقرأ حفص بقراءة عاصم ببغداد ثم جاور بمكّة فأقرأ بها[253]، توفي حفص سنة: ثمانين ومائة للهجرة (180هـ).[254]

245- تقدمت ترجمته.

246- تقدمت ترجمته

247- تقدمت ترجمته

248- تقدمت ترجمته

249- علي بن عساكر الدّمشقي : تهذيب تاريخ ابن عساكر : 7/119-121. ط1. المكتبة العربيّة بدمشق، مطبعة الترقي، دمشق، سوريا، 1351هـ / 1932م

250- نفس المصدر : 121.

251- تاريخ الخلفاء : 255.

252- شعبة بن عيّاش بن سالم أبو بكر الحناط الأسدي الكوفي، ولد سنة خمس وتسعين (95هـ)، عرض عليه القرآن العديد من الأعلام ورووا عنه، منهم أبو عمر الدوري. جمع شعبة بين القراءات والحديث. توفي سنة: ثلاث وتسعين ومائة (193هـ). غاية النهاية : 1/327.

253- غاية النهاية : 1/255.

254- نفس المصدر : 1/255.

حمزة بن حبيب الزيات[255] : البدر السادس : (من قراء الكوفة) .

هو من أشهر قراء الكوفة، شيخ علي بن حمزة الكسائي. اشتهر حمزة بالاقراء وبرع في الفرائض وكان ورعا تقيّا[256]. كان حمزة من الطبقة الرّابعة في الكوفة بعد التابعين، تخرج على يديه أعلام في القراءات، حملوا مشعل القراءة بعده واختاروا حروفا أقرأوا بها. أخذ حمزة قراءته عن الإمام جعفر الصادق[257] الذي يتصل سنده بالإمام علي ابن أبي طالب، يقول ابن مجاهد : (قرأ حمزة على الأعمش،وابن أبي ليلى.فما كان من قراءة الأعمش فهو عن ابن مسعود رضي الله عنه،وما كان من قراءة ابن أبي ليلى فهو عن علي رضي الله عنه. ولم يخالف حمزة الأعمش فيما وافق قراءة زيد بن ثابت التي جمع الناس عليها إلاّ أحرفا يسيرة)[258]. كما أخذ حمزة القراءة عن حمران بن أعين[259]، وأخذ عن المغيرة بن مقسم[260].

255- اسمه حمزة بن حبيب بن عمارة بن اسماعيل،الإمام أبو عمارة التيمي تيم الله ولاء الكوفي المعروف بالزيات.
معجم الأدباء : 281/10.

256- قراءات القراء المعروفين : 109.

257- نفس المصدر : 117.

258- غاية النهاية : 196/1-197 - السبعة فى القراءات : 78.

259- حمران بن أعين،أبو حمزة الكوفي مقرئ كبير، أخذ القراءة عرضا عن عبيد بن نضيلة وأبي حرب بن أبي الأسود،ويحي بن وثاب،ومحمد بن علي الباقر. روى عنه حمزة. توفي في حدود الثلاثين قبل المائة.
غاية النهاية : 261/1.

260- المغيرة بن مقسم الكافي الأعمى، روى القراءة عن عاصم بن أبي النجود،وروى عن ابراهيم النخعي،عرض عليه حمزة. توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة.
غاية النهاية : 603/2

أمّا تلاميذ حمزة فأشهرهم ، سفيان الثوري،[261] وسليم بن عيسى الحنفي،[262] الكوفي الذي عرض على حمزة وأخذ القراءة عنه حفص بن عمر الدّوري،[263] وخلف بن هشام،[264] وخلاد بن خالد[265]. ويلي هؤلاء حسين الجعفي،[266] الكوفي الزّاهد الذي قرأ على حمزة،وعلى أبي عمرو بن العلاء،وشهد له الكسائي بالكفاءة[267].

ومن تلاميذ حمزة المعروفين الذين تحملوا قراءته،خلاد بن خالد الأحول الذي أخذ القراءة عرضا عن سليم المعتبر من أضبط أصحابه،[268] وروى القراءة كذلك عن غيره،(توفي سنة 220هـ). وقرأ على حمزة أيضا جعفر الخشنكي،[269] الكوفي،وأقرأ جملة مستكثرة من التلاميذ الكوفيين واعتبر مرجعا في قراءة حمزة (توفي بعد سنة 260هـ)[270].

261- تقدمت ترجمته.

262- غاية النهاية : 318/1-319.

263- تقدمت ترجمته.

264- تقدمت ترجمته.

265- أبو عيسى الصيرفي الكوفي، إمام في القراءة ثقة عارف محقق أستاذ، أخذ القراءة عرضا عن سليم وهو أضبط أصحابه وأجلهم. توفي سنة عشرين ومائتين. غاية النهاية : 274/1.

266- هو الحسين بن علي بن فتح أبو عبد الله، توفي سنة ثلاث ومائتين (203 هـ). غاية النهاية : 274/1.

267- نفس المصدر : 274/1.

268- نفس المصدر : 274/1.

269- هو جعفر بن محمد بن سليمان الخشنكي الكوفي،قرأ على حمزة وعلى غيره من القراء.
غاية النهاية : 195/1.

270- نفس المصدر : 195/1.

وهذا عبيد الله بن موسى الكوفي[271]، قد وثقه ابن الجزري وأشار إلى تشيعه، تميز بإتقانه لقراءة حمزة، كما سمع قراءة الكسائي وقراءة عاصم، قرأ على العديد من القراء وعلى بعض النحاة[272]، توفي سنة (213 هـ).

ومن تلاميذ حمزة من كان مطلعا على العديد من الأحرف والقراءات بما في ذلك القراءات المتواترة السبعة المشهورة.

فهذا أبو عمارة حمزة بن القاسم الأحول الأزدي الكوفي. كان أخذ القراءة عن حمزة الزيات عرضا وسماعا، وأخذ عن الزبير بن عامر عن نافع وأخذ قراءة عاصم، وفي سند قراءته عن نافع حفص بن سليمان[273].

ونختم هذه السلسلة من تلاميذ حمزة بمحمد بن حفص الحنفي[274]، فقد ذكر أنّه خلف حمزة في القراءة والإقراء بالكوفة وروى عن حفص بن عاصم وروى عنه يحي بن زياد الفراء[275].

فهؤلاء أشهر تلاميذ حمزة لما تميّزوا به من اتساع مرويّاتهم، وكانوا متجرّدين للقراءة على نهج شيخهم حمزة الذي كان لا يقرأ قراءة

271- هو عبيد الله بن موسى بن باذام أبو محمد العبسي ولاء الكوفي،اشتهر بالقرآن والحديث،فهو قارئ محدث روى عنه البخاري وغيره من المحدثين في كتبهم.
غاية النهاية : 493/1-494.

272- نفس المصدر : 493/1-494.

273- نفس المصدر : 264/1.

274- هو محمد بن حفص بن جعفر الحنفي الكوفي،أخذ القراءة عرضا عن حمزة الزيات.
غاية النهاية : 134/2-135.

275- نفس المصدر : 135/2.

إلاّ بأثر لقوله : (ما قرأت حرفا قطّ إلاّ بأثر)[276].

يقول ابن مجاهد في تلاميذ حمزة : (وكلّ هؤلاء متقاربون لا يكادون يختلفون في أصل من أصول قراءة حمزة، غير أنهم يتفاضلون في الألفاظ ورقّة الألسن، ويختلفون في الافراط في المدّ والتوسط فيه وفي شيء من الإدغام أيضا اختلفوا.)[277].

علي بن حمزة الكسائي[278]: البدر السابع : (من قراء الكوفة).

برع في القراءة واللغة والنحو، وائتم به النّاس في عصره، ورووا قراءاته وكان مرجعهم في ذلك[279].

أما ما يهمنا في هذا المجال فهم تلاميذه، وأوّل ما نلاحظه اشتراكه مع أبي عمرو البصري في عدد من التلاميذ نذكر منهم : عبد الملك بن قريب الأصمعي، وخارجة بن مصعب الذي روى عن نافع[280]، وروى عن حمزة، والكسائي، وعبد الوارث بن سعيد[281].

ومن تلاميذ الكسائي العبّاس بن الفضل الأنصاري[282] الذي روى عن أبي عمرو البصري، وروى عن نافع، وابن كثير، فجمع بذلك قراءات أربعة من البدور السبعة، ومن تلاميذه هارون بن موسى الأعور

276- السبعة فى القراءات : 75.

277- السبعة في القراءات : 77.

278- سبق الترجمة له في الفصل الخاص به.

279- السبعة فى القراءات : 76.

280- يقول ابن الجزري : (روى شذوذا كبيرا عنهما -أي نافع وأبو عمرو-) غاية النهاية : 268/1.

281- السبعة في القراءات : 84.

282- سبقت ترجمته.

العتكي، جمع الرّواية عن خمسة من البدور السبعة هم: عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، وأبو عمرو[283].

من تلاميذه أحمد بن موسى اللؤلؤى الذي قرأ على البصري أيضا، وروى عن غيرهما من القراء دون الخمسة الباقين من القراء السبعة[284].

المتتبع لهؤلاء البدور يلاحظ معدّل مساهمتهم الفعّالة ومجهودهم الجبّار في ضبط القرآن رسما وإعرابا.

وبعد الجمع العثماني، لعب تطور علم القراءات دورا هاما في وضع أصول النحو العربي[285]. لأنّ القراء الذين جمع معظمهم بين القراءة، واللغة، والنحو، بذلوا جهودا كبيرة لجمع مادّة القراءات، فرحلوا في طلب الرّواية[286]، ودعموا مصادر سماعهم بأنواع القراءات على اختلاف درجاتها مع ما يحفظون من شعر وحديث وأمثال. ولنا في الكسائي، وعاصم، وخلف، وحمزة، والخليل، ويونس بن حبيب، خير دليل[287]. وكان القرآن بقراءاته أصلا من أصول الاستشهاد في النحو عند الكوفيين، واستبعد البصريون من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلاّ إذا كان هناك شعر يسندها أو كلام عربي وقياس يدعمها[288]، فكان الكوفيّون

283- غاية النهاية : 406/2.

284- السبعة فى القراءات : 84.

285- العنوان في القراءات السبع : 18.

286- رحلات الأعلام مثل رحلة الكسائي وقبله ابو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي.

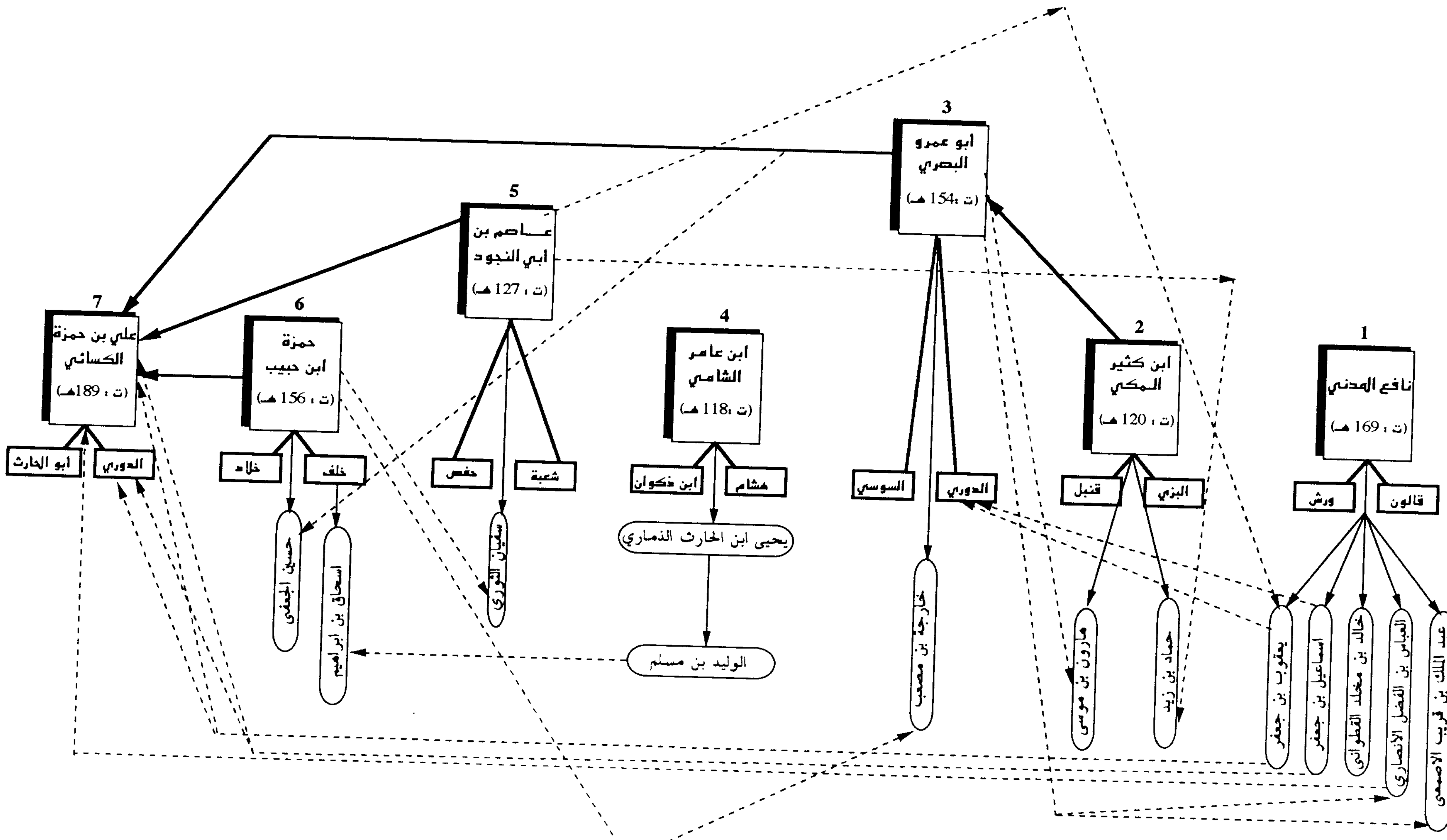
287- كان جلّ القراء علماء بالعربيّة والنحو أوّل الأمر، واستمر ذلك إلى حدود القرن الخامس الهجري.

288- القرآن وأثره في الدّراسات النحويّة : 97.

أوسع في استخدام القراءات المتواترة والشاذّة.

فلا غرابة إذا ما رأينا القراءات مصدرا هامّا من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين كانوا قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغويّة وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم،فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه، وما أباها رفضوا الاحتجاج بكثير من الرّوايات اللغويّة وعدّوها شاذّة تحفظ ولا يقاس عليها[289].

289- مدرسة الكوفة : 33



رسم بياني في اتصال الكوفة بسند القراء السبعة

- تلقي البدور عن الرواة (سهم متقطع)
- تلقي التلاميذ عن البدور (سهم رفيع)
- تلقي البدور عن بعضهم (سهم غليظ)

العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

الباب الثاني :

القرّاء السّبعة وتوجّهاتهم الصّوتيّة

مدخل

يركز الباب الثاني من هذا البحث على أثر القراءات عموما، والسبع منها خصوصا،في تطوير الدّراسة الصوتيّة،والدّراسة اللغويّة والنحويّة للغة العربيّة. وقد سبق في الباب الأوّل بيان أهميّة علم القراءات وعلاقته بعلمي اللغة والنحو، وتداخل عمل القراء بعمل النحاة،لأنّ القرن الثاني من الهجرة تميّز بظهور أعلام في اللغة والنحو كانوا قراء، الشيء الذي جعلهم يشعرون بأهميّة،وضرورة الدّراسة الصوتيّة، فكان أن ظهرت بواكيرها مع الخليل بن أحمد الفراهيدي،ثم أتى من بعده من أسهموا في تركيز "علم أصوات العربيّة" شيئا فشيئا.

ولمّا كان علم القراءات مبنيّا على الرّواية الشفهيّة وما يرتبط بها من عرض وتلقي،جعلا الباث -وهو القارئ- يحرص أشد الحرص على تبليغ حرفه المختار كما نقله،فإنّ الانطلاق من القراءات والنظر في علاقتها بعلم الأصوات في نشأته الأولى،وأثر ذلك في الدّراسة الصوتيّة واللغويّة والنحويّة،سيكون أهمّ نتيجة يمكن الوصول إليها من خلال هذا الباب بفصوله الثلاثة التي يهتم الفصل الأوّل منها بعمل القراء في مجال الصوتيات،وعنوانه : اهتمام القراء بالدّراسات الصوتيّة.

أمّا الفصل الثاني من هذا الباب فينظر فيه لعلاقة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة النحويّة، إذ لا شك أنّ دراسة اللغة لا تكون كاملة ودقيقه إلاّ إذا اهتمت بجزئيات اللسان المدروس،من حيث حروف هجائه ومخارجها،وغير ذلك من الجزئيات الصوتية واللغويّة. فكان

عنوان الفصل الثاني : علاقة الدّراسة الصوتيّة باللغة والنحو خاصّة. يلي ذلك فصل ثالث يتناول بالبحث مسألة الاستشهاد بالقرآن بقراءاته العديدة ،وتوظيف ذلك في المبادئ النحويّة.

هذه إذن جملة الفصول التي سوف تُتَناول بالدّرس في هذا الباب ،وهي فصول متداخلة اجتهدنا في بلورة نتائج كلّ فصل منها، لتتكامل جميعا،وتثمر مجتمعة توجهات القراء السبعة من الناحية الصوتيّة. اعتمادا على أمثلة متفرقة من أحكام قراءاتهم.

الفصل الأوّل :

اهتمام القرّاء بالدّراسات الصّوتيّة

إنّ الحديث عن اهتمام القراء بالدّراسات الصوتيّة يمكن أن نسلك في طرحه مسلكين اثنين : يتصل أوّلهما بتفطّن القراء النحاة إلى أهميّة الدّراسة الصوتيّة لتعلقها بدراسة القراءات واللغة العربيّة،بل وتسهيل تلك الدّراسة لتصبح في متناول النّاس جميعا،لأنها من دراسة القرآن الكريم. فظهرت تبعا لذلك بعض المحاولات الجادّة من علماء أجلاّء أمثال:الخليل بن أحمد الفراهيدي،ثم سيبويه والفرّاء وابن جني، وغيرهم. وصلت إلينا لحسن الحظ في بعض ما ألفوه، وبإمكاننا التعرف على هذا اللون من الدّراسة لأنه صريح واضح أخذ صبغة علميّة جليّة لاندراجه ضمن علم كامل نُظّر لقيامه آنذاك وهو علم النحو.

ويتصل المسلك الثاني من الدّراسة الصوتيّة في هذا الباب ببيان اتجاهات القراء في اختياراتهم الصوتيّة لحروفهم،وعلاقتها بالدّراسة المتصلة بالمسلك الأوّل، ومحاولة استخلاص توجهاتهم الصوتيّة من خلال أحكام قراءاتهم واختلافاتهم في ذلك[1]. فما هي الدّواعي التي دفعت القراء إلى الاهتمام بالدّراسات الصوتيّة ؟ وماهي مناهجهم في طرق هذه الدّراسة ؟

قبل الاجابة عن هذين السؤالين الرّئيسيين،وغيرها من الأسئلة الأخرى، يجدر بنا تعريف الصوت،والنظر في نشأة الدّراسة الصوتيّة للغة العربيّة،وعلاقتها بعلم القراءات،ثم بعلم التجويد.

1- أهمّ المراجع في ذلك كتب احكام قراءات القراء السبعة وما ذكر من انتماءاتهم القبليّة ومقاييسهم في الفصاحة.

المبحث الأوّل :

تـعـريـف الصـوت[2]:

الصوت ظاهرة طبيعيّة تستعملها الكائنات الحيّة،وهو وسيلة من وسائل التواصل،مختلف شأنه عند الانسان مقارنا بالحيوان[3]. وهو ماهية بديهيّة خاضعة للحس والتجربة[4]. اهتم بدراسته العلم الحديث فبيّن أنه ذبذبة[5] ناشئة من اندفاع الهواء في الرّئتين نحو الخارج،حين يلامس وتري الحنجرة[6]، والحلق واللسان والشفتين، وهو المادّة الوحيدة التي تتكون منها اللغات البشريّة على اختلافها، بعد تآلف الذبذبات في صور شتّى[7].

وقد حاول العرب والمسلمون منذ اهتمامهم بالدّراسات الصوتيّة،تعريف الصوت تعريفا يعينهم على استكناه حقيقة مادّته،فكانت بعض تعريفاتهم وصفيّة خارجيّة[8]، وكانت هناك محاولات جادّة ظهرت في عصور متأخرة نسبيّا،منها ما حاول التفريق بين النَّفَس الخارج

-2 يقول ابن منظور : الصوت : الجرس، والجمع أصوات، وقد صات يصوت ويصات صوتا وأصات، كله نادى).
لسان العرب : 2/57-58.

-3 بسام بركة : علم الأصوات العام، 5 ، مركز الانماء العربى، بيروت، لبنان، د.ت

-4 كشاف اصطلاحات الفنون : 2/811.

-5 الذبذبة : تردد الشيء المعلق في الهواء ، لسان العرب : 5/22، تقابل في الفرنسيّة كلمة : (vibration) .

-6 الحنجرة طبقان من أطباق الحلقوم،والحنجور مخرج النفس.لا يجري فيه الطعام والشراب. لسان العرب : 3/355.

-7 مدرسة الكوفة : 166.

-8 يقول محمد بن علي الجرجاني : (الأصوات كلّ صوت حكى به صوت،نحو غاق حكاية صوت الغراب.أو صوت به للبهائم نحو نخ لإناخة البعير، وقاع لزجر الغنم) ، تعريف وصفي خارجي.
التعريفات : 26.

بحكم الطبع والعادة،وبين الصوت الذي هو ذبذبة تخرج بالارادة في شكل موجات،وأن تلك الموجات ناتجة عن تصادم بين جسمين،وأن الحروف تتكون في مواضع معينة،ولها صفات متنوعة.بسبب اختلاف تلك المواضع[9]. وبالرّغم من انعدام الاجهزة المتطوّرة التي تستخدمها المخابر العلميّة في عصرنا لمثل هذه الدّراسات،فإنّ علماء العرب القدامى قد اهتم العديد منهم بعلم الصوت،فبحثوا في منشئه[10]، وكيفيّة انتقاله،وكانوا أوّل من عرف أن الأصوات تنشأ عن حركة الأجسام المحدثة لها،وأن انتقالها في الهواء على هيئة موجات تنتشر في شكل كروي. ثم قسموا الأصوات وعللوا اختلافها وعللوا الصدى[11]، واقتربوا بذلك من التعريف الحديث للصوت.

9- يقول التهانوي : (قيل الصوت هو تموّج الهواء وقيل هو قلع أو قرع. والحق أن ماهيته ليست ما ذكر،بل سبب الصوت القريب التموّج. وليس التموج حركة انتقاليّة من هواء واحد بعينه،بل هو صدم بعد صدم،وسكون بعد سكون،فهو حالة شبيهة بتموج الماء في الحوض إذا ألقي حجر في وسطه.) وهذا أقرب التعريفات للتعريف العلمي الحديث.
كشاف اصطلاحات الفنون : 811/2.

10- يقول أبو نصر الفارابي : (وظاهر أن تلك التصويتات إنما تكون من القرع بهواء النفَس بجزء أو اجزاء من حلقه،أو بشيء من أجزاء ما فيه،وباطن أنفه أو شفتيه،فإنّ هذه هي الأعضاء المقروعة بهواء النفس. والقارع أوّلا هي القوّة التي تسرب هواء النفس من الرئة،وتجويف الحلق.أوّلا فأوّلا إلى طرف الحلق الذي يلي الفم والأنف،وإلى ما بين الشفتين،ثم اللسان يتلقى ذلك الهواء فيضغطه إلى جزء جزء من أجزاء باطن الفم،وإلى جزء جزء من اجزاء أصول الأسنان،وإلى الاسنان فيقرع به ذلك الجزء،فيحدث من كلّ جزء يضغطه اللسان عليه ويقرعه به تصويت محدود، وينقله اللسان بالهواء من جزء إلى جزء من أجزاء أصل الفم،فتحدث تصويتات متوالية كثيرة محدودة.)
كتاب الحروف : ص : 136، فقرة : 117.

11- حميد موراني : قراءات في تاريخ العلوم عند العرب : 81، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل، الجمهورية العراقية، 1394هـ/1974م.

يقول طاش كبري زاده[12] : (اعلم أنّ الهواء الخارج من داخل الانسان إن خرج بدفع الطبع يسمّى نفسا -بفتح الفاء-، وإذا خرج بالارادة وعرض له تموّج بتصادم جسمين يسمّى صوتا، وإذا عرض للصوت كيفيّات مخصوصة بسبب آلات مخصوصة يسمّى حروفا، وإذا عرض للحروف كيفيّات أخر عارضة بسبب الآلات تسمّى تلك الكيفيّات صفات)[13].

والصوت في تحليله الفيزيائي الحديث ناتج عن تحركات تحدث في الهواء المحيط، ينتج عنها تغيّرات في الضغط، إمّا قويّة وإمّا ضعيفة، فتنتشر تبعا لذلك من المصدر الذي انطلقت منه، ثم تتلاشى شيئا فشيئا كلما ابتعدت. وهي شبيهة كما ذكر بتموج الماء الرّاكد، بعد سقوط حجر فيه وتلاشي تلك التموجات بعيدا على الضفاف.

وقد عمل علم الأصوات السمعي على دراسة أنواع الأصوات بدراسته لمختلف الموجات الصوتية، ووسائل التقاطها بما في ذلك أهمّها، وهي الأذن البشريّة. وبما أن الأصوات حين توضع جنبا إلى جنب تكون عند الانسان العنصر الأساسي للتفاهم بواسطة اللغة، فإنّ مجال علم الأصوات العام[14]، قد اتسع اتساعا كبيرا وتفرعت مباحثه في ثلاثة أبواب

12- هو احمد بن خليل بن مصطفى المشهور بطاش كبري زاده المتوفى سنة :(968هـ) من أشهر مؤلفاته: مفتاح السعادة (في تصنيف العلوم). **الأعلام : 257/1.**

13- د/ غانم قدوري الحمد : الدّراسات الصوتيّة عند علماء التجويد : 118. ط1. وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، احياء التراث الاسلامي، سلسلة الكتب الحديثة، مطبعة الخلود، بغداد، الجمهورية العراقية، 1406 هـ/1986م.

14- علم الأصوات العام : 94.

رئيسيّة تكاد تكوّن علوما مستقلة[15] وهي متعلقة بما يلي :

* طريقة نطق الأصوات كما تصدر عن أعضاء الآلة المصوّتة.

* انتشار الصوت اللغوي من فم المتكلم إلى أذن المخاطب في موجات تذبذبيّة في الهواء.

* تأثير هذه الموجات في الأذن البشريّة وعمليّة إدراكها.[16]

15- يقول الدّكتور عبد الصبور شاهين :
(نهضت الدّراسات اللغويّة الحديثة نهضة عظيمة في الغرب،فتناولت كلّ فروع الدّراسة المتصلة باللغة،تاريخا،وأصواتا،واشتقاقا،ومعجما،وتركيبا ودلالة.)
القراءات القرآنيّة في ضوء علم اللغة الحديث : 5

16- علم الأصوات العام : 6.

المبحث الثاني :

نشأة الدّراسة الصوتيّة في اللغة العربيّة

ترجع جذور الدّراسة الصوتيّة في اللغة العربيّة إلى أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي، عالم اللغة والنحو والعروض،ومؤلف كتاب العين،والمعتبر أيضا في عداد القراء الذين اهتموا برواية القراءات. وقد ترجم ابن الجزري للخليل في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء[17]، وأشار إلى روايته عن عاصم بن أبي النجود،وعبد الله ابن كثير -وهما من البدور السبعة في القراءات المتواترة- بعض حروفهما.

ويعدّ الخليل أوّل من شعر بأهميّة الدّراسة الصوتيّة،لأنها مدخل كلّ دراسة لغويّة، وأنّ هدفها متمثل في حفظ اللغة العربيّة وحفظ قراءة القرآن،والوقوف على مواطن التناسق،والتنافر. في التركيب اللغوي العربي. فكانت أعمال النحاة من المدرستين البصريّة والكوفية، -تبعا لذلك- عالة على أعمال الخليل وبقيّ نموّها بطيئا[18].

وحتى يتسنى لنا فهم تطور علم الأصوات العربي -الذي بدأ مع النحاة القراء[19]، ثم استقل في علم التجويد- وجب تتبع هذا العلم الذي اعتبرت المعلومات الأولى لنشأته جدّ قليلة. والذي يهمنا بالدّراسة في هذا الفصل هو الجانب الذي اهتم به القراء وكانوا بحكم تخصصهم في حاجة إلى تحقيقه وضبطه، حتى تبقى أحرفهم مرويّة على الوجه الصحيح أداء ونطقا. لذلك كان بدء اهتمامهم بمخارج الحروف ثم

17- غاية النهاية : 375/1.

18- سيأتي توضيح ذلك في الفصل الموالي.

19- مدرسة الكوفة : 168

بصفاتها وتأثير تلك الصفات بعضها على بعض.

والظاهر أن جذور دراسة علم الأصوات ترجع إلى اليونان. ثم تناولها الهنود تحت تأثير الرّغبة في إجادة تلاوة الكتاب المقدس المعروف بيدا (veda)[20] وهذا أيضا ما أكده برجستراسر يقول : (لم يسبق الغربيين في هذا العلم إلاّ قومان من أقوام الشرق. وهما أهل الهند -يعني البراهمة- والعرب، وأوّل من وضع أصول هذا العلم من العرب : الخليل بن أحمد)[21]. أمّا عن بواعث الدّراسة الصوتيّة للغة العربيّة فإنها نفس بواعث نشأة علم النحو واللغة،لأنّ الدّراسة الصوتيّة بدأت مندرجة ضمن الدّراسة اللغوية والنحوية[22]؛ بما في ذلك ما لاحظه الخليل عند تجواله بالبوادي من اختلاف أوجه النطق في اللسان العربي،ممّا أدّى إلى اختلاف مقاييس الفصاحة[23]. كما أنّ العرب عرفت ألوانا من اختلاف النطق قبل تفشي ظاهرة اللحن، فعرفوا قبل الاسلام كشكشة قيس،وتمتمة تميم[24]؛ وغيرها من الظواهر اللغويّة.

وقد لاحظ اللغويون والنحاة في عصور الإسلام الزّاهرة إبان

20- مدرسة الكوفة : 169.

21- نفس المرجع: 168.

22- يراجع الفصل الثاني من الباب الأوّل.

23- قال الأصمعي : (قال معاوية يوما لجلسائه : أي الناس افصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رتّة العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن شنشنة تغلب، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطمانية حمير. قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين، قريش. قال : صدقت، فمن أنت ؟ قال من جرم. قال الاصمعي جرم فصحى الناس.)
ابن عبد ربه : العقد الفريد : 2 / 305 ، ط3، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان. 1407هـ/1986م.

24- يقول القرطبي : (فأمّا كشكشة قيس فإنّهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، وأمّا تمتمة تميم فيقولون في الناس : النات.)
الجامع لأحكام القرآن : 45/1.

نشأة العلوم اللغوية والنحوية،ألوانا أخرى من انحرافات النطق،منها ما هو ناتج عن خلل طبيعي في الجهاز الصوتي. ومنها ما كان معروفا عند القبائل فوقعت ملاحظته،ومنها ما كان بسبب التأثر بالأعاجم. ممّا جعل أبا العبّاس النحوي المعروف بالمبرد[25]، يضبط في جملة من المصطلحات أنواع الأعراض التي تعتري اللسان عند النطق،فذكر منها:التمتمة[26]، والعقلة[27]، والحبسة[28]، واللفف[29]، والرّتة[30]، والغمغمة[31]، والطمطمة[32]، واللثغة[33]، والغنّة[34]، والخنّة[35]، والترخيم[36]، والفأفأة[37]، وغيرها[38]. وهي كلها تتنافى مع مقاييس الفصاحة التي يعرفها القريشيون[39].

25- هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري،أبو العبّاس المبرد، امام العربية ببغداد في زمانه، كان فصيحا بليغا أخباريا،صاحب نوادر وطرافة،أخذ عن المازني وأبي حاتم السجستاني، صنف العديد من التصانيف منها : معاني القرآن،والكامل،والمقتضب،وإعراب القرآن،وغيرها... توفي سنة:285 هـ.ببغداد ودفن بمقابر الكوفة.
بغية الوعاة : 271/1.

26- التمتمة يقصد بها هنا التردد في التاء.

27- هي التواء اللسان عند إرادة الكلام.

28- هي تعذر الكلام عند إرادته.

29- هو إدخال حرف في حرف.

30- هي كالرّتج وهي تمنع أوّل الكلام.

31- هي صوت من لا يفهم تقطيع حروفه.

32- أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم.

33- اللثغة هي أن يعدل بحرف إلى حرف.

34- هي أن يشرب الحرف صوت الخيشوم.

35- هي أشدّ من الغنّة.

36- هو حذف الكلام.

37- التردد في الفاء.

38- مثل الكشكشة وقد سبق بيانها. والكسكسة وهي إبدال الكاف سينا وهي عند بكر شبيهة بالكشكشة عند تميم.

39- ينظر في العقد الفريد لجملة التعريفات السابقة : 306/2

وإذا كان الخليل بن أحمد قد تفطّن إلى أهميّة الدّراسة الصوتيّة، فإنّ أوّل عمل قام به تمثل في تصنيف حروف الهجاء العربي، ممّا تستعمله العرب في كلامها في الأسماء، والأفعال، والحركات والأصوات، فصنفها تسعة وعشرين حرفا[40] اختارها وفق مقاييس الفصاحة وما جرى عليه نطق القرآن ولغاته المتواترة، واعتبر بعض الحروف الأخرى التي لم يذكرها فروعا مستحسنة في قراءة القرآن والشعر، واعتبر الأخرى مستحسنة في القرآن والشعر بما في ذلك اللغات الشاذّة وما أنكرته العرب على بعضها. يقول سيبويه : (فأصل حروف العربيّة تسعة وعشرون حرفا... وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنّ فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار... وتكون اثنتين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة، ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيّته. ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر.[41]) فالخليل بن أحمد اعتبر هذه الحروف التسعة والعشرين أساسيّة، وما عداها فهو فرع عنها يستحسن بعضه ويستقبح بعضه الآخر، وبهذا نحا الخليل منحى تأصيليّا كي لا تختلط الأصول بالفروع، لأنّ العرب عرفوا النون الخفيفة، ونطقوا بها، وكذلك الهمزة التي بين بين، والألف الممالة، وعرفوا إشمام الصاد زايا، وتفخيم اللاّم، المسمّى تغليظا، وغير ذلك ممّا قرئ به في القراءات السبعة

40- الأصل ثمانية وعشرون حرفا لأن "لا" تعرف بلام الف، فهي مركبة من صوت اللام وصوت الألف، ولذا نقول: لام ألف. وقد اتبع سيبويه الخليل في ذلك وتبع النحاة سيبويه.
انظر مثلا : ابن يعيش : شرح المفصل : 10/126 دار صادر، بيروت لبنان، دت.

41- الكتاب : 4/431-432.

المتواترة[42].

وقد تبنّى ابن دريد[43] هذا الموقف وزاده توضيحا، إذ بعد تصنيفه للحروف العربيّة وبيان أن عددها تسعة وعشرون أشار إلى الحروف الفروع التي تحدث عنها سيبويه سلفا.

يقول : (وهذه الحروف تزيد على هذا العدد إذا استعملت فيها حروف لا تتكلم بها العرب إلاّ ضرورة، فإذا اضطروا إليها حوّلوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها)[44]. فهو يرى أنها متفرعة من حيث النطق بها عن الحروف الأصليّة،مثل تسهيل الهمزة الذي يعتمد على مخرج الهمزة جزئيّا[45].

ومن الحروف التي اضطر العرب إليها،الحرف الذي بين القاف والكاف،جيما وشينا فيقولون في غلامك : غلامج وغلامش[46].

وغير هذه الأمثلة كثير تظهر فيه بوضوح آفاق اتساع اللسان العربي وجسامة العمل الذي قام به الخليل بن أحمد،وتبعه فيه تلاميذه منذ البدء، لأن مسألة اختيار حروف اللغة العربية وتحديدها،له أهمية بالغة في الفصل بين ماهية الحروف،وبين ما يعرف لها من ظواهر صوتيّة.

42- نفس المصدر : 432/4.

43- هو محمد بن الحسن بن دريد،أبو بكر،ولد بالبصرة سنة:223 هـ وقرأ على علمائها،روى عنه الكثير من العلماء،واشتهر من بينهم باللغة والشعر، ألف الجمهرة في اللغة،والأمالي، وغيرها من المصنفات،توفي في عمان سنة:321 هـ. بغية الوعاة : 76/1 .

44- الجمهرة : 41/1-42

45- نجد عند علماء التجويد عملية التفريق بين المخرج المقدر للحرف والمخرج المحقق له.

46- الجمهرة : 42/1.

المبحث الثالث :

علاقة الدّراسة الصوتيّة بعلم القراءات القرآنية

يعتبر كتاب "السبعة في القراءات" لابن مجاهد أوّل كتاب جمع السبعة القراء المشهورين المعروفين إلى يومنا هذا،وأهم كتاب في القراءات السبع، لأنّ من جاءوا بعده كانوا في الحقيقة عالة عليه.[47]

والمتفحص لمادّة كتابه يجدها ثلاثة أقسام :

أ) قسم خصصه للتعريف بهؤلاء القراء السبعة،[وهم على التوالي :(نافع، والمكي، والبصري، والشامي، وعاصم، وحمزة، والكسائي[48])] وبطرق رواياتهم،وبتلاميذهم،ومشايخهم[49].

ب) وقسم تحدث فيه عن أصول القراءات،وله علاقة بالدّراسة الصوتيّة،لأنّه قسم تأصيلي يؤصل المسائل بعد فحص الرّواية.

ج) وقسم آخر جعله "لفرش الحروف"[50]، وما يظهر فيه من أوجه اختلاف القراءات،مثل قراءة (مَلِكِ) و(مَالِكِ) من سورة الفاتحة على خلاف بين القرّاء[51]. وهذا القسم يقع فيه تطبيق أصول القراءات على آي القرآن جميعا من ناحية،وضبط اختلافات القراء في قراءة آي

47- لأنّ من جاءوا بعده كانوا قد حفظوا الأسانيد وهذبوا الرّوايات واختصروا المسائل ولينظر في ذلك مثلا كتاب التيسير لأبي عمرو الدّاني.

48- هذا الترتيب درج عليه علماء القراءات بعد عصر ابن مجاهد وورد اعتماده في لاميّة الشاطبي.

49- السبعة في القراءات : من ص : 9 ⟵ 101.

50- ضبط اختلافات قراءة ألفاظ الآيات القرآنيّة من قارئ إلى آخر،إن كان ثمّة اختلافات.

51- قرأ (مَالِكِ) بألف : عاصم والكسائي.
قرأ (مَلِكِ) بغير الف بقية القراء : نافع،والمكي،والبصري،والشامي،وحمزة.
الاقناع في القراءات السبع : 595/2.

القرآن من ناحية أخرى، مثل التقديم، والتأخير، والافراد، والجمع وغيرها[52]. وهذا القسم يقع من خلاله ضبط جملة من الظواهر الصوتيّة، مثل الإمالة، والاشمام، والرّوم، وغيرها من الظواهر الموجودة في اللغة العربيّة، حفظت عبر هذه القراءات السبع، وغيرها من القراءات الأخرى[53].

ولقد أفاد علم تدوين القراءات المسلمين إفادة بالغة، جعلتهم يهتمون أوّلا بمخارج الحروف، من حيث النطق بها وضبطها، كما يسر للقراء الجمع بين حمل الرّواية وتحمّلها وبين معرفة اللغة العربيّة، فظهر القراء النحاة، ولا نعجب من ذلك لأن أكبر من اشتهر من هؤلاء الأعلام وجمع بين القراءة والنحو كانوا متعاصرين، ومن: أشهرهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، والكسائي، وسيبويه، والفرّاء، وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم[54]. فصارت معرفة تطوّر علم اللغة وعلم النحو، مرتبطة ارتباطا وثيقا، بتطور علم القراءة وعلم التجويد[55]. ويجد الدّارسون اليوم في علم القراءات مشهورها وشاذّها. أهمّ الشواهد وأوثقها على ماكانت عليه ظواهر اللغة العربيّة. الصوتيّة منها واللغوية، والنحويّة، والصرفيّة، في

52- يراجع في ذلك الفصل الرّابع من الباب الأوّل.

53- القراءات الأخرى : الثلاث المتممة للعشرة وأئمّتها هم : أبو جعفر المدني(توفي 130 هـ)ويعقوب الحضرمي(المتوفي سنة 205 هـ)وخلف العاشر،(المتوفي سنة 229 هـ). وزيادة على القراء العشرة الذين جمع ابن الجزري قراءاتهم في كتابه النشر في القراءات العشر، نجد اربعة من القراء، جمع الدمياطي قراءاتهم، وألحقها بالقراءات العشرة، ورتبها جميعا في كتابه المعروف بـ : اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر، وهؤلاء القراء هم: ابن محيصن، واليزيدي، والحسن البصري والأعمش، وهذه القراءات وغيرها من القراءات الأخرى مثل قراءات الآحاد هو ما اصطلح عليه بالقراءات الشاذّة وهي أنواع.

54- مقدمة كتاب التيسير : ص ، ج.

55- نفس المصدر : ص ، د.

مختلف الألسنة واللهجات، فهي أغنى مأثورات التراث، بالمادّة اللغويّة التي تصلح أساسا للدّراسة الحديثة، وهي تعكس صورة تاريخ اللغة العربيّة[56].

وإذا ما تصفحنا أصول القراءات كما رتبها ابن مجاهد، نجد معظم أصول القراءات، متصلة اتصالا وثيقا بالدّراسة الصوتيّة، أو هي مثيرة لتعليل تلك الأصول، وهذا ما طوّر حقا الدّراسة الصوتيّة واللغويّة. فنجد من أمثلة ذلك مسألة الاختلاف في صلة ميم الجمع بواو، وفي ضمّ ضمير الهاء قبلها وكسره، فإنّ الإمام نافع كان يقرأ بالاسكان[57]، وكان قالون يقرأ بالاسكان وبالضمّ، أمّا ورش فإن الوضع عنده مختلف يقول: (الهاء مكسورة والميم موقوفة (ساكنة) إلاّ أن تلقاها ألف (همزة) أصليّة. فإذا لقيتها ألف أصليّة وُصلت الميم بواو في الوصل مثل قوله تعالى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة : 6/2))[58]. فالظاهر من خلال هذا المثال، أن الضمّ والاسكان، كلاهما من لغة العرب، لكنّ المدّ يؤتى به قبل الهمزة، ويكون متبعا لضمّ الميم مدّ طويل، ومعلوم أن الهمزة من أقصى المخارج، والميم من أدنى المخارج. وبما أنّ المدّ مخرجه الجوف، فهو ما ييسّر عمليّة النطق بالهمزة، ويجعل النطق أسهل على القارئ[59].

56- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث : 7-8

57- السبعة في القراءات : 108

58- نفس المصدر : 109

59- للنطق بهذا الحرف، يغلق الوتران الصوتيان فراغ الحنجرة غلقا تاما، ويحبس الهواء في فراغ الحنجرة، وفجأة يبتعد الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض وينطلق الهواء محدثا انفجارا مسموعا.
د/عبد الله عبد الحميد سويد : أحكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث. 45-46. ط. : 2، مطابع الوحدة العربية ، الزاوية : الجماهرية العربية الليبية. د.ت.

أما الادغام[60] عند القرّاء فهو أنواع عديدة،اختلفت أحكامهم بين العمل بمقتضاه،وبين الاظهار، ومنهم من أوغل في اعتماده.

يقول ابن مجاهد : (كان نافع لا يكاد يدغم إلاّ ما كان إظهاره خروجا من كلام العرب، إلا حروفا يسيرة.)[61]، فأدغم الذال الساكنة في التاء بعدها مثل [(اتَّخَذْتُمْ) البقرة : 51/2] يقرأها (اتَّخَتُّمْ)،وذلك بسبب تقارب مخرج الحرفين، الدال والتاء[62]، وقد علله القراء بتقارب المخرجين وأمثلته كثيرة.نذكر منها إدغام الباء عند الفاء،مثاله في القرآن قول الله تعالى [(أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ) النساء : 74/4]،أدغم الكسائي وأبو عمرو الباء في الفاء،والحرفان مخرجاهما من الشفة. وإدغام الباء عند الميم من قوله تعالى [(يُعذِّبْ مَّن يَشَاءُ) البقرة : 284/2] أدغمه القراء[63]. وادغام الثاء عند الذّال،وادغام الدّال عند الثاء،وادغام اللاّم عند الذال، والراء عند اللام،والفاء عند الباء،وكلّ هذا داخل في مباحث الادغام.

هذا وقد حذّر القراء من الادغام المذموم في اللغة العربيّة. مثل إدغام الميم في الباء من قوله تعالى : [(كَذَّبْتُمْ بِهِ) الانعام : 57/6]. فإنّ الميم لا تدغم في الباء لكنها تخفى، لأنّ لها صوتا من الخياشيم تواخي به النون الخفيفة.وهذا الرّأي منسوب إلى سيبويه وبه قال الفرّاء أيضا[64].

60- عرّف ابن الباذش الادغام بقوله : (الادغام أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، فيرتفع اللسان بالحرفين ارتفاعة واحدة).وقد أدرج ابن الباذش في كتابه مبحث مخارج الحروف وصفاتها ضمن باب الادغام. الاقناع في القراءات السبع : 164/1.

61- السبعة في القراءات : 113.

62- منهم من أدغم،ومنهم من أظهر، والادغام أعمّ.
الاقناع في القراءات السبع : 263/1.

63- نفس المصدر : 263/1

64- الاقناع في القراءات السبع : 179/1-180.

فلا غرابة إذن أن نجد إجماعا من القراء السبعة حول هذه المسألة،وأن نجد تعليلا صوتيّا، أقره النحاة اعتمادا على البحث في مخارج الحروف، وأقرّه القراء اعتمادا على الرّواية والذوق العربي سماعا وفصاحة، وأقرّه علم الأصوات الحديث اعتمادا على التطور التقني والآلي، بحيث أن الميم والنون هما الصوتان الأنفيّان[65] دون بقيّة الحروف، حين النطق بهما.

وأمّا الإمالة عند القراء فهي أن تنتحي بالفتحة نحو الكسرة انتحاء خفيفا،كأنه واسطة بين الفتحة والكسرة[66]، فتميل الألف من أجل ذلك نحو الياء،والغرض منها تشابه الصوت،وعدم تباينه[67].

وفي اصطلاح القراء قسمان:كبرى وصغرى. فالكبرى أن تقرب الفتحة من الكسرة والألف من الياء من غير قلب خالص، ولا اشباع مبالغ فيه،وهي الإمالة المحضة. والصغرى هي ما بين الفتح والإمالة الكبرى[68]، ويطلق عليها علماء القراءات من المتأخرين "التقليل"[69]. وهي ظاهرة صوتية ولغويّة قديمة في اللغة العربية،اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة وشرقيّها[70]، ومن فوائدها سهولة اللفظ،لأن اللسان يرتفع بالفتح،وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من

65- أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث : 13.

66- يقال للامالة أيضا الاضجاع والبطح، وسيأتي بيان الفرق بين الامالة عند القراء والامالة عند النحاة في الباب الموالي.

67- الاقناع في القراءات السبع : 268/1.

68- د/محمد سالم محيسن : 115/1. المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة. ط.2، دار الجيل،بيروت،لبنان، مكتبة الكليات الازهرية. 1408هـ/1988م.

69- استخدم هذا المصطلح الصفاقسي في كتابه : غيث النفع في القراءات السبع.

70- المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة : 115/1.

الارتفاع[71]، ولهذا أمال من أمال. وأمّا من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل[72]. ولا غرابة في أن نجد مثل ظاهرتي الادغام والإمالة في اللغة،لأنّ مسألة النزوع نحو المجهود الأدنى ظاهرة منتشرة في كلّ اللغات،وخاصة في لغتناالتي نجد فيها الحذف،والادغام،والابدال والإمالة. ومن هذا المنطلق يلاحظ أن الفتح أصل والإمالة فرع منه، باعتبار أن تطوّر اللغة وكثرة استعمالها يؤدي إلى هذه التغييرات الجديدة في اللغات بصورة عامة دون إغفال بعض العوامل الأخرى مثل تأثر اللغات بعضها ببعض، وتطور حياة المجتمع،وغيرها من الأمور العارضة للغة ما[73] .

فظهر بذلك أنّ الادغام والإمالة ينتج عنهما تغييرات صوتية، تؤدي في الادغام مثلا إلى النزوع نحو التماثل الصوتي،أي الاتصاف بصفات مشتركة تسهل اندماج أحدهما في الآخر. ويقع ذلك خاصة

71- النشر في القراءات العشر : 25/2.

72- هناك رأيان للعلماء في هذه المسألة،فابن الجزري يرى أن الفتح أصل بذاته والإمالة فرع عنه،وبعضهم يرى أن كلاّ منهما -الفتح والإمالة- أصل قائم بذاته، يقول مكي بن أبي طالب : (اعلم أن أصل الكلام كلّه الفتح. والإمالة تدخل في بعضه في بعض اللغات لعلّة، والدليل على ذلك أن جميع الكلام، الفتح فيه سائغ جائز وليست الامالة بداخلة إلاّ في بعضه، وفي بعض اللغات، لعلّة. فالأصل ما عمّ وهو الفتح).
الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها : 168/1. المغنى : 116/1.

73- يقول الدكتور عبد العال سالم مكرم : وليس من شك في أنّ العربية في عصورها القديمة،احتكت بغيرها من لغات الأمم التي اختلطت،بها فتأثرت وأثرت وتركت كثيرا من كلماتها في لغات هذه الأمم المجاورة،ولما طال الأمد رجعت هذه الكلمات إلى موطنها قبيل نزول القرآن.
د/عبد العال سالم مكرم : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 49 ط.1. مؤسسة الرسالة ـ بيروت لبنان، 1408هـ/1988م.
يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى :
كتاب : د/عبد العال سالم مكرم. ظواهر لغويّة من المسيرة التاريخية للغة العربيّة قبل الاسلام. وكتاب : د/محمد رواس قلعة حي : لغة القرآن لغة العرب.

في الحروف المتقاربة المخارج[74]، وفي الإمالة إلى تقريب بين صوتين في النطق ، تقريب صوت الفتح من صوت الكسر. ولذلك أدرجها بعض علماء القراءات في باب الادغام[75].

والإمالة في حدّ ذاتها نزوع نحو التماثل الصوتي، يسهل بها النطق على الجهاز الصوتي،وقد عبّر عن ذلك من ألفوا في الاحتجاج للقراءات. يقول أبو زرعة[76] : (قرأ أبو عمرو والكسائي وورش : "على أبصارهم" و"قنطار" و"دينار" بإمالة الألف. وحجتهم في ذلك أن انتقال اللسان من الألف إلى الكسرة بمنزلة النازل من علو إلى هبوط،فقربوا الألف بإمالتهم إيّاها من الكسر، ليكون عمل اللسان من جهة واحدة)[77].

ومن الظواهر الصوتيّة الأخرى التي اهتم بضبطها القراء وجاءت في اللسان العربي ورويت بها بعض القراءات السبعيّة ظاهرة الاشمام[78] التي نجدها في قراءة نافع من قوله تعالى:[(سِيْئَتْ) الملك : 27/67] وقرأ بها كذلك ابن عامر الشامي،والكسائي، فاشتركا في بعض الكلمات التي قرئت عندهما بالاشمام،وتفرد الكسائي ببعض

74- د/الطيب البكوش : التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث. 67 ط. 2، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله. تونس.1407هـ/1987م

75- الإقناع في القراءات السبع : 268/1.

76- أبو زرعة عبد الرحمان بن محمد بن زنجلة، عالم بالقراءات كان قاضيا مالكيّا أشهر مؤلفاته كتاب حجة القراءات حققه الأستاذ سعيد الأفغاني، وشرف القراء في الوقف والابتداء. توفي سنة:403هـ على الأشهر. حجة القراءات :26-49.

77- عبد الرحمان بن محمد : حجة القراءات : زنحلة : 87. تحقيق : سعيد الأ فغاني ط.2، مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،1399هـ/1977م.

78- الاشمام أن تنحو بالكسرة نحو الضمّة فتميل الياء الساكنة بعدها نحو الواو قليلا،إذ هي تابعة لحركة ما قبلها فيستعمله القراء في نحو: قيْل.وبيْع . كشاف اصطلاحات الفنون : 787/1.

الكلمات في فرش الحروف[79]. وما يظهر للدارس هو أن القراءات حفظت الاشمام ظاهرة صوتية عربية،لأن الأصل هو أنّه يحافظ على أصل الكلمة قبل أن تقع فيها تعديلات صوتية ولغوية،لأنّ الأصل في (قيل)، (قُوِل) فاستثقلت الضمّة على فاء الفعل وبعدها واو مكسورة وياء مكسورة، فنقلت الكسرة منها إلى فاء الفعل،وقلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فأصبحت (قِيلَ)[80].

هذه إذن نماذج من بعض أحكام القراءات التي ظهر اتصالها وثيقا بالدراسات الصوتية، فكانت دافعا للبحث في مجال الصوتيات من قبل القراء. فازداد الاهتمام بهذه الجوانب الصوتية،وأصبح علم اتقان التلاوة المسمّى علم التجويد علما مستقلا بعد عصور عرفت فيها مباحث علم التجويد مندرجة ضمن علم القراءات. لكنّ هذا العلم ساهم مساهمة فعّالة في دفع الدراسة الصوتية،وجعل القراء المتأخرين يهتمون اهتماما بالغا بنوعية هذه الدراسة.

79- حجة القراءات : 89.

80- نفس المصدر : 89.

المبحث الثالث :

علاقة علم التجويد[81] بالدراسات الصوتيّة العربيّة.

لم تكن دوافع علماء العربية مطابقة لدوافع علماء التجويد، فإذا كان دافع الفريق الأول[82] راجعا بالأساس إلى قصْرهم الدراسة الصوتية على مباحث تخدم اللغة والنحو، أو الدراسة اللغوية والنحويّة في هذا الباب أو ذاك[83]، فإنّ علم التجويد اهتم بتحقيق نطق سليم يضمن للمؤدّي (أو القارئ) أن يجتنب اللحن الخفي[84]، الذي يؤدي به إلى الاخلال ببعض قواعد تبليغ النصّ القرآني كما أنزل.

أمّا عن استقلال علم التجويد بمباحثه فالأرجح أن ذلك قد تبلور في أواخر القرن الرابع للهجرة وبداية القرن الخامس. لأنّ أوّل من ألف في هذا العلم بالمعنى "الأكاديمي" للكلمة هو مكي بن أبي طالب القيسي، من خلال مؤلفه المشهور : "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة"، وقد أكد مكي هذه الحقيقة في مقدمة ذلك الكتاب بقوله : (وما علمت أحدا من المتقدمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا

-81 التجويد في اللغة: التحسين، وعند علماء التجويد هو الاتيان بالقراءة مجوّدة بريئة من الرداءة في النطق، وهو إعطاء الحروف حقوقها، نحو إخراج كلّ صوت من مخرجه المختص به، وتوفية كلّ صوت صفته المعروفة.
النشر في القراءات العشر : 21/1.

-82 يظهر ذلك مثلا في منهج الخليل الذي بسطه في مقدمة كتاب العين : 57/1.

-83 سيأتي توضيح ذلك بأمثلة في الفصل الموالي.

-84 اللحن الخفي هو الخلل الذي يطرأ علي الأصوات من جرّاء عدم توفيتها حقوقها.
الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : 50

إلى جمع مثل ما جمعت فيه من صفات الحروف وألقابها ومعانيها، ولا إلى ما أتبعت فيه كلّ حرف منها من ألفاظ كتاب الله سبحانه وتعالى. والتنبيه على تجويد لفظه والتحفظ به عند تلاوته)[85].

وإذا كان مكي متقدما علي غيره في هذا العلم،فلا يعني ذلك أنه لم يعتمد مؤلفات علماء القراءات الذين سبقوه وأدرجوا بعض هذه المباحث في كتبهم،أو علماد اللغة والنحو،الذين أدرجوا بعضها كذلك.

فالملاحظ أن سبقه في هذا المجال كان من حيث الجمع والتبويب.ومحاولة الاستقلال بهذا العلم،وما هو ثابت في هذا المجال أن مكي بتآليفه يؤكد سبق المغاربة في هذا الميدان[86]، لأنّ المشارقة من علماء القراءات المتأخرين عن مكي بن أبي طالب بقوا إلى حدود القرن السادس وبعده يدرجون مباحث علم التجويد ضمن مباحث علم القراءات[87]. هذا بالنسبة للقراء،أما النحاة فكانوا يدرجون مبحث علم الاصوات في آخر أبواب كتب النحو علي غرار الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في الشافية وشروحهما.

85- مكي بن أبي طالب القيسي : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة:1/2. تحقيق، : د/أحمد حسن فرحات، دمشق،1393هـ/1973م.

86- ازدهر علم القراءة وعلم التجويد عند المغاربة في الأندلس،بدءا بالدّاني،مرورا بمكي بن أبي طالب صاحب كتابي الكشف والرعاية،وصولا إلي أبي حيان الاندلسي الذي شهد له ابن الجزري بأنه شيخ التجويد وأستاذ العربية والقراءات، وهذا دليل على تطور هذا العلم (التجويد)،وبلوغه شأوا لا بأس به في الأندلس، ناهيك وان أبا حيّان كان يرمي من وراء علم الأصوات إلى تعليم غير العرب اللغة العربية.
يراجع في ذلك النشر:210/1- 216-الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : 49.

87- يراجع في ذلك مثلا كتاب : جمال القراء وكمال الاقراء لعلي بن محمد الهمداني المصري السخاوي الشافعي.

ومهما يكن من أمر، فإن علم التجويد لم ينشأ مع مكي لأنّ القراء منذ أن شعروا بضرورة الدراسة الصوتية قاموا بذلك العمل حفظا لتلاوة القرآن من الخطأ والخلل الذي قد يطرأ عليه، خصوصا وأن غير العرب قد دخلوا في الاسلام، ممن كانت العجمة واضحة في نطقهم. فسواء كان علم التجويد قد بُحث في مواضيعه مع علم القراءات أو علم اللغة، أو علم النحو، فإن ذلك لا ينقص من مجهودات القراء شيئا حتى وإن قلنا بأن التأليف في هذا العلم كان قد بدأ في أواخر القرن الرابع الهجري[88].

ومن خلال كتب التجويد نجد أن أهم مبحث اهتم به علماء هذا الفنّ هو مخارج الحروف، وصفات الحروف، وخصوصيات كل حرف وما يطرأ عليه إذا جاوره حرف آخر قريب منه مخرجا، أو بعيد عنه صفة...

ولم تتجاوز الدراسة الصوتيّة عند علماء التجويد مجال تصحيح النطق، والحرص على نطق غير العربي بحروف العربية عند تلاوة القرآن، أو عند استعمال اللغة[89]. وهو هدف مشترك بين علماء القراءة والتجويد، وبين اللغة والنحو.[90]

وانطلق علماء التجويد بفحص آلة النطق، واجتهدوا في

88- يمكن الرجوع بأكثر تفصيل لهذه المسألة في كتاب : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : 50.

89- السبعة فى القراءات : 49.

90- سيأتي بيانه في الفصل الموالي.

تقسيمها إلى خمسة مواضع،[91] وعينوا لكلّ موضع مخارج الحروف المنسوبة إليه،واقتربت دراساتهم من دراسات علم الأصوات الفيزيولوجي اليوم،[92] الذي يعتمد على علم التشريح في فحصه لجهاز النطق[93]. وفصل علماء التجويد البحث في مواضع مخارج الحروف، فقسموا الحلق إلى أقصى ووسط وأدنى. واهتموا بمخارج اللسان ومخارج الشفتين والخيشوم والجوف[94]. وأدرك علماء التجويد أنّ الهواء هو المادة التي تنتج الأصوات اللغوية،مع الاعتماد على اختلاف الصفات التي تعرض للحروف أثناء النطق بها.وقد تفطن مكي بن أبي طالب إلى ذلك، حيث نجده يقول : (فالحروف تكون من مخرج واحد وتختلف صفاتها، فيختلف لذلك ما يقع في السمع من كلّ حرف. وهذا تقارب بين الحروف من جهة المخرج، فافهم هذا فعليه مدار الحروف كلها. ولا

91- انتهى علماء التجويد إلى أن مخارج الحروف سبعة عشر مخرجا موزعة على خمس مواضع : الجوف، الحلق، اللسان، الشفتان، الخيشوم.
تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عمّا يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين : 21 ⟵ 25

92- علم الأصوات العام : 7.

93- ألف ابن سينا كتابا مشهورا في أسباب حدوث الحروف (وهو عنوان الكتاب) قسمه فصولا،بعضها في تشريح الحنجرة واللسان، وبعضها في سبب حدوث الصوت، ومنها في حروف العرب، ومنها في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب.
أسباب حدوث الحروف : ابن سينا : المقدمة،نقلا عن : أحكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث : 27.

94- حصرت مخارج الحروف أوّل الأمر في الحلق واللسان والشفة وزاد جماعة منهم الشاطبي وابن الجزري الجوف والخيشوم، والقاعدة المعتمدة عندهم في معرفة مخرج الحرف هي تسكينه،أو تشديده،وادخال همزة الوصل عليه فحيث ينقطع الصوت يكون مخرجه المحقق،وحيث يمكن انقطاع الصوت يكون مخرجه المقدر.
المنح الفكريّة على متن الجزريّة : 8.

تجد أحرفا من مخرج واحد متفقة الصفات البتة. لأن ذلك يوجب اتفاقها في السمع فلا تفيد فائدة. فتصير كأصوات البهائم التي لا اختلاف في مخارجها ولا في صفاتها، فلا بدّ أن تختلف الحروف إمّا في المخارج وإمّا في الصفات).[95] فهو يؤكد أن دراسة المخارج والصفات المتعلقة بالحروف هي مفتاح الدخول إلى الدراسة الصوتيّة عند الانسان، لا سيما العربي والمسلم الذي سيقرأ ويتلو القرآن. ثم يظهر من خلال قولته السالفة تمييزه بين جهاز النطق المعقد عند الانسان، وجهاز النطق عند الحيوان، الذي لا ينتج إلاّ أصواتا بسيطة على عكس الصوت الانساني الذي يمثل مادة اللغة.

وإنه لحريّ بنا أن نتوقف قليلا عند دراسة مخارج الحروف وصفاتها، لنتبيّن أهمية ذلك في علم التجويد، وعلاقته بالدراسة الصوتيّة للغة العربيّة. لقد تباينت آراء علماء النحو والقراءات واللغة والتجويد حول عدد مخارج الحروف، وأشهرها ثلاثة أقوال :

1- ذهب الخليل بن أحمد وأكثر النحويين وأكثر القرّاء ومنهم ابن الجزري إلى القول بأن عددها سبعة عشر مخرجا[96].

2- وذهب سيبويه ومن تابعه ومنهم الشاطبي إلى أن عدد مخارج الحروف ستّة عشر مخرجا.[97]

95- الرّعاية : 129-130.

96- تنبيه الغافلين : 21.

97- هم لا يعتبرون الجوف مخرجا بل جعلوا الألف من أقصى الحلق، والياء من وسط اللسان، والواو من الشفتين.
نفس المرجع : 22.

3- وذهب قطرب،والجرمي،[98] وابن كيسان،[99] والفرّاء،إلى أن عدد مخارج الحروف أربعة عشر مخرجا.[100]

وأشهر الأقوال التي بقيت معتمدة وعليها مدار البحث في هذا المجال.هو القول الأوّل المنسوب للخليل بن أحمد والقراء،وعليه ابن الجزري،-من المتأخرين على الخليل- وقد جاء رأيه في المقدمة الجزرية[101] في علم التجويد،التي اشتهرت اشتهارا واسعا وصارت عمدة القراء في ذلك العلم بعد عصر ابن الجزري المتوفي سنة (833 هجريّة).

لكنّ تحديد مخارج الحروف على الصورة التي نراها مثلا في كتاب تنبيه الغافلين،وارشاد الجاهلين للصفاقسي،[102] قد شهدت تعديلات منذ عصر الخليل،إلى العصور التي أصبح فيها علم التجويد علما مستقلا. فالخليل في تحديده لمخارج الحروف يتفق في العدد مع ابن الجزري مثلا، لكنّه يختلف في مواضع الحروف. مثاله أنّ حروف الحلق

98- تقدمت ترجمته.

99- تقدمت ترجمته.

100- هم لا يعتبرون الجوف مخرجا وجعلوا مخارج اللسان ثمانية، جعلوا مخرج الراء واللام والنون واحدا.
تنبيه الغافلين : 22.

101- هي أرجوزة محمد بن الجزري الشافعي في علم التجويد،من اشهر من شرحوها وطبعت شروحهم : سلطان القاري، وزكريا الانصاري،ومحمد بن على ابن يالوشة التونسي.

102- هو أبو الحسن علي بن محمد النوري الصفاقسي ولد بصفاقس سنة 1053هـ عالم بالقراءات والفلك والفقه والعربية رحل إلى تونس حيث طلب العلم ورجع إلى مسقط رأسه لبث العلم هناك توفي(سنة 1118 هـ).ومؤلفه المتعلق بعلم التجويد من أهمّ ما ألف في بابه. معجم المؤلفين : 201/7.

عنده[103] خمسة: ع،ح،هـ،خ،غ.[104] ويرى سيبويه أن حروف الحلق هي الهمزة ، والهاء، والألف، والعين، والحاء، والغين، والخاء، (ء،هـ،ا،ع،ح،غ،خ) سبعة أحرف.[105] ويرى ابن الجزري أن حروف الحلق ستة: (ء،هـ،ع،ح،غ،خ).[106] وسبب الاختلاف هو ما آل إليه تقسيم جهاز النطق بمخارج حروفه من تضارب. فالواضح من تقسيم الامام سيبويه أنه لا يضع في اعتباره الجوف، الذي هو مخرج حروف العلة، (واي)، فنتج عن ذلك هذا الاختلاف،[107] بينما الخليل يجعل الهمزة من الجوف.[108]

وإذا كان علم الأصوات قد أفاد من علم التجويد في شيء فهو ما كان من تلك التدقيقات في معرفة حقيقة الحرف،[109] ومخارج حروف الهجاء العربي، وصفات تلك الحروف. من حيث التقارب أو التباعد، ومن حيث الانسجام أو التنافر، حيث كانت تمثل مقاييس دقيقة للاظهار والادغام، والمدّ، والسكت، وغيرها من الظواهر الصوتيّة

103- يقسم الحلق إلى أقصى ووسط وأدنى في كلّ موضع حرفان : الهمز والهاء لاقصاه والعين والحاء لأوسطه والغين والخاء لأدناه. (الجزريّة)

104- الجمهرة :48/1.

105- الكتاب : 433/4.

106- الفوائد المفهمة في شرح المقدمة : محمد بن علي بن يالوشة التونسي : 24، هذا الكتاب بهامش : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع لابن بري. اجازت طبعه ونشره النظارة العلميّة بالجامع الاعظم. 1321هـ/1873م

107- لم يكن تصور جهاز النطق تصورا متكاملا قبل عصر ابن جني، الذي شبّه جهاز النطق بالمزمار الذي ينفخ فيه.
ابن جني : أبو الفتح عثمان سر صناعة الاعراب. 6/1، ط 1، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، 1374هـ/1954م.

108- الجمهرة : 48/1.

109- قالوا في تعريف الحرف: هو صوت معتمد على مقطع محقق، أو مقدر، مادته هواء يتموج بتصادم جسمين، وهو مختص باللسان.
علي بن سلطان القارئ : المنح الفكرية على متن الجزريّة : 8، أحمد البابي الحلبي. المطبعة الميمنية بمصر، 1308هـ/ 1860م.

المتشعبة فــي اللغة العربيّة[110]، وأوّلها تعريف الصوت بمادته.

ونستطرد للحديث عن أهميّة صفات الحروف من جديد. فهذه الصفات عوارض تعرض للأصوات الواقعة في الحروف،وقد شبه بعضهم مخرج الحرف بالميزان،يعرف به ماهيته وكميته. والصفة كالمحك والناقد، يعرف بها هيئته وكيفيّته[111]، وصفات الحروف سبعة عشر صفة عند ابن الجزري[112]، منها خمس متضادة والبقـيّة لا أضداد لها[113]. وهي عند سيبويه ستّة عشر صفة.كلها يحتاج إليها في الادغام[114]. وهذه الصفات هي الجهـر[115]، والهمس[116]، والشدّة[117]، والرخاوة[118]، والاطباق[119]،

110- الاقناع : 170/1.

111- المنح الفكريّة : 14.

112- النجوم الطوالع على الدّرر اللوامع في أصل مقرا الامام نافع : هامش ص : 40 : شرح المقدمة الجزريّة المسمّى : الفوائد المفهمة في شرح المقدمة : محمد بن علي بن يالوشة.

113- المنح الفكريّة : 14.

114- الاقناع : 174/1.

115- المجهور من الحروف ما أشبع الاعتماد عليه في موضعه. ومنع النفس أن يجري معه، حتّى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت. والجهر من صفات القوة. الكتاب : 434/4، شرح المقدمة الجزرية : زكريا الأنصاري : هامش المنح الفكرية : 18.

116- الهمس : هو الحس الخفي،ويتمثل في جريان النفس مع الحروف المهموسة عند التلفظ بها لضعف الاعتماد على مخارجها،فيخفى الصوت بها. تنبيه الغافلين : 25

117- الشدّة وضدّها الرخاوة والحروف الشديدة تتصف بقوتها،وشدّة لزومها لمواضعها حتّى حبس الصوت عند لفظها أنْ يجري معها لقوة الاعتماد عليها.
نفس المصدر : 25.

118- والرخاوة تتمثل في جريان الصوت مع لفظ الحرف.لضعف الاعتماد على المخرج.
نفس المصدر : 25.

119- وصفت بعض الحروف بالاطباق لانفتاح ما بين اللسان والحنك عند النطق بها.
نفس المصدر : 25.

والانفتاح[120]، والاستعلاء[121]، والاستفال[122]، والغنّة[123]، والصفير[124]، والمدّ واللين[125]، والحرف الهاوي[126]، والاستطالة[127]، والتفشي[128]، والتكرير[129]، والانحراف[130]. وفي تقسيم ابن الجزري سبعة عشر صفة؛

120- الحروف المنفتحة وصفت بذلك لانفتاح ما بين اللسان والحنك،وخروج الحروف من بينهما عند النطق. والانفتاح في اللغة هو الافتراق.
المنح الفكريّة : 16.

121- وصفت بعض الحروف بالاستعلاء لارتفاع اللسان بها عند النطق بها،فيعلو الصوت معها.
تنبيه الغافلين : 26.

122- الاستفال ضد الاستعلاء وحروفه عديدة،وصفت بذلك لعدم استعلاء اللسان عند النطق بها.
نفس المرجع : 26.

123- صوت لذيذ يخرج من الخيشوم. الاقناع : 157/1.

124- الصفير حدّة الصوت، ولأنّ هذه الحروف يصفر بها فيخرج عند النطق بها صفير كصفير الطائر.
نفس المرجع : 27.

125- حرف المدّ هو الألف مطلقا،وحرف اللين هما الواو والياء اللتان قبلهما حركة لا تجانسهما.
نفس المرجع : 166/1.

126- سمي الألف هاويا لأنّ مخرجه اتسع بجريانه في هواء الفم.
نفس المرجع : 176/1.

127- الضاد حرف مستطيل، وإنما وصف بالاستطالة لأنه يستطيل حتّى يتصل بمخرج اللام.
نفس المرجع : 17.

128- التفشي لغة الانبثاث والانتشار،وهو انتشار صوت الحرف عند خروجه. والشين حرف التفشي،وينتشر صوت الشين حتّى يتصل بحروف طرف اللسان.
نفس المرجع : 17.

129- والرّاء له قبول التكرر لارتعاد طرف اللسان عند التلفظ به، وهو موصوف أيضا بالانحراف.
نفس المرجع : 16.

130- سمي اللام والرّاء منحرفا لانحرافهما عن مخرجهما حتّى اتصلا بمخرج غيرهما، ففي اللاّم انحراف إلى ناحية طرف اللسان، وفي الرّاء انحراف قليل إلى ناحية اللام.
الاقناع : 176/1.

سبع لا أضداد لها وهي :الصفير، والقلقلة[131]، واللين ،والانحراف، والتكرير والتفشي، والاستطالة. والصفات المتضادة هي: الهمس .والجهر، والشدّة، والرخاوة،والاستعلاء،والاستفال، والاطباق والانفتاح والاذلاق[132] والاصمات[133].

هذه بعض النماذج الحيّة من الدراسة التي كانت موضوع علم التجويد،وهي دراسة صوتيّة في مجملها، لا تختلف اختلافا كبيرا عن مدخل الدراسة الصوتيّة الحديثة. فعلم التجويد كما سبق تعريفه كان مجالا فسيحا لإبداعات السلف في مجال الدراسة الصوتيّة،تلك التي لم تختلف نتائجها كثيرا عمّا توصل إليه علم الأصوات الحديث بآلاته وتقنياته المتطورة، لكنّ منهج الدراسة الصوتيّة الحديثة مختلف من حيث مصطلحاته وطرقه في تحصيل النتائج عن طريقة القدامى،حيث صنف علماء الأصوات الحروف العربيّة التي تعتبر معظمها صوامت[134]. بحسب

131- القلقلة صوت زائد في المخرج بعد ضغط المخرج وحصول الحرف فيه بذلك الضغط وحروفها خمسة هي (ق، ط، ب، ج، د) مراتبها ثلاث أقواها القاف.
حق التلاوة : 91.

132- سميت حروف الذلاقة بهذا لسرعة النطق بها وخروجها من ذلق اللسان (طرفه) وحروف الاذلاق ستة مجموعة في (فر من لب).
نفس المرجع : 99.

133- سميت حروف الاصمات بهذا لامتناع انفراد هذه الحروف أصولا في الكلمات الرّباعيّة والخماسيّة،إذ لا بدّ في الكلمة العربية من وجود حرف أو أكثر من حروف الاذلاق في الكلمات الرباعيّة أو الخماسيّة.
نفس المرجع : 99.

134- تقسيم أصوات اللغة العربيّة من خلال المنظار اللساني أفرز ثلاثة مجموعات هي: الصوائت،Voyelles والصوامت،Consonnes وانصاف الصوائت. فالصوائت في اللغة العربية ستّة : هي الفتحة والكسرة والضمّة والفتحة الطويلة والكسرة الطويلة، والضمّة الطويلة.والصوامت هي : حروف الهجاء عدا الواو والياء. وأنصاف الصوائت هي الواو والياء. علم الأصوات العام : 106-116-129.

وضع الوترين الصوتيين[135]، ومواضع النطق من حيث مكان انسداد مجرى الهواء أو تضييقه،وعلى حالته في مستوى القناة الصوتيّة من حيث الانسداد أو الاحتكاك. فكانت الحروف العربية مثلا (الصوامت) ثلاثة أقسام :

أ- الصوامت الانسداديّة ويمكن أن تكون فميّة أو أنفيّة[136].

ب- الصوامت الاحتكاكيّة والانسيابيّة[137].

ج- الصوامت الجانبيّة والترددية[138].

وقد سمحت هذه العمليّة بوصف طريقة النطق وصفا دقيقا، وذلك بالاعتماد على نطق قراء القرآن الكريم[139].

135- هذا مجال بحث علم الأصوات النطقي، الحبال الصوتيّة توجد في الحنجرة (Laryns) ويبلغ معدّل تواتر الوترين الصوتيين تذبذبا بين 60 و70 "هرتز" لأخفض الأصوات الرّجالية،وبين 1200 و1300 "هرتز" لأكثر الأصوات ارتفاعا.
علم الأصوات العام : 61-63.

136- سميت انسداديّة لأنها تتكون عندما يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما، ولكنه مؤقت في موضع من مواضع القناة الصوتيّة وينتج الصامت الانسدادي كذلك من إطلاق الهواء المحبوس.
نفس المرجع : 113.

137- تتكون الأصوات الاحتكاكيّة والانسيابيّة بأن يضيق مجرى الهواد الخارج من الرئتين في موضع من مواضع القناة الصوتيّة وذلك بفعل عضو أو أكثر من أعضاء الكلام.
نفس المرجع : 119-120.

138- في اللغة العربية صامت جانبيّ واحد هو "اللام" وصامت ترددي (أو مكرر أو تذبذبي) واحد أيضا هو "الراء".
فعند نطق اللام يعتمد طرف اللسان على أصول الاسنان العليا،وعلى (اللثة) بحيث يمنع مرور الهواء المزفور من هذه النقطة. إلاّ أنّه يترك منفذا لهذا الهواء من جانبي اللسان أو من أحدهما، ولذا سمي هذا الصوت بالجانبي (lateral) وعند نطق (الراء) يتذبذب طرف اللسان على (اللثة)،بحيث ينتج عن اندفاع الهواء المزفور سلسلة من الضربات المتكررة ولذلك سمي الرّاء بالصوت المكرر.
نفس المرجع : 126-128.

139- نفس المرجع؛116 . وانظر : د/عبد القادر الجديدي : البنية الصوتية للكلمة العربية : 50،طبع على حساب المؤلف، المطابع الموحدة - تونس - د.ت.

وإذا كانت الدراسة الصوتيّة الحديثة قد كشفت أن بعض تحليلات الأقدمين في أحكام التجويد قد اتسمت بالدقة،فإنّ البعض الآخر فيما يتعلق بتجويد القرآن قد كان غير سليم وغير دقيق.[140] ولسنا نعيب عليهم ذلك، فإنّ إمكانات عصرهم تقنيا كانت محدودة غير أنه من المؤكد والضروري التنويه بجهود القراء في هذا المجال[141]. وقد ساعدتهم اختلافات الأحكام في قراءاتهم وأحرفهم على تنوع هذه الآراء وهذا ما سنحاول كشفه من خلال المقارنة بين آرائهم في بعض أبواب القراءات وتعلقها بدفع الدراسة الصوتية من ناحية،وأثر ذلك في المباحث الصوتيّة عند علماء الكوفة بالخصوص.

140- أحكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث : 211.

141- يراجع كتاب : جمال القراء وكمال الاقراء : علم الدين السخاوي : الجزء الخاص بالتجويد من ص 525 ← 547، ط1،مكتبة التراث ، مكة المكرمة، مطبعة المدني ، المملكة العربية السعودية، 1407هـ/1987م.

المبحث الرابع :

اختلاف القراءات ساعد على بلورة التوجهات الصوتيّة.

سنستعرض في هذا المبحث جملة من الأمثلة تتعلق بأحكام القراءات، وتبرز أوجه الاختلاف بين القراء، وتأثير ذلك في توجهاتهم الصوتية، وفي اختياراتهم، وفي شيوع بعض الظواهر عندهم أو انحسارها بحسب اختيار القراءة، وما يتبعه من توجه صوتي. فنبدأ باستعراض الأحكام.

أ- أحكام الهمزة عند القراء السبعة : قوله تعالى

من سورة البقرة[142] إسَوَاءٌ عليْهِمْ ءَأَنْذرْتـهمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ...!

قرأ نافع وأبو عمرو : "آنْذَرْتَهُمْ" يهمزان ثم يمدّان بعد الهمزة[143].

وتقدير هذا أن تُدخلَ بين ألف الاستفهام وبين الهمزة التي بعدها ألفا ليبعد المثل، ويزول الاجتماع، فيخف اللفظ. والأصل "أأَنْذَرْتَهُمْ" ثم تُلين الهمزة في "أَنْذَرْتَهُم"[144] وحجّة من سهّل الهمزة أو أدخل بين الهمزتين مدّا، أنّ العرب تستثقل الهمزة الواحدة فتخففها في أخف أحوالها وهي ساكنة، نحو (كاس) أصلها (كأس)[145]. وقرأ ابن كثير : "أَنْذَرْتَهُمْ" بهمزة واحدة غير مطولة، ومذهبه أن يحقق الأولى ويخفف

142- البقرة : 6/2.

143- السبعة في القراءات : 136.

144- حجّة القراءات : 85.

145- ابدل همز (كأس) أبو عمرو بخلفه.
إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر : 515/2.

الثانية[146]، بينما قرأ ابن عامر وأهل الكوفة[147] "أَأَنذَرْتَهُمْ" بهمزتين أرادوا إظهارها لأنها حرف من حروف المعجم كغيره من سائر الحروف[148].

هذا أهمّ ما يتعلق بأحكام الهمزة من كلمة واحدة. أمّا ما يتعلق بالهمزتين تلتقيان من كلمتين وهما مختلفتا الاعراب[149]. فهما على ستة أوجه منها ما لم يجئ في القرآن[150]. وقد قرأ ابن عامر وأهل الكوفة بهمزتين في جميع ذلك[151]. أرادوا التحقيق وتوفية كلّ حرف حقّه من حركته ونصيبه من الاعراب، وذلك رغبة في التبيين والنطق بكل حرف من القرآن على جهته من غير إبدال ولا تغيير[152].

146- حجّة القراءات : 86.

147- عاصم وحمزة والكسائي.

148- قرأ قالون، وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال الف بين الهمزتين. ولهشام ثلاثة أوجه : "الأول": التسهيل، تسهيل الهمزة الثانية مع الادخال. "الثاني": تحقيقها مع الادخال. "الثالث": تحقيقها مع عدم الادخال. وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الادخال وجها لتسهيل التخفيف، ووجه التحقيق أنه الأصل، ووجه الادخال: ليُتمكن من النطق بالهمز. ووجه الابدال أنه نوع من التخفيف. والكلّ لغات. المهذب في القراءات العشر : 47/1.

149- فأوّل ذلك المضمومة التي بعدها المفتوحة كقوله : [(...السُّفَهَاءُ أَلاَ...) البقرة : 13/2] تهمز الأولى وتخفف الثانية وتنحو بها الألف.
- وبعد ذلك المضمومة التي بعدها مكسورة كقوله تعالى [(... وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا ...) البقرة 282/2] تهمز الأولى وتنحو بالثانية نحو الياء من غير أن تكسرها.
- والثالثة المفتوحة التي بعدها مكسورة نحو قوله [(أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ...) البقرة 133/2]
- والرابعة المفتوحة التي بعدها مضمومة كقوله : [(جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا) المؤمنون : 44/22] تهمز الأولى وتنحو بالثانية نحو الواو من غير ضم.
- الخامسة: المكسورة التي بعدها مفتوحة، نحو قوله : [(أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ ...) الملك : 27/67]. تهمز الأولى وتنحو بالثانية الألف فهذا مذهب نافع وابن كثير وأبي عمرو.
حجّة القراءات : 90-91.

150- نفس المصدر : 90.

151- نفس المصدر : 91.

152- نفس المصدر : 91.

هذا التوجه في إظهار الحروف[153]، هل نجده توجها شائعا عند قراء الكوفة بالخصوص؟ هذا ما سنحاول تتبعه من خلال أحكام الادغام الصغير منه والكبير عند القراء السبعة بما في ذلك قراء الكوفة.

ب- الادغام عند القراء السبعة :

الادغام في اللغة هو ادخال الشيء في الشيء[154]، واصطلاحا هو النطق بالحرفين حرفا واحدا كالثاني مشددا[155]، وهو نوعان: كبير وصغير، فالكبير وهو ما كان الأول من المثلين[156]، أو المتجانسين[157]، أو المتقاربين[158]، متحركا[159]. وللادغام شروط وأسباب وموانع ذكرتها كتب القراءات[160]، نستعرض مذاهب القراء واحدا وحدا، لنتمكن من المقارنة بينها. فنافع لا يكاد يدغم إلاّ ما كان إظهاره خروجا من كلام العرب إلاّ حروفا يسيرة، وابن كثير كان يظهر إلاّ ماكان إظهاره خروجا من كلام العرب[161] كذلك، وكان عاصم لا يدغم ولا يرى الادغام إلاّ فيما لا يجوز إظهاره، واشتهر أبو عمرو البصري بالادغام، وكان حمزة بن حبيب الزيات يدغم في الحروف التي لا حركة لها، وكان ادغام

153- الاظهار لغة: البيان. واصطلاحا: إخراج كلّ حرفٍ من مخرجه من غير غنّة في الحرف المظهر.
المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة : 93.

154- جاء في صحاح الجوهري : وادْغَمْتُ الفرسَ اللِّجَامَ، إذا أدخلته في فيهِ، ومنه ادغام الحروف، 1920/5 ط4، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان ، 1410هـ/ 1990م.

155- النشر في القراءات العشر : 274/1.

156- التماثل : هو أن يتحد الحرفان مخرجا وصفة كالياء فى الباء.

157- التجانس : وهو أن يتفقا مخرجا، ويختلفا صفة، كالدال فى التاء، والتاء فى الطاء.

158- التقارب : هو أن يتقاربا مخرجا، أو صفة أو مخرجا وصفة.

159- اتحاف فضلاء البشر : 109/1 112.

160- السبعة في القراءات : 113 ←—— 125

161- نفس المصدر : 113.

الكسائي مثل إدغام حمزة، ويزيد عليه في لام (بل) و(هل) إدغامهما في الطاء.وكان ابن عامر يدغم الذال في التاء إذا كانت الذال ساكنة، ويدغم الثاء في التاء إلاّ ما استثنى،ويدغم كذلك التاء في السين،والتاء في الجيم،والتاء في الظاء.غير أن إدغام أبي عمرو اعتبر مدار الادغام، فهو الذي جمع حروفه،ونقل له،واحتجّ له[162].

ومهما يكن من أمر،فإنّ القراء السبعة جميعا قد عرفوا الادغام بتفاوت بينهم في أحكامه من مقلّ ومن مكثر،ومتشعب في أنواعه،وكلّ واحد منهم اعتمد على كلام العرب وما جرى على ألسنتهم لتثبيت حجيّة قراءاته.فهناك نزوع إلى الاظهار عند عاصم،ونجد اتجاه الفراء مدعما له في كتابه معاني القرآن، إذ نجده يبدي رأيه في إدغام اللام من (هل) و(بل) عند التاء من قوله تعالى : [(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) التوبة 52/9] يقول : "والعرب تدغم اللام من (هل) و(بل) عند التاء خاصة. وهو في كلامهم عال كثير، يقولون : هل تدري و(هَتَّدْرِي) فقرأها القراء على ذلك، وإنما استحبّ في القراءة خاصة تبيان ذلك لأنهما منفصلان ليسا من حرف واحد، وإنما بني القرآن على الترسل والترتيل وإشباع الكلام ، فتبيانه أحبّ إليّ من إدغامه، وقد أدغم القراء الكبار، وكلّ صواب"[163].

فإذا كان اتجاه القراء من خلال قراءاتهم اتجاها ينزع إلى الادغام فهو اتجاه صوتيّ أصيل،لأنه يمثل نزوعا نحو المجهود الأدنى

162- سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهى : 33.
163- معاني القرآن : 441/1.

بالرغم من أنّ النزوع ظهر متفاوتا عند قراء الكوفة، إذ نجد عاصما يحقق الهمزتين المجتمعتين في كلمة والمجتمعتين في كلمتين[164]، وهو ما يمثل كذلك انسجاما مع مبدإ الاظهار[165]، لكنّ شأن الكسائي وحمزة مختلف عن شأن عاصم بن أبي النجود، فحمزة قد تفرّد بحكم السكت الذي ينجرّ عنه أحكام متنوعة مثل: الابدال، والنقل في حالتي السكت والوقف على تلك الكلمة مثل كلمة (شيء) أو كلمة (ٱلأَرْضَ)[166]. فحين السكت دون الوقف يقرأ حمزة (ولْ/أَرْضَ) و(شيء) إذا وقف عليها ففيه أربعة أوجه :

أ- أولها حذف الهمزة فيوقف على الياء بالسكون.

ب- نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها مع رومها وحذف الهمزة.

ج- أن يوقف على الياء بالسكون مع التشديد.

د- أن يوقف على الياء بالسكون مع التشديد والروّم.[167]

فأحكام حمزة في بعض أوجهها من نطق الهمزة تنزع إلى مبدإ التيسير في النطق بالرغم من أن الغالب على أحكام الهمزة عند قراء الكوفة إظهارها[168].

164- يوافقه في ذلك حمزة والكسائي.

165- إظهار الحروف أو قراءة الألفاظ على الأصل، مثل عمليّة الاشمام عند حمزة والكسائي، وهشام، ونافع في بعض الأوجه القليلة. وقراءة لفظة "عَلَيْهُمْ وإِلَيْهُمْ وَلَدَيْهُمْ" بضمّ الهاء، كلّه على الأصل في اللغة، قبل النزوع إلى المجهود الأدنى والتناسب اللفظي.
التيسير : 19

166- غيث النفع فى القراءات السبع : 129، شرح ابن القاصح على الشاطبية84-->92.

167- نفس المصدر : 76.

168- ناقش الزجاج الآرء المتعلقة بالهمزتين من كلمة.
إعراب القرآن : 77/1.

ولا يمنع تنوّع هذه الأحكام من اختلاف مذاهب القراء فيما بينهم، فالمثال السابق للفرآء في مسألة إدغام (هل) و(بل) يبيّن أنه مخالف لشيخه الكسائي الذي كان يميل إلى إدغام اللام من (هل) في التاء والنون[169]، كما يميل إلى إدغام لام (بل) عند سبعة أحرف : عند التاء، والسين، والزاي، والضاد، والطاء، والظاء، والنون[170]. وهذا يدل على أنّ اختيار الفراء للاظهار كان بالاعتماد على قراءة عاصم،وقراءات القراء الذين يظهرون هذه الأحرف في مواطن إدغام من ادغمها من القراء. ومثلما سبقت ملاحظته فإنّ هذا الادغام ليس عشوانيا، مثاله في أحكام النون الساكنة والتنوين[171]. فالحروف التي تدغم فيها النون والتنوين خمسة : الراء واللام، والميم والواو، والياء يجمعها (لم يرو)، سواء كان سكون النون لازما أو بجازم، وسواء ثبتت في الخط على الأصل أو حذفت على اللفظ[172]. وينقسم إدغام النون في الأحرف الخمسة السابقة إلى قسمين :

أ- إدغام ناقص مع أصوات : النون - الميم - الياء - الواو.

ويتمثل هذا الادغام في ذهاب النون وبقاء صفتها الأنفيّة[173].

ب- إدغام كامل : وهو إدغام بغير غنّة،ويكون مع اللام والرّاء.

وهكذا يظهر أن علّة إدغام النون الساكنة مع النون والميم والياء والواو واللاّم والراء هو التماثل مع النون، والتجانس في الصفة

169- الاقناع في القراءات السبع : 243/1.

170- نفس المصدر : 243/1-244.

171- نفس المصدر : 243/1.

172- نفس المصدر : 246/1.

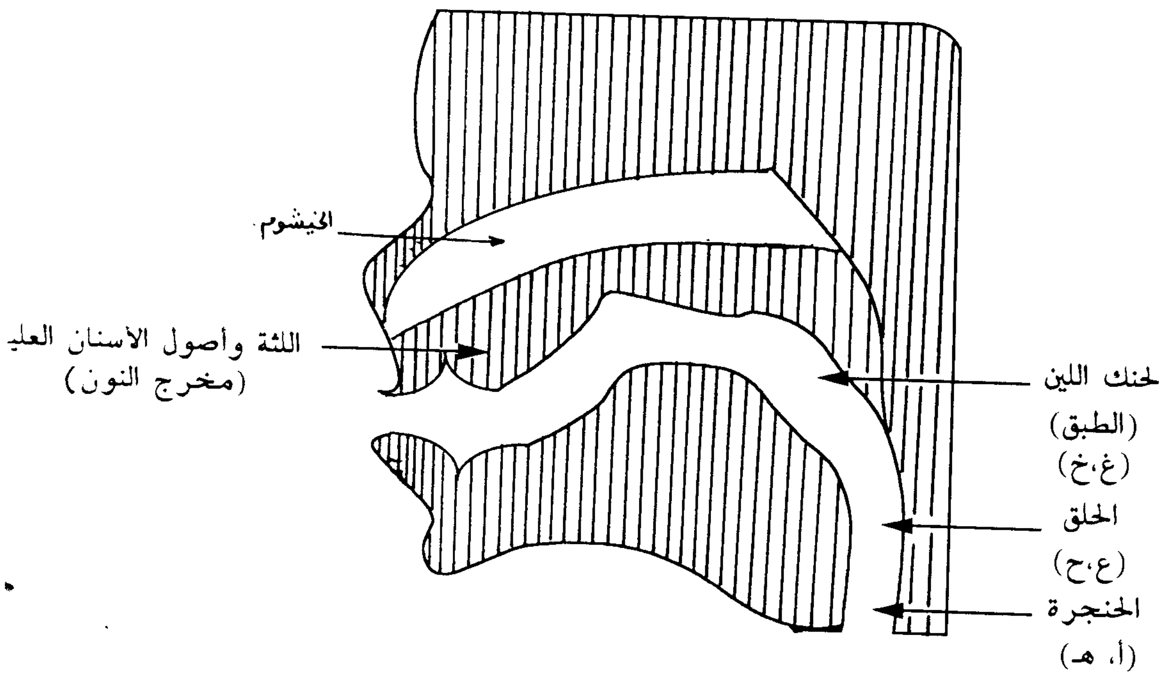
173- احكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث : 102.

مع الميم والياء والواو واللاّم والرّاء،والتقارب في المخرج مع الميم واللاّم والرّاء.

فالصفة المشتركة التي تجمع هذه الأصوات الستة،هي صفة الرنين وعدم حدوث احتكاك حين النطق بها[174]. أما مذاهب القراء السبعة في هذا الباب فإن إجماعا من قبلهم قد ظهر حول ادغام النون الساكنة والتنوين في اللام والراء من غير غنّة،لأنّ إضافة الغنة تجعل القراءة مكلفة فظهر اعتبار جماليّة التلاوة واستحسان السامع[175].

هذا فيما يتعلق باللام والراء، أمّامع بقيّة حروف الادغام فإنّ جميع القراء السبعة أدغموا النون الساكنة والتنوين في الباء والنون والميم والواو إدغاما مصاحبا للغنّة إلاّ خلفا -وهو أحد رواة حمزة- قرأ بإدغام النون الساكنة والتنوين في الواو والياء بدون غنّة -أي بغير غنّة-[176]، واستثنى القراء السبعة الادغام بغنّة في أربع كلمات من القرآن وهي دنيا وبنيان وصنوان وقنوان[177]، مخافة اشتباه الأمر على السامع لهذه الألفاظ فلا يفرّق بين ما أصله النون وبين ما أصله التضعيف. أمّا إظهار النون الساكنة والتنوين فيكون مع ستّة أحرف هي حروف الحلق. وهي : الهمزة - الهاء - العين - الحاء - الغين - الخاء -[178]وعلّه إظهارها هو بعد مخرجها عن مخارج أصوات الحلق[179].

174- احكام تجويد القرآن فى ضوء علم الأصوات الحديث : 105.
175- شرح ابن القاصح على الشاطبيّة : 100.
176- نفس المصدر : 100.
177- نفس المصدر : 100.
178- يجمع القراء السبعة على ذلك. شرح ابن القاصح : 101.
179- أحكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث : 100.



رسم بياني في مخارج حروف الحلق والنون

فأقصى المخارج،الهمزة والهاء،ثم العين والحاء،ثم تأتي الغين والخاء[180](*) فهذه الأحكام السابقة تعكس بدقة وتؤكد أنّ المقياس الذي اعتمده القرّاء ووجّه اختياراتهم خاضع لعدّة عوامل نذكر أهمها :

أ) الرواية.وهي العامل الأساسي والرئيسي لأن القراء ما كانوا ليختلفوا في هذه القراءات ، ولكنهم اختاروها من بين العديد من الأحرف.

ب) عامل السماع والذوق العربي الأصيل، الذي يميل إلى تحقيق جزء من الفصاحة العربية.

ج) عامل الدراية باللغة والأصوات اللغوية،وإلاّ لما كانت هذه الآراء معللة في كتب اللغة،والنحو،والقراءات،والتجويد، التي زخر بها تراثنا القرآني واللغوي منه بالخصوص.

ولعلّه من الأنسب،الإشارة إلى جملة من المسائل المتعلقة بتوجهات مدرسة الكوفة في مجال الصوتيات في ختام هذا الفصل. إذ أننا نلاحظ أن الدراسة الصوتية -كما بدأنا الحديث به- لم تكن بمعزل عن الدراسة اللغوية والنحويّة،وضبط القراءات. فالنظرية الصوتية التي كانت سائدة عند الكوفيين وعند البصريين مفادها أنّ تأثر الحروف بعضها ببعض حين النطق بها ناتج عن قوّة بعضها،وضعف البعض الآخر، فإذا

180- يميل أبو جعفر وهو من القراء العشرة إلى الاخفاء عند الغين والخاء،لأن مخرج هذين الحرفين أقرب إلى مخرج النون من حروف الحلق كلها.
اتحاف فضلاء البشر : 144/1.

(*) ينظر في الشكل السابق في الصفحة السابقة.

اجتمع حرف قويّ بحرف ضعيف أثر فيه[181].

وهذه النظريّة مخالفة لنظريّة النزوع "نحو المجهود الأدنى" اقتصادا في المجهود العضلي، وانسجاما في موسيقى اللغة. فحين يجتمع صوتان أحدهما مهموس، والآخر مجهور، يؤثر أحدهما في الآخر حتّى يصبحا مجهورين معا، أو مهموسين معا، ليكون اخراجهما مرّة واحدة[182]. وقد عمل الكوفيون بفحوى النظريّة القديمة، وظهر أثر ذلك في مؤلفات الفراء خاصة، وفي أقوال الكسائي، وفي أحكام قراءته[183]. ولا بأس من أن نسوق بعض الأدلّة التي تؤكد أن الفرّاء قد تأثر بقراءات غير الكوفيين في بعض الاحكام الصوتية واللغوية. فمثاله أنّه ذهب إلى جواز إدغام المثلين في كلمتين مثل [(شَهْرُ رَمَضَانَ) البقرة 184/2] تصبح (شَهْر رَّمَضَانَ)، وهو في ذلك يضاهي إدغام أبي عمرو البصري في المثلين من كلمتين[184]، ويخالف الشرطين اللذين اشترطهما البصريون وهما :

* أن لا يكون الحرفان المدغمان همزتين. مثل (قرأ آية)

* وأن لا يكون الحرف الذي قبلهما ساكنا غير لين.[185]

181- الخصائص : 1/53-54.

182- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : 175.

183- الملاحظ أن النظرية القديمة، وإن اختلفت عن النظريّة الحديثة، فإنها لم تؤثر في النتائج لأنها تعليليّة وصفيّة، وينطبق ذلك أيضا على النظريّة الحديثة.

184- شرح ابن القاصح على الشاطبيّة : 34.

185- أجاز أبو عمرو بن العلاء ذلك النوع من الادغام.
معجم القراءات القرآنية : 1/ 143.

ولا نجد هذا النوع من الادغام عند الكسائي شيخ الفرّاء،ولا عند حمزة الزيات شيخ الكسائي.

واعتمادا على قرب المخارج عرض الفرّاء لصيغة الافتعال وما يطرأ عليها من إدغام بعض الحروف في التاء،وعرض لادغام الذال في التاء،[186] الأوّل من قول الله تعالى: [(فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرْ) القمر: 15/54] والثاني قوله تعالى [(إِنّي عُتُّ) الدخان : 19/44] فالادغام ظهر توجها عند علماء الكوفة تأثرا بالأسديين والتميميين من ناحية واتباعا لقراءات أهل العراق التي كان أشهر روادها : حمزة والكسائي وأبو عمرو بن العلاء، وعرف قراء الحجاز والشام ألوانا منه أيضا.

ومن الظواهر الصوتيّة واللغوية التي عرفها الكوفيون : الابدال الذي كان توجها صوتيّا أصيلا في البيئة الكوفية، وقد لفت الفرّاء النظر إلي هذه المسألة حين عرض لتفسير قول الله تعالى : [(وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ) التكوير : 11/81].

يقول : (وفي قراءة عبد الله "قشطت" بالقاف وهما لغتان. والعرب تقول : القافور والكافور، والقفّ والكفّ إذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال : جدفٌ، وجدَثٌ)[187].

وكان علماء النحو واللغة في الكوفة يأخذون بالشاهد الواحد أو القراءة الواحدة في الدراسة النحويّة التي تندرج ضمنها الدراسة الصوتيّة.[188] فلعّل ذلك الأمر قد جعل آراؤهم متنوعة سمحت

186- معاني القرآن : 107/3.

187- نفس المصدر : 241/3.

188- مدرسة الكوفة : 175.

بهذا التغاير والتمايز في الأحكام في صلب المدرسة نفسها،ومن ثمة إثراء البحث النحوي،واللغوي عموما،والصوتي منه خصوصا خاصة وأنّ الدراسة الصوتيّة قد اهتم بها القراء، فالكوفة موطن القراءة.

يقول برجستراسر : (كان علم الأصوات في بدايته جزءا من أجزاء النحو ثم استعاره أهل الأداء والمقرؤون، وزادوا فيه تفصيلات كثيرة، مأخوذة من القرآن الكريم)[189].

والفرّاء القارئ النحوي اللغوي،كان قد شارك في وضع أسس هذه الدراسة الصوتيّة،ولعلّه مثل فريق القراء والنحاة معا بآرائه من خلال مذهبه في عدّة مخارج الحروف التي خالف فيها الخليل وسيبويه معا[190]، وسمح لأهل الكوفة بأن يتميّزوا بمذهبهم في هذا الباب من الدراسة الصوتيّة التي هي أقرب إلى بيئة الكوفة بكثرة قرائها ووجود أهل الفصاحة فيها منها إلى بيئات أخرى،كانت تفتقد لما في البيئة الكوفيّة من إمتيازات في هذا المجال العلمي.

189- مدرسة الكوفة: 170.

190- شرح الرّضي على الشافية : 346.

الفصل الثاني :

علاقة الدّراسة الصوتيّة باللغة والنحو خاصة

سنحاول من خلال هذا الفصل،تبيان نوعيّة العلاقة التي تربط الدراسة الصوتيّة بالدراسة اللغوية والنحويّة،وكيف بلور اللغويون والنحاة هذا النوع من الدّراسة،خاصة ما كان من أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي ومن جاء بعده.

والمصادر التي وصلتنا تثبت ذلك حيث لم تكن الدراسة الصوتيّة بعيدة عن الدراسة اللغويّة والنحويّة.أو بمعزل عنها ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

أولا : أنّ الدّارس للغة يجب عليه معرفة حروف هجائها. واستقصاء نطقها،والالمام بمخارج حروفها تماشيا مع قواعد الدّراسة العلميّة لها،وعلى هذا الأساس كانت الدّراسة الصوتيّة في صلب الدراسة اللغويّة والنحوية بادئ الأمر.

ثانيا : يعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي أوّل من درس الأصوات في اللغة العربيّة دراسة علميّة.وكان يعتبرها من الدراسة النحويّة واللغويّة، وأخذها عنه تلاميذه في ذلك الإطار؛ والمطلع على كتاب سيبويه يلاحظ ذلك.

ثالثا : المتعارف أن الناطق بالكلام تعرض له أمور بحكم آلة النطق،وبحكم طبيعة الحروف التي تتآلف مع بعضها، مثاله عروض الادغام ،الذي كان مجال الدراسة اللغوية والنحوية.[1]

والناظر في كتاب العين.يلاحظ أن الخليل استطاع توظيف الدّراسة الصوتيّة في اللغة والنحو،واتبع سيبويه شيخه في كتابه. فكان يأخذ هذه الدراسة ويوظفها توظيفا لغويّا.[2] ولم يقتصر الخليل على

1- يراجع الفصل الأوّل من هذا الباب،فيما يتعلق بالادغام عند القراء وسيأتي بيانه عند اللغويين والنحاة.

2- مدرسة الكوفة : 169.

البحث في مخارج الحروف،وفي صفاتها كما انتهى إليه اليُونان والهنود. ولكنه استطاع أن ينتفع بها ويستفيد،ويفيد،فيبني عليها كثيرا من أصوله النحوية[3].

فبعد تقسيمه للحروف بحسب مخارجها،أخذ يعرض لصفاتها وحالاتها المختلفة حين تتمازج، كما نبّه إلى ما يتآلف مع غيره،وما لا يتآلف،فنعت بعض الكلمات في اللغة بالشناعة لعدم تناسق حروفها وصعوبة النطق بها مثل "الهعخع"[4]؛ التي لا تأتلف فيها الهاء والعين في كلام العرب، إذا تتابعتا دون فاصل بينهما[5]. وكان الخليل يرى أن القاف والكاف تركيبهما معقوم،لقرب مخرجيها.[6]

أمّا كتاب سيبويه فقد حوى آراء متعددة نقلها في معظمها عن الخليل ابن أحمد الفراهيدي،ثم توصل فيما بعد إلى جملة من الآراء الأخرى بعد نظر في اللغة العربية. فمّما ورد في الكتاب متعلقا بالدراسة الصوتية الموظفة في الدراسة اللغوية والنحوية، دراسات تتصل بالأصوات اللغوية، وصفاتها وخصائصها،وما يتصل بذلك من دراسة تأثر بعض الأصوات ببعض حين تتجاور وتتآلف، وفيه دراسات تتعلق بالظواهر اللغوية العامة، كالادغام والابدال، ممّا ينبني على ما بين الأصوات من تآلف وتنافر[7].

ولنبدأ هذا الفصل بالبحث في علاقة الدراسة الصوتيّة بالدراسة اللغويّة والنحويّة.

3- نفس المرجع : 169.

4- الجمهرة : 9 - المزهر : 116/2.

5- لسان العرب : حر ف القاف، 3/10.

6- مدرسة الكوفة : 169.

7- مجلّة كليّة الاداب والعلوم : العدد 2 جوان 1957 -مقال للدكتور مهدي المخزومي من ص 89←98. انظر تحديدا : ص : 96.

علاقة الدّراسة الصوتيّة بالدراسة اللغويّة والنحويّة
(المعاجم مثالا)

الواقع أن الباحث في هذا المجال يجد نفسه مضطرّا للرجوع إلى المعاجم اللغويّة،سواء فيما يتعلق منها بالألفاظ أو ما يتعلق بالمعاني، غير أن ما كان منها قائما على خطة صوتيّة،هو الذي يكون الاعتماد عليه أكثر في هذا المبحث[8].

وأوّل معجم بناه صاحبه متبعا فيه خطة صوتيّة هو كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي،ثم تلاه كتاب الجمهرة لابن دريد،الذي اتبع فيه صاحبه منهجا معجميّا أكثر تعقيدا من منهج الخليل[9]. يلاحظ ذلك من خلال تقسيمها لمخارج الحروف؛فلنبدأ بتقسيم الخليل :

1- خمسة أحرف حلقيّة لأن مبدأها من الحلق وهي : ع،ح،هـ،غ،خ.
2- حرفان لهويان لأنّ مبدأهما من اللهاة وهما : ق . ك.
3- ثلاثة أحرف شجريّة،لأنّ مبدأها من شجر الفم،أي مفرج الفم وهي : ج،ش،ض.
4- ثلاثة أحرف أسليّة لأنّ مبدأها من أسلة اللسان،أي مستدق طرفه وهي : ص،س،ز.
5- ثلاثة أحرف نطعيّة لأنّ مبدأها من نطع الغار الأعلى،وهي: ط،ت،د.
6- ثلاثة أحرف لثويّة لأنّ مبدأها اللّثة وهي : ظ،ذ،ث.
7- ثلاثة أحرف ذلقيّة لأنّ مبدأها من ذلق اللسان،وهي: ر،ل،ن.
8- ثلاثة أحرف شفويّة لأنّ مبدأها من الشفة.وهي : ف،ب،م.
9- أربعة أحرف هوائيّة لا يتعلق بها شيء.وهي : وايء[10]. واو المدّ،وألف المد،وياء المدّوالهمزة.

8- المخصص : 10/1.
9- الجمهرة : 18/1.
10- العين : 57/1ـ58.

وإذا ما قارنا هذا التقسيم والترتيب بما وضعه ابن دريد في الجمهرة[11]، نجد اختلافا مقصودا.

فإذا كان الخليل قد اتبع ترتيب مخارج الحروف، بحسب مواضعها وموقعها من آلة النطق ابتداء من أقصى الحلق. مرورا باللسان، وانتهاء إلى الشفتين. فإنّ ابن دريد قد ذكر نوعين من الترتيب اعتمد في الأول على صفتي الاصمات والاذلاق، واعتمد في الثاني على ترتيب سيبويه الذي خالف فيه شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي في تحديده لمخارج بعض الأحرف.

فيبدأ ابن دريد في ترتيبه، بالحروف المصمته ويقسمها إلى خمسة أقسام :

1- حروف الحلق : الهمزة. والهاء ،والحاء ،والعين. والخاء ،والغين.
2- حروف أقصى الفم من أسفل اللسان : القاف، والكاف، والجيم، والشين.
3- حروف وسط اللسان ممّا هو منخفض : السين، والزاي، والصاد.
4- حروف أدنى الفم : التاء، والطاء، والدال.
5- حروف أدنى من سابقتها ممّا هو شاخص إلى الغار الأعلى: الظاء والثاء، والدال، والضاد.[12]

ثم ذكر بعد ذلك الحروف المذلقة وصنفها صنفين :

1) حروف الشفة : الفاء، والميم، والباء.

2) حروف مما بين أسفل أسلة اللسان إلى مقدم الغار الأعلى :

11- الجمهرة : 21/1.
12- نفس المصدر : 21/1.

الراء. والنون، واللام[13]. المتمعن يلاحظ في هذا التقسيم الأول أن ابن دريد لا يخفى ملامح الخطة المعجميّة التي اتبعها. لأنّ المفردات في اللغة خاضعة بصورة شاملة لقاعدة الاصمات والاذلاق، فإنه يمتنع انفراد الحروف المصمته[14] أصولا في الكلمات الرباعيّة، أو الخماسيّة؛ فلا بدّ من وجود حرف أو أكثر من حروف الاذلاق، في مثل هذه الكلمات، وإلاّ فإنّ الكلمة أو المفردة غير عربيّة[15].

أمّا الترتيب الآخر الذي يذكره ابن دريد عن قوم من النحويين، -خاصة سيبويه- ففيه سته عشر مخرجا رتبها كالتالي:

1) الهاء والهمزة والألف. 2) العين والحاء. 3) الغين والخاء. 4) القاف والكاف. 5) الجيم والشين. 6) الياء. 7) الصادوالزاي والسين. 8) النون. 9) اللام. 10) الراء. 11) التاء والدال والطاء. 12) الفاء. 13) الواو والياء والميم. 14) النون الخفيفة (الخيشوميّة). 15) الظاء والدال والثاء. 16) الضاد.[16] وهذا الترتيب الثاني اعتمد فيه ابن دريد على تقسيم الحلق إلى ثلاثة مواضع أقصى ووسط وأدنى، وقسم اللسان كذلك إلى عدّة أقسام يبدو أنه اختلف جزئيّا مع غيره من أهل القراءات والأداء في ذلك[17].

13- الجمهرة: 21/1.

14- الحروف المصمته تجمع في قولهم: (جز غض ساقط صدّ ثقة إذ وعظه يحظك،) أمّا الحروف المذلقة فهي مجموعة في قولهم (فرّ من لب). تنبيه الغافلين وارشاد الجاهلين: 26 - 27.

15- حق التلاوة: 98 - 99.

16- الجمهرة: 22/1.

17- يُرجع إلى: كتاب الاقناع في القراءات السبع: 171/1 - 172 - 173.

لكن ابن دريدوظف هذا التقسيم توظيفا مستساغا،فبالنسبة للتقسيم الثاني وظفه فيما أسماه الخفة والثقل.فالحروف عنده إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت،متبعا في ذلك ما لاحظه الخليل[18]؛ لكن ابن دريد وظف مع ذلك تقسيمه الذي بناه على الذلاقة والاصمات،فهو يرى أنّ اللسان إذا استعمل حروف الحلق دون حروف الفم ودون حروف الذلاقة كلفه ذلك جرسا واحدا أو حركات مختلفة،والدليل على ذلك أن الحاء تتحول في بعض الألسنة هاء[19]؛ أمّا النظريّة الصوتيّة التي يعتمدها ابن دريد فهي تتمثل في تغليب صفة الحرف الأقوى على الحرف الأضعف[20]؛ وذلك دأب القدامى قبله وبعده.يقول : (ومما يدلك أنهم لا يؤلفون الحروف حتّى يصيّروا الأقوى منهما مبتدأ على الكره منهم،وربما فعلوا ذلك في البناء الأصلي)[21]. ولم يقتصر فعلهم ذلك على بناء واحد بل استعملوه في بناءين؛مثاله إبدال اللام لتصير مثل الراء في قوله تعالى : [(الرَّحْمَانِ الرَّحِيم) الفاتحة : 2/1.] ومثال ما فعلوه في بناء واحد كإبدال الصاد زايا فقرئ : [(حَتَّى يُزْدِرَ الرِّعَاءُ) القصص:23/28][22]، وقرئ : [(اِهْدِنَا الزِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

18- انظر:كتاب العين : 57/1.

19- الجمهرة : 9/1.

20- النظريّة العلميّة السائدة هي ما يعبّر عنه "بمبدأ النزوع إلى المجهود الأدنى" وقد سبق بيان ذلك في الفصل السابق.

21- الجمهرة : 12/1.

22- قرأ باشمام الصاد زايا : حمزة والكسائي ورويس وخلف.وقد ورد في املاء العكبري أنّ قراءة الصاد زايا واردة.ولم تنسب لأحد.
يراجع في ذلك املاء العكبري : 96/2.

الفاتحة6/1][23]، بإشمام الصاد زايا وهذا من تأثير تقارب المخارج وتباعدها[24]، وسيأتي بيان أمثلة من ذلك في موضعه إن شاء الله.

ومن المسائل الهامة التي بدا فيها عمل علم الأصوات أو الدراسة الصوتية متصلا بالدراسة اللغويّة، هي الخطوة الأولى التي خطاها الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره من اللغويين والنحاة في حصر عدد الحروف العربية المعتمدة التي لها مخارج محققة[25]. وفي مثل هذا العمل كان الاعتماد على السماع، وتم الاجماع حول حصر الحروف العربيّة في تسعة وعشرين حرفا اعتبرت أصولا[26]، وتكون هذه الحروف خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار[27]. وتكون هذه الحروف على قول سيبويه اثنين وأربعين حرفا، بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيّته، ولا تحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر[28]. وقد صنف ابن دريد وعدد حروفا، لا تتكلم العرب بها إلاّ ضرورة، مثل الحرف الذي بين الباء والفاء[29]؛ ومن هذا المنطلق كانت

23- قرأ باشمام الصاد زايا (أي بين الصاد والزاي) حمزة وأبو عمرو وخلف وخلاّد والدوري وغيرهما وقرأ بإبدال الصاد زايا حمزة وأبو عمرو.
معجم القراءات القرآنية : 11/1.

24- الجمهرة : 12/1.

25- المخارج نوعان : محقق ومقدر. المنح الفكرية : 7.

26- الكتاب : 431/4.

27- نفس المصدر : 432/4.

28- نفس المصدر : 4/ 433
هذه الحروف هي : الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء، والباء التى كالفاء. ولا تبين هذه الحروف إلاّ بالمشافهه.

29- الجمهرة : 41/1-42.

القراءات القرآنية حجّة،وكذلك الشعر، حيث اعتمدا في اعتبار المستحسن والمستقبح من الحروف.

وفي الكتاب،[30] ذكر سيبويه هذه الحروف واعتبرها ممّا يستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي : النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والسين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم يعني لغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة.(بتغليظ اللاّم).

وهذه الحروف لم يستثن أهل الأداء منها إلاّ السين التي كالجيم،[31] فقد أطلق علماء التجويد على هذه الحروف، الحروف المشربة،أي المختلطة،[32] ويبدو أن ما ذكره سيبويه في الكتاب قد أعيد النظر فيه من قبل القراء مع مقارنته بأوجه القراءات وأحكامها فما كان موافقا اعتبروه في تصنيف الحروف المستحسنة وما كان منافرا ردّوه وحكموا عليه بالضعف.

ومن الأمور التي تفطن إليها ابن دريد مستثمرا وموظفا الدراسة الصوتية ؛ ما لاحظه من أنّ أكثر الحروف استعمالا عند العرب

30- الكتاب : 4/ 432.

31- وافق مكي بن أبي طالب سيبويه في إضافة النون المخفاة،لكنّ الصفاقسي لم يوافقه، معللا ذلك بأن النون المخففة لا تخرج عن كونها نونا. والأرجح أن قول سيبويه ومكي هو الأصلح لأن مخرج الغنة هو الخيشوم وهو مخرج مقدر. تنبيه الغافلين : 30.

32- نفس المصدر : 29.

33- الجمهرة : 12/1.

الواو والياء والهمزة، وأقل ما يستعملون لثقلها على ألسنتهم الظاء ثم الدال ثم الثاء، ثم الشين، ثم القاف، ثم الخاء. ثم الغين، ثم النون، ثم اللام، ثم الراء. ثم الباء، ثم الميم، فيكون أخف هذه الحروف كلها هو ما استعملته العرب في أصول أبنيتهم من الزوائد لاختلاف المعنى[33]. ولم يعلل ابن دريد ذلك واعتمد على السماع لوصف هذه الظاهرة، وهي ثمرة الانخراط في عمل معجمي يضاهي كتاب الجمهرة.

ولعلّ أبرز ما نخرج به من هذه المقدمة المتنوعة أن توظيف الدراسة الصوتيّة في الدراسة اللغويّة والنحويّة قد تطوّر شيئا فشيئا، وإذا كانت المعاجم تعكس بصورة أدق هذه العلاقة فإنّ كتب النحو واللغة الأولى أصدق شاهد على ذلك.

وللتدليل على ما نقول؛ سنحاول عرض بعض المصادر في اللغة والنحو لاستجلاء حدود هذه العلاقة وكيف وظفها اللغويون، وعلاقة ذلك باختلاف أوجه القراءات السبع، مراعين في هذا العرض الترتيب الزمني لأهمّ المصادر المعتمدة. وقد رُتّبت دراسة هذه المصادر في شكل مباحث جزئية.

33- الجمهرة : 12/1.

المبحث الأوّل :
علاقة الدراسة الصوتيّة باللغة والنحو
من خلال كتاب سيبويه.

وإن كنا قد تحدثنا فيما سبق عن كتاب سيبويه، فقد رأينا أنّ البحث يجرنا للعودة للحديث عنه مرّة أخرى لأهميّة هذا السفر، إذ يعتبر أول المصادر اللغويّة والنحوية، كما أنه يعكس عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي -في الصوتيات المعبر عنها بالمخارج-،[34] وسيبويه تلميذه الذي نقل هذه المسائل وهذبها ورتبها وجمعها.

فقد اهتم الكتاب كما سبق ذكره بعدة الحروف العربية، ومخارجها، واهتم بالادغام المتعلق بالحروف المتقاربة والحروف المتماثلة، واهتم بالاقلاب. وبصفات الحروف، عارضا إيّاها عرضا مدققا مفصلا[35].

فمما أورد سيبويه في الكتاب[36] ، أن أحسن الادغام ما يكون في الحرفين المتحركين اللذين هما سواء إذا كانا منفصلين. والغالب أن الكلمة التي تتوالى فيها الحركات أكثر، يكون الادغام فيها أحسن.[37] مثالة [جعل لك] و[فعل لبيد]. فإنه يعلق على ذلك بقوله : (وهذا عربي جيّد حجازيّ)[38]. ولم يقف عمل سيبويه في الكتاب عند حدّ الرواية ووصف الظواهر اللغوية العربية بل حاول أن يعلل أسباب الادغام وأسباب

34- مجلة كلية الآداب والعلوم ببغداد، مقال بعنوان : الكتاب : د/مهدي المخزومي : 94. عدد 2، جوان : 1957م- مطبعة الرابطة.

35- الكتاب : 4/434-436.

36- نفس المصدر : 4/437.

37- تحدث سيبويه عن الادغام في كلمة، وعن الادغام في كلمتين.

38- الكتاب : 4/437.

استحالته في بعض المواقف فيكون الاظهار بدلا منه،ومن أمثلة ذلك : الهمزة، فهي من الحروف التي لا يدغم فيها مقاربها ولا تدغم في مثلها لأنّ العرب تستثقلها وحدها فكيف بها إذا اجتمعت مع همزة أخرى، فإن العرب تغيّرها، أو تحذفها عادة[39].

ومن الحروف المتقاربة المخارج التي استعرضها سيبويه والتي لا تدغم في بعضها[40]، الفاء والباء وتعليله لذلك : أنّ الباء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا منحدرة إلى الفم مقاربة لمخرج الثاء، فلما صارت مضارعة للثاء لم تدغم في حرف من حروف الطرفين، كما أنّ الثاء لا تدغم فيه[41]؛ والباء قد تدغم في الفاء للتقارب مثاله : [اعرف بدرا] لا يجوز فيه الادغام. ومن الأمثلة الأخرى الراء، فهي لا تدغم في اللام ولا في النون، لأنها مكررة وهي تفشى إذا كان معها غيرها، فكرهوا أن يجحفوا بها فتدغم مع ما ليس يتفشى في الفم مثلها ولا يكرر. وذكر سيبويه الشين، فبيّن أنها لا تدغم في الجيم لاستطالة مخرجها بسبب رخاوتها حتى اتصل بمخرج الطاء فصارت منزلتها منها، نحوا من منزلة الفاء مع الباء[42].

وتعليل الادغام في الحروف المتقاربة أورده سيبويه في الكتاب؛

39- نفس المصدر : 446/4.

40- خالف الكسائي القراء والنحاة فقرا بالادغام من قوله تعالى : [(إِن نَّشَأْ نَخْسِف بِّهِمْ) سبأ : 9/34].
ووجهه أنها من حروف الشفة وأنّ الباء مجهورة، والفاء مهموسة. الاقناع : 177/1

41- أدغم أبو عمرو والكسائي بلا خلاف عنهما، وخلاد وهشام بخلاف عنهما في خمسة مواضع من القرآن.
الاقناع : 262/1.

42- الكتاب : 448/4.

فمن ذلك الهاء مع الحاء، والعين مع الهاء، فإنه يجوز فيهما الادغام والاظهار، واظهارهما أولى، لأن حروف الحلق ليست أصلا للادغام لقلتها، وبنو تميم يدغمون العين في الهاء في مثل: (معهم) فتصبح (مَحُّمْ)[43].

هذا قليل من كثير في هذا الجانب أردنا الإشارة إليه، والكتاب جميعه ثريّ بمثل هذه الأمثلة والدراسات والتعليلات.

وأمّا الجانب الثاني من توظيف الدراسة الصوتية في الدراسة اللغوية فيتعلق بصيغ الكلمات وأوزانها أو بالأحرى الدراسة الصرفية، التي لم تكن منفصلة عن الدراسة النحوية. ومن هذا المنطلق كانت جملة من الدراسات في الكتاب تبحث في أصول الكلمات، وما يطرأ على هذه الأصول من زيادة يتطلبها المعنى الذي قصد إليه المتكلم؛ ومن حذف يتطلبه الاستعمال للسهولة والتخفيف. فمن ذلك: إسقاط بعض الحروف، أو استعمال الابدال، أو التخفيف، أو التسهيل بحسب ما يتناسب مع الذوق العربي السليم.[44] ومثاله في الاستعمال، ما دأب عليه العرب من تغيير حرف العلة، طلبا للتخفيف، إمّا بقلبه، أو بتحويله إلى حرف علة آخر، أو بنقل حركته إلى الحرف الصحيح الساكن قبله، أو غير ذلك من الأوجه.. وهو ما يسمى بالاعلال، وعبّر عنه سيبويه في الكتاب بالاعتلال؛ مثاله قوله: (هذا باب تقلب الواو فيه ياء لا لياء قبلها ساكنه، ولا لسكونها وبعدها ياء)[45]، مثل قُمْتُ قِيَامًا فقلبت لأنها كانت معتلة في الفعل. مثلما قلبت الواو ياء في ديَّارٌ وقيّامٌ، وإنما كان الحد قَيْوَامٌ وَدَيْوَارٌ، وقالوا:

43- نفس المصدر: 450/4.

44- مدرسة الكوفة: 178.

45- الكتاب: 360/4.

قَيُّومٌ وَدَيُّورٌ،وإنما الأصل قَيْوُومٌ ودَيْوُورٌ لأنهما على وزن فَيْعَالٍ وفَيْعُولٍ.[46] ومثاله من قلب الواو ياء قول العرب في:(مَيْتٌ وهَيْنٌ ولَيْنٌ) فإنهم يحذفون العين -عين الفعل- كما يحذفون الهمزة من هائر. لاستثقالهم الياءات[47].

ومن عادة العرب فيما يتعلق بالقلب؛أنهم يقلبون الواو الأولى تاء إذا اجتمع واوان في أول الكلمة فتصير همزة كما في (أويصل) تصغير واصل.فالقياس يقتضي أن يكون تصغيره على (وُوَيْصِل،كفُوَيْصِلْ.وصُوَيْلِح من فاضِل وصالِح)[48].

فهذه العمليات الصوتية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحروف الصائته أو ما يسمى بحروف المد واللين،وهذا كله في بنية الكلمة العربية والأصول التي بنيت عليها.

فعلى الرغم من أن القدماء لم يعنوا بهذه الأصوات العناية الكافية، وهي التي أثرت في اختلاف اللهجات العربية.[49] إلاّ أنّ حفاظهم على أوجه قراءتها في القرآن قد حفظ من قبل القراء وأشار إليه اللغويون والنحاة وعلماء التجويد،مثاله مدّ البدل ومد اللين في قراءة ورش عن نافع.

ومن أهمية حروف اللين والمد أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي بنى عليها نظرية في كيفية بناء الكلمة وتأليفها،فعنده تتآلف الكلمات بضم

46- نفس المصدر : 366/4.
47- نفس المصدر : 366/4.
48- مدرسة الكوفة : 179.
49- نفس المرجع : 179.

بعض الأصوات الساكنة إلى بعض،ولا يستطيع المتكلم النطق بها إلا باستخدام حروف اللين،أو بالحركات التي هي أبعاض حروف اللين. ولم يخالف الخليل في ذلك أحد من الكوفيين[50]؛ بل نسجوا على منواله ولم يخالفوه إلاّ في جزئيات من الدراسة اللغوية التي خلت من تأثير الدراسة الصوتيّة*.

ومع هذا الذي ذكر في الدراسة اللغوية في الكتاب وعلاقتها بالدراسة الصوتية فإنّ الدراسة النحوية نفسها قد امتزجت بألوان من الدراسة الصوتية لأنّ المتأمل في الكتاب يجده موسوعة لغوية ونحوية وصوتية لم يسبق لها مثيل. فقد تناول سيبويه حروف الهجاء حرفا حرفا ودرس جميع الظواهر اللغوية في اللغة العربية. حتى بدا مرجعه هذا أهم الكتب ومحل الثناء عليه والتنويه بشأنه من قبل كلّ من قرأوه أو شرحوه.

كانت الدراسة النحوية تهتم بالجملة وبالكلام. وعلي هذا الأساس قسم النحاة الكلام إلى ثلاثة أقسام. اسم،وفعل،وحرف. وبحثوا في أقسام الأفعال وأقسام الاسماء،وأنواع الحروف،ووظيفتها في الجملة،واهتموا بالحذف الذي يقع للأفعال في بعض أقسامها،مثل الأمر في مواضع، وحاولوا تعليل ذلك وربطوه بمبدإ الاستثقال،والاستعمال،والاستخفاف[51]. واهتم الكتاب بعلامات الاعراب،على أساس أنها أصوات لها معاني

50- مدرسة الكوفة : : 183

* اختلف الكوفيون مع الخليل في أبنية الكلمات،مثلا عندهم ان أصل البناء لا يقل عن ثلاثة أحرف ولا يزيد.
العين : 1/2-3 . شرح الرضي على الشافية الكافية : 19

51- مدرسة الكوفة : 238.

أساسية في الكلام ،كما اهتم النحاة بالعوامل،وربطوها بالظواهر اللغوية[52].

لا شك أن الصلة وثيقة بين الدراسة الصوتيّة والدراسة النحوية، لأنّ الدارس لوظائف الحروف لا يمكن أن يفصل بين ماهية الحرف والغاية من الاتيان به في الكلام،وما يترتب عن ذلك من أحكام[53] نحوية ولغوية عامة. فدراسة النحاة مثلا لـ (أل) من حيث التركيب،روعي فيها وظيفتها، باعتبارها أداة تعريف الاسم وباعتبارها حرف تعريف. ودرسوا همزتها واعتبروها همزة وصل،وبحث سيبويه في الكتاب في الحروف التي تدغم لامها فيها،ثم بحث في وظيفتها،فاعتبرها حرفا بمنزلة قد وسوف. وبحث في كيفية حذفها وسببه،وتناولها من جميع الجوانب التي يمكن أن تدرس بها منها[54].

كما اهتم الكتاب مثلا بدراسة الامالة دراسة ضافية،وبيّن أنها تخرج عن القياس،وعرض لما جاء منها شاذا،وبحث في منع حروف الاستعلاء لهاإذا كانت سابقة وحدد أنواع الامالات وربط في جمعه للمسائل النحوية بينها وبين الجوانب الصوتية[55]. وفي دراسته لحرف التاء،بحث في كل ما يتعلق بالمخرج والصفة،والادغام والابدال،ثم بحث في تاء التأنيث

52- مدرسة الكوفة : 260.

53- الحكم النحوي ينقسم إلى : واجب،وممنوع،وحسن،وقبيح،وخلاف الأولى،وجائز على السواء، فالواجب كرفع الفاعل وتأخيره عن الفعل، ونصب المفعول .. والممنوع كأضداد ذلك، والحسن كرفع المضارع الواقع جزاء بعد شرط ماض والقبيح كرفعه بعد شرط المضارع وخلاف الأولى كتقديم الفاعل في نحو : "ضربَ غُلامَهُ زيْدًا." والجائز علي السواء كحذف المبتدأ أو الخبر وإثباته،حيث لا مانع من الحذف ولا مقتضى له.
السيوطي : جلال الدين، كتاب الاقتراح في علم أصول النحو : 29،ط1،جروس برس. 1408هـ/1988م.

54- الكتاب : 97/2، 226/4، 147/4، 357/4.

55- الكتاب : 287/3، 125/4-127-128، 131/4.

وعلاقتها بالاسم والفعل واسم الفعل وبحث في كيفية الوقف عليها بالهاء وخلافه،وصنفها إلى تاء خطاب،وتاء قسم،وأجمل في تفصيل أحوالها[56]. ولم يكن مرادنا عرض ما في الكتاب لمثل هذه المواضيع. وإنما الغاية من ذلك التدليل على الصلة الصوتية بالدراسات اللغوية والنحوية.

56- الكتاب : 433/3، 166/4، 217/4، 218/4، 167/4

المبحث الثاني :

علاقة الدراسة الصوتية بالدراسة اللغوية من خلال كتاب معاني القرآن للفرّاء.

الناظر في كتاب معاني القرآن للفراء يلاحظ أنه كتاب قراءات، وتفسير وإعراب ولغة ونحو،وإن كان غير مبوب،إلاّ أنه هام يغلب عليه جانب التفسير، والذي تجب ملاحظته هو أن الفراء لا يدخر جهدا في إبراز المبحث اللغوي، أو النحوي،أو الصوتي، بحسب ما يقتضيه المقام. لأجل ذلك سيكون العمل من خلال معاني القرآن،اعتمادا على بعض الأمثلة المناسبة، لأن خطة الفرّاء كما ذكرنا تعتمد علي تتبع الآيات القرآنية ومحاولة جمع المادة العلمية المناسبة من كلام العرب ومن أقوال العلماء وآرائهم حول الموضوع المطروح في كلّ مرة. مع إبداء الرأي وتبني موقف من داخل بناء مدرسة الكوفة اللغوية والنحوية. ونجد الفراء يحتج بالقراءات ويعتبرها من حجج الكتاب وهو أقوى عنده وأعرب في الحجّة من الشعر[57]. ومما يؤكد أهمية هذا المصدر من الناحية اللغوية والنحوية اعتماده علي لغات العرب مشهورها وشاذها ومقارنته بينها واختيار الوجه المناسب مع استعراض اللهجات المختلفة وتعليل ذلك كلما أمكن[58]. فهو يستشهد بلهجة بني أسد وتميم وغيرهما وينتصر في الغالب للهجة بني أسد ويسندها بالقراءة.

57- معاني القرآن : 14/1.

58- نفس المصدر : 41/1- 274/3.

ومما تحدث الفرّاء عنه إبدال الفاء بالثاء، وابدال القاف بالكاف[59]، كما تحدث عن الادغام، والاظهار، والابدال، واحتج بالقراءات وبأوجه اللغة العربية وبرسم المصحف[60]. لكن إفادته من الدراسة الصوتية البصرية لم تكن واضحة في معاني القرآن وضوحها في كتاب سيبويه، ذلك لأنّ الكتاب عمل تجلت فيه الصناعة النحوية، بينما كان معاني القرآن أقرب إلى كتب التفسير منه إلى كتب الصناعة النحوية، بالمعنى المعروف لدى أهل الاختصاص.

ولعلّ كتاب الحدود الذي لم يصلنا قد حوى آراء الفرّاء في هذا الجانب، الذي وإن حوى البعض منها كتاب معاني القرآن، فإن توظيف الدراسة الصوتية في الدراسة اللغوية والنحوية لم يظهر إلاّ قليلا، وللتدليل على ذلك نورد بعض الأمثلة :

(*) في تفسير الفرّاء لقول الله تعالى:[(يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) البقرة : 20/2.]

يقول : والقرّاء تقرأ "يَخَطِّفُ أَبْصَارُهُمْ"[61] بنصب الياء والخاء والتشديد. وبعضهم ينصب الياء ويخفض الخاء ويشدد الطاء فيقول "يَخِطِّفُ"[62] وبعضهم يكسر الياء والخاء ويشدّد فيقول : "يِخِطِّفُ"[63].

59- نفس المصدر : 90/1.

60- نفس المصدر : 90/1.

61- قرأ به الحسن، وعاصم الجحدري وابن ابي اسحاق. معجم القراءات القرآنية : 34/1.

62- قرأ به الحسن، والاعمش. نفس المرجع : 34/1.

63- أورده صاحب البحر المحيط : 90/1- والرّازي في تفسيره : 202/1 والفرّاء في معاني القرآن : 18/1.

ثم يعلّل الفرّاء هذه الظواهر اللغوية فيقول : (فأمّا من قال : "يَخطِّفُ" فإنّه نقل إعراب التاء المدغمة إلى الخاء إذ كانت منجزمة، وأمّا من كسر الخاء فإنه طلب كسرة الألف التي في اختطف والاختطاف[64]، وأمّا من جمع بين الساكنين فإنه كمن بنى علي التبيان -أي الاظهار- إلاّ أنه إدغام خفي)[65]. فهذه الأوجه بينها الفرّاء وعللها اعتمادا على الدراسة الصوتية واللغوية.

(*) في تفسير قول الله تعالى :[(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ). آل عمران : 2/3] يقول الفرّاء:[(الحَيُّ القَيُّومُ) قراءة عامة، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القَيَّامُ) وصورة القيّوم : الفَيْعُولُ، القَيَّامُ:الفَيْعَالُ وهما جميعا مدح، وأهل الحجاز أكثر شيئا قولا : الفيعال من ذوات الثلاثة. فيقولون للصَّوَّاغ : الصَّيَّاغُ)][66].

لقد وقعت المحافظة على صيغة العبارة كما وردت في كتاب معاني القرآن، لملاحظة جملة من الملاحظات المنهجية في النحو والقراءات مقارنة بما أورده سيبويه في الكتاب :

- فيما يتعلق بالقراءات يلاحظ تمييز الفرّاء بين صنفين من القراءات على الأقل، فقراءة العامة يقصد بها القراءة الشائعة، أو المتواترة.

- يلاحظ أن استخدام الأوزان معمول به في الكتاب وفي معاني القرآن لكن استعمال الكتاب أوسع وأشيع، لعلّه بسبب اختصاص

64- قال بعض النحاة في (يخِطِّف) إنما كسرت الخاء لأنها سكنت الطاء بعدها، التقى ساكنان فخفضت الأول. وقد فنّد الفراء هذا القول.
معاني القرآن : 18/1.

65- نفس المصدر : 18/1.

66- نفس المصدر : 190/1.

الكتاب بتلك المسائل. لكن الملاحظ هو أنّ التعبير عن الوزن مختلف، ففي الكتاب يقول:قيّوم من فَيْعُول وفي معاني القرآن يقول "وصورة القيوم" فلم تتبلور بعد مصطلحات علم التصريف بالمعنى المتعارف عليه ولم يستقل بالتأليف.

- أنّ الكتاب يدرج هذا المبحث ضمن الاعتلال أو ما يسمّى بالاعلال،ويبين سبب القلب -قلب الواو ياء- بينما يكتفي الفرّاء بذكر ذلك واعتماد السماع.

(*) وفي تفسير : [قول الله تعالى : "كَانَ يَؤُوسًا" الاسراء : 17/ 83] يقول الفراء :(إذا تركت الهمزة من قوله (يؤوسا) فإن العرب تقول يَوْسًا وَيَوْوْسًا.يجمعون[67] بين ساكنين،وكذلك [(وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا) البقرة : 255/2.] وكذلك (بِعَذَابٍ بَئِيسٍ) يقول:بَيْسٍ و(بَيْيْسٍ) و(يَؤُوده) يجمعون بين ساكنين. فهذا كلام العرب : والقراء يقولون: (يَوُوسًا) و(يَوُودُهُ) فيحركون الواو إلى الرفع و(بَيِيْسٍ) يحركون الياء الأولى إلى الخفض. ولم نجد ذلك في كلامهم، لأن تحريك الياء والواو أثقل من ترك الهمزة، فلم يكونوا ليخرجوا من ثقل إلى ما هو أثقل منه[68]).

إنّ ما أورده الفرّاء فيما يتعلق بالساكنين في هذا الموضع قد تفرّد به؛وعلى الرغم من هذا التفرّد فإن تعليله لا يخفي موافقة الفرّاء لمبدإ النزوع إلى المجهود الأدنى أو التخفيف كما عبّر عنه القدامى من

67- قال المحقق : أي إذا حذفت الهمزة خلفتها واو ساكنه فتجتمع ساكنة مع الواو الأولى. وهذا الراي من الفرّاء لا يعرف لغيره.
معاني القرآن : 130/2.

68- نفس المصدر : 130/2.

اللغويين والنحاة وهذا ما يهمنا من الاستشهاد بهذا المثال في هذا الموضع.

(*) وفي تفسير قول الله تعالى : ["وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا". النبأ : 28/78] يقارن الفرّاء بين القراءات فيروي قراءة على بن أبي طالب بالتخفيف (كِذَابًا) وهي التي قرأ بها الكسائي أستاذه[69]، ويروي من روى بالتثقيل وهم: عاصم والأعمش وأهل المدينة والحسن البصري. (كِذَّابًا) وهي لغة يمانية فصيحة على وزن (فَعَّلْتُ) مصدرها (فِعّال) وتعليل الفرّاء أن كذبوا يقيّد الكذاب بالمصدر.[70]

هذا المثال أردنا أن نبرز به صلة الدراسة اللغوية المرتكزة على السماع بالدراسة الصرفيّة،ثم بالدراسة النحوية،وبالتالي تظهر الصلة وثيقة بين كل هذه الأنواع من الدراسة فقد كانت بحق ميسرة لمزيد التهذيب والتنقيح والجمع والمقارنة والتأصيل،وهذا ما سيبرز من خلال ما ألف في القرن الثالث والرابع والخامس الهجري.

(*) في تفسير قول الله تعالى : [«وَهُمْ يَخِصِّمُونَ» يسٓ: 36/49]

استعرض الفرّاء في تفسيره لهذه الآية أنواع القراءات الواردة بشأن كلمة (يخصمون)،المتواتر والشاذ،وهي : (يَخْصِمُونَ) قرأها كذلك يحي بن وثّاب[71] وحمزة بن حبيب الزيات.

وقرأها عاصم (يخصّمون) بنصب الياء وبكسر الخاء ، ثم بيّن

69- كان الكسائي يقرأ : [(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا) النبأ : 35/78] لأنها ليست مقيدة بفعل يصيرها مصدرا.
معاني القرآن : 229/3.

70- نفس المصدر : 229/3.

71- ترجمته في : غاية النهاية : 2/ 380.

الفرّاء جواز نصب الخاء من (يَخَصِّمُونَ) وهي قراءة ورش عن نافع وقراءة ابن كثير وغيرهما[72]، ويعلل الفرّاء الفتح بأن التاء كانت منصوبة فنقل إعرابها إلى الخاء، والكسر أكثر وأجود عنده. ثم أورد قراءة أهل الحجاز[73] التي فيها ما يسمّي عند علماء التجويد بالاختلاس[74]، وهو تسكين الخاء من (يَخْصِّمُونَ) وتشديد الصّاد ثم الجمع بين ساكنين[75]، ويحتجّ الفرّاء لمن يشدّد الصّاد بقراءة أبيّ ابن كعب فقد قرأ (يَخْتَصِمُونَ)[76]، فالقراءات الشاذّة عند الفرّاء وعند أستاذه الكسائي حجّة مقدمة على الشعر لأنها من أدلّة الكتاب وهذا الاتساع في الاستشهاد بالشّاذ سمح لمدرسة الكوفة بثراء شواهدها واتساع أوجهها اللغويّة والنحويّة.

ومن خلال ما سبق ظهر واضحا تدرج الفرّاء من استعراض القراءات،ومحاولة تعليل الأوجه اعتمادا على الصوتيّات، ثم البحث بعد ذلك في الوجه اللّغوي ثم النحوي. وهذا المنهج ليس مطردا في الترتيب بين مختلف المراحل والالتزام بها،لكنّه عامّ في كتاب معاني القرآن.

72- قرأ بفتح الخاء أيضا جملة من القراءهم : أبو عمرو البصري وقالون وهشام والحلواني وابن محيصن والحسن والاعرج وشبل ويعقوب والاعمش...
معجم القراءات القرآنيّة : 210/5.

73- تنسب قراءة الاختلاس من فتحة الخاء إلى ابي عمرو وقالون والدّوري والسوسي.
نفس المرجع : 211/5.

74- الاختلاس، وهو اسراع بالحركة ليحكم السامع بذهابها وهي كاملة الوزن والصفة.
القواعد والاشارات : 52.

75- معاني القرآن : 379/3.

76- نفس المصدر : 379/3.

المبحث الثالث : علاقة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنحويّة من خلال أصول النحو لابن السراج.[77]

تم الاختيار في هذا المبحث الجزني على كتاب أصول النحو[78]، لابن السرّاج .لأنّ هذا العَلم النحوي اللغوي هو خلاصة العلم البصري؛ فقد انتهت إليه رئاسة النحو بعد موت المبرّد،وموت الزجّاج، ولأنّ كتابه أصبح المرجع إليه عند اضطراب النقل واختلافه،وهو أوّل كتاب جمع أصول العربيّة معتمدا على كتاب سيبويه[79]، ومعوّلا على مسائل الأخفش والكوفيين، مخالفا لأصول البصريين[80].

وهذا الأثر من أهم مؤلفات ابن السرّاج لأن ما صنّفه يشمل جملة من العلوم مثل علم القراءات والنحو واللغة والأدب والخط[81]، وما

77- هو ابو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي من علماء العربيّة ومن المشهورين بمعرفة اللغة والأدب نشأ في بغداد في أزهى عصور عطاء الحضارة العربية الإسلاميّة. وكان واسع الثقافة والاطلاع،عاصر الفارابي وقرأ عليه المنطق،وأخذ عن المبرد وتأثر بالزجاج، من أشهر تلاميذه:الزجاجي المتوفى سنة (337 هـ)، والسيرافي النحوي المتوفى سنة (368 هـ)،وأبو علي الفارسي المتوفى سنة (377 هـ)،والرّمّاني المتوفى سنة (384 هـ)،وأبو علي القالي المتوفى سنة (356 هـ) والأزهري اللغوي المتوفى سنة (370 هـ).وأبو القاسم الآمدي المتوفى سنة (371 هـ). هؤلاء هم أشهر تلامذته.
توفي ابن السرّاج ببغداد بعد أن عاش أكثر من نصف قرن، كان ذلك سنة (316 هـ) في خلافة المقتدر بالله.
ترجمته في : وفيات الاعيان 74/1 - الفهرست : 64 ، انباه الرّواة : 145/3 ، معجم الادباء : 190/18 وغيرها...

78- النسخة المعتمدة في ثلاثة أجزاء، تحقيق : د/ عبد الحسين الفتلي، ط3، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.

79- يتميّز كتاب ابن السرّاج باختصاره لكتاب سيبويه وبترتيب أبوابه أحسن ترتيب وتهذيب مسائله حتى بدا مرجعا نحويا هاما بمقارناته بين كتاب سيبويه واستدراكات (تصريف) المازني،وشروح في كتاب (المقتضب) للمبرد،وكتب الأخفش وكتب الكوفيين.
أصول النحو : 6/1.

80- معجم الأدباء : 190/18.

81- نفس المصدر : 198/18.

يهمنا هنا هو كتاب أصول النحو الذي شرحه الرّماني النحوي أحد تلاميذ ابن السرّاج،وشرحه ابن بابشاذ،[82] وابن الباذش الغرناطي النحوي،[83] ومن خلال جملة من الأمثلة سنحاول الوقوف على علاقة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنحويّة بما أن هذا الكتاب هو خلاصة علم البصريين والكوفيين الذين اجتهدوا جميعا بعد سيبويه والكسائي في تهذيب المسائل،ودعم الشواهد وبناء القياس على أسس علميّة.

فلا غرابة إذا ما رأينا ابن السرّاج يحاول أن يربط بين الدراسة الصوتية والدراسة النحوية المتمثلة في التعليل بحروف الحلق مثل اهتمامه بـ(نعم) و(بئس) فعلي المدح والذمّ.

(*) باب (نِعْمَ) و(بِئْسَ) : في هذا الباب يبحث ابن السرّاج في حقيقة (نعم) و(بئس) فيذكر أنهما فعلان ماضيان،[84] كان أصلهما (نَعِم) و(بَئِسَ) فكسروا العين في (نعِم) والهمزة في (بئِس) ثم أسكنوا لها العين من (نعِم) والهمزة من (بئِس).ويربط ابن السرّاج هذا الاجراء بمراعاة حروف الحلق التي منها العين في (نعم) والهمزة في (بئس).[85] وكذلك في معالجته لموضوع جمع التكسير نراه يدرجه ضمن مسائل العطف.

82- هو طاهر بن احمد بن بابشاذ (معناه الفرح والسرور)،أبو الحسن النحوي المصري،أحد أعلام العربيّة،أخذ عن علماء العراق،ورجع إلى مصر واشتغل بديوان الرّسائل،له تصانيف عديدة،منها:شرح جمل الزجاجي، والمحتسب في النحو. توفي سنة اربع وخمسين وخمسمائة للهجرة 554 هـ.
بغية الوعاة : 17/2.

83- كشف الظنون : 334/1.

84- الأصول : 111/1.

85- ينظر أيضا في مبحث الحروف . الأصول : 115/2.

(*) باب مسائل العطف[86] : في هذا الباب يذكر ابن السرّاج من بين ما يذكر الأسباب المانعة من الصرف،ويحصرها في تسعه يذكر منها وزن الفعل-وفي كتاب الأصول يظهر استخدام الميزان الصرفي في الدّراسة اللغويّة، ومع أنّ ذلك قد عمل به سيبويه في الكتاب إلاّ أنّ ابن السرّاج،قد برع في ترتيب المسائل وتهذيبها وإخراجها[87]- ونرى هذا الاستخدام للأوزان الصرفيّة في باب تكسير ما عدّة حروفه بالزيادة أربعة أحرف للجمع،حيث يحصر ابن السرّاج الأسماء المكسرة في ستّة أوزان وهي:فِعَالٌ ، فَعَالٌ، فُعَالٌ، وفَعِيلٌ، فَعُولٌ، فَاعِلٌ[88]. هذا،وقد تضمن الجزء الثالث من كتاب أصول النحو ألوانا من الدّراسة اللغوية والنحويّة المرتبطة ارتباطا واضحا بالدّراسة الصوتيّة والمعتمدة عليها وهذه بعض الأمثلة :

(*) باب : فَعَلَ، يَفْعَلُ، من حروف الحلق[89] : يربط ابن السرّاج بين موقع حرف الحلق عين الفعل أو لامه،وبين صيغة المضارع التي تقتضي أن يكون على وزن يَفْعَلُ. يقول ابن السرّاج : (اعلم أنّ يفعل إذا قلت فيهن : فَعَلَ يَفْعَلُ، مفتوح العين سواء كانت الهمزة أو الهاء أو العين أو الغين أو الحاء أو الخاء لاما أو عينا نحو:قَرَأَ، يَقْرَأُ، وَوَجَبَهُ[90] يَجْبَهُ، وَقَلَعَ يَقْلَعُ.

86- نفس المصدر : 76/2.

87- نفس المصدر : 82-81-80/2.

88- ما كان على وزن فعال مثل رواق جمعه أروقة - فعال : زمان وأزمنة وفعال مثل غراب وأغربة وفعيل مثل رغيف وأرغفة...
نفس المصدر : 449-448/2.

89 نفس المصدر : 102/3.

90- قال في القاموس المحيط : وجبه كمنعه ضرب جبهته وردّه.

وَذَبَحَ يَذْبَحُ، ونَسَخَ يَنْسَخُ وهذا ما كانت فيه لامات[91].

ويضرب أمثلة لذلك إذا كانت حروف الحلق في عين الفعل مثل سَأَلَ يَسْأَلُ وغيرها... ويستخلص ابن السرّاج أن الحرف كلما سفل في الحلق كان الفتح له ألزم ويعلل ذلك بأنّ الفتح من الألف. والألف أقرب إلى حروف الحلق من أختيها - واو المد، وياء المد- ثم يواصل ربط الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنحويّة في كلّ ما يتعلق بصيغتي:فَعَلَ يَفْعَلُ أو ما خالفها[92]، ونري من أوجه تعليل بعض النواحي اللغويّة اعتمادا على مبدإ الاستخفاف المستخلص من الدّراسة الصوتيّة حيث يعقد لذلك بابا يتعلق بما يسكن استخفافا في الاسم والفعل مثاله قولهم في فَخِذٍ : فَخْذٌ، وفي كَبِدٍ : كَبْدٌ وينسب هذا العمل إلى بعض القبائل مثل بكر بن وائل وأناس من تميم،كما أشار إلى جواز التخفيف إذا تواردت الضمتان يقول : (وإذا تتابعت الضمتان أيضا خففوا، يقولون في الرُّسُلِ : رُسْلٌ...)[93] فهو يعلل هذا التخفيف ويعتمد في تأييده وإثباته في اللغة على السماع وهذه أمثلة من بعض المباحث :

(*) باب الإمالة : في هذا الباب عرّف ابن السرّاج الإمالة وعدد أنواعها،مستخدما في كلّ هذه الدّراسة الميزان الصرفي،وما شاع عند العرب،ثم تحدث عن موانع الإمالة،وعرض للإمالة الرّائيّة في باب خاص[94].

91- الأصول في النحو : 102/3.
92- نفس المصدر : من ص 102 ← 105.
93- نفس المصدر : 158/3.
94- نفس المصدر : 160/3 ← 169.

(*) ذكر التصريف : بعد تعرض ابن السرّاج لأوزان الأفعال المجرد والمزيد منها، عرّف التصريف وأدرج تحته خمسة أقسام هي: الزيادة والابدال، والحذف، والتغيير بالحركة والسكون، والادغام. وسأحاول اختيار مثال من أصو النحو يربط فيه ابن السرّاج بين الدّراسة الصوتيّة والدّراسة اللغويّة و النحويّة كما ظهر في مبحث ابداله لصوتي الواو والياء لتقاربهما في المخرج :

- إبدال الياء من الواو وهي فاء -أي فاء الفعل- وضرب مثلا لذلك في كلمتي ميزان وميقات، وهو من الوقت والوزن ولكنهم قلبوا الواو ياء للانكسار ما قبلها أو بالأحرى للمناسبة الصوتيّة[95]، ومن أمثلة الابدال كذلك، إبدال الياء من الواو عند التصغير، مثل بُهْلُولٍ إذا وقع تصغيرها تصبح بُهَيْلِيل وإذا جمعت تصبح بَهَالِيلُ[96]، ومن أنواع الابدال إبدال التاء من افتعل ياء أو واوا، وأمثلته قد وردت في الأصول وفي الكتاب[97]، فمن أمثلة الأصول في النحو قوله : (تبدل من التّاء في افتعل قلبا مطردا إذا كان قبل التاء حرف مجهور، زاي أو دال، تقول في (افتعل) من الزينة : اِزْدَانَ اِزْدِيَانًا، ومن الزرع : اِزدَرَعَ، اِزْدِرَاعًا)[98]؛ فيفسّر ابن السرّاج هذه العمليّة تفسيرا صوتيّا إذ يقول: (وذلك أنّ التاء كانت مهموسة والزّاي مجهورة فأبدلوا من التاء حرفا من موضعها مجهورا، وهو الدّال)[99]. ويعلل بنفس الطريقة مع صيغة افتعل من الذّكر وهو شائع في كلام العرب اذ يقولون اِدّكَرَ يَدّكِرُ اِدّكَارًا وهو مُدّكِرٌ وأصل مُدّكِرٌ

95- الأصول : 261/3.

96- نفس المصدر : 263/3.

97 الكتاب : 358/2.

98- الأصول في النحو : 270/3.

99- نفس المصدر : 270/3.

مُـذْدَكِـرٌ. ثم أدغـمت الذّال فـي الدّال[100]. ويمـضي ابن السـراّج في تعليله الصرفي معتمـدا على الأصوات فيتحدّث عن الابدال في صيغة افتعل مع الطاء التي تبدل من التاء اذا كان قبلها طاء أو ضاد[101]، ثم عـرض إلى ابدال الميم وهـو يكـون مـع النون السـاكنة التي بعدها باء فالعرب تقلب النون ميمـا فيقولون : العنبر -الكتـابة بالنون واللفظ بالميم- والقلب في اللاّم من أحكام التـجويد والتلاوة فيمـا يتعلق بقـراءة القرآن لكنّه بزيادة الغنّة مع القلب في كلمـة أو في كلمـتين[102]، كـمـا تعـرض إلى إبدال الجيم واللاّم والهاء والنون[103].

(*) باب الإدغـــام : في هذا البـاب يعـدد ابن السـراّج أوّلا حـروف العربيّة،ويتفق مع مـا أورده سيبويه في الكتاب،من تقسـيم هذه الحروف إلى أصليّة،ومـستـحسنة،وغيـر مـستـحـسـنة،ثم يشـرع في تعداد مخـارج الحروف.ثم يعـرض لصفـاتها،ويوافق في كلّ ذلك سيبويه. وبعدها ينتقل ليبين أنواع الإدغام وموانعه،ثم يعرض لإدغام المتقـاربين من الأحرف، معددا أنواع الحروف التي يحسن إدغـامـهـا في بعـضـها للتقـارب[104]. وفي ترتيب تلك المسـائل يلاحظ أن ابن السـراّج كـان يعتمـد على الخطّة الصوتيّة المرتبطة بمخـارج الحروف،فيعلل بذلك كلّ التحوّلات الصوتيّة اعتمادا على المخارج والصفات، مستأنسـا في كلّ ذلك بالمسمـوعات اللغويّة المنقولة من أفواه الذين نطقوا على السليقة لغة الضاد.

100- نفس المصدر : 271/3.

101- نفس المصدر : 271/3.

102- مثـاله في كلمـة : يُنْبِتُ من قول الله تعـالى :[(يُنْبِتُ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ) النحل : 16/11] ومثـاله من كلمـتين.مِنْ بَعْدِ مـثـل قـول الله تعـالى :[(مِنْ بَعْـدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) يوسف 100/12.]

103- الأصول في النحو : 3/274-275-276.

104- انظر باب الإدغام : الأصول : 399/3 فما بعدها.

المبحث الرابع :

علاقة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنحويّة من خلال الخصائص لابن جنّي.[105]

المطلع على كتاب الخصائص يجلب انتباهه اهتمام ابن جني بالجانب اللغوي أكثر منه بالجانب النحوي،كما يبدو أنه كان أكثر تمثلا للدراسة الصوتية،حيث وظفها توظيفا دقيقا وواسعا في الدراسة اللغوية والنحوية،فكان كتابه هاما في بابه؛والموضوع يفرض علينا استجلاء بعض المعالم من خلال أمثلة من كتاب الخصائص :

(*)لاحظ ابن جني اعتمادا على مبدإ الاستخفاف والاستثقال ثقل بعض الأصوات، من ذلك أنّ ياء نحو (مِيزَان)، و(مِيعَاد) منقلبة عن واو ساكنه لثقل الواو الساكنة بعد الكسرة؛إذ في نطقها على أصلها من الكلفة بحيث يصبح القلب أمرا بديهيّا. وكذلك قلب الياء في (مُوسر) و(مُوقِن) واوا،لسكونها وانضمام ما قبلها طلبا للخفّة أيضا.[106] وهذا كله أدرجه ابن جنّي ضمن البحث في علل العربيّة،وهي محاولة للتقدم بهذا الجانب من الدّراسة اللغويّة باعتبار أن النحاة قد عيب عليهم من ناحية ضعف عللهم.[107] وفي هذا التعليل أرجع ابن جنّي كلّ ذلك إلى مبدإ الاستخفاف والاستثقال،وهو من اهتمامات الدّراسة الصوتيّة.

(*) بعض ما يتعلق بالإدغام : الجديد في هذه الدّراسة قول ابن جنّي في تعريف الإدغام الصغير : (قد ثبت أن الإدغام المألوف المعتاد إنما

105- انظر ترجمته في: بغية الوعاة : 2/ 132 .

106- الخصائص : 49/1

107- نفس المصدر : 48/1

هو تقريب صوت من صوت)[108].

ويمضي في تعريفه للإدغام الكبير فيبيّن أنه تقريب صوت من صوت، فالأوّل من الحرفين يكون ساكنا والثاني متحركا.وإسكان الحرف الأوّل من الحرفين يكون الهدف منه خلطه بالحرف الثاني، وجذبه إليه لأن الحركة تكون حاجزا بين الحرفين في الادغام الكبير[109]. هذا بالنسبة للحرفين المتماثلين، أمّا إذا كانا غير متمثالين،فالقاعدة عند ابن جنّي تقول : (قلب المتقارب أوكد من تسكين النظير)[110]. أمّا الإدغام الصغير فهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام حاصل، فمن ذلك الإمالة والغاية منها كذلك تقريب الصوت من الصوت مثل عالم وكتاب، وسعى وقضى[111].

وفي نفس هذا السياق من الإدغام؛ بيّن ابن جنّي في هذا المبحث أن العرب تستحسن تركيب ما تباعدت مخارجه نحو الهمزة مع النون، والحاء مع الباء ،نحو:آن ونأى.واستقباحهم لتركيب ما تقارب من الحروف،ولذلك وجد الادغام في اللغة التماسا للخفّة،يقول : (والجواب عن ذلك أنهم قد علموا أنّ ادّغام الحرف في الحرف أخف عليهم من إظهار الحرفين ، ألا ترى أن اللسان ينبو عنهما نبوة واحدة)[112]. والقلب كما سبق ذكره مندرج ضمن إطار التماس الخفّة؛فإنّ العرب استثقلوا المثلين

108- نفس المصدر : 139/2

109- الخصائص : 140/2.

110- نفس المصدر : 140/2.

111- نفس المصدر : 141/2.

112- نفس المصدر : 227/2.

حتّى قلبوا أحدهما مثاله في أَمْلَيْتُ وأصلها أَمْلَلْتُ[113]، وأمثلة ذلك في الخصائص عديدة؛ منها العدول عن الثقيل إلى ما هو أثقل منه التماسا للخفّة، مثاله لفظ (حَيَوَان) فهو عند معظم النحاة من مضاعف الياء وأصله(حَيَيَان) فلما ثقل أبدلوا الياء الثانية واوا مع أن الواو أثقل من الياء؛ وباختلاف الحرفين ساغ ذلك،ومثاله كذلك (دِيوَان) أصلها (دِوَّان) فكرهوا التضعيف فأبدلوا الواو ياء وهو سائغ في اللغة أيضا[114].

والمتمعن في هذه الأمثلة،تتضح له ظاهرة التوسع في تعليل الأوجه اللغويّة والنحويّة اعتمادا على مبدإ التماس الخفّة،-وهو مبحث صوتي- ونراه قد دعّم كلّ وجه من الوجوه التي جهد النحاة في تعليلها تعليلا يتناسب وبعض النظّريّات الصوتيّة التي يستخدمها علماء الأصوات اليوم لتفسير العديد من الظواهر اللغويّة، ومن هنا كان ابن جنّي قد أضاف الكثير في هذا الميدان؛ولا بأس من زيادة النظر في بعض الأمثلة.

(*) باب مطْل[115] الحروف : والحروف المطولة كما يراها ابن جنّي وكما يصنفها النحاة واللغويون ثلاثة،هي:الألف،والياء،والواو السواكن[116] اللينة المصوّتة فيها امتداد ولين[117]؛ نحو قام،وسيربه، وحُوت

113- نفس المصدر : 231/2.

114- الخصائص : 3/18-19.

115- المطْل هنا : المدّ ، مطل الحبل وغيره يمطله مطلا فامطلّ.
لسان العرب : 624/11

116- يقول ابن جنّي : (اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ واللين.وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث،وهي الفتحة والكسرة والضمّة).
سرّ صناعة الاعراب : 19/1.

117- اهتم علماء التجويد بهذه الأحرف وأطلقوا عليها حروف العلّة،فهي لا يتحقق وجودها إلاّ بمدّها قدر ألف،ويختص باللين منها الواو والياء دون الألف لأنها تسكن. كخوف وشيء.
المنح الفكريّة على متن الجزريّة : 9.

وكُوز... والجديد في دراسة ابن جنّي تصنيفه لأنواع هذا المدّ المترتب عن وجود أحرف اللين والمدّ،وتعليله لها:فالاماكن التي يطول فيها صوتها، وتتمكن مدّتها ثلاثة : وهي أن تقع بعدها الهمزة، أو الحرف المشدّد، أو أن يُوقَفَ عليها عند التذكّر.[118] فمثال المدّ عند الهمزة نحو كِسَاْء، وَرِدَاْء وخطِيئَة ورزيئَه ومقروءه وخبوءة. ويعلل ابن جنّي أن تمكن المدّ -أي طوله- مع الهمز قد فرضته طبيعة هذا الحرف، فقد بعد مخرجه -اقصى الحلق- وتراخي[119]؛ فحين ننطق بهذه الحروف قبله ونطيل مدّها ييسّر لنا ذلك الأمر النطق بالهمزة نطقا كاملا مع توفيته حقه وبيانه[120]؛ يقول ابن جنّي : (فإذا أنت نطقت بهذه الأحرف المصوتة قبله، ثم تماديت بهن نحوه طلن، وشعن في الصوت فوفين له، وزدن في بيانه ومكانه)[121].

ويعلل التمادي إذا كان بعد هذه الحروف حرف مشدّد مثل دآبّه وشآبّة،فالتقاء الساكنين هو الذي يوجب تعويضهما بمدّ وهذه القاعدة علّل بها المدّ في التقاء الساكنين حتّى في فواتح سور القرآن التي يمدّ لها وهي أحرف (كم عسل نقص)[122]؛ فلا يقع الحذف بل يعوض بهذا المقدار من المدّ

118- الخصائص : 125/3.

119- يرى بعض الدّارسين أن علّة إطالة المدود الثلاثة عند ملاقاة همزة هو لإعطاء فترة زمنيّة كافية تتهيأ الحنجرة فيها للنطق بالهمزة لتكون واضحة في النطق.
أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث : 195.

120- أجمع الأئمة على مد هذا النوع من المدود (المد الواجب)،اعتمادا على ما نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه حين قال في قوله تعالى [(إنّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَآءِ والمَسَاكِين) التوبة : 60/9] أقرانيها رسول الله صلّى الله عليه وسلم فمدّها.
النشر في القراءات العشر : 316/1.

121- الخصائص : 125/3.

122- يسمى هذا النوع من المدّ مدّا حرفيّا.
حق التلاوة : 83

وقد رأى بعض الدّارسين أنّ هذا المدّ يساعد على نطق الحرف السّاكن، فتتهيأ الحنجرة للنطق بصوت صامت ساكن في نحو (الضّآلّين)[123] من [(غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّآلِّينَ) الفاتحة :7/1]؛ونرى في قوله هذا تعليلا يعتمد على استقراء الظواهر الصوتيّة.نستخلص منه دقّة الملاحظة التي تسلح بها ابن جنّي في كتابه الخصائص؛فهو يستنتج أنه كلما رسخ الحرف في المدّ ووضح كان محفوظا بتمامه،مع أنه يرتب التمادي بحسب حفظ الحرف أكثر :

أوّلا : إذا كان التمادي بالألف.

وثانيا : إذا كان بالياء ثم بالواو[124]؛ وفي ذلك اعتماده على السماع والملاحظة فنراه يقول : (فَشَآبَّة إذا أوفى صوتا وأنعم جرسا)[125]؛ مقارنا بينها وبين لفظين أحدهما مدّه بالياء والآخر مدّه بالواو[126]. وأمّا الوجه الثالث فنظرا لعدم صلته بالدراسة الصوتية فلا حاجة بالتعرض إليه.

(*) باب شواذ الهمزة : ذكر في هذا الباب بعض أنواع التقاء الهمزتين في كلمة وفي كلمتين،واعتبر أن التحقيق لهما معا ضعيف مثل قراءة الكسائي في [(أَئِمَّةٌ) الأنبياء : 72/21]،والهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة إلاّ أن تكونا عينين،نحو سِئَّال وفي كلمتين،نحو قراءة بعض القرّاء [(السُّفَهَاءُ أَلاَ) البقرة : 13/2]،ثم تطرّق إلى حالات حذف الهمز وإبداله

123- أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث : 195

124- الخصائص : 126/3.

125- نفس المصدر : 128/3

126- نفس المصدر : 128/3.

معتبرا هذه الدّراسة في صلب الدّراسة اللغويّة معللاّ الحذف بالاستثقال، والاستخفاف، وأمثالهما[127] .

الناظر في هذه الامثلة المتنوعة يلاحظ أنها تدلّ دلالة واضحة على أن ابن جنّي كان يهدف من خلال كتاب الخصائص إلى إبراز الأصول العامّة التي تستند إليها اللغة العربيّة، فكلّ الظواهر الموجودة في اللغة العربيّة خاضعة إلى منطق داخلي يمكن اكتشافه اعتمادا على التعمق في دراسة اللغة واعتمادا على حدس خاص[128]؛ يزداد توضيحا من خلال ما ذكره ابن جني مثل قوله في الأشباه والمقاربات : (شبّهوا توالي الضّمتين في نحو: سُرُجْ وَعُلُطْ بتواليهما في نحو زيد قائم... وعلى ذلك قال بعضهم:الحَمْدُ لُلَّهِ. فضمّ لاَم الجرّ إتباعا لضمّة الدّال)[129]؛ فتوالى الضمّ عنده أصل. وهذا مظهر من مظاهر توسع ابن جنّي في مسألة التناسب الصوتي ليعلل بها التناسب في الاعراب على المستوى النحوي[130].

والباحث لا يكتفي في دراسته اللغوية والصوتية بالنسبة لابن جني بكتابه الخصائص إذ أنّ له كتابا آخر عدّوه قيّما، هو كتاب: "سرّ صناعة الاعراب"؛ ظهرت فيه خصائص الصناعة النحويّة كما تمثلها ابن جنّي، كما ظهرت من خلاله معالم نظرياته النحويّة والصوتية، حيث ظهر

127- نفس المصدر : 3/ 142 ⟵ 154

128- انظـــــر :

Les théories grammaticales l'Ibn Jinni:M.Abdelkader Mehiri.
publication de l'univesité de Tunis : 1973
IMPRIME Par la Societe Tunisienne des arts graphiques S. T. A. G

129- الخصائص : 179/3.

130- يقول ابن جنّي : وعلّة ذلك عندي أن بين المفرد والجملة أشباها.
الخصائص : 177/3.

ارتباطها جميعا في تاريخ اللغة العربيّة بالقرآن وبعلومه،وخاصّة علم القراءات.

فكان عمل ابن جنّي في كتابه سرّ الصناعة متجها إلى وصف أعضاء النطق منفردة،فيذكر الصدر، والحلق،والفم،والشفتين؛وهذا ما يمكننا من القول بأنه منذ تلك الفترة التاريخيّة بدأ وصف آلة النطق يتبلور شيئا فشيئا في الدّراسة العربيّة[131].

وإتماما للفائدة نرى موضوع البحث يفرض علينا الاطلاع على كتاب المفصل لجار الله الزمخشري.

131- Les théories grammaticales d'Ibn Jinni : 163

المبحث الخامس :
علاقة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنحويّة
من خلال كتاب المفصل في علم العربيّة
لمحمود بن عمر الزمخشري[132].

لقد حظي كتاب المفصل في علم العربيّة باهتمام خاصّ كما حظي غيره من كتب اللغة والنحو الهامّة في تاريخ اللغة العربيّة؛بانكباب الدّراسين عليها شرحا وتحليلا وتفصيلا لمسائلها،ناهيك وأنّ هذا الكتاب خلاصة حوالي الثلاث قرون دراية ومعرفة باللغة،ومناقشة للمسائل،فما من شك أن هذا الكتاب يعكس مدى النضج الذي بلغته الدّراسة اللغويّة والنحويّة في تلك الفترة،مع العلم أن من جاءوا بعده كانوا عالة عليه وعلى غيره إلاّ قليلا منهم. وأشهر من شرح كتاب المفصل في علم العربيّة ابن يعيش[133]، والقاسم بن الحسين الخوارزمي[134]، اللذين توسعا في شرح هذا المصدر الهامّ وتعمقا في جزئيّاته خاصة

132- محمود بن عمر،بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله. ولد سنة: (497 هـ)،وتوفي سنة:(538 هـ). اشتهر بعلمه الواسع في اللغة والنحو والبلاغة، وألف في الحديث والتفسير وغيرها من الفنون. كان معتزليّا حنفيّا لقب فخر خوارزم، له من التصانيف : الكشاف في التفسير،والفائق في غريب الحديث، والمفصّل في النحو،وغيرها من الكتب النحويّة والأدبيّة.
بغية الوعاة : 2/279-280.

133- هو يعيش بن علي،بن يعيش... موفق الدّين أبو البقاء المشهور بابن يعيش. ولد سنة:(553 هـ) بحلب،وتوفي سنة:(643 هـ).كان من كبار أيمّة العربيّة،ماهرا بالنحو،والتصريف،تتلمذ على أيمّة عصره،ورحل في طلب العلم.من أشهر ما صنف:شرح المفصل وشرح تصريف ابن جني.
بغية الوعاة : 2/351-352.

134- القاسم بن الحسين،بن محمد،أبو محمد الخوارزمي النحوي، كان عالما بالعربيّة،ولد سنة:(555 هـ).صنّف التخمير في شرح المفصل،وله تصانيف أخرى.
معجم الأدباء : 16/238-253.

فيـــــما يتعلق بالمواضع التي لها صلة بالصوتيات مثل:الاعلال.والابدال، والادغام.[135] والمتصفح لكتاب الزمخشري في علم العربيّة يلاحظ أن القسم الرّابع من كتابه فيه النصيب الأكبر من حيث جمعه للمسائل اللغويّة والنحويّة المتصلة بصورة مباشرة بالدّراسة الصوتيّة وهذه عناوين أهمّ المباحث التي وردت في هذا القسم الرّابع من المفصل : 1) الإمالة،- 2) الوقف،-،3) تخفيف الهمزة،- 4) التقاء الساكنين.- 5) حكم أوائل الكلم،6) زيادة الحروف،- 7) إبدال الحروف،- 8) الاعتلال،9) الادغام. فمعظم هذه المباحث كنا قد تعرضنا إليها من خلال الكتب السابقة لكننا سنحاول في هذه الوقفة القصيرة التماس مواطن الإفادة والطرافة والاختلاف،من خلال المفصل وشروحه.

يلاحظ الباحث لأوّل وهلة،أن المباحث المتعلقة بالدّراسة الصوتيّة كلها جمعت تحت ما يسمّى:المشترك،أي ما يشترك فيه الاسم،والفعل، والحرف. وهذه المباحث جمعها الزمخشري في آخر قسم من كتابه. فخطّة المؤلف في كتابه عموما،هي تعريف الكلمة وتقسيمها إلى ثلاثة أنواع :اسم وفعل وحرف،ودراسة كلّ واحد من هذه الأنواع الثلاثة على حدة.مع النظر إلى وظيفتها في الجملة العربيّة.[136] وللتدليل على ذلك نورد بعض الأمثلة التي تمكننا من الوقوف على خصوصيّة المفصّل،وإضافات شروحه،اعتمادا على الشرحين المذكورين أعلاه :

135- ذكر محقق كتاب شرح المفصل لصاحبه القاسم بن الحسين الخوارزمي في دراسته لشروح المفصل أنها تزيد على مائة مؤلف اهتمت جميعها بشرح المفصل أو بشرح أبياته أو باختصاره أو بتقليده أو الرّدّ عليه.
شرح المفصل في صنعة الإعراب : من ص 43 ⟵ ص 59.

136- المفصل في علم العربيّة :6

(*) الإمالة : اعتبرها الزمخشري من أنواع المشترك بين الاسم والفعل،وفي أوجه من القراءات نجدها في الحرف أيضا مثل فواتح السور، ومثل قراءة ابن مسعود من قوله تعالى:(طِهِ) بإمالة الطاء والهاء[137]، وهي عند الزمخشري أن ينحو بالحرف نحو الكسرة لتجانس الصوت،ومثل هذا قد نجده شائعا لدى العرب قبل الاسلام مثل قولهم : [هذا جحر ضبّ خربٍ عوضا عن خربٌ] هذا فيما يتعلق بالألفاظ.أمّا بالنسبة إلى الحروف فمن أمثلته : إشراب الصادّ صوت الزّاي،كما في سورة الفاتحة[138]. وهذا المعنى من التجانس أو التقريب ذكره ابن جنّي في الخصائص. ونرى شراح المفصل يفيضون في الحديث عن الإمالة ويربطونها بالرّسم من ناحية -أي الرّسم المصحفي-،ويؤلفون بين عملي القراء والنحاة فيبيّنون أنواعها ويفرّقون بينها وبين التفخيم،ويعبرون عنها بالبطح والاضجاع[139]. والزمخشري يظهر متأثرا بطريقة الفرّاء في تصنيف الإمالة ممّا لا نجده واضحا عند سيبويه مثلا[140].

وبهذا العمل يتفرّد الزمخشري عن بقيّة النحاة لمخالفته لطريقة سيبويه،وهذا يفسّر بأنّ الزمخشري لم يعتمد الكتاب مصدرا حين ألف

137- عن عاصم عن زرّ بن حبيش قال : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود (طَهَ) ولم يكسر، فقال عبد الله : (طِهِ) وكسر.ثم قال عبد الله:«والله لهكذا علمني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.»
المستدرك : 245/2.
جمال القراء وكمال الاقراء : 498/2.

138- قرأ الصّراط من سورة الفاتحة باشمام الصاد زايا جملة من القراء هم : حمزة، وأبو عمرو،وخلف وخلاد،والدّوري وغيرهم...
معجم القراءات القرآنيّة : 11/1.

139- النشر : 30/2
جمال القراء : 501/2.

140- الخوارزمي : شرح الفصل في صنعة الاعراب : 204/4.

كتابه المفصل، بل قرأه بعد أن فرغ من التأليف[141]. ويبدو أنه نحا في رأيه منحى الكوفيين بمبحث الوقف والابتداء والانتهاء* .

(*) ما يتعلق بالوقف : يعتبر مبحث الوقف والابتداء من المباحث الصوتيّة لتعلقه بوضعيّة آخر حرف يوقف عليه، أو أوّل حرف يبتدئ به المتكلم، وقد اهتمّ النحاة بهذا المبحث وأدرجوه ضمن الدّراسة اللغويّة والنحويّة لاتصاله بالابدال، وبتغيّر علامات الاعراب في آخر الكلم، والتدليل عليها. كما اهتمّ علماء اللغة والنحو والقراءات بهذا المبحث، لتعلقه بقراءة القرآن وكيفيّة الوقوف على آخر الآيات، وكيفيّة الابتداء، وراعوا في ذلك حسن الصوت والالقاء.

ونجد بعد ذلك -حين استقل علم التجويد- كتبا خاصّة بالوقف والابتداء[142].

وقد اعتبر الزمخشري الوقف من المشترك، الذي يشترك فيه الاسم والفعل والحرف. وحاول حصر أنواعه في اللغة لما لها من أهمية في الالقاء والتلاوة عند القراء، فذكر الاسكان الصريح والاشمام، والرّوم،

141- نفس المرجع : 44/1.

* الوقف عند القراء عبارة عن قطع الصوت على الكلمة زمنا، يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة. إمّا بما يلي الحرف الموقوف عليه أو بما قبله.
أما الابتداء فلا يكون إلاّ اختياريّا لأنه ليس كالوقف تدعو إليه ضرورة فلا يجوز إلاّ بمستقلّ بالمعنى، موف بالقصد ويكون الوقف تامّا وكافيا وحسنا وقبيحا.
النشر : 230/1 -1 /240
الملاحظ أن مبحثي الوقف والابتداء متصلان اتصالا وثيقا بالمعاني اللغوية وكذلك بالمباني وهذا هو سرّ الاهتمام بهما والتأليف فيهما.

142- يبدو أن دافع النحاة إلى الحديث عن الوقف والابتدا قرآني لضبط آي الكتاب ثم تطورت هذه الدّراسة لتصبح من جوانب الدّراسة النحويّة أو مندرجة ضمنها ودليل ذلك اعتماد النحاة على رسم المصاحف.
انظر: مسألة علامات الوقف في المفصل في علم العربية : 338.

والتضعيف، والابدال، وأنواعا أخرى[143]؛ كانت أكبر الغايات العلميّة والدّينيّة من ضبطها[144] تبليغ النصّ القرآني بكامل الدّقّة وجلب الانتباه إلى أنّ مفعول الصوت كثيرا ما يكون أشدّ وقعا على النفس، ممّا يحافظ على سلامة القرآن، وسلامة اللغة العربيّة التي هي جزء من ماهيته[145].

(*) ما يتعلق بالادغام : ذكر الزمخشري الادغام في أصناف المشترك، وعلل وجوده في اللغة العربيّة بالتماس الخفّة، لأن المتجانسين من الحروف يثقلان على اللسان، وقد فصل الزمخشري أنواعه عامّة في اللغة مستدلاّ بأحكام القراء. فلاحظ أن جملة مستكثرة من أحكامهم مندرجة ضمن الأنواع التي عددها. وعرض لموانعه واستشهد ببعض الآيات.

وفي نفس هذا المبحث تحدث الزمخشري عن مخارج الحروف وبيّن أهميتها في تعليل الادغام، وقد ذهب في تقسيمها إلى ما ذهب إليه سيبويه من أنّ عدد مخارج الحروف ستّة عشر مخرجا، وعدد صفاتها على نحو ما ذكره نحاة البصرة قبله[146]، ولم يضف الزمخشري في هذا المبحث الشيء الكثير، إلاّ من حيث منهجه في الدّراسة، واستطراده بجملة من أمثلة الادغام، اعتمادا على أحكام القراءات، واختيارات بعض القراء، الذين ذكرهم بأسمائهم مثل الكسائي، وأبي عمرو البصري[147].

143- المفصل في علم العربيّة : من 338 ⟵ 344.

144- سبق تعريف بعض أنواع المصطلحات الواردة .

145- تراجع في ص : 130.

146- المفصل : 393

147- ضعف الزمخشري إدغام الفاء في الباء من قول الله تعالى : [(إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ)] سبأ : 9/34]. قال الزمخشري : (وهو ضعيف تفرد به الكسائي). وليس هذا غريبا عن الزمخشري.
المفصل : 401

كلّ هذه العروض المتتالية لأهمّ المؤلفات في القرن الثاني والثالث، والرّابع،والسادس الهجري،تدل دلالة واضحة على ما لصلة الدّراسة الصوتيّة بالدّراسة اللغويّة والنّحويّة من تداخل ووثوق.دفع الدّراسة الصوتيّة واللغويّة والنحويّة، كما لا يخفى ما أضافته هذه الدراسات من تجديد وتوسع في رصد الظواهر اللغوية،اعتمادا على القراءات السبع خصوصا،والقراءات عموما.فكانت بمادتها مصدرا هاما دعّم هذه الدراسة وتقدم بها تطبيقا،وضبطا،فحفظت ظواهر اللغة العربية مثلما سبقت الاشارة إليه.

الفصل الثالث :

الاستشهاد بالقرآن وتوظيف ذلك في المبادئ النّحويّة

يكاد يجمع أهل العلم على أنّ النحاة الأوائل كانوا قرّاء، إلاّ أن ميلهم إلى النحو وتفرعهم فيه أدّى إلى وصفهم بالنحاة منهم بالقرّاء.

والمتصفح للقراءات السبع يجد أحكامها وأصولها مرتبطة ارتباطا وثيقا بأحكام النحو وقواعده. لتقارب نشأتهما، واتصال كلّ منهما بالآخر. وقد رأينا في "الكتاب" مثلا وفي معاني القرآن صلة الدّراسة النحويّة بالدّراسة الصوتيّة، وبعلم القراءات، الذي استقل شيئا فشيئا عندما وضع العلماء المقاييس الضروريّة لقبول قراءة قرآنيّة أو القول بقرآنيتها. وفي نفس السياق الموازي تم تطوّر الدّرس النحوي، اعتمادا على كلام العرب الذين سلمت ألسنتهم من ظاهرة اللّحن، وبنى النحاة قواعدهم على السّماع والقياس[1]. وفي هذا الفصل نتناول بالبحث مسألتين أساسيتين :

أولاها : تتعلق بالاستشهاد بالقرآن وقراءاته، خاصّة ما يتعلق بالقراءات السبع.

ثانيها : تتعلق بمدى توظيف ذلك في المبادئ النحويّة.

ومن الضروري عرض هاتين المسألتين اعتمادا على توجهات المدرستين النحويتين الكوفيّة والبصريّة. وعلى أهمّ المراجع النحويّة في ذلك، وسوق الأمثلة التي يعتمد فيها النحاة على القرآن الكريم بقراءاته المتواترة وبعض الشاذ منها، -خصوصا ما كان من استشهادات الكسائي وتلميذه الفرّاء-[2] مع التدرج في عرض المسائل، والتأليف بين أهمّ القضايا لتتضح حدود العلاقة العلميّة بين القرآن الكريم وقراءاته من

1- سيأتي بيان ذلك في الباب الثالث.

2- أورد الفرّاء أقوال شيخه الكسائي في معاني القرآن.

ناحية،وبين القرآن الكريم والنحو العربي من ناحية أخرى.

فما هو الاستشهاد بالقرآن ولماذا فضل علماء اللغة الأوائل الاعتماد عليه ؟. لعلّ الاجابة عن هذا السّؤال تطرح من جانبين. جانب يتعلق بالقرآن مادّة لغويّة ثريّة، انتقت من اللسان العربي أفضل الكلمات وأبلغها وأحسن العبارات وأفصحها[3]. وجانب يتعلق بنظم القرآن،باعتباره قد استخدم اللغة العربية أكمل استخدام،بما يستهوي النحاة واللغويين ويجعلهم يلتمسون صحة قواعدهم التي وضعوها بعد استقراء ونظر، فيبحثون عمّا يجوز وعمّا لا يجوز... وعمّا يجب تقديمه أو تأخيره... وعمّا يجب حذفه، ليستقيم الكلام ويُحكم على الجملة بأنها عربيّة توافق ما عرفه العرب من أصول كلامهم.

وفي نفس الاطار العام الذي طرحت فيه مسألة البحث عن أصل يمكن اعتماده في اللغة والنحو، كان العرب قد استخدموا الشعر واستشهدوا به،وكان مادّة معتبرة قبل تدوينه وبعده.

ومن الملفت للانتباه أنّ وضع قواعد النحو العربي كان قد تطلب اعتماد مرجعيّة أساسيّة،تكون فيصلا بين ماهو عربي،وبين ماهو معرب أو دخيل،لكنّ هذه المرجعيّة كان قد أُختلف في اختيار مقاييس فصاحتها بسبب اختلاف مشارب النحاة واللغويين،فتكونت تبعا لذلك مدارس مختلفة الاتجاهات،ممّا أدّى في بعض الأحيان إلى التباين بين القرآن والنحو،وإن كان هذا التباين المتمثل في تضعيف بعض أوجه

3- تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات؛ط١٢دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة - القاهرة ج.م.ع. د.ت

القراءة[4] بدعوى عدم فصاحتها قليلا جدّا في القراءات السبع،إذا ما قارناه بمادّة القراءات عموما،وبعدد آي القرآن خصوصا.

والعود إلى معاجم العربيّة يوضّح أنّ أصل الاستشهاد يدور جزء هامّ من معانيه حول بيان العلم وتوضيحه،لأنّ الشاهد هو العالم الذي يبيّن ما علمه[5]، ومنه الشهادة:وهي الخبر القاطع، وطلب الشهادة هو الاستشهاد لقوله تعالى : [«وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ» البقرة : 282/2][6].

وفي الشهادة معنى الحضور، والكلام الذي يؤدّى[7]، وهذه المعاني لا تختلف عن المراد من الاستشهاد بالقرآن،لأنه الحجّة القاطعة البينة،والكلام الحاضر المتواتر الذي حفظ في الصدور، وكتب في الصحف، وجمع في الكتب فكان بذلك أصدق مدوّنة عرفها العرب المسلمون منذ نزوله إلى اليوم.

ولن نطيل في الحديث عن ثراء اللغة العربيّة وهيمنتها على اللغات السامية، فقد سبقت الاشارة إلى ذلك[8]. كما أنّ هذه المسألة قد أفرد لها الباحثون كتبا خصوها فيها بالبحث والتقصّي[9]. والمهمّ في ذلك

4- ضعف ابن عطية مثلا قراءة ابن عامر الشامي قول الله تعالى :(«وَكَذَلِكَ زُيِن....» الآية يقول : (وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب... ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلاّ في الشعر.)
ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز : 158/6، . ط، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية ، مطبعة فضاله ، المحمدية ، 1399هـ/1979م.

5- تاج العروس : 391/2

6- لسان العرب : 239/3.

7- نفس المصدر : 240/3.

8- د/محمد روّاس قلعه جي : لغة القرآن لغة العرب المختارة : 9، ط1،دار النفائس ، بيروت،لبنان ، 1408هـ/ 1988م.

9- القدامى والمحدثون سواء في ذلك.

هو أنّ العربيّة مع وراثتها اللغات السامية لم يعد ما استعملته وجرى على اللسان العربي دخيلا على اللغة،سوى أسماء بعض الأعلام. وهذا الرّأي ذهب إليه ابن جرير الطبري،والإمام الشافعي،والباقلاني وغيرهم[10]. واستدلّوا بالقرآن الكريم،من ذلك قول الله تعالى : [«لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ». النحل 103/16].

فدلت هذه الآية على أن ما أخذه العرب من اللغات الأخرى، وجرى استعماله في لغتهم،يعدّ عربيّا،ولا يخرج عن نطاق لغتهم. وقد نرى السيوطي في الاتقان يفرد لهذه المسألة مباحث،ينقل فيها آراء المتقدمين واختلافهم في ذلك. لكنّ الملفت للانتباه هو أنّ المستخدم في القرآن من الألفاظ ليس حكرا على قبيلة،وإنما معظمه بلغة قريش.

وأمّا الجانب المتعلق بنظم القرآن،فيكفينا دليلا على ذلك علم البلاغة والاعجاز البلاغي،الذي استقاه عبد القاهر الجرجاني[11] من القرآن،ونهج على نهجه الزمخشري في كشافه،ليصبح القرآن بعد استخراج هذه القواعد مرجعا من مراجع البلغاء،ينتقون أوجه الفصاحة من آياته وأساليبه.

وهذه الملاحظات السالفة تجعلنا نجزم بأهميّة القرآن مرجعا لغويّا،فضلا عن مرجعيّته الدّينيّة والحضاريّة.

10- الاتقان : 135/1.

11- عبد القاهر بن عبد الرحمان،بن محمد الجرجاني الأشعري الشافعي. نحوي،بياني، متكلم ، فقيه، مفسر. توفي بجرجان سنة 471هـ/1078م، من تصانيفه : شرح الايضاح لأبي علي الفارسي،وإعجاز القرآن، والعمدة في التصريف...
إنباه الرواة : 188/2.

المبحث الأوّل :

الاستشهاد بالقرآن وأهميته.

الباحث في الاستشهاد بالقرآن يؤدي به ذلك إلى الحديث مباشرة عن المادّة المسموعة التي تتسم بالنقاء اللغوي، وهي التي عرفت عند النحاة بالفصيح. فهذه المادّة هي التي اعتمدت لضبط قواعد اللغة العربيّة، وهذه النصوص المأثورة التي تم الاختيار عليها هي :

1) القرآن الكريم بقراءاته المتعددة المتنوعة التي كان اعتمادها متفاوتا من قبل النحاة وهذا ما يفسّر طعن بعضهم فيها.

2) الحديث الشريف.

3) كلام العرب الفصحاء شعرا كان أم نثرا.[12]

وقد كان للبصريين قصب السبق في مجابهة اللحن، وذلك عن طريق نقط المصحف، حتّى يقع الحفاظ على رواية قراءات القرآن "المشروعة"، ولعلّ الاطار الذي نشأت فيه قضيّة الاستشهاد بالسماع على قدر كبير من التشعب والتعقيد، بحيث يصبح الاستشهاد نفسه عمليّة علميّة مقننة مضبوطة، فكان هذا العمل مشترطا بجملة من الشروط أهمها تحديد مقاييس الفصاحة بانتقاء اللغة التي يدرسونها والقبائل التي يأخذون عنها، فوقع الاختيار على بعض لغات* العرب

12- الأصول : 103.

* يرى السّيوطي أنّ القرآن نزل على سَنَن لغة العرب يقول : [وقد جاء القرآن بجميع هذه السنن لتكون حجّة الله عليهم آكد، ولئلاّ يقولوا : إنما عجزنا عن الاتيان بمثله لأنّه بغير لغتنا، وبغير السنن التي نستنّها، فأنزله جلّ ثناؤه بالحروف التي يعرفونها وبالسنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ليكون عجزهم عن الاتيان بمثله أظهر وأشعر.
المزهر : 342/1.

دون بعض[13].

وعلى هذا الأساس يظهر أن "السماع" كان مرتبطا في قبوله باستعمالات القرآن المشهورة التي نزل القرآن بلغة قبائلها، وهي: قبائل وسط الجزيرة العربيّة وعلى رأسها لغة قريش[14]، كما حدد الأخذ بالشعر والنثر العربي الجاهلي بحدود الفصاحة في عصر الفصاحة[15]. ولمّا كان الأمر كذلك، فإنه من الواضح أن اعتماد القرآن الكريم بقراءاته أمر بديهي، حيث كانت الخطوة الأولى متمثلة في حفظ القرآن بقراءاته حتّى يسلم من كلّ تحريف، ثم اعتماده مقياسا للفصاحة والسماع وفي ذلك تدعيم لأوجه بيانه وإعجازه ليكون التحدّي أتم والقدرة أبلغ في مواجهة المعاندين[16].

وعلى الرّغم من تركيز القراء لأشهر القراءات في الأمصار ونقلها وتدوينها، فإن حديث الأحرف السبعة الذي تعرضنا لمعناه في الباب الأوّل[17]، يجعل الدّارس اللغوي والقارئ يذهب بعيدا في تخيّله لعدد هذه القراءات إذا كانت " السبعة" في الحديث تعني الكثرة، فيقع بالتالي اعتبار قراءات قرآنيّة دون أخرى، بحسب مقاييس الفصاحة وضوابط الرّواية. ولعلّ اعتماد النص القرآني من قبل القراء والقراء

13- الأصول : 98-99.

14- قضايا قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللغويّة : 35.

15- يراجع الباب الأوّل - الفصل : II .

16- يقول الدّكتور عبد العال سالم مكرم : (القرآن الكريم نزل بالأفصح ممّا يعزّ على الفصحاء أن يأتوا بمثله، ولو نزل بالفصيح وحده لكان من الممكن للفصحاء من القبائل الأخرى أن يأتوا بمثله).
أثر القراءات القرآنيّة في الدّراسات النحوية : د/عبد العال سالم مكرم : 16.

17- الفصل : 4 ، ص : 109.

النحاة خصوصا قد جعل المسموع القرآني واللغوي حيّا ميسّرا لدراسة ظواهر اللغة العربيّة،لأنّ مقدمة الدّراسة اللغوية أي الدّراسة الصوتيّة التي ضبطت أحكام القراءة لم يشعر النحاة الأوائل بأهميّتها لأنّ القراء هم الذين قاموا بهذا العمل، فاستفاد النحاة من عملهم[18]؛ غير أن ذلك لا ينقص من تكامل الدّراستين الصوتيّة والنحويّة في شيء[19].

والاستشهاد بالقرآن لم يكن مقتصرا على الدّراسة النحويّة واللغويّة بل كان محور الدّراسات العلميّة الدّينيّة والأدبيّة. فالتّفسير بدأ بالاعتماد على تفسير القرآن بالقرآن وهو التفسير بالمأثور والفقه استدل بالآيات المتعلقة بالأحكام،وكلّ العلوم التي اهتمت بالقرآن كانت تنطلق من القرآن لتعود إليه[20]؛ بل لا شك في أن القرآن هو الدّافع الأوّل للعرب المسلمين آنذاك ليؤسسوا علوما تعتمد على هذا الكتاب المعجزة.فلا غرابة إذا ما وجدنا الآيات القرآنية مبثوثة في كتب اللغة والنحو والتفسير، والفقه والبلاغة وغيرها من الكتب التي اتخذت موضوع بحثها النص القرآني كشاهد أو كحجّة.بعد أن ضبط حرفا حرفا فلم

18- تفطن الخليل لأهميّة هذه الدّراسة لأنّه من القراء النحاة وهو الذي مهّد السبيل في الجانب الصوتي للقراء اللغويين الذين استفادوا من عمله.
د/مهدي المخزومي : عبقري من البصرة : 40. ط2 ، دار الرّائد العربي ، بيروت ، لبنان ، 1406هـ / 1986م.

19- يرى الدّكتور تمّام حسان أن النحاة لم يشعروا بضرورة الدّراسة الصوتيّة شعور علماء العصر بها،ودليله أنّ المباحث الصوتيّة وردت في آخر كتاب سيبويه. ونرى أن هذا ليس دليلا قاطعا على ما أورده،لأن الكتاب في جملته ليس مبوبا تبويبا دقيقا.
الأصول : 102.

20- محمد حسنين الذهبي : التفسير والمفسرون : 6/1، ط1، دار الكتب الحديثة، القاهرة،ج.م.ع ،1381هـ / 1963م.

يهمل منه شيء[21].

وممّا يؤكد لنا أهميّة الاعتماد على القرآن في الدّراسات اللغويّة حفظ القرآن بقراءاته على اختلاف مراتبها لظواهر اللغة العربيّة، أو بالأحرى لجانب كبير من التراث اللغوي؛ فدراسة اللهجات العربيّة القديمة على سبيل المثال، تستمدّ معظم مادّتها من القراءات القرآنيّة؛ ومن يتتبّع نسبة هذه اللهجات إلى قبائلها، يجد حضورها في كتب التفسير أكثر من حضورها في كتب النحو، فيكون القرآن الكريم وقراءاته مصدرا أوفى من غيره في دراسة اللهجات العربيّة القديمة[22]. وهو بالتالي أهمّ مصدر في الدّراسات اللغويّة التي تهتم بتطوّر اللغة العربيّة عبر تاريخها الطويل قبل الإسلام وبعده، فلا يمكن أن نفصل بين دراسة اللغة العربية ودراسة القرآن، وما بقاء الفصحى إلى اليوم إلاّ دليلا على صحّة هذا القول.

والاستشهاد بالقرآن يدرس مقارنا بالاستشهاد بالشعر؛ لأن المتصفّح لكتب النحو واللغة والتفسير في جزء كبير منها يلاحظ استشهاد أصحابها بالمادّة القرآنيّة، لذلك قد يتساءل البعض :

أ- لماذا اعتمد النحاة في تقعيد القواعد على الشعر الجاهلي[23]، وعلى النثر ؟ ولماذا قدمت بعض التيّارات الشعر الجاهلي من حيث الاشهاد به على القرآن ؟

21- النشر فى القراءات العشر : 6/1.

22- د/أحمد علم الدّين الجندي : اللهجات العربيّة فى التراث : 113/1.

23- الشعر لغة:العلم.وفي الاصطلاح : كلام مقفى موزون على سبيل القصد.. وفي اصطلاح المنطقتين:قياس مؤلف من المخيلات، والغرض منه انفعال النفس بالترغيب والتنفير. التعريفات : 127

ب- هل يقدح تأخير بعض التيارات الاشهاد بالقرآن وتقديم الشعر أو الكلام الفصيح (النثر) في حجّيّة الاشهاد بالقرآن والقراءات ؟

لقد عدّ العلماء الأوائل الشعر الجاهلي مصدرا أساسيّا في السماع واعتبروه على درجة كبيرة من الصفاء ومن الصحّة البنيويّة والمنهجيّة[24]، حتى قدمه أصحاب القياس الصرف[25] على القرآن إشهادا به واعتمادا عليه، جاء في طبقات الشعراء : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم أصحّ منه)[26].

والمتصفح للتاريخ الأدبي يلاحظ أنّ الشعر الجاهلي موسوعة لكلّ قبائل العرب،وإن كان في مجموعه ورد بالفصيح،إلاّ أنه لا يخلو أحيانا من بعض الظواهر الكلاميّة،تماشيا مع لهجة الشاعر وظروفه المكانيّة والزمانيّة،ولغة قبيلته.

وقد كان لمكانة أمّ القرى في الجاهليّة دور في هيمنة لهجة قريش، ثم تدعمت بمجيء الإسلام[27]، فوقعت العناية -تبعا لذلك- بالشعر

24- نشأة النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة : 51.

25- تتلخص مقاييس مدرسة القياس الصرف فيما يلي :
أ- عدم الاعتماد في الاحتجاج على ما حدّث به الأشياخ وما نقل عن الأئمّة.
ب- عدم الاحتجاج برسم المصحف.
ج- تغليط القراءات المرويّة إذا لم تكن موافقة لمقاييس العربيّة.
د- تصحيح ما لم يرو من القراءات إن كان جائزا في العربيّة.
أبو علي الفارسي : 171.

26- طبقات الشعراء : 23.

27- كانت الغلبة القرشيّة أيضا سياسيّة واقتصاديّة،بدأتها قريش عبر مكانة أمّ القرى في الجاهليّة.
نشأة النحو العربي بين مدرستي الكوفة والبصرة : 52.

الموافق للهجة قريش[28]، واختلفت مشارب علماء اللغة في تصنيف الفصيح والأفصح،وأخضعوا القراءات لمقاييس الشعر. وحكم بعض النحاة عليها من خلال تلك المقاييس المستخلصة من الشعر، وبما أن الخليل والكسائي قد خرجا إلى البادية وسمعا من الأعراب الذين بقوا على سليقتهم،فإنّ اعتمادهم كان على القبائل التي كانت وسط الحجاز،وفي بوادي نجد وتهامة حيث، الفصاحة. وقد أشرنا في الباب الأوّل من هذا البحث إلى هجرة القبائل العربيّة إلى جنوب العراق لتعمير المصرين الجديدين الكوفة والبصرة[29]. وهو ما يفسر انطلاق الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى السماع من بادية الحجاز، بعد أن سمع من أعراب المربد الذين كانوا يمثلون عينة مغرية جعلته يفكر في الذهاب إلى مهدهم الذي خرجوا منه مهاجرين لتعمير المصرين الجديدين، بعد أن كانوا يقيمون في بوادي الحجاز ونجد وتهامة.

وقد نجد في طبقات الشعراء لابن قتيبة مجموعة من شعراء الجاهليّة تفاوتت أشعارهم،ونقد المؤلف جملة منها فوصف بعضها بأنه جيّد،ووصف البعض الآخر بالرّداءة،-وكان في كتابه ناقدا مؤرخا في

28- يرى مكي بن أبي طالب القيسي أن الجمع العثماني برسمه الخاص للمصحف مااختلف فيه كتب بلسان قريش دون اعراب أو اجام ،قد فسح المجال لاقصاء أوجه أخرى من القراءات،بقيت مرويّة بدرجة اقلّ من القراءات المتواترة. الابانة : 49.

ونرى أن هذا الأمر نفسه قد اثر في نوعيّة الشعر الجاهلي الذي سوف يصبح معتمدا أكثر من غيره،وفق الأوجه التي حفظها القرآن،فما كان موافقا لتلك الأوجه سوف يحكم عليه بالفصاحة،وما كان على عكس ذلك فلن يعتبر فصيحا.

29- الباب الأوّل - الفصل : 1.
سمع الخليل والكسائي من بوادي الحجاز ونجد وتهامة وهي مناطق وسط الجزيرة كما اعتمد الكسائي على: أشياخ قطر بّل .(اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر).
معجم البلدان 381/4

نفس الوقت-[30] متأثرا بثقافة عصره،متشربا من مقاييس الفصاحة والأدب.في الوقت الذي كان فيه القرآن الكريم بأساليبه أعظم مؤسس وواضع لها،بالرّغم من أن استشهاد العلماء بالشعر واحتجاجهم به قد شمل الغريب،والنحو،والتفسير،وشرح الحديث[31]؛ واختيار ابن قتيبة دليل على أن الشعراء كانوا كثرا,الأمر الذي جعله يختار من اشتهر منهم،لأنّ النّاس في عصره وقبله كانوا يحفظون الأشعار ويعتنون بروايتها[32].

لقد اعتبر العلماء السليقة[33] التي كان عليها العرب،في رواية الشعر وقراءته،ممّا يسهل حفظه لأنّه كان من البراعة الأدبيّة ما يجعل السامع يحفظ بسرعة، ولا يبرّأ الشعر الجاهلي مطلقا من اللحن الذي تسرب إلى جزء منه على الأرجح،لأنّه لم يدوّن في عصره[34]. إلاّ أن تقديمه في الاشهاد لا يقدح من الاشهاد بالقرآن في شيء،سوى ما كان من المغالين في القياس الذين أشرنا إليهم.

والمتتبع لعلماء اللغة،يلاحظ كيف أجهد هؤلاء أنفسهم في البحث عن الأشعار الجاهليّة بغية الاستشهاد،والاحتجاج لما لم يرد في

30- الشعر والشعراء : 17.

31- نفس المصدر : 17.

32- أورد ابن قتيبة رواية عن الأصمعي قال : جاء فتيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء... فأنشدهم لمائة شاعر، وقال مرّة أخرى لثمانين كلّهم اسمه عمرو، قال الاصمعي: فعددت أنا وخلف، فلم نقدر على ثلاثين. فهذا ما حفظه أبو ضمضم ولم يكن بأروى الناس.
نفس المصدر : 18 .

33- السليقة : الطبيعة والسجيّة، ويقرأ بالسليقة أي بطبعه الذي نشأ عليه.
لسان العرب : 161/10.

34- أُخذ على النابغة مثلا،وعلى بشر بن أبي حازم،إقواؤهما.
الأغاني : 97/2.

القرآن بلغة قريش. فمن ذلك قراءة حمزة والكسائي (فَلِإِمِّهِ الثُّلُثُ). النساء : 11/4] قال فيها أبو حيّان : «وذكر سيبويه أن كسر الهمزة من (إِمّ) لغة، وذكر الكسائي والفرّاء أنها لغة هوازن وهذيل»[35] وكذلك قوله تعالى : [(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعف قُوَّةً) -الرّوم : 30/54] قرأ بها عاصم وقال فيها الفرّاء : الضّمّ لغة قريش والفتح لغة تميم.[36]

ومن أمثلة ذلك أيضا قراءة : [(إِن هَذَانِ لَسَاحِرَان)-طه 63/20-][37] التي أجمع النحاة على أنها لغة حارثيّة لأنّ بعض قبائل اليمن يجعلون ألف الاثنين في الرّفع والنصب والخفض على لفظ واحد ؛ ومن وجوه التأويل أيضا هو أنّ اسم الاشارة مبنيّ في المفرد، وبعض العرب تحافظ على البناء في المثنّى والجمع،فيصبح عمل المثنّى في (إن هذان لساحران) على أنه مبنيّ ملازم للبناء على ما يرفع به،مادمنا قد حكمنا ببناء المفرد والجمع؛وغير هذه الأمثلة كثير ممّا يتضح به دور الاستشهاد بالقرآن لدى النحاة.

وإذا كان النحاة قد اختلفوا في استشهادهم بالشعر مع القرآن، فلأنّ القرآن الكريم كان مرآة صادقة تنعكس عليها اللغة الأدبيّة النموذجيّة القرشيّة، إلى جانب ظواهر لغويّة أخرى جاءت وفق اللهجات العربيّة السائدة ، فتكون القراءات المختلفة قد ساهمت في عدم التفريق

35- البحر المحيط : 448/5.

36- تفسير القرطبي : 46/14
البحر المحيط : 17/4.

37- ورد في معجم القراءات القرآنيّة تسعة أوجه ما بين المتواتر من القراءات والشاذ منها.
معجم القراءات القرآنيّة : 89/4-91.

بين اللهجات واللغات،ما دامت كلها تنتمي إلى اللغة العربيّة الأم.[38]

ونـــري إنّ الاشكال الرّئيسي الخاصّ بالاستشهاد بالقرآن والشعر وتداخلهما يرتبط كما ذكرنا بمسألة الجمع،سواء كان الجمع المتعلق بالقرآن أو بالشعر والنثر.أو بالحديث بعد ذلك، فجمع القرآن سابق على جمع الشعر، فمنذ عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلم إلى عهد عمر بن الخطاب والقرآن مدون،ثم كان الجمع العثماني*. والقضيّة كما نتصوّرها هو أنّ النحاة حين وضعوا قواعد النحو لم يكن بين أيديهم مادّة السماع كلها،-هذا أمر لا نشك فيه- كما أن اختيارهم للفصيح بمقاييسهم المستمدّة من لغة قريش هو الذي جعلهم يقعون في هذا الاضطراب من قبول بعض الأوجه القرآنيّة التي قرئ بها القرآن،أوردها، والتي وصلتهم بعد أن ضبطوا الأشعار "الفصيحة" فكانت أحكامهم بعد ذلك وفق ما عرفوه من السماع ؛ يدل على ذلك اختلاف مقاييس مدرسة البصرة في الاعتماد على السّماع،وفي تحديد أوجه الفصاحة،عن مدرسة الكوفة،ممّا أدّى إلى اختلاف النحاة واضطرابهم،فلم يطّرد عندهم ما وصفوا به. وهذا ما نشاهده لدى الفرّاء الذي كان يضعف بعض الأوجه من القراءات،بالرّغم من طغيان النزعة الأثريّة عليه،[39] وفي معاني القرآن؛يشعر الباحث بأن الفراء عند استعراضه للقراءات،وإن بدا

38- إعراب القراءات السبع وعللها : 36/2.

* يرى مكي بن أبي طالب القيسي أن الجمع العثماني نزل بالقرآن من سبعة أحرف إلى حرف واحد وبقيت القراءات الأخرى تروى دون أن تكون مدعمة بالرسم العثماني وهذا ما جعلها تنعت بالشذوذ فيما بعد.
الابانة : 22 ← 24

39- أبو علي الفارسي : 428.

عالما بأغلبها، فإنه لم يوردها جميعا، وكان يستشهد بما يستشهد به دون إشارة منه إلى درجة القراءة، ومرتبتها من الرّواية، فهي جميعا عنده من السماع؛ غير أنه كان يشير إلى بعض القراء أحيانا[40]، ويصف ما اشتهر منها بأنّها قراءة العامّة.

وهذه الاعتبارات تؤدّي بالباحث إلى القول بأنّ عملية جمع المادّة المسموعة، والظروف التي أحاطت بهذا الجمع، أفرزت مذاهب ومواقف جديرة بالبحث والتقصّي، لمن يرغب في البحث والمناقشة، والاستزادة من العلم.

والاستشهاد بالقرآن أساس لبناء النظريّات النحويّة من قبل النحاة، وإن كان هناك البعض ممّن يقدم الشعر أو الأقوال النثريّة على النص القرآني لضرورة ، خاصة عند استعمالهم القياس. هذا القياس كثيرا ما يسلطونه على النص القرآني، غايتهم من ذلك الرّضوخ للقاعدة. وكما يقول البعض فإنّ هذا العمل كان على حساب القرآن[41] ؛ من ذلك أنّ سيبويه في الكتاب كان يستشهد بالشعر أكثر من استشهاده بالقرآن[42]، بسبب غلبة نزعة القياس عنده أكثر من غيره من النحاة القرّاء، وهو المنسوب إلى النحو أكثر من انتسابه للقراءة والاقراء، على عكس الفرّاء الذي كان أثريّا في الغالب، كما سبق بيانه.

وقد تطوّر تيّار القياس بعد سيبويه وتطوّر تيّار الأثر بعد الفرّاء، ممّا أدّى إلى أن ينفرد النحاة بالنحو والقراء بفنّهم ، فاشتهر ابن

40- مثال ذلك في كتابه معاني القرآن.
41- نظريّة النحو القرآني : 24.
42- نفس المرجع : 21.

مجاهد بالأثر واتباع ما تواتر من القراءات[43]، في حين اشتهر تلميذه أبو علي الفارسي بالقياس الصرف،وكان طاغيا عليه[44]، لتمرسه بالصناعة النحويّة،وبالتجريد الموغل في عمليّة القياس. وقد تدعم كذلك تيّار الأثريين في الغالب بعد تلك الفترة،ومنهم ابن جنّي في كتابه:المحتسب، وابن خالويه في كتابه:الحجّة في القراءات السبع. حيث علل اختلاف القراء باختلاف اللغات ومنه اختلاف النحاة لعدم تفريقهم بين نوعين من أنواع اللحن، إذ يقول : (فأحد ذلك -أي اللحن- أن تنصب الفاعل، وترفع المفعول، ونحو ذلك، فذلك لا يجوز في كلام ولا قرآن ولا غيره. والوجه الثاني : أن يكون اللحن خروجا من لغة إلى لغة. فقول عثمان : «نجد في مصاحفكم لحنا»*، لم يرد اللحن الذي لا يجوز البتّة. ولكنّه أراد الخروج من لغة إلى لغة.لأنّ القرآن نزل بلغة قريش، لا بلغة بلحرث بن كعب.)[45] فيظهر ممّا سبق أن كلّ فريق من النحاة -اعتمادا على اجتهاده وما وصله من السماع- قد اجتهد في تقصي الوجه الفصيح من اللغة بحسب المقاييس المعتمده عنده، ونرى أنّ بعض النّحاة بردّه بعض الأوجه من القراءات لم يكن يقصد من ذلك الطعن في القرآن،أو قراءاته،وإنما

43- كان أبو بكر بن مجاهد يقرئ كتاب معاني القرآن للفرّاء وهذا دليل على تضلعه في اللغة والنحو في حين ينسبه ابن جني إلى قلة العلم باللغة، والمرجح أن غلبة القراءة عليه جعلته ينعت بهذا النعت.
انظر :
ابن جني : المحتسب : 36/1، تحقيق:علي النجدي ناصف ، القاهرة، 1386 هـ/ 1966م.

44- أبو على الفارسى : 428.

* تذرع جولد زيهر بروايات متنوعة عن عائشة وعن غيرها ليشكّك في صحة ومصداقية الجمع العثماني ومنه الطعن في القرآن.
مذاهب التفسير الاسلامي : 41

45- إعراب القراءات السبع وعللها : 36/2.

كانت نيته الدّفاع عن القرآن من خلال ما يراه فصيحا وفق مقاييسه، -خاصة منهم النحاة السابقين على مرحلة تسبيع ابن مجاهد- فالسابقون على هذه المرحلة قد عرفوا عددا آخر من القراء،زيادة على السبعة المشهورين ،وقد ذكر ابن الجزري في النشر جملة مستكثرة من الكتب، ومن القراء،ومن أنواع القراءات،بما يفوق الخمسين قراءة[46]؛ وذلك الأمر راجع كما ذكرنا إلى تعدد اللهجات واللغات:مثال ذلك لغة بلحرث بن كعب من اليمن يقولون : (جلست بين يداه واعطيت درهمان)،وهي لغة موصوفة بالشذوذ[47]؛ وراجع كذلك إلى أن مسار علم النحو قد سبق المنهج في وضعه جمع المسموع من الشعر والنثر والحديث،فكان التمادي في الاستشهاد بالشعر على حساب القرآن،بالرّغم من كونه انطلق لخدمة القرآن؛فبقي الأثريون في الغالب أوفياء لمنهج السلف الذين لم يعارضوا القرآن بنقل أو برأي أو بقياس. يقول ابن تيمية[48]: (لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بنقل ورأي وقياس،ولا بذوق،ووجد، ومكاشفة)[49].

والاستشهاد بالقرآن علم قائم الذّات يشمل أوجه القراءات، -على اختلاف درجاتها- وإن كان بحثنا هذا يهتم بعلاقته بالقراءات السبع، باعتبارها جزءا من القرآن تتداخل معه فترتبط به ارتباط الجزء بالكلّ. لذلك وجدنا من كتب التراث ما اشتهر بذكر أوجه القراءات وتعليلها

46- النشر : 11/1.
47- إعراب القراءات السبع وعللها : 36/2.
48- انظر ترجمته في : الأعلام : ١/ ١٤٤.
49- مقدمة التفسير : 28.

نحويّا،وهي كتب معاني القرآن وإعرابه خاصّة،وكتب أخرى جاءت متأخّرة نسبيّا مثل تفسير الزمخشري،وتفسير ابن عطيّة،حيث ظهر من خلالها جميعا توظيف المادّة القرآنيّة في النحو؛ بما سمح للدّراسات القرآنيّة أن تكون أرضيّة خصبة للدّراسات اللغويّة وهذا ما سيظهر في المباحث الموالية.

المبحث الثاني :
توظيف الاستشهاد بالقرآن في المبادئ النحويّة

الحديث عن الاستشهاد بالقرآن يتطلب منا النظر في الاستدلال النحوي*، الذي أضحى ركنا أساسيّا من أركان الصناعة النحويّة. ذلك أنّ النحاة انطلقوا من استقراء الكلام الفصيح المنقول بالرّواية والسّماع واشترطوا فيه بلوغ حدّ الكثرة** حتّى يقع الاعتماد عليه ، ويشمل "السماع" النقل[50]، ومشافهة الأعراب[51].

والملاحظ أن النصوص الدّينيّة كانت من ضمن هذا السماع، وإن كان العلماء قد إختلفوا في درجة الاعتماد على الحديث، لأسباب أشاروا إليها[52].

وقد كان القرآن بقراءاته مادّة ثريّة استخدمها النحاة في الاستدلال النحوي، وقاسوا عليها، لأنها المادّة الأكثر وثوقا وضبطا حيث

* يقول السيوطي : (أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواترا أم آحادا أم شاذا. وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل ولو خالفته يُحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجز القياس عليه.)
الاقتراح : 36

** وهو استفاضة الخبر عند الأصوليين وأعلى منزلة منه التواتر.
يراجع مثلا : مسلم الثبوت وشرحه : 118/2، ط2 ، دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. 1403هـ/1983م.

50- النقل هو تحمل الرواة للنصوص وأداؤها اداء صحيحا إلى من يطلبها. ويشترط في النقل الكثرة والاطراد.

51- الأصول : 68-69.

52- يستدل العلماء بالأحاديث المروية باللفظ والمعنى وذلك نادر جدّا في الأحاديث النبوية، أما الأحاديث الأخرى فقد وقع اللحن في كثير منها على مستوى اللفظ لأن من الرواة من هو أعجمي، كما أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى.
الاقتراح : 40←44

حظيت بالنقل،والسماع،والتواتر، والمشافهة. وعلاقة الاستشهاد بالقرآن بالاستدلال النحوي علاقة متينة لأنّ الاستدلال النحوي اعتمد على القرآن بقراءاته في جزء منه،ووظفه في استخراج القواعد وفي القياس،ثم ظهر كذلك في التعليل الذي بدأ في مرحلة متأخرة[53]؛ حين تأثر الاستدلال النحوي بالاستدلال المنطقي؛ ليصبح أكثر تعقيدا،وأكثر تجريدا بعد أن أصبح صناعة.

وإذا كان السيوطي يصنّف أدلّة صناعة الاعراب إلى ثلاثة : هي كلام العرب الفصيح المنقول نقلا صحيحا والقياس والاستصحاب*[54]، فإنّ ما نقصده بالمبادئ النحويّة في هذا المبحث لا يخرج عن الأدلّة التي ذكرها السيوطي بحال من الأحوال.وإن كنّا سنحاول استجلاء الكيفيّة التي وظف بها النحاة القرآن وقراءاته في الاستدلال، استشهادا وتوضيحا،واحتجاجا، وملاحظة خصوصيّة القراءات ونسبة الاعتماد عليها في القياس،أو التعليل،أو استخراج القواعد.دون اغفال الجانب الثاني[55] من مسألة الاستشهاد بالقرآن المتعلق بالنظم القرآني وأسلوبه،وهو الذي عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز بـ «التعليق»؛يقصد به ما ينشأ من العلاقات بين المعاني النحويّة

53- من أوّل ما ألف في علل النحو كتاب "الايضاح في علل النحو" للزجاجي المتوفي سنة:(337 هـ).

* عرفه ابن الانباري بأنه ابقاء حال اللفظ على ما يستحقه في الأصل عند عدم دليل النقل عن الأصل.

54- الاقتراح للسيوطى فى الكتاب الثالث فى القياس.

55- انظر ص :282.

بواسطة القرائن اللفظيّة والمعنويّة الحاليّة[56]، فيؤدّي ذلك الأمر إلى الاستغناء عن نظريّة العوامل في النحو العربي[57].

أ- علاقة الاستشهاد بالقرآن بالقواعد النحويّة :

جاء في تعريفات الجرجاني : «القاعدة هي قضيّة كليّة منطبقة على جميع جزئيّاتها[58]» ويفهم من هذا التعريف أن القاعدة حكم كليّ مستنبط من مجموع الأحكام الجزئيّة التي ينطبق عليها. وأشهر القواعد الأصليّة وأكبرها على الاطلاق في النحو، قاعدة الافادة،أو أمن اللبس،وهي التي تقول «الأصل في الكلام أن يوضع للفائدة»[59]. وتنقسم القواعد النحويّة إلى أصليّة إذا كانت غير منتمية إلى باب من أبواب النحو مثل قاعدة الافادة،وفرعيّة إذا كانت متعلقة بباب من أبواب النحو[60]. وتماشيا مع مقتضيات البحث نتعرض في هذا الموضع لعلاقة الاستشهاد بالقرآن وقراءاته بتقرير القواعد الأصليّة،أو الفرعيّة،مقارنين بين آراء أعلام المدرستين؛ بين مدرستي البصرة والكوفة في هذا الشأن. وسيكون انطلاقنا من الاستشهاد القرآني ثم النظر في آثاره النحويّة؛من استنباط لحكم،أو استخراج لقاعدة،مع الاشارة إلى ما صاحب ذلك من مواقف النحاة،وما سمح به من تطوّر التأويل،ودفع الدّراسة النحويّة نحو استكمال أكبر معالمها.

56- د/تمام حسان : اللغة العربيّة مبناها ومعناها : 188.

57- نفس المرجع : 189.

58- التعريفات : 171.

59- الأصول : 140.

60- نفس المصدر : 141-142.

تعد الأمثلة المبثوثة في بعض كتب التفسير، وفي كتب إعراب القرآن، وكتب النحو التي تعرض للمسائل الخلافيّة، من أهمّ المصادر المعتمدة في هذا الجزء من البحث؛ لأنها حوت المادّة التراثية في هذا المجال. وللتدليل على ذلك نتعرض إلى بعض النماذج النحوية ذات العلاقة بما نبحث فيه.

* استشهد الكوفيون بالقرآن في تجويز تقديم معمول اسم الفعل عليه في الاغراء[61]؛ في مثل (عليك، ودونك، وعندك.) حيث يقول الله تعالى : [«كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» النساء 24/4][62]. أي الزموا كتاب الله. فجاز عندهم أن يقال: (زيدا عليك، وعمروا عندك. وبكرا دونك). وإن كان البصريون قد ذهبوا مذهبا مخالفا للكوفيين فقالوا بالمنع اعتمادا على عدم تقديم الفروع على الأصول؛ لأنّ الفعل أصل واسم الفعل فرع ولا يجوز أن يعمل الفرع في الأصل[63]. واتجهوا في تفنيد أدلّة الكوفيين اتجاها تأويليّا[64]؛ أكدّه الاشموني موضّحا أن ما ذهب إليه

61- الاغراء : تنبيه المخاطب على أمر محمود ليفعله.
معجم النحو : 46.

62- اجمع القراء السبع على قراءتها بذلك الوجه وقرئت شاذّة على وجهين :
- كَتَبَ اللَّهُ
- كُتُبُ اللَّه.
معجم القراءات القرآنيّة : 123/2.

63- الانصاف في مسائل الخلاف : 228/1-229 - (المسألة 27)-

64- يختلف شأن التأويل عند علماء الشرع منه عند النحاة، فإذا كان عند علماء الشرع يتمثل في صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله يكون موافقا للكتاب والسنّة فإنّ التأويل عند النحاة قد مرّ بأطوار بدءا من التقدير، وصولا ببعض النحاة إلى بعث مبادئ جديدة في النحو.
التعريفات : 50
د/ التيجاني بوريقة : التأويل في البيئة النحويّة : 34. طبعة مرقونة.

الكوفيون شاذّ،تفرّد به علي بن حمزة الكسائي شيخ المدرسة الكوفيّة[65].

والزمخشري يجاري البصريين في هذه القاعدة وينحو منحاهم فيبين أن (كِتَابَ اللَّهِ) في الآية السابقة ليس منصوبا بعليكم، وإنما هو منصوب لأنه مصدر[66]؛ والعامل فيه فعل مقدّر : (كتب كتابا اللّه عليكم)[67]، وهذا التقدير في الحقيقة تؤيده القراءة الشاذّة التي نسبها الزمخشري إلى اليماني[68].

والذي نخلص إليه من هذا المثال السابق أنّ الكسائي قد استند إلى اجماع القراء المعروفين المشهورين بقراءاتهم المتواترة واعتبره حجّة؛يزيد الاستشهاد بالآية السابقة قوة[69]. فجوّز لذلك تقديم معمول اسم الفعل عليه في الاغراء، بينما اختلف موقف البصريين عن موقف الكسائي، بسبب اعتمادهم على التجريد والتأويل ، والنحاة على ما ذهب إليه البصريون.

ومن القواعد الفرعيّة الأخرى التي توصّل إليها الكوفيون اعتمادا على القراءات المتواترة؛جواز الفصل بين المتضايفين ، وحجّتهم في ذلك قراءة ابن عامر الشامي قوله تعالى : [(وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ

65- منهج السالك إلى الفية بن مالك : 173/2 .

66- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . محمود بن عمر : الزمخشري :240/1. ط2، دار المصحف،القاهرة ، مصر د.ت.

67- الانصاف : 230/1 .

68- الكشاف : 240/1 .

69- أجمع القراء على صرف لفظة "حنين" من قوله تعالى : [(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ) التوبة : 25/9]؛ولم يجوّز البصريون منع صرفها في ضرورة الشعر، وخالفهم في ذلك أبو الحسن الأخفش، وأبو علي الفارسي،ووافقا الكوفيين وهذا دليل على حجّيّة القرآن المدعم بإجماع القراء على وجه من وجوه القراءة. الانصاف : 493/2 .

المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) الانعام : 137/6] حيث قرأ «زُيِّن» بضم الزّاي على ما لم يسمّ فاعله وقرأ «قتلُ» بالرّفع على أنّه مفعول لم يسمّ فاعله وقرأ «أولادَهم» بالنصب وقرأ «شركائِهم» بالخفض على إضافة القتل إليهم لأنهم الفاعلون،فأضاف الفعل إلى فاعله على ما يجب في الأصل، لكنّه فرّق بين المضاف والمضاف إليه. ممّا حدا بالبصريين وبكثير من العلماء من بعدهم إلى تضعيف هذا الوجه من القراءة[70]؛ لأنّ الفصل بين المتضايفين -حسب البصريين ومن تابعهم- يجوز في ضرورة الشعر لاتساع الشعراء في استخدام الظروف[71]؛ كما في قول من قال شعرا :

فَـزَجَجْتُهَـا بِمِزَجَّـــةٍ * زَجَّ القَلُـوصَ أَبِي مَـزَادَة[72]

وقول الآخر :

لَمَّا رَأَتْ سَاتِيدَمَا* اسْتَعْبَرَتْ * لِلَّهِ دَرُّ اليَوْمَ مَنْ لَامَهَا*[73]

الملاحظ بعد عرض هذه القراءة ؛ أن موقف النحاة انقسم قسمين: قسم تمسك بالأثر والرّواية وقبل هذا الوجه من القراءة،وقسم ضعّف هذا الوجه مقارنا بينه وبين الأوجه المتواترة الأخرى،ولعلّ هذا

70- ضعف البصريون،وأبو علي الفارسي،ومكي بن ابي طالب القيسي،والزمخشري وغيرهم هذا الوجه من القراءة.

71- مكي بن أبي طالب القيسي : الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : 454/1 تحقيق : د/ محي الدين رمضان ، ط2 مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان،1401هـ / 1981م.

72- قائل هذا البيت مجهول - البحر : مجزوء الكامل.

* اسم جبل نظرت إليه المراة المقصودة في البيت.

* الرجز التام.

73- مكي بن أبي طالب القيسي : مشكل إعراب القرآن : 291/1. تحقيق : ياسين محمد السواس، ط2 ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سوريا . د.ت.

الضعف يعلل بمقاييس الفصاحة كما أشار إلى ذلك ابن الجزري[74]؛ باعتبار أن في العربيّة فصيحا وأفصحا[75]. وأمّا القسم المتمسك بالأثر فقد اعتبر الرّواية وقدّمها على التعليل النحوي وعلى أساليب الشعر. ولذلك قال الفرّاء : (الكتاب أعرب وأقوى في الحجّة من الشعر)،وهو القائل أيضا : (إنّ لغة القرآن أفصح أساليب العربيّة على الاطلاق)[76] بالرّغم من أننا نجده، حين يعرض لقراءة ابن عامر السابقة-في الفصل بين المتضايفين وفي الاستشهاد لها-يقول : (وهذا ممّا كان يقوله نحويّو أهل الحجاز. ولم نجد مثله في العربيّة)[77]؛ فيبدو من خلال هذا القول أقرب إلى القسم المضعّف لهذه القراءه منه إلى من قبلها. وقد خالف الفرّاء من خلال هذا الموقف ما ذهب إليه شيخه الكسائي حين جوز ذلك ودعم له من كلام العرب ، يقولون «هذا غُلَامُ وَاللَّهِ زيدٍ» فيفصلون بين المضاف والمضاف إليه[78]. فكانت قراءة ابن عامر حجّة الكوفيين لأنها ممّا تواتر من القرآن وبذلك يتدعّم السماع من العرب. ولعلّه ممّا أُستدل به على اعتماد الكوفيين على القراءات؛ذكر هذه الأوجه في كتبهم،في حين أننا لا نجد الأخفش الأوسط يشير إلى هذه المسألة ولو تعريضا في كتابه معاني

74- النشر : 10/1.

75 يقول ابن الجزري وهو من التيّار الأثري السلفي : «وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربيّة، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرّواية، وإذا ثبت عنهم لم يردّها قياس عربيّة ولا فشوّ لغة لأنّ القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.»
النشر : 10/1-11.

76- معاني القرآن : 14/1.

77- نفس المصدر : 358/1.

78- الانصاف : 427/2.

القرآن[79]، فلعلّ هذا الوجه من القراءة لم يصله واكتفى بذكر ما اشتهر في البصرة من القراءات.

أمّا فيما يتعلق بالقواعد الكليّة؛فإنّ الكوفيين جوّزوا التقاء الساكنين مستدلين بقراءتين سبعيّتين؛الأولى للإمام نافع المدني من قول الله تعالى : [(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ومَحْيَايْ) الانعام : 162/6][80]، حيث جاز التقاء الساكنين،واستدلوا أيضا بكلام العرب، يقولون،(التقت حَلْقَتَا البِطان*)[81]؛ والقراءة السبعيّة الثانية هي قراءة ابن عامر الشامي من قول الله تعالى : [(وَلَا تَتْبَعَانْ سَبِيلَ الذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) يونس : 89/10][82]. وقد خالف الكوفيون بهذا القاعدة الكليّة التي أقرها البصريون -وهي على طرفي نقيض- حيث لا يجوّزون التقاء الساكنين[83]، في حين جوزها الكوفيون مستندين إلى دخول نون التوكيد الخفيفة على فعل جماعة النسوة،وإليه ذهب يونس بن حبيب البصري[84].

ومن القواعد الكليّة أيضا ما جوّزه الكوفيون من إضافة الشيء إلى نفسه،مستدلين بآيات قرآنيّة أجمع القراء السبعة وغيرهم على قراءتها بنفس الأوجه،وهي على التوالي : قوله تعالى : [(إِنَّ هَذَا

79- معاني القرآن الأخفش الأوسط : 504/2.

80- قرأ بهذا الوجه نافع براو ييه وقرأ به من العشرة أبو جعفر. معجم القراءات القرآنية : 340/2.

* تقرأ بإثبات الألف مع لام التعريف.

81- الانصاف : 651/2.

82- أورد قراءة التخفيف لابن عامر، الدّمياطي في إتحاف فضلاء البشر : 116/2 ولم يرو ابن خالويه هذا الوجه في كتابه : اعراب القراءات السبع وعللها، بل اكتفى بما اشتهر عن أبي عامر.

83- الانصاف : 652/2.

84- نفس المصدر : 650/2.

لَهُوَ حَقُّ اليَـقِينِ) الواقعة : 95/56]،وقوله تعالى : [(وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ) يوسف 109/12]،وقوله تعالى : [(وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ) الانعام : 32/6]، فاليقين في الآية الأولى نعت للحق والنعت في معنى هو المنعوت[85]، فكانت القاعدة المستخلصة هي جواز إضافة اسم إلى اسم يوافقه في المعنى. وقد جاء مثله في شعر العرب مثل قولهم :

يَا ضَبُّ إِنَّ هَوَى القُيُونِ أَضَلَّكُمْ * كَضَلَالِ شُعْبَةَ أَعْوَرَ الدَّجَّالِ[86]

فدلّ بالدّجّال على الأعور وهو واحد[87]. وقد خالف البصريون الكوفيين في ذلك،لأنّ المضاف يتخصص بالمضاف إليه أو يتعرف به عندهم، فلا يتخصص الشيء عندهم أو يتعرف بغيره[88]؛ وهم بذلك يلتجؤون إلى التأويل ، مقدرين مضافا إليه محذوفا باقية صفته دالة عليه مثل تقديرهم في قوله تعالى:[(وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ) يوسف : 109/12] ولدار الساعة الآخرة. والصحيح ما ذهب إليه البصريون لأنه لا ترادف في اللغة العربيّة* ولا يكنّى بالشيء على نفسه، غير أن القاعدة المستخلصة تؤكد اعتماد الكوفيين على القرآن واحتجاجهم واستشهادهم به.

85- نفس المصدر : 437/2.

86- من بحر الكامل.

87- السيوطي : الاشباه والنظائر : 306/3، ط1 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان،1404 هـ / 1984م.

88- شرح ابن عقيل على ألفيّة بن مالك : 49/2.

* أبو هلال العسكري : الفروق في اللغة : 12 ، ط5، تحقيق لجنة احياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، 1403هـ/1983م.

والمتأمّل في القواعد النحويّة، يجد توظيف القراءات في القواعد الفرعيّة أكثر منه في القواعد الكليّة، باعتبار أن الكلّي أشمل وأقرب إلى التنظيم والتعميم منه إلى التطبيق والتخصيص، فبذلك تكون القاعدة الكليّة مستفادة من خصوصيّة العقليّة النحويّة ومن المنهج المستخدم، ولذلك اختلفت القواعد الكليّة بين المدرستين وتبعتها القواعد الفرعيّة التي يستدلون ويحتجون لها بالقرآن وقراءاته. فمن ذلك ما جوّزه الكوفيون من العطف على اسم إنّ بالرّفع قبل مجيء الخبر[89] وماجوّزوه من العطف على الضمير المخفوض[90] وما جوّزوه من العطف على الضمير المرفوع المتصل في اختيار الكلام[91]؛ مستدلين للأوّل بقوله تعالى : [(إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى) المائدة : 69/5] فعطف «الصابئون»[92] على موضع إن قبل تمام الخبر. وقد جوّز الكسائي ذلك مطلقا؛ في حين جوّز الفرّاء ذلك فيما لم يظهر فيه عمل إنّ، فخالف بذلك شيخه واتخذ موقفا بين الكسائي والبصريين[93].

واستدلّوا للثاني بقراءة حمزة بن حبيب الزيات شيخ الكسائي حيث قرأ : [(وَاتَّقُوا اللّهَ الذِي تَسَّاءَلُونَ بِه وَالأَرْحَامِ) النساء : 1/4] بالخفض، فتفرّد في القراء السبعة بهذه القراءة[94]، واستشهدوا أيضا

89- الانصاف : 185/1.

90- نفس المصدر : 464/2.

91- نفس المصدر : 474/2.

92- قرأ و"الصائبين" ابن كثير من القراء السبعة وقرئت كذلك في الشواذ. معجم القراءات القرآنية : 230/2.

93- الانصاف : 186/1.

94- قرئت في الشواذ، والأرْحَامِ وبالأرْحَامِ.

بقوله تعالى : [لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْم... وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) النساء : 162/4] ؛وقدروا فيها وجهين :

الأوّل : (والمقيمين) في موضع خفض بالعطف على الكاف في إليك فيكون التقدير : يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة؛ يعني من الأنبياء عليهم السلام.

الثاني : جواز أن يكون عطفا على الكاف في (قبلك) والتقدير فيه : ومن قبل المقيمين الصلاة ؛يعني من أمتك[95].

فنراهم بذلك يجهدون أنفسهم -أي الكوفيين- في جمع الشواهد من أجل تأكيد وجود عطف الاسم الظاهر على الضمير المخفوض في اللغة،وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبار هذه القاعدة اللغويّة من الضرورات[96].

واستدلّوا للثالث -أي جواز العطف على الضمير المرفوع المتصل في اختيار الكلام- بقول الله تعالى : [(ذُو مِرَّةٍ فَأَسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى) النجم : 7 /53][97]، فعطف ضمير المفرد الغائب (هو)، على الضمير المرفوع المتسكن في (استوى)،فيكون المعنى : فاستوى جبريل ومحمد بالأفق[98]؛ لكن البصريين اعتبروا الواو -في وهو- واو حال لا واو عطف[99].

95- الانصاف : 464/2.
96- البحر المحيط : 147/2 فما بعدها.
97- قرا حمزة والكسائي وخلف «استوى» و«الاعلى» بالامالة، وقراهما أبو عمرو ونافع وورش بالتقليل.
معجم القراءات القرآنية : 8/7.
98- الانصاف : 274/2.
99- نفس المصدر : 275/2.

فالعرض لهذه الأمثلة يوضح المنهج الكوفي في استخراج القواعد النحوية الكلية والفرعية.

ب- توظيف الاستشهاد بالقرآن في التعليل النحوي :

لعلّ البحث في العلل[100] النحويّة متأخر نوعا ما[101] عن المبادئ النحويّة عامّة ، لأنّ هذا الموضوع بالذّات يعكس لنا مستوى فكريّا معينا ونضجا عقليّا لم يكن أبدا بمنأى عن الجوّ العلمي العام الذي ساد بداية من القرن الثالث* إلى أواخر القرن الرّابع الهجري وما بعده[102]، والذي لم يكن مثيله في القرنين الأوّل والثاني للهجرة، بسبب اختلاف الاهتمامات الفكريّة والعلميّة. فالمتأمل يلاحظ أن ظاهرة التعليل لم يشتد عودها إلاّ بعد نضج الدّرس النحوي.

100- يقول التهانوي : العلّة لغة:اسم لعارض يتغيّر به وصف المحلّ بحلوله. واصطلاحا: تطلق على معان،منها ما يسمى علّة حقيقيّة وشرعيّة ووصفا وعلّة اسما ومعنى وحكما،وهي الخارجة عن الشيء المؤثرة فيه.
كشاف اصطلاحات الفنون : 1036/2.

101- يعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 179 هـ) أوّل من بسط القول في العلل ، وكان هذا التعليل بسيطا تفطن إليه من طبيعة الدّراسة النحويّة ولم ينسبه إلى ثقافة غير الثقافة العربيّة.
الزجاجي : الايضاح في علل النحو : 65-66 ، تحقيق : د/مازن المبارك، ط5 1406 هـ / 1986م دار النفائس ، بيروت ، لبنان.

* هذه الظاهرة لم تكن سائدة في القرن I والقرن II للهجرة نظرا إلى اعتناء الشيوخ وانصراف اهتمامهم بضبط كتاب الله نقلا ورواية وضبطا وتفسيرا واعرابا...

102- يقسم الباحثون العلل النحويّة إلى تعليميّة وقياسيّة وجدليّة الأولى يحتاجها الناشئة في تعلم النحو وهو ما بدأه الخليل. وأمّا العلل القياسيّة والجدليّة أو العلل الثواني والثوالث فتزيّد لا جدوى فيه إلاّ شغل العقل بالتأمّل والنظر.
الايضاح في علل النحو : مقدمة الدّكتور شوقي ضيف : ص هـ.

وإذا كان البحث النحوي قد تطوّر في هذه القرون الأربعة بتطوّر المدارس النحويّة وتنوّعها فظهرت المدرسة البغداديّة مع المدرسة البصريّة والمدرسة الكوفيّة،فإنّ التعليل النحوي قد استخدم الاستشهاد بالقرآن والاستدلال به انطلاقا من رؤية بصريّة أو كوفية أو بغداديّة. وهذا يدعونا إلى التركيز على مدى توظيف الكوفة للاستشهاد بالقرآن في التعليل.

المتتبع للاستدلال يلفت انتباهه أنّ مثل هذه الظاهرة لم تكن بعيدة عن ساحة التعليل النحوي[103] وإن بدا الاستدلال به في بعض الأحيان غير معمق ولا يمس جوهر القضايا النحوية : فنرى بعض النحاة مثلا يستدلون بقوله تعالى [(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) النور : 39/24] لبيان أن المعدوم شيء، والمقصود في الآية "السراب" وقد أوردوا هذا الاستدلال في سياق جدلي الغاية منه الوصول إلى أنّ الاسم لا يسبق المسمى وبالتالي يبطل احتجاج البصريين بسبق المصدر الفعل[104]، فيكون المصدر مأخوذا من الفعل على قول الكوفيين*.

103- تحدث ابن جنّي في الخصائص عن العلل النحوية،واعتبره مبحثا من مباحث أصول النحو. وادعى السيوطي من خلال كتاب الاقتراح أنه أول من ألف في أصول النحو بما في ذلك الحديث عن العلل النحوية.
يراجع : الاقتراح للسيوطي

104- الايضاح في علل النحو : 57 - 58

* يرى البصريون أن الفعل مأخوذ من صحيح المصدر،والمصدر سابق له،فهو اسم الفعل. وقد أورد ابن الأنباري ذلك في المسألة الثامنة والعشرين من كتاب الانصاف.
الانصاف : 1/ 235 - العلل النحوية : 56

ومن أمثلة التعليل أنهم حين بحثوا في سبب دخول الاعراب في الكلام؛فسروه برغبة العرب في الاتساع في الكلام[105] ، وقد اعترض قطرب[106] على هذا الرّأي مستدلا بما يعترض هذا القول فبيّن أن في كلام العرب أسماء متفقة في الاعراب مختلفة في المعاني، وأسماء مختلفة الاعراب متفقة المعاني، واستدل لما اختلف اعرابه واتفق معناه بقراءتين :

أولاها : [(إِنَّ الأَمْرَ كُلَّه لِلّهِ) آل عمران : 154/3] [107]

ثانيها : [(إِنَّ الأَمْرَ كُلُّه لِلّهِ) آل عمران : 3/ 154][108]

كلا هما على معنى واحد. فمما سبق يلاحظ الباحث أنّ المذهبين الكوفي والبصري يستدلان بالقرآن في معرض استشهادهما وإن كانت قضية التعليل أقرب إلى التجريد والاستدلال المنطقي الصرف، ولكنا مع ذلك نرى أن الفريقين يقحمان الاستشهاد بالآيات القرآنية لتوضيح رأي أو الاستدلال على مسألة فرعية في الاستدلال العقلي.

ومن أوجه الاستشهاد بالقرآن والاستدلال به في التعليل ما

105- نفس المصدر : 70.

106 -هو محمد بن المستنير، تتلمذ على سيبويه، ينسب إلى مذهب البصريين في اللغة والنحو،توفي سنة:(206هـ). طبقات الزبيدي : 106 - إنباه الرواة 319/3.

107- قرأ بذلك جميع القراء السبعة إلاّ أبوعمرو البصري.
معجم القراءات : 78/2.

108- قرأ به أبو عمرو من القراء السبعة،ويعقوب من القراء العشرة،وقرأ به اليزيدي في الأربعة عشر.
نفس المصدر : 78/2.

الكَافِـرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) مـريم : 19/ 83[114]؛ فـسـره ابن جنّي بأنه في مـعنى تهـزهم هزّا أي تزعجهم وتقلقهم، والهمـزة أخت الهاء فتقـارب اللفظان لتقارب المعنيين،والأز أقوى من الهز[115]؛ فيكون وقع ذلك أكبر في النفوس باعتبار أنّ الهمزة أقوى من الهاء وأشد.

وبالرغم من أن علماء اللغة قد أغرقوا في التعليل فبحثوا عن علل أعمق وأوسع ،إلاّ أنّ الاستشـهاد بالقرآن في هذا الجانب من الدراسة اللغـوية ذ معنى لما في الاسـتشـهـاد بالقـرآن من تثبيت وتأكيـد لأوجه التعليل المرادة.

ج) توظيف الاستشهاد بالقرآن في عملية القياس:

المتـتبع لنحاة الكوفـة يلاحظ أنّ أبلغ مـا اشـتـهـر به الكـوفـيـون اتساعـهم في الرّواية فكانت ثقافتهم العربية طاغية على نزعـاتهم العلميّة، على عكس نحـاة البـصرة الذين كان العـامل الفلسفي عندهم طاغيا على الدراسة النحـوية مما أدى إلى ظهور القياس وتطوره واتخـاذه وسيلة وآلة لتقعيد قواعد اللغة العربية.

وشـأن القـيـاس في الكوفـة لم يكن مما ثلا لما كـان عليـه في البصرة بالرغم من أخـذ الكوفة عن البصرة وقد مـضى في الفصل الخاص بالكسـائي[116] الحديث عن توسع الكسـائي في القـيـاس وتطـويعه للثـقـافة الكوفية والعـقلية الكوفية آنذاك. ممّا أدى إلى استـخـراج قـواعـد خـاصة

114- قرا حمزة بتسهيل الهمزة بين بين وقفا. معجم القراءات : 60/4.
115- الخصائص : 146/2.
116-يراجع الباب الأول : الفصل الثالث .

بالكوفة انطلقوا إليها عبر السماع والقياس عليه.

والمتصفح لكتب الخلافات النحوية عموما،وكتاب الانصاف في مسائل الخلاف خصوصا،يلاحظ أن أدلة الكوفيين منقسمة إلى قسمين :

نقلية يعتمدون فيها على القرآن والشعر والحديث والأمثال[117] وهي عندهم من النقل، وعقلية يطلقون عليها القياس[118].

ومن أقيسة الفراء -وهو كوفي- المستلهمة من القرآن قياسه على قول الله تعالى : ["وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ" البقرة 184/2]؛جوّز الفرّاء تأخير الخبر المسند دون (أما) إلى (أنّ) كما في قول الله تعالى : ["وآية لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا" يسٓ : 36/41]،قياسا على الآية الأولى حيث أخر الخبر المسند إلى (أن) المخففة،مع العلم أن جمهور النحاة أوجب تقديم الخبر عندما يكون مسندا دون (أما) إلى(أن) المفتوحة المشددة[119]. ومن أقيسة الفراء المستلهمة من القرآن والقراءات قياسه كسر الهمزة في (أمّ) على كسر الهاء في (هِم) يقول : (كل موضع حسن فيه كسر الهاء مثل قولهم : فيهم وأشباهها جاز فيه كسر الألف من (أم) وهي قياسها)[120] وكسر الهمزة من (إِم) قراءة حمزة كما سبق بيانه. ومع أن

117- تفاوت استدلال الكوفيين بالنقل بحسب أهميته عندهم فكانوا يقدمون القرآن والشعر على الحديث والأمثال.

118 يراد بالقياس الدليل العقلي عموما،ويراد به القياس النحوي بأركانه كما هو عليه كذلك في الفقه لتداخل الدراستين النحوية والفقهية. من حيث تأثر أصول النحو بأصول الفقه. كشاف اصطلاحات الفنون : 3/ 1189- 1190.

119- الهمع : 103/1.

120- معاني القرآن : 6/1.

121- القياس النحوي : 255.

هذا سماع في كلام العرب من هوازن وهذيل.فإن القراء تقيسه على نظير له لتقارب مخرج الهمزة والهاء وهذا مما يؤكد تعمق الفرّاء في القياس[121].

وبما قاس عليه الفراء من القراءات وجوز من خلاله حكما نحويّا وصوتيا بالتحديد،هو قراءة من قرأ (ألمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إلاَّ هُوَ)[122] نقل فتحة همزة (الله) إلى الميم قبلها وأيده الكسائي كذلك بما قرأه عليه بعض الأعراب من سورة (قّ)؛قرأ:(مَنَّاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبِنَ الَّذِي)[123] وكذلك قراءة أبو جعفر المدني -من القراء العشرة- [(وَإِذْ قُلْنَا للملَائِكَةُ أسجُدُوا) البقرة : 33/2]،فقاس الهمزة الوصلية على الهمزة المتحركة لأنّ الهمزة الوصلية عند الابتداء تكون في النطق مثل الهمزة الأصلية فلذلك جوّز الكسائي القياس عليها.[124]

وحكم النقل كما هو معلوم -نجده عند ورش راوي الامام نافع- حيث ينقل حركة همزة القطع إلى الحرف الساكن قبلها الملاصق لها، فيتحرك الساكن بحركة الهمزة، وتسقط الهمزة بشروط[125]؛ ويراد بالنقل التخفيف. وباقي القراء يقرأون بعدم النقل على الأصل،سوى بعض الكلمات المستثنات فدلّ ما جاء به الكسائي على جواز القياس

121- القياس النحوي : 255.

122- آل عمران : 1/3.

123- ق : 25/5.

124- الانصاف : 742/2.

125 أن يكون الساكن قبلها غير حرف مد،أو لام تعريف،أو غير ذلك سواء كان أصليا أو زائدا. - المغني : 110/1.

على ما قرئ به.

وسنرى في الباب الثالث من البحث أوجها أخرى من توظيف القراءات في القياس مما يؤكد أهمية الاستشهاد بالقرآن وتوسيع استخدامه في القياس والتعليل.

د) توظيف الاستشهاد بالقرآن في قواعد التعليق:

التعليق لفظ متعلق بتفسير العلاقات السياقية والكشف عنها في اللغة العربية،وأول من اصطلح على هذا اللفظ في التراث العربي اللغوي هو عبد القاهر الجرجاني كما سبق بيانه. وهذه الدراسة حديثا تتعلق بالنظام النحوي للغة العربية وتقوم على جملة من الأسس.[126] ولاشك في أن عبد القاهر الجرجاني قد أفاد من أساليب القرآن أيما إفادة،وبنى على ذلك أسس البلاغة العربية بحثا منه عن أسرار الاعجاز ودلائله.

ولا نقصد من وراء هذا المبحث ابراز دور الكوفيين أو البصريين في هذا العمل باعتبار أنّ هذا العلم -علم البلاغة- لم يستو على سوقه إلاّ في القرنين الرابع والخامس الهجري، إلاّ أن أوجه القراءات المتعلقة بآي القرآن قد جعلت الدراسين يقفون على أوجه التناسب أو التنافر في هذا البناء اللغوي وما يتميّز به مقارنا باللغات الأخرى.

126- النظام النحوي في اللغة العربية ينبني على معاني الجمل أو الاساليب،وعلى معاني الأبواب المفردة،وعلى العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة،كالإسناد والتخصيص، وغيرهما،وعلى القرائن الصوتية.أو العرفية الضرورية لعلم النحو.
اللغة العربية مبناها ومعناها : 178.

وقديما قارن بعض العلماء بين الفاصلة القرآنية والقافية الشعرية وحاولوا الوقوف على أوجه الاتفاق أو الاختلاف لتفهم خصائص العبارة القرآنية.

يقول الزركشي : (ويمتنع استعمال القافية في كلام الله تعالى لأن الشرع لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه لأنها منه وخاصة به في الاصطلاح.)[127]؛ وحاولوا أن يطبقوا ما لاحظوه في الشعر على أسلوب القرآن، من ذلك ملاحظة القدامى وقوع الايطاء في القرآن[128]؛ وهو ليس بقبيح إنما يقبح في الشعر وذلك في مثل قوله تعالى : (كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" البقرة 101/2 .) ثم قال في آخرين ("كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" البقرة 103/2 .) ثلاث فواصل متوالية (يَعْلَمُونَ)،(يعْلَمُونَ)،(يَعْلَمُونَ) فهذا لا يقبح في القرآن[129]. ومن مثل ذلك السجع في القرآن. فهو ظاهرة صوتية هامة كثيرا ما تثير الاحساس وتجلب الانتباه وخاصة في الخطابة. فلا غرابة إذا ما رأينا القرآن يسلكها أحيانا في السور المكية؛ وقد نزل القرآن بأساليب العرب، ففي سورة قاف مثلا نجد آخر الفاصلة مختوما بحروف تتشابه في الصفات مثل الباء،والدال،والجيم،فهي جميعا من حروف الشدّة ومن حروف القلقلة. وقد تفطن الزركشي إلى ما سمّاه "إيقاع المناسبة" فتحدث عنه وبيّن أهميته في المحافظة على نسق اعتدال الكلام، بما يؤثر في النفس تأثيرا عظيما ويمثل لذلك بقول الله عزّ وجلّ [(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) الأحزاب : 10].حيث ألحقت الألف بالظنون لأن

127- البرهان في علوم القرآن : 95/58/1.

128- الايطاء في الشعر : أن يقفى بكلمة ثم يقفى بها في بيت آخر. المعجم المفصل: 275/1.

129- البرهان في علوم القرآن : 57/1.

مقاطع فواصل هذه السور ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف،فزيدت على النون ألف لتساوي المقاطع وتناسب نهايات الفواصل[130]. ومما يدخل في التعليق عند القدامى نظرية العامل التي فسّر بها النحاة العلاقات النحوية وهي بدورها مرتبطة بالاعراب،وهو بدوره بحاجة إلى الصوتيات والصرف،ولذلك تداخلت الدراسات الصوتية والنحوية[131]، وجميعها اعتمد العلماء فيها على الاستشهاد بالقرآن.

ومن أمثلة البحث في النظام النحوي اختلافهم في عامل الجزم في جواب الشرط، فقد ذهب الكوفيون إلى أنّ جواب الشرط مجزوم على الجوار لأن جواب الشرط مجاور لفعل الشرط لازم له لا يكاد ينفك عنه فلما كان منه بهذه المنزلة في الجوار حمل عليه في الجزم، فكان مجزوما على الجوار. ومثل هذا ورد في القرآن الكريم[132] واستشهدوا لذلك بقول الله عزّ وجلّ ["وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ" المائدة : 6/5][133]. قرأ بعض القراء السبعة هذه الآية الكريمة بالخفض على الجوار،وهم : أبو عمرو وابن كثير وحمزة وشعبة. وقرأها بالنصب : نافع وابن عامر والكسائي وحفص[134]، فمن قرأ بالنصب جعل العامل "اغسلوا" ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء[135]، فعطف على

130- البرهان : 61/1.

131- اللغة العربية مبناها ومعناها : 185 .

132- الانصاف : 602/2.

133- قرأها الحسن البصري والوليد بن مسلم عن نافع "أرجُلُكُم". البحر المحيط : 438/3

134- إتحاف فضلاء البشر : 530/1 ـ 531.

135- الجامع لأحكام القرآن 91/6.

الرؤوس لأنها أقرب إلى الأرجل من الوجوه فدل ذلك علي أنّ الشارع أراد بالمسح الغسل،ويعضده ما جاء في السنة ومـــا أجمع عليه علماء المسلمين[136]. ومن نصب (أرجلَكُم) عطفه علي الوجوه والأيدي فكان غسل الأرجل حكما واضحا يحقق الغسل الذي أريد على عكس الخفض الذي يتولد عنه اشكال في ايجاب الغسل أو المسح[137].

والذي نخلص إليه من هذا المثال أن تغير علامات الاعراب بحسب اختلافات القراءات القرآنية والسبعية منها بالخصوص قد نتج عنه اختلاف في فهم الأحكام،وثراء في المعاني،وهذا بدوره يدل على ما لارتباط قواعد التعليق بعضها ببعض مما يؤكد دقة النظام النحوي العربي وتشابك العلاقات النحوية فيه،وتداخلها،مما أدى بدوره إلى تطور الدراسة النحوية ، من ذلك أن مكي بن أبي طالب عند محاولته الكشف عن الحجة في الخفض على الجوار في آية المائدة السابقة بين أن دليل العطف على «الرؤوس» عند الخفض هو حمل العطف على الأقرب من حروف العطف ومن العاملين في كلام العرب؛مستدلا أيضا ومستشهدا بالقران الكريم من آيتين : الأولى :

- قول الله عزّ وجلّ : ["وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا" الجن : 7/72].فبين أنه أعمل (ظننتم) في (أن) لقربها منها لأنه لو

136- الكشف : 407/1.

137- نفس المصدر : 407/1.

أعمل (ظنوا) في (أن) لوجب أن يقال : كما ظننتموه.[138]

الثانية :

- قول الله عزّوجلّ :["يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ"* النساء : 176/4] الشاهد فيه أنه حين علق الحرف بـ(يفتيكم) لقربه منه ولو علقه بـ (يستفتونك) لقال يفتيكم فيها في الكلالة، أعمل القريب دون البعيد[139] وهو كثير في القرآن الكريم.

فوضح من هذه الأمثلة التي أوردها مكي بن أبي طالب وغيره أن هذا المبحث الأخير من قواعد التعليق يشمل في الحقيقة الدراسة النحوية برمتها،لأنه-كما سبق بيانه - لا يمكن فصل الدرس الصوتي، عن الدرس الصرفي، عن الدرس النحوي، باعتبارها جميعا تصب في مصب واحد هو ضبط اللسان العربي، والكشف عن خصائص اللغة العربية، فبان أن الاستشهاد بالقرآن ركن أساسي قامت عليه علوم اللغة وتفاعلت به ومعه فكانت العلوم الاسلامية منبثقة من الحاجة إلى بناء الحضارة العربية الاسلامية، حضارة النص القرآني المقدس فهما وتفسيرا... إبداعا وتحليلا...

138- نفس المصدر : 406/1.

* الكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الاعياء. والكلالة يراد بها ثلاث معاني :
1- يطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا.
2- على من ليس بولد ولا والد من المخلفين.
3- على القرابة من غير جهة الولد والوالد.
الكشاف : 254/1-255

139- الكشف : 406/1.

الباب الثالث :

اختلاف القراءات ساعد على التوجهات النحوية الكوفية

رأينا كيف أن الاستشهاد بالقرآن لعب دورا هاما في تركيز أسس الاستدلال النحوي بما مثل نقلة نوعية في اللغة من حيث الاهتمام بدقائقها اعتمادا على كثرة الشواهد القرآنية والشعرية. ولما كان القرآن أول المصادر العربية تدوينا وحجية،فإن الاعتماد عليه وعلى قراءاته أمر يحمل حجيته في ذاته لان علماء القراءات هذبوا أسانيد الروايات وميزوا بين أصناف القراءات فأصبحت مادة ميسرة للغويين والنحاة كي يعتمدونها مطمئنين على سلامة ورودها. وفي هذا الباب سنحاول ربط الصلة بين اختلاف القراءات الذي كان أمرا بارزا من خلال الروايات المتعددة لهذه القراءات وبين النحو باختلاف مشارب النحاة بما مكن من ظهور مدارس مستقلة نخص بالذكر منها مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة.

وبطرحنا لجملة القضايا التالية يستكمل هذا البحث أهم جزئياته، فيكون الفصل الأول من هذا الباب متعلقا باعتماد نحاة الكوفة على السماع والقياس.والفصل الثاني مهتما بمدى اعتماد هؤلاء النحاة على القراءات السبع ومدى تسخيرها لنظرياتهم النحوية.لنختم هذا الباب بفصل أخير يحوصل خصائص النحو الكوفي باعتباره نحوا يعتمد على السماع ويهتم بما يعرف بالشاهد.

كما سيكون الاعتماد في انجاز هذا الباب بفصوله الثلاثة على شواهد من القراءات السبع حاولنا أن تكون مختارة على أساس ارتباطها بكل مبحث لتؤدي الغرض المطلوب. أما المنهج الذي سلكناه لاستيفاء هذه الفصول حقها من الدراسة والتحليل فهو منهج تحليلي يعتمد

علي استقراء الكتب النحوية والنظر في حجية ما ورد من المسائل وعمق ارتباطها بالقراءات السبع بالخصوص ولم ننطلق من القراءات السبع لأن المادة العلمية المتوفرة في كتب القراءات لم تهتم في بداية عهد علمائها بالتأليف بالقضايا النحوية التوجيهية الاحتجاجيّة؛إلاّ في مرحلة لاحقة على مرحلة جمع القراءات وتدوينها،وذلك راجع إلى ظهور نزعات المفاضلة بين القرءات بحسب اختلاف المشارب إلى أن حسم هذا الامر بتسبيع ابن مجاهد واتباع العامة والعلماء بعده لهذا التسبيع.وهو اختيار له مقاييسه الخاصة يمكن للباحثين أن يتحروا في شأنها ويخصوها بالدراسة والتمحيص باستجلاء مقاييس ابن مجاهد دراية ورواية.

الفصل الأول :

اعتماد نحاة الكوفة على السماع والقياس

المبحث الأول :

دور السماع[1] لدى نحاة الكوفة.

لعل طرحنا لهذه المسألة في هذا المبحث يثير فينا جملة من التساؤلات أهمها: متى بدأت الكوفة بعلمائها تهتم بالسماع وتجعله في دائرة حسبانها لكي ينتهي الأمر بعلماء الكوفة قراء ونحاة إلي استخدام هذا المسموع؟ ومن هو أول الكوفيين جمعا للمادة المسموعة، وكيف وقع استخداها وعمن أخذ الكوفيون سماعهم؟ .

كلّ هذه التساؤلات نحاول أن نجيب عنها طبقا لما يقتضيه البحث.

من المعلوم أنّ الكوفة بيئة قراءة وإقراء وبيئة رواية اشتهرت أسانيدها بكونها مأخوذة عن أجلة من الصحابة مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود قبلهُ، ثم اشتهر بعدهم أعلام من التابعين وتابعيهم فكان أبو عبد الرحمان السلمي مثلا قد أقرأ بالكوفة أكثر من أربعين سنة[2]، كما أن وجود بني أسد بالكوفة وهم أهل قرآن وفصاحة دعم الرواية في الكوفة، زيادة على أن الكوفة اشتهرت برواية الشعر قرابة قرن من الزمن؛ بما سمح بظهور أعلام في هذا المجال أمثال : المفضل الضبّي[3]، المتوفي سنة:(168هـ - 784م) وغيره من الرواة المعاصرين

1- السماع لغة يختص بالمنطوق من الكلام.وهو من اهم وسائل معرفة اللغة. وقد ورد في لسان العرب : "رجل سمّاع إذا كان كثير الاستماع لما يقال" لسان العرب مادة : سمع.

2- غاية النهاية : 413/1.

3- هو أبو العباس المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر يرجع نسبه إلى بني ثعلبة مقري نحوى إخباري موثق ، أخذ القراءة عنه علي بن حمزة الكسائي. غاية النهاية : 307/2.

له[4]. وبقيت الكوفة على ذلك الحال إلى أن أخذ أبوجعفر الرؤاسي النحوي الكوفي عن أبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر من البصريين[5]. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن ظروف السماع ونشأته بالبصرة.

لقد اهتمت البصرة بالسماع منذ أواخر القرن الأول الهجري، واشهر من رحل إلى البادية ليسمع من الاعراب الذين بقوا على السليقة الحسن البصري* المتوفي سنة: (110هـ - 721م)، وعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي المتوفي سنة: (117هـ - 728م). وليست هذه العملية غريبة عن الثقافة العربية حيث كان العرب من أهل الحضر يبعثون بأبنائهم إلى البادية لينشأوا على حسن البديهة ومكارم الاخلاق وشدة البأس، والشجاعة والفصاحة، التي هي أبرز سمات العربي الصريح[6]؛ ولنا في نشأة النبي الأكرم بالبادية أكبر دليل على ذلك، حيث نشأ محمد عليه السلام في بادية بني سعد...[7]

4- الفهرست : 102.

5- معجم الادباء : 124/18.

* وفيات الأعيان : 128/1

6- العربي الخالص النسب.

7- نشأ النبي الاكرم في بادية بني سعد أين رضع من حليمة السعدية، لكن حادثة شق الصدر حالت دون بقائه في بادية بني سعد، فانتقل مع أمه آمنة إلى المدينة.
ابن كثير : السيرة النبوية : 225/1 - 230.
قال السيوطي : (وروى أبوعبيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال : نزل القرآن على خمس لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية وثقيف.
قال أبوعبيد : وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر. وكان مسترضعا فيهم.)
المزهر : 210/1.

من هذا المنطلق تصبح مسألة الخروج إلى البادية مسألة اعتادها العرب وألفوها منذ القدم،تمثل عندهم مصدر النقاء ورمز الفطرة، والجبلة، والصحة، والقوة ،ومن أجل كل هذه الميزات استنجد أعلام اللغة بالبادية عندما فشا اللحن واتسعت رقعة أرض الاسلام فكانت المدن والامصار الكبرى -وخاصة منها التي تزخر بالأنشطة الاقتصادية- مواطن نشأة اللحن وتطوره مما دعم المناداة بالعودة إلى المنابع وهذا ما فهمه أعلام اللغة وسعوا في تحقيقه فظهرت آثار ذلك في المؤلفات التي وصلتنا مثل قولهم : "سمع أعرابيا يقول..." و"سمعت أعرابيا يقول..."[8] وغيرها من الألفاظ التي تدل دلالة واضحة على اعتماد النحاة على السماع.

واستمرت رحلات أعلام من البصرة أمثال الليث بن المظفر[9]، والأصمعي، اللذين شعرا بأهمية هذه الرحلات في تنمية الزاد اللغوي،والوقوف على اختلاف اللهجات العربية واختلاف اللغات رغم الانتماء إلى لغة واحدة.

ونسب أصحاب هذا العمل كل لهجة إلي قبيلتها وكل لسان إلى منطقته من الجزيرة العربية مع تفاوت في الأخذ ونشأت تبعا لذلك عملية المفاضلة بين الألسن،مع النقد والمقارنة بينها،وبين لغة قريش التي نزل معظم القرآن بلسانها. والذي يظهر لنا هو أن هذا السماع شامل. حيث أنه بالرغم من عدم تخصيص هذا السماع بشيء ما مثل اللهجات

8- الكتاب : 328/1.

9- ترجمته في معجم الأدباء : 43/17.

أو الامثال أو الاشعار؛ فالواضح هو أن من رحلوا إلي البادية تعلقت همتهم بضبط اللسان العربي وأخذ اللغة عن أهلها الذين نشأوا على سلامة الحفاظ عليها لبعدهم عن المؤثرات المفسدة للسان، لكن هؤلاء الاعلام لم يغفلوا كذلك طلب القرآن بقراءاته والتنقل والرحلة من أجل ذلك، كما لم يغفلوا الرحلة في طلب الحديث ومن أشهر الاعلام الذين برعوا في فنون عديدة الأصمعي الذي سمع من القراء ومن قبائل بني عامر بن صعصعة[10]؛ واشتهر بكثرة التنقل مما جعله راندا من رواد رواية الأخبار والطرائف، حتى أصبح من ندماء الخلفاء، وسبق أن تحدثنا عمن أخذ عنهم في القراءات وعمن أخذوا عنه وكيف أنه شكل همزة وصل بين الامصار الأخرى، وبين البصرة والكوفة في نقل القراءات إليها هو وزمرة من الأعلام الأفذاذ.

ولا نعجب أن كانت البصرة سباقة على الكوفة في الخروج إلى البادية لأن النحو نشأ في البصرة ولأن عبقرية الخليل بن أحمد الفراهيدي هي التي جعلته يهتدي إلى الخروج إلى البادية ولأن مادة السماع الذي يمكن اعتماده في وضع أصول النحو؛ لا يمكن أن يبنى إلاّ على الأخذ من البادية، لاسيما والبصرة متصلة بالبادية ومضارب بني تميم ممتدة من البصرة إلى مشارف الكوفة، فضلا عن كونها مركزا تجاريا يرتاده أعراب بني تميم لتبادل السلع. وفي المربد[11] كذلك اجتمع الدارسون لتحصيل اللغة والشعر والأخبار فنشأ الخليل في هذه البيئة

10- الامالي : أبوعلي القالي : 269/2.

11- سوق أنشأته العرب بالبصرة على أطراف البادية.
لسان العرب. مادةربد : 171/3

وأخذ عن أعلام خصوا أنفسهم بالرواية والفصاحة[12]. ولذلك لم تبدأ مسألة السماع في التبلور في الكوفة إلاّ بعد رجوع الكسائي من البادية وكان قد أشار عليه الخليل بن أحمد الفراهيدي بالذهاب إليها بعد أن استكمل الأخذ عليه في البصرة.

وفي كتاب معاني القرآن للفراء نجد عبارات منسوبة إلى الكسائي تؤكد أخذه عن الأعراب مثل قوله : "سمعت أعرابيا يقول كذا". و"سمعت العرب تقول"[13] ومماتثبته كتب التاريخ والتراجم أن الكسائي دون ما سمعه[14]، زيادة على ما حفظه مما يجعل مادة السماع عند الكسائي وفيرة تفسرتشعب أنواع القياس عنده وتعلل كذلك اختياره في القراءة. هذا،وقد ضمن ذهاب الكسائي إلى البادية له منزلة خاصة عند العامة وأصحاب السلطة مما حدا بالمهدي إلى تكليفه بتأديب وُلْدِه الهادي والرّشيد[15]؛ بعد أن بلغه شخوصه من البادية، وقد سار على نهج الكسائي واتبع خطاه في هذا المجال بعض علماء الكوفة أمثال أبي عمرو الشيباني[16]، والفراء،وعبدالله بن سعيد الأموي[17]؛ وقد عبر الفراء عن ذلك في معاني القرآن عند ما كان يستشهد بكلام العرب فيقول : "سمعت العرب تقول : ..." أو "وأنشدني بعض العرب كذا ..." أو

12- عبقري من البصرة : 30 31.
13- معاني القرآن : 233/1 - 145/2 .
14- انباه الرواة : 273/2.
15- انظر الرواية كاملة فى الفصل الخاص بالكسائى .
16- نفس المصدر : 224/1.
17- ذكره الزبيدي وقال روي عنه أبوعبيد وغيره.

"سمعت بعض العرب يقول..."[18] فالمتمعن في هذه الأقوال يلاحظ أن الكوفة أصبحت بعد رحلة الكسائي إلى البصرة وذهابه إلى البادية وعودته واشتهاره* مركزا لا يقل أهمية عن البصرة في مجال الاهتمام بضبط المسموع للمشاركة في ضبط قواعد اللغة.

وإذا أردنا أن نحدد بدء اهتمام الكوفة بمثل هذه المسائل فالأرجح أن ذلك بدأ منذ أواسط القرن الثاني للهجرة مع الكسائي وتدعم بعد ذلك مع الفراء وغيره من أعلام المدرسة الكوفية. ولسائل أن يسأل : ممن سمع الكوفيون؟ وعن أي القبائل أخذوا؟ وهل اتفقوا اتفاقا كاملا مع البصريين في الأخذ؟ وفي الحكم على هذه القبائل بالفصاحة أو الضعف والشذوذ؟

يظهر أن سكان البصرة والكوفة اهتموا بمسألة السماع وانشغلوا بها أكثر من قرن من الزّمان وتحديدا من سنة تسعين (هـ) إلى سنة مائتين (هـ)؛ حيث تعلم البصريون والكوفيون لغة سكان البراري ممن كانوا موصوفين بالشدة والجفاء والتوحش[19]؛ مما يمنع اختلاط ألسنتهم مع من يلحنون. وقد خص أبو نصر الفارابي بالذكر قيس وتميم وأسد وطي ثم هذيل[20] ونفى أن يكون قد أخذ أهل الكوفة والبصرة عن غيرهم بسبب سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الامم المحيطة بهم من الحبشة.

18- معاني القرآن : 51/1.

* رأينا في الفصل الخاص بالكسائي أنه بعد رجوعه من البادية اتصل بالخليفة المهدي في بغداد. لكن ذلك لم يمنعه من التنقل بين الكوفة وبغداد لأن الروايات التاريخية تؤكد نقط الناس مصاحفهم على قراءته بعد رجوعه من البادية. وقد حدث ذلك بالكوفة.

19- الحروف : 147.

20- سبق تعريف هذه القبائل.

والهند، والفرس، والسريانيين، وأهل الشام، وأهل مصر[21]. لكن البصريين توسعوا في الأخذ فزادوا على ما ذكره الفارابي في "الحروف"، وذكرت لهم المصادر اللغوية أنهم أخذوا عن كنانة[22]، وقريش، واليمن، وبكر بن وائل[23]، وزاد أيضا الكوفيون على ما ذكره الفارابي فسمعوا من بني سليم، وهي قبيلة من قيس، وسمعوا من بني كلاب، وهم من هوازن[24]، وسمعوا من فروع متنوعة من أسد، وتميم، وقيس، هي بطون لها بلغت جميعها أربعة عشر بطنا، وزادوا عليها بما سمعوه وتساهلوا في قبوله من اليمن، وربيعة، وبني حنيفة، وكلب، آخذين أيضا عمن اختلفوا في نسبة مواطنه حيث اعتبرت أقرب إلى الحضر منها إلى البدو وهم : أعراب الحطمية[25]، وحوران[26]، وحضرموت[27]، فاتهموا بافساد النحو حين أخذوا

21- الحروف : 147.

22- البحر المحيط : 255/6.

23- الاخفش الاوسط : معاني القرآن : 29-35. تحقيق الدكتور عبد الامير أمين الورد، ط 1، عالم الكتب بيروت، لبنان ، 1405هـ / 1985م.

24- القياس النحوي : 68

25- قُطْرُبُلّ : بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام، وقد روي بفتح أوله وطائه. وأما الباء فمشددة مضمومة الروايتين وهي كلمة أعجمية.
وقطربل اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر : ولقطربل أخبار وفيها أشعار. نزلها أعراب الحطمية.
معجم البلدان : 371/4 - 372.

26- جبل بالشام. الروض المعطار : 206
معجم البلدان : 317/2.

27- ناحية واسعة في شرقي عدن بقرب البحر وحولها رمال كثيرة تعرف بالاحقاف.
معجم البلدان : 270/2.

عن هؤلاء. ونرى أن هذا الاتهام في غير محله لأن الفترة التي أخذ فيها علماء الكوفة عن هؤلاء الأعراب،وسمعوا منهم،فترة قريبة العهد من سليقة هؤلاء،ونقاء لسانهم، ناهيك وأن السماع من البادية تواصل إلى نهاية القرن الرابع وقيل إلى ما بعده[28]. فكيف يؤخذ عمن هو بعيد عهد بالنقاء الكامل للغة،ويرد من كان أقرب عهدا !؟

وجملة ما يلاحظ هو أن النحاة أنفسهم لم يتفقوا على تحديد الرقعة الجغرافية التي يجب أن يقاس على كلام سكانها لأن مقاييس الفصاحة مختلفة من عالم إلى آخر، ولا اجماع من قبلهم على تحديد يوجّه اختيارهم؛ ولذلك أباح ابن جني أن يقاس على مختلف اللغات العربية[29]، وما تأليفه لكتاب المحتسب في توجيه القراءات الشاذة من لغة العرب،إلاّ دليلا على قبوله لمختلف اللغات. فيما حصر بعض العلماء الفصاحة في قريش وفي بعض القبائل الاخرى[30]. والناظر في موقف ابن جني يلاحظ تأييده لما قام به الكوفيون من توسعهم في السماع.

28- ابن جني مثلا سمع من أعراب البادية.
الخصائص : 76/1.

29- نفس المصدر : 11/2.

30- انظر الفصل الخاص بمعرفة الفصيح من العرب.
المزهر : 209/1-213.

المبحث الثاني :

منزلة القراءات من "سماع" الكوفيين

كان السماع في العصر الجاهلي مقتصرا على الرواية الأدبية المتمثلة في سماع الشعر من أفواه الشعراء. وبقى العرب محافظين على رواية الشعر وحفظه في العهود الاسلامية؛ من ذلك قول عمر بن الخطاب لاصحابه : "عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا : وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم"[31]، ولابن عباس قول كهذا[32]. فكان مجيء الاسلام مدعما للرواية التي لم تعد مقتصرة على الشعر، بل أضيف إليها القرآن بقراءاته، والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، واتسعت الرواية، وتدعم السماع ومادته. ولم تكن القراءات القرآنية بمعزل عن لغات العرب ولهجاتها المتنوعة، فما عرف عن الفترة المكية أنها لم تشهد اختلافا في القراءة، لأن مكة تتكلم بلسان قريش وليست هناك ألسنة متنوعة، فلم يظهر تبعا لذلك أي اختلاف، وإنما كان الاختلاف بعد الهجرة[33] تيسيرا على من يصعب انتقالهم من لسان إلى لسان. فكانت القراءات تبعا لذلك مختلفة بتوقيف من الوحي[34]؛ بنزول القرآن على سبعة أحرف كلها شافية كافية[35]. ولما كان الأمر كذلك فان

31- الشاطبي أبو اسحاق : الموافقات : 88/2 ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

32- يقول ابن عباس : "إذا قرأتم شيئا من القرآن فلم تدروا تفسيره فالتمسوه من الشعر فانه ديوان العرب"
اعراب القراءات السبع وعللها : 29//1.

33- اختلاف القراءات : 39.

34- شرح السيوطي على سنن النسائي : 150/2،ط1، دار الكتاب العربي، المطبعة المصرية بالازهر، بيروت، لبنان، 1348هـ / 1930م.

35- الكرماني : شرح البخاري : 11/19.

هذه القراءات حفظت لغات العرب على اختلاف مشاربهم[36]؛ كما أن روايتها بعد نزول الجمع العثماني للقرآن من سبعة أحرف إلى حرف واحد - على ما ورد في الروايات الصحيحة[37] تجعلنا نعتقد أن القراءات عموما -سواءاكان منها متواترا أو مشتهرا في النقل أورو ي آحادا- جميعها مادة ثرية يمكن التعويل عليها في وضع قواعد اللغة. وسنتبين منزلة القراءات المتواترة والشاذة من سماع الكوفيين.

1- الاعتماد على القراءات المتواترة بما في ذلك القراءات السبع المشهورة :

يعتبر القراء عند علماء اللغة مصدرا من مصادر السماع بل ان جل أعلام الرعيل الأول من النحاة كانوا قراء،وعلى هذا الأساس ساهم القراء في تقديم مادة لغوية لها منزلتها من بين مصادر اللغة،كما ساهمت أيضا في تحديد اختيار بعض القراء،اعتمادا على روايات من سبقوهم من القراء الذين استقلوا بقراءات وداوموا عليها. مثاله قراءة الكسائي "السُّحْتَ" بضم السين من قول الله تعالي : [(أَكَّالُونَ للسُّحْتِ) المائدة : 42/5] اعتمد علي قراءة ابن كثير وأبي عمرو الذي شافهه بها.[38] والظاهر أن رائد الكسائي في اختياراته تعليل الرواية فاذا لم يجد ما

36- أي اختلاف لغاتهم وقد سبق ذكر ذلك.
يقول السيوطي فيما قرئ به القرآن وثبتت صحته : "جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترا، أم آحادا أما شاذا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل لو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه".
الاقتراح : 14 - 15، المحتسب في توجيه القراءات الشاذة : 32/1.

37- المزهر : 211/1 - اختلاف القراءات : 35.

38- حجة القراءات : 225.

يعلل به الوجه الذي يظهر له أصلا في اللغة مؤيدا بالسماع،انتقل إلى القراءات الاخرى،واختار منها ما يتناسب والوجه الذي يريد مثل اختياره في قراءة [(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)، سورة الفجر 4/89] بحذف ياء (يَسْرِي)،إلى أن قرأ عليه أعرابي بالحذف فسُرِّيَ عن الكسائي ما كان فيه من الغم. وبذلك قرأ نافع وأبوعمرو من القراء السبعة[39]. ولعل النظر في الأسانيد على غرار الرسم الموجود في الصفحة*،يؤكد أن سند السبعة القراء وصل إلى الكوفة عن طريق العباس بن الفضل الانصاري[40]، وعن طريق الدوري راوي أبي عمرو،والكسائي،وعن طريق إسحاق بن إبراهيم ،الذي أخذ قراءة ابن عامر الشامي عن الوليد بن مسلم،وقد ثبت أخذ الكسائي مباشرة من أبي عمرو بن العلاء البصري ومن عاصم ابن أبي النجود[41]. وثبت أخذ الكسائي عن إسماعيل بن جعفر، الذي تلقى القراءة بدوره عن نافع،وعن عيسى بن وردان راوي أبو جعفر المدني[42]، كما عرض إساعيل بن جعفر القراءة على ابن جماز، الراوي الثاني لأبي جعفر المدني. أما قراءة يعقوب الحضرمي فقد رواها عنه الدوري راوي أبي عمرو بن العلاء وراوي الكسائي،كما روى قراءته خلق كثير[43]. أما خلف العاشر فهو راوي حمزة بن حبيب الزيات شيخ الكسائي إشتهر براويين في الكوفة:هما اسحاق بن ابراهيم

39- البحر المحيط : 468/8.

40- تقدمت ترجمته.

41- اتحاف فضلاء البشر : 28/1.

42 نفس المصدر : 29/1.

43- غاية النهاية 387/2.

* ص: 157.

الـــوراق[44]، وادريس بن عبد الكريم الحدّاد البغـــدادي[45].

وعلى هذا الأســاس تكون الكوفة قـد سـمعت روايات القـراء العشـرة عموما والسبعة خصوصا، بما يؤكد أهمية القراءات مـصدرا من مـصادر السـماع على الرغم من تقديم النحـاة الشعـر عليه في العـديد من المواضع التي يستـشـهد به فيهـا، وقـد رأينا ذلك فـي الفـصل الأخيـر من الباب الثـاني[46]. وهذه أمـثلة من القراءات تؤكـد اهتـمام أعلام الكوفة بهـذا الصنف من السمـاع وأخذه بعين الاعتبار، وموافقته في كثير من الأحيان، ودليل ذلك فـرش الحروف في القـراءات السـبع؛من خلال كتـاب التيسيـر لأبي عـمـرو الدّانـي -الذي هذب به كـتـاب السـبـعـة فـي القـراءات لابن مـجاهد- حيث نلاحظ أن هناك اتفـاقـا بين القـراء في كثيـر من الأوجه. ولا نجـد الانـفـراد بوجـه من الوجـوه إلاّ نـادرا.ونعلل ذلك باطلاع القـراء على الروايات المختلفة وتحديد اختـيـاراتهم وفق شـروط لغوية ولهـجيّة خـاصّة إذا كـان القارئ نـحويا. لذلك نجد اتفـاقـا بين الكوفـيين في مـواطن عديدة من آياتالقرآن من حيث قراءتها مثل قوله تعالى من سورة البقرة [(يَكْذِبُونَ) البـقـرة 10/2] حـيث أجـمـع عـاصم وحـمـزة والكسـائـي على قراءتهـا بفتح اليـاء وتخفيـفـها (يَكْذِبُونَ) كمـا نجد اتفـاقـا في وجـه القراءة بين نـافع وأبو عـمـرو والكســائي[47]، أو اتفـاقـا بين ابن عـامـر وحـمـزة والكسـائي[48]، وقـد نجد اتفـاقـا في وجـه القراءة بين ابن كـثيـر وأبو عـمـرو

44- سبقت ترجمته.
45- اتحاف فضلاء البشر : 32/1.
46- انظر ص : 259.
47- التيسير : 72.
48- نفس المصدر : 75.

بن العلاء،وعاصم وحمزة والكسائي[49]. كما نجد اتفاقا في القراءة بين نافع وابن عامر والكسائي من قوله تعالى : [(ولباسَ التَّقْوى) الاعراف : 26/7] حيث قرأها الثلاثة بالنصب وقرأ الباقون بالرفع. هذا وقد يتفرد قارئ من القراء بوجه خاص به يعلله اعتمادا على حجة لغوية سماعية عادة[50].

وقد يتفق في وجه من القراءة أبوعمرو بن العلاء وعاصم وحمزة والكسائي -أي الكوفيون وأبو عمرو-[51]؛ والملاحظ هو اتفاق الكسائي في جزء كبير من أحرفه مع من أخذ عليهم القراءة مشافهة خاصة ما كان من تلقيه عن حمزة وأبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود.

وإذا قارنا ما قرأ به قراء الكوفة؛عاصم وحمزة والكسائي مع بقية القراءات الثلاث المتممة للعشرة فنجد اتفاقا بين عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر في مواضع عديدة من قراءة حروف القرآن[52].

وقد يتفق القراء العشرة على قراءة وجه من الوجوه دون اختلاف مثل اتفاقهم على فتح صاد (المحصَنات) من قوله تعالى :

49- نفس المصدر : 78.

50- قرأ الكسائي : [(قالوا نَعِم) الاعراف : 44/7] وبقية القراء السبعة قرأوا بالفتح "قالوا نَعَم" وذهب إلى حديث روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أن رجلا لقي النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فقال : (أنت الذي يزعم أنه نبي فقال : نَعِم")
إعراب القراءات السبع وعللها : 181/1.

51- التيسير : 111.

52- انظر مثلا : المهذب في القراءات العشر : 147/1 - 148، 150/1.

[(والمحصَنَاتُ من النساء إلا) النساء : 24/4][53]. كما يلاحظ الدارس اتفاقا في بعض الاحكام بسبب سماعهم المتقارب ونجد ذلك مثلا عند حمزة والكسائي وخلف العاشر: فكلهم تلاميذ حمزة الزيات؛ ويتفق معهم في بعض الأوجه أبو عمرو بن العلاء البصري الذي تتلمذ عليه الكسائي كما هو معلوم[54]. وخلاصة القول أن القراءات السبع والعشر متفقة في كثير من أوجه تلاوة حروفها باختلاف توزع القراء واتفاق البعض منهم مما يُعلّلُ باتفاق مسموعات المتفقين واختلافها إن كانوا مختلفين في وجه القراءة. وهذا السماع في القراءات أثر على اختيارات القراء وأثر في دائرة اختيار القراءات عموما فما لم يتواتر أو يشتهر من أوجه القراءة أُعتبر شاذا.

هذا ما يتعلق بالقراءات عموما من حيث روايتها واختيار أوجهها ولكن بقي النظر في أثرها في النحو الكوفي واحتجاج الكسائي... وإتماما للفائدة نستعرض بعض الأمثلة توضيحا لذلك.

* المثال الأول :

قول الله تعالى : [(سَلاَسِلاَ) الانسان : 4/76] قرأه نافع وأبو بكر بن عياش -أحد راويي عاصم- وهشام عن ابن عامر والكسائي بالتنوين. وقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وحفص -أحد راويي عاصم- بغير تنوين[55]. وحجة الكسائي في ذلك السماع زيادة على من قرأ مثله من القراء إذ حكى أن بعض العرب يصرفون كل ما

-53 نفس المرجع : 155/1.
-54 نفس المرجع : 198/1.
-55 قرأ بالتنوين أبو جعفر المدني أحد القراء العشرة،وقرأ بذلك أيضا،رويس أحد راويي يعقوب الحضرمي. إتحاف فضلاء البشر : 576/2.

لا ينصرف إلا "أفْعلَ منك"،[56] ومنهم من اعتبر قراءة التنوين من باب التناسب[57]، وقد قرأ الكسائي،ونافع،وأبو بكر،راوي عاصم بالتنوين أيضا في الاثنين من قوله تعالى [(قَوَارِيرًا. قَوَارِيرًا) الانسان : 15/76-16]. وقرأ ابن كثير بالتنوين في الأول وبغير تنوين في الثاني.وقرأ الباقون بغير تنوين فيهما[58]؛ كما أنّ مداومة الكسائي ومن تابعه على ذلك تدل دلالة واضحة على اعتماده الكبير على السماع.

* المثال الثاني :

قوله تعالى : [(فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ) البقرة : 284/2] أجاز الكسائي والفراء ادغام الراء في اللاّم،وحكياه سماعا،ووافقهم على ذلك يعقوب الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء؛ بالرغم من كوننا لا نجد كتب القراءات تنص على هذا النوع من الادغام[59]؛ لأن الخليل وسيبويه وأصحابه ذهبوا إلى أنه لا يجوز ادغام الراء في اللاّم من أجل التكرير[60]. ورأى أبو حيان أن قبول الادغام فيهما أمر وارد،لأن لسان العرب ليس محصورا فيما نقله البصريون فقط،والقراءات قاسم مشترك بين البصرة والكوفة على حد السواء؛خاصة أن أبا عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي وكبراء أهل الكوفة الرؤاسي،والكسائي،والفراء،قد أجازوه ورووه عن العرب[61].

56- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : 352/2.
57- نفس المصدر : 352/2.
58- إتحاف فضلاء البشر : 577/2-578.
59- انظر : نفس المصدر : 461/1.
60- البحر المحيط : 362/2.
61- نفس المصدر : 363/2.

* المثال الثالث :

قولـــــه تعالى من سورة الكهـــــف [(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) الكهف : 38/18] قرأه ابن عامر بألف في الوصل وهو مذهب الكوفيين من أهل النحو، وأجمع القراء كلهم-أي السبعة-على الوقف بالألف،[62] وحجة من أثبت الألف في الوصل أنها لغة حكاها الكوفيون، يجعلون الألف أصل الاسم المضمر يقولون : "أنا" بكماله الاسم،[63] لأن أصل القراءة (لكن أنا هو الله ربي)[64] ويقولون : من حذف الألف في الوصل فانما حذفها استخفافا لدلالة الفتحة عليها.[65] وفي هذا المثال وقع الاعتماد على أصلين أولهما السماع لأنها لغة حكاها الكوفيون كما اعتمدوا كذلك على رسم المصحف[66].

المثال الرابع :

قوله تعالى : [(جَعَلَهُ دَكًّا) الاعراف : 143/7] قرأه حمزة والكسائي بالمد وفتح الهمزة غير منون وقرأه الباقون بالتنوين من غير مد ولا همز[67]، وقوله تعالى :[(جَعَلَهُ دَكَّاءَ) الكهف : 98/18] قرأه الكوفيون-عاصم وحمزة والكسائي - بالمد ولم يمده الباقون. وحجة الكوفيين السماع من قول العرب : (هذه ناقة دكّاء) للتي لا سنام لها،

62- إعراب القراءات السبع وعللها : 394/1.
63- الكشف : 62/2.
64- إعراب القراءات : 394/1.
65- الكشف : 62/2.
66- إعراب القراءات : 394/1.
67- الكشف : 475/1.

وتقدير الكلام (جعل الجبل مثل ناقة دكاء)[68]. وهذا المثال يؤكد اعتماد أهل الكوفة على السماع في اختيار أوجه قراءاتهم، مع مراعاة الضوابط الرّوائية المعمول بها.

ب- الاعتماد على القراءات الشاذة :

اعتمد الكوفيون على القراءات الشاذة خاصة ما نجده في كتاب معاني القرآن للفراء حيث اعتمد على القراءات المشهورة والشاذة، ليعلل بها ويفسر بعض المعاني الخافية في الآية من خلال القراءة المتواترة. كما كان يعلل وجه القراءة، ويجوز بعض الاختيارات، اعتمادا على شواهد من السماع، وردت في القراءات الشاذة، وكان الكسائي قبل الفراء يعتمد القراءات الشاذة، ويقيس على البعض منها، ويستنبط منها القواعد، ويستخلص الأحكام النحوية. ولا غرابة في ذلك لأن ثقافة الكسائي العربية الاسلامية الصرفة هدتة إلى الاهتمام بكل ما يتعلق بالقرآن من قراءات، فبوأ الشاذ منها لذلك منزلة في الاستشهاد، لأنها من السماع الفريد في اللغة العربية. وإذا كان البصريون قد غلّطوا بعض القراء السبعة في قراءاتهم أمثال، نافع، وابن عامر، وحمزة، وغلطوا أبا جعفر المدني أحد القراء العشرة، وغلطوا من قراءة ابن مسعود، والحسن البصري، وهارون القارئ، ومعاذ الهراء. فان الكوفيين كانوا يجيزونها ويحتجون بها[69]؛ ومن أمثلة احتجاجهم بالقراءات الشاذة في استخلاص قواعد نحوية منها، تجويزهم قيام الجار والمجرور مقام

68- نفس المصدر : 475/1.

69- مدرسة الكوفة : 337.

الفاعل مع وجود المفعول به المنصوب،استدلالا بالقراءة "الشاذة" ("لولا نزل عليه القرآنَ"[70] بنصب "القرآنَ"[71] من سورة الفرقان 32/25).ولم نقف على هذه القراءة في معاني القرآن للفراء فلعل النحاة الكوفيين المتأخرين عن الكسائي والفراء هم الذين استشهدوا بها واعتدوا بقراءتها.

كذلك نجد قراءة قرأ بها مُعاذ الهراء-وهو متقدم على الكسائي- حيث أقرأ النحو البصري في الكوفة قبل انتقال الكسائي إلى البصرة بعد أخذه عليه- قرأ قول الله تعالى : [(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عِتِيًّا) مريم : 69/19] قرأها "أَيَّهُم أشد" بالنصب على أنه مفعول بـ (لننزعن) وقد سُمِعَتْ هذه القراءة من بعض القراء، مثل طلحة بن مصرف،والأعمش،[72] وكان قد سمع ذلك من العرب[73].

هكذا نرى بأن هذه الأمثلة من القراءات الشاذة يستدل بالسماع من العرب على صحتها،وبعد ذلك تنتقل هي في حد ذاتها حجة،لتصبح من ضمن المسموع الذي يستشهد به في اللغة.وقد تجلى ذلك في أكثر من موضع من كتاب معاني القرآن للفراء؛مثاله عند تعرضه لقول الله تعالى: ["(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ)" البقرة : 233]. قرأ : (الرِّضاعة) أبو حنيفة،وابن أبي عبلة.والجارود بن أبي سبرة[74]. وقد

70- لم ترد هذه القراءة في كتب القراءات الشاذة المشهورة.

71- شرح الرضي على الكافية : 84/1-85.

72- البحر المحيط : 209/6،
الانصاف : 711/2.

73- البيان فى اعراب غريب القرآن : 331/2.

74- البحر المحيط : 213/2 - تفسير الطبري : 43/5 - كشاف الزمخشري : 141/1.
تفسير الرازي : 264/2.

زعم الكسائي أن من العرب من يقول (الرّضاعة) بالكسر[75]، ولعل هذا ما يعلل قراءتها عنده بالامالة في وجه رواه الصفاقسي[76]، لأن في الامالة انتحاء نحو الكسر يقرب إلى قراءة الكسر، أو كانت هذه القراءة هي الأصل وأن الفتح للمناسبة مع ما بعده من الحركات. غير أن الكسائي لا يحتج بالقراءة الشاذة إذا خالفت رسم المصحف الامام لأن ذلك من ضوابط الرواية وهو أصل في قبول القراءة والقول بقرآنيتها، لذلك نجده قد عدل عن قراءة عبد الله بن مسعود من قول الله تعالى : [(إِنَّ الذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ)آل عمران : 21/3] حيث قرأها (إِنَّ الذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَاتَلُوا النَّبِيِّينَ...) وقد قرأ بها الكسائي دهرا، ثم رجع ،لأنه وجدها مخالفة لقراءة العامة اعتمادا على المصحف العثماني، وكان قد رآها في مصحف عبد الله بن مسعود[77]؛ لذلك لا يمكن اعتبار القراءات الشاذة حجة عند الكسائي إذا خالفت الشروط التي اتبعها في الاعتداد بالقراءة[78].

75- معاني القرآن : 149/1.

76- غيث النفع في القراءات السبع : 167.

77- معاني القرآن :202/1.

78- انظر مقاييس الكسائي في اختيار القراءة - الفصل الخاص بالكسائي.

المبحث الثالث :

نـــحـــاة الكوفـــة والقيــــاس :[79]

لا ننكر أن نشأة العلوم العربية الاسلامية وتطورها كان مرتبطا ارتباطا شديدا بالقياس ذلك الثابت البنيوي في العقل العربي الاسلامي كما وصفه بذلك بعض الباحثين المعاصرين.[80] ولا نُبالغ حين نقول أن ثقافة السلف الاسلامية الكلاسيكية تستند على القياس في الكثير منها. هذا القياس بالرغم من عموميته-التي سمحت له بأن يكتسح علوما كثيرة مثل الفقة وأصوله،والمنطق،وعلم الكلام،وعلم النحو،وعلوم اللغة بصفة عامة- بقي معناه يختلف نسبيّا بين ضروب هذه العلوم مما يجعل القياس النحوي حتما مختلفا عن القياس الفقهي أو المنطقي عمليا؛[81] بالرغم من اشتراكها جميعا في أركان القياس.

ومن خلال هذا المبحث سنحاول تحديد معنى القياس النحوي

79- القياس لغة هو تقدير الشيء. فيقال قاس الشيء يقيسه قياسا وقيسا أي قدره والمقياس المقدار.
وفي لسان العرب : اقتاس الشيء وقيسه اذا قدره على مثاله، وقايست بين الشيئين إذا قادرت بينهما.
لسان العرب : 6/187. - تاج العروس : (قيس).
أما القياس في الاصطلاح فمعناه يختلف باختلاف العلم المستخدم له وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره،وفي الشريعة عبارة عن المعنى المستنبط من النص لتعدية الحكم من المنصوص عليه إلى غيره،وهو الجمع بين الاصل والفرع في الحكم.وفي أصول الفقه اعتبر الاصوليون القياس قياسين جلي وخفي فأما الجلي فهو ما سبق اليه الافهام وأما الخفي وهو ما يكون بخلافه ويسمى استحسانا. انظر : التعريفات : 181.

80- محمد عابد الجابري في كتابيه : نحن والتراث: 20 - بنية العقل العربي: 384

81- يؤكد التهانوي على ارتباط القياس بالاستقراء،لضبط قواعد اللغة العربية.كشاف اصطلاحات الفنون : 3/1189 - 1190.

عموما والكوفي[82] خصوصا.للوقوف على أهمية القياس عنصرا أساسيا في الصناعة النحوية وفي تطوير اللغة واتساعها لتشمل الجديد في كل عصر.[83] كما سنحاول الكشف عن حقيقة القياس الكوفي النحوي مقارنا بالقياس البصري والنظر في مدى تطبيق القياس الكوفي على اللغة العربية عموما مقارنا بالقياس البصري وتطبيقاته أيضا. من البديهي أن القياس في اللغة العربية مرتبط بمادة السماع لأن عملية القياس لها نتائجها باعتبار دقتها من حيث الاستخدام لذلك جعلوا للقياس أركانا

أربعة هي :

1- أصل : وهو المقيس عليه.

2- فرع : وهو المقيس.

3- حكم : ويكون أما بالوجوب والامتناع أو الحسن القبح أو الضعف أو الجواز أو مخالفة الأولى أو الرخصة[84].

4- جامع : وهو الشبه أو العلة التي تتحقق في المقيس عليه[85].

فكلما اتسعت مادة السماع وتعددت وثبتت صحتها في النقل كلما اتسع مجال اللغة وتعددت مفرداتها وضبطت قواعدها.

82- يقول الدكتور تمام حسان : من طبيعة هذا القياس -اي النحوي- أن يفتح أمامنا بالنمط الواحد جملا لا حصر لها.بما يدل على القوة الانتاجية للنحو ويوضح أنه صناعة لا معرفة. الأصول : 176.

83- محمد الخضر حسين : القياس في اللغة العربية : 16، ط2،دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ش م.م. لبنان ء بيروت،1983م/1403هـ.

84- نفس المرجع : 207.

85- القياس النحوي ثلاثة أنواع :
أ- قياس علة : حين تراعى فيه العلة.
ب- قياس طرد : إذا كانت العلة فيه غير مناسبة كقول النحاة : ان "ليس" مبنية لا طراد البناء في كل فعل غير متصرف.
-ج- قياس شبه : إذا لم تراع فيه العلة ومناله قياس اعراب المضارع على اعراب اسم الفاعل لما بينهما من شبه.
الأصول : 178 - 179 ء القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة : 87.

ونجد القراءات بمختلف مراتبها جزءا من هذا السماع الذي أضحى مادة غزيرة اعتمدها النحاة في القياس خاصة منهم نحاة الكوفة بدءا بالكسائي. الذي انطلق القياس معه متطورا حيث كان امتدادا لقياس البصريين الذين أخذ عنهم -أمثال الخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء والاخفش الاوسط وغيرهم-[86] لكن تعريف الكسائي للقياس يختلف عن تعريف نحاة البصرة إذ يعتبر النحو قياسا. يستخلص ذلك من قوله شعرا : إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعُ * وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعْ.[87]

والظاهر من تعريف الكسائي أنه أراد به على الأرجح أنّ موافقه القياس أولى من كثرة السماع. لأن المقيس عليه -أصلا كان أم فرعا- يجب أن يكون مطردا في السماع. ويعرف ذلك بكثرة وروده عن العرب كثرة تنفي عن المقيس عليه أن يرى قليلا أو نادرا أو شاذا.

والاطراد في القياس يعني موافقة المقيس عليه لقاعدة أصلية أو فرعية كقاعدة رفع الفاعل الأصلية،أو كقواعد الاحلال والابدال الفرعية[88]، وهذا ما أقره البصريون عموما غير أن الكسائي خالفه فكان يقيس على القليل النادر -مثلما سبق لنا أن تعرضنا إليه-[89] مع أنه شاذ لا يقاس عليه[90] ومن

86- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 90.

87- بحر الرّمل.

88- الأصول : 180.

89- الباب الأول : الفصل الخاص بالكسائي.

90- قاس الكسائي على كسايان وهو مما شذ من الممدود "وقد حكى الكسائي أن من العرب من يقول : ردايان وكسايان"
المخصص : 116/5.

91- الاشموني : 662/3.

أقيسته على النادر أنه إذا كانت ألف المقصور ثالثة بدلا من واو مثل (عصا) قلبت واوا، فتقول :(عصوان)،وورد عنه قلبها ياء في ندرة مثل (رضا) - (رضيان)،صرح بذلك الاشموني في شرحه لألفية بن مالك[91] وعموما فان الكوفيين يعتدون بما ورد من الكلمات الشاذة ويعملون بالقياس عليها على عكس البصريين الذين يمتنعون من القياس على الشاذ ويذهبون في مثله إلى أن قائله نحابه نحوا خلاف ما يظهر منه، ويردّونه إلى الأصل المعروف عندهم على طريق من التأويل(*). [92] ونرى الكسائي يخالف نحاة الكوفة والبصرة معا،ويتفرد بنوع خاص من القياس على القليل النادر في مثل المثال التالي : حيث نجده يقيس إضافة (حيث) إلى المفرد في مثل قول الشاعر :

ونطعنهم تحت الكلى بعد ضربهم * ببيض المواضي حيث لي العمائم.

والكسائي يقيسه،[93] وهكذا نجد بأن الكسائي قد اعتمد القياس المطلق على كل ما سمع من كلام العرب كثيرا أو قليلا ،وأخذ به وعده فصيحا فعد متسامحا في القياس.[94] وفي مقابل ذلك كان البصريون يرتبون مختلف الصيغ والأبنية بعد تجميعها من السماع؛رائدهم في ذلك اشتراكها في ملاك واحد. فتجمع أو تفرق على أساس عقلي،[95] بينما كان

91- الأشموني : 662/3.

(*) نشأت فكرة التأويل لدى النحاة في البصرة وفيها ترعرت وتكاملت على أيدي الذين جعلوا المنطلق الاساسي لبحوثهم اللغوية الاسس المنطقية التي ساعدتهم على التقدير الذي هو ضرب من التأويل.
الدكتور التيجاني بوريقة : التأويل في البينة النحوية : 15. نسخة مرقونة.

92- القياس في اللغة العربية : 42.

93- المغني : 132.

94- القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة : 242.

95- مدرسة الكوفة : 377.

دأب العلماء البصريين الأول الذين اشتغلوا بالقياس، القيس على الأعم الأغلب واعتبار ما خالف ذلك لغات.وقد ظهر ذلك واضحا من خلال أقيسة عيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء،وتبعهما في ذلك الخليل بن أحمد وسيبويه[96].

ونرى أن هذا التسامح في القياس كما وصف به عند الكوفيين قد فسح المجال لنحاة الكوفة بالتوسع في ضبط المسائل اعتمادا على تعميم الظاهرة الفردية واعتبارها أصلا مستقلا قائما بذاته.فتعارضت أحكامهم النحوية مع أحكام البصريين واتهموهم بإفساد النحو لشدة تحري البصريين في إصدار الأحكام النحوية؛ ولا يعني هذا أن الكوفيين قد أساءوا في حق النحو، فقد اتخذوا منهجا لأنفسهم احترموا جزئياته وساروا على خطاه إلى أن استوت مدرستهم وبلغت أشدها. وإنّ اعتمادهم على الاستقراء وتوسعهم في السماع جعلهم أقرب إلى الموضوعية ، وأقيستهم نفسها كانت أقرب إلى العدل لأنه لا يمكن إقصاء جزء هام من مادة السماع بدعوى عدم احترام مقاييس الفصاحة التي كانت أغلبها تعتمد على القياس المنطقي[97]، الدخيل على الثقافة العربية

96- القياس النحوي : 131.

97- المنطق بمعناه الاصطلاحي قسمان رئيسيان : المنطق الصوري والمنطق المادي. فكل علم من العلوم له ناحيتان، صورية، ومادية، ولا تختلف العلوم بعضها عن بعض من هذه الناحية إلاّ في نسبة كل من هاتين الناحيتين إلى الأخرى ؛ فبعضها أكثر صورية، والبعض الآخر أكثر مادية. ونقصد بهذا أن لكل علم موضوعا يبحث فيه، وأنه لكي يصل إلى معرفة حقيقة هذا الموضوع لابد من طائفة من العمليات العقلية تقوم بها النفس أو العقل. والمنطق كأي علم له موضوع يبحث فيه عن أحواله أو عوارضه الذاتية .. وهذا الموضوع هو التصورات والتصديقات من حيث أنها مؤدية إلى تحصيل علم لم يكن.
المنطق الصوري والرياضي : عبد الرحمان بدوي:6 ،ط 2 ، مكتبة النهضة المصرية طبعا ونشرا. ج.م ع. 1383 هـ/1963م.

رغم تطويعه من قبل نحاة البصرة.

ووسائل البحث الحديثة بنظرتها الجديدة للغات تنصف الكوفيين لأنهم أقرب إلى الأمانة مع اللغة؛فأنصفوا ظواهرها المتنوعة وعاملوها جميعا على قدم المساواة من حيث الفصاحة إلا ما بعد واستعجم. فكان الكوفيون وعلى رأسهم الكسائي يخضعون في أحكامهم لذوقهم الطبيعي متحررين من قيود الاطراد التي شغف بها البصريون[98]. أما قياس الفراء فهو معتبر عنده أيما اعتبار إلى درجه أنه خالف به شيخه الكسائي في بعض أنواعه وخالف كذلك سيبويه وقد حكى ذلك ابن يعيش؛حيث ينسب إليه أنه يقيس على الكثير الذي قصره غيره على السماع فيقول عن وزن "فعّال" : [(وهذا القليل وان كان كثيرا واسعا فليس بقياس بل يتبع فيه ما قالوه، ولا يتجاوز. فلا يقال لبائع البُرّ (برّار) ولا لصاحب الفاكهة (فكّاه)، ولا لصاحب الشعير (شعّار)، ولا لبائع الدقيق (دقّاق)، ومثل ذلك الكسائي نسب على قياس النسب، والفراء على قياس (البرار) و(العطار)][99] وهذا النوع من القياس هو الكثير الذي منع القياس عليه غيره.

وقاس الفراء مثل شيخة على القليل النادر[100]، فنراه-الفراء-في معاني القرآن يجري أقيسته على آيات الذكر الحكيم بالرغم من عدم تصريحه بذلك يقول في معاني القرآن بشأن قوله تعالى : [(وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) المائدة 5/ 38]. -وإنما قال (أيديهما) لان كل

98- مدرسة الكوفة : 378:

99- شرح المفصل : 15/6.

100- القياس النحوي : 246.

شيء موحد من خلق الانسان إذا ذكر مضافا إلى اثنين فصاعداأجمع. فقيل: قد هشمت رؤوسهما وملأت ظهورهما وبطونهما ضربا، ومثله: [(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) التحريم: 4/66]- وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما تكون عليه الجوارح اثنين في الانسان: اليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على هذا ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب التثنية؛ ... وقد يجوز هذا فيما ليس من خلق الانسان، وذلك أن تقول للرجلين: خليتما نساءكما، وأنت تريد امرأتين، وخرقتما قمصكما. وإنما ذكرت ذلك لأن من النحويين من كان لا يجيزه إلاّ في خلق الانسان وكل سواء).[101] فكان الفراء يتوسع في القياس بشكل لم يطرقه غيره فنراه في بعض الاحوال يقيس مع وجود السماع مخالفا غيره من القائلين بأنه قياس ضد سماع[102] ومن أمثلة ذلك قوله: (كل موضوع حسن فيه كسر الهاء مثل قولهم: فيهم وأشباهها، جاز فيه كسر الالف من (أم) وهي قياسها)[103].

وهذا القياس يجريه مع أن المقيس مسموع في القراءات، وكلام العرب من هوازن وهذيل،[104] فيقيس كسر الهمزة في (إِم)[105] على كسر الهاء في (هِم) ويكون بذلك قد تعمق في قياس أمر هو نفسه مسموع.

101- معاني القرآن: 306/1-307.

102- القياس النحوي: 253.

103- معانى القرآن: 6/1.

104- البحر المحيط: 185/3.

105- قرأ أهل الكوفة (فلإِمه الثلث) وقد تقدم هذا المثال.انظر ص: 280. الجامع لاحكام القرآن: 72/5.

وعندما يريد الفراء عرض آية أو شاهد من كلام العرب برغبة جعله مصدرا يقاس عليه فإنه يذكر الحكم ثم يؤصله ويذكر السماع ويدعمه بالآية ثم يعرض لما خالف الحكم أو القاعدة -فخرج عن القياس- مستندا عليه بالسماع إن وجد[106]. وقد أشبه المبرد الكوفيين في توسعه في القياس فانعكس ذلك على آرائه النحوية وربما كان متأثرا في ذلك بالفراء الذي سبقه واستفاد المبرد منه[107]؛ مثلما استفاد الفراء من بعض مشايخ البصرة المشهورين أمثال شيخه يونس بن حبيب. ولذلك شهد بعض العلماء بتفلسف الفراء في أقيسته واستفادته من المنطق الذي غلب على عمل البصريين في النحو ليصيروه صناعة[108]. وقد وافق المبرد بعض الكوفيين في القياس وتوسع أكثر منهم فيه أحيانا[109] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تدعيم الفراء للقياس النحوي الكوفي بما سمح بتجاوز آفاق الكوفة إلى البصرة وبغداد فتأثر جمع من طلاب العلم بمنهج الفراء في القياس ولا نبالغ إذا اعتبرنا الفراء أبلغ من استخدم القياس في الكوفة ودعمه ووفق في استخدامه إلى حد بعيد وقد ظهر ذلك في كتاب معاني القرآن حيث كان يورد لفظ القياس ويوجه القارئ إلى إجرائه فيما تشابه بأسلوب سهل مقبول من قبل طلاب العلم. ومن أراد الاستزادة من أقيسه الفراء المتنوعة فليرجع إلى كتاب معاني القرآن[110].

ونرى أن القياس بعد الفراء لم يستمر في الصعود إلاّ قليلا

106- دراسة في النحو الكوفي : 146-147.
107- القياس النحوي : 214.
108- معجم الأدباء : 10/7 الفهرست: 92.
109- القياس النحوي : 215.
110- ينظر في معاني القرآن : 172/3-200/1 - 68/2 - 329/2.

لأن طلبة الكوفة بعده لم نقف إلاّ على القليل من أخبارهم مما يجعلنا غير قادرين على تقويم هذا التطوير الحاصل ، إلا أنه من المؤكد أن بعض الاعلام الكوفيين ممن سبقت الترجمة لهم قد اعتنوا بتطبيق أقيسة الكسائي والفراء لأنهم اشتهروا بالحفظ، أمثال ،ثعلب ،والأحمر، ولم يشتهرا بالقياس كما أورد القفطي أنه لم يكن مستخرجا للقياس ولا طالبا له[111]. أما من اشتهر بالاضافة والاجتهاد من بين أعلام المدرسة الكوفية فنجد هشام الضرير[112] الذي كان يكثر الاتساع في القياس على نهج أستاذه الكسائي لكثرة مسموعاته كما نسب إليه ابن النديم مؤلفا في القياس[113]، لم يصلنا لسوء الحظ. أما أبو بكر بن الأنباري فقد اشتهر باجتهاده في استخراج العلل النحوية[114].

وبعد هذا العرض الموجز لأنواع القياس عند نحاة المدرسة الكوفية مقارنا ببعض أقيسة نحاة البصرة،وبعد ملاحظة اعتمادهم على أضرب من أنواعه ،نرى أن طبيعة البحث تدعونا إلى تركيز اهتمامنا على أمثلة من القراءات السبع اعتمدها نحاة الكوفة ليقيسوا عليها :

* ذكر الانباري في المسألة الثانية والثلاثين أن الفعل الماضي يجوز أن يقع حالا عند الكوفيين واستدلوا بالنقل من قراءة الحسن

111- إنباه الرواة : 144/1.
معجم الادباء : 120/5.

112- هو هشام بن معاوية الضرير ويكنى ابا عبد الله من اعيان أصحاب الكسائي صنف مختصر، النحو والحدود والقياس توفي سنة تسع ومائتين 209هـ / 824م
الفهرست: 104.
بغية الوعاة : 328/2.

113- الفهرست : 104.

114- المدارس النحوية : 239.

البصري ويعقوب الحضرمي والمفضل عن عاصم قوله تعالى:[(أَوْجَاؤُوكُمْ حصرةً صُدُورُهُمْ) النساء : 90/4] والقراءة المعتمدة (أَوْجَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ.)

والشاهد من القرآن قياسهم على قول الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ) المائدة : 116/4] يقول : (فقد أجمع الكوفيون على إقامة الفعل الماضي مقام الفعل المستقبل)[115].

* ذكر الأنباري في المسألة الثامنة بعد المائة في جواز نقل حركة همزة الوصل إلى الساكن قبلها أن الكوفيين جوزوا نقل حركة همزة الوصل إلى الساكن قبلها. بينما لم يجوز البصريون ذلك وقد احتج الكوفيون بالنقل والقياس فاستشهدوا بقول الله تعالى : [(آلمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ)آل عمران 1/3-2] بنقل فتحةهمزة (الله) إلى الميم قبلها. وقد قرأ بذلك نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وحفص[116] وأما القياس فقد قاسوا على الهمزة الاصلية وبما أن الهمزة في اسم الجلالة إذا نطقنا بالاسم مفردا تكون متحركة[117] فجاز لذلك النقل واستخدام القياس للملاءمة بين الرواية المسموعة من كلام العرب وأوجه التسويغ المستنبطة من القياس.

وإذا استقرأنا الأمثلة المختلفة نلاحظ أن رواد المدرستين الكوفية والبصرية قد وظفوا ما سمعوه وفق مقاييس الفصاحة عندهم فاستخرج البصريون القواعد وشددوا في مسألة الاطراد وفق شروطهم التي

115- الانصاف : 153/1 - 254.

116- معجم القراءات القرآنية : 4/2.

117- الانصاف : 742/2.

وضعوها للسماع والأخذ. ثم استخرجوا القواعد بعد استقراء الظواهر في المادة اللغوية وقاسوا عليها. وهذا تقريبا نفس عمل الكوفيين إلاّ أنهم كانوا لا يشترطون اطراد السماع ،وكانوا يرون الفصاحة في عدد كبير من القبائل العربية التي أخذوا عنها وهم أيضا يقيسون على القواعد التي يضعونها. فالمثال السابق من المسألة الثانية والثلاثين استخرجوا بالقياس على القاعدة التّالية دليلا على جوازه فقولهم:"كل ما جاز أن يكون صفة للنكرة جاز أن يكون حالا للمعرفة" نحو:(مررت برجل قاعد) جاز أن يكون حالا للمعرفة نحو:(مررت بالرجل قاعدا) والفعل الماضي يجوز أن يكون صفة للنكرة نحو:(مررت برجل قعد) فينبغي أن يجوز أن يقع حالا للمعرفة نحو:(مررت بالرجل قعد)[118].

وهذه الطريقة في الاستدلال تعتمد المقدمات والنتائج على نهج المناطقة في عرض القضايا.

ونرى أن استدلال البصريين بالقراءات والاعتماد عليها وتأويلها لا يقل أهمية عن استدلال الكوفيين، بل لعلهم كانوا أكثر اتساعا في الاستدلال بها،وهذا ما يلاحظ في ردودهم على الكوفيين في كتاب الانصاف[119].

وإن كانوا يعتمدون اعتمادا كليا على التأويل ويستخرجون قواعد أخرى مخالفة لما توصل إليه الكوفيون ؛ ومثل هذا يحتاج إلى بحث لمن له رغبة في ذلك.

118- الانصاف : 153/1.

119- يرجع إلى كتاب الانصاف وغيره من كتب الاختلافات النحوية بين البصريين والكوفيين.

والبصريون -حسبما أورده الانباري في الانصاف- إما أن ينقدوا أدلة الكوفيين ويبينوا أن الاستدلال بها في غير موضعه؛ وإما أن يأتوا بأدلة أخرى نقلية تنفي ما يريد الكوفيون إقراره والتوصل إليه.

كما يلاحظ أنهم في أغلب الاحيان يستخدمون شواهد قرآنية من القراءات على اختلاف رواتها، للبرهنة على صحة قولهم في حين أن منطلق الكوفيين في ذلك الموضع لا يكون بالاعتماد على النقل دائما وعلى اختلاف القراءات. وحسبنا هذا المثال من الانصاف للبرهنة على صحة هذا الرأي؛ وللوقوف على أوجه من استدلال البصريين بالقرآن في بعض المواضع.

في المسألة التاسعة عشر ذهب الكوفيون إلى أن "ما" في لغة أهل الحجاز لا تعمل في الخبر[120]؛ وذهب البصريون إلى أنها عاملة فيه. فالكوفيون بنوا رأيهم على القياس وحجتهم أنّ "ما" لا يمكن أن تكون عاملة[121]، لأن الحرف عندهم إنما يكون عاملا إذا كان مختصا[122]؛ وإذا كان غير مختص فوجب أن لا يعمل كحرف الاستفهام والعطف[123]. أما

120- الانصاف : 165/1.

121- "ما" الحجازية من المشبهات بـ "ليس" في النفي، لذلك تعمل عملها بشروط أربعة:
أ- الا يقترن إسمها بـ (أن) الزائدة
ب- ألا ينتقض نفي خبرها بـ "الا".
ج- ألا يتقدم الخبر على الاسم.
د- ألا يتقدم معمول خبرها على اسمها.
عبد الغني الدقر : معجم النحو : 321 - 322 ، دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع . جاغال أو غلو ، استنبول ، تركيا، 1407هـ/ 1987م.

122- أما أن يختص بالافعال أو يختص بالاسماء ، فحرف الخفض مختص بالاسماء وحرف الجزم مختص بالافعال ، وكلاهما يعمل.
الانصاف : 165/1.

123- الانصاف : 165.

البصريون فيقيسونها قياسها علي "ليس" لأنها أشبهتها فتعمل في الخبر تبعا لذلك[124] واستشهدوا لذلك بلغة القرآن، قال تعالى : [(مَا هَذَا بَشَرًا)]، وقوله تعالى : [(مَاهُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ) المجادلة 2/58]،[125] وهكذا تظهر أهمية السماع القرآني في إثراء المادة اللغوية بما سمح للعلماء بالعمل على ضبطها عن طريق استقراء ظواهرها وانتظامها في قواعد يقاس عليها عادة.

وبذلك لعبت القراءات دورا هاما في توجيه العمل النحوي عموما والصناعة النحوية بالخصوص بعد أن دخل القياس معترك الحياة العلمية.

124- أورد السيوطي في الاشباه والنظائر أن وضع الشيء موضع الشيء ،أو إقامته مقامة لا يؤخذ بقياس.وضرب مثلا لذلك ما ذكره ابن عصفور من أن وضع الظرف أو المجرور موضع فعل الأمر لا يجوز إلاّ فيما سمع عن العرب، ورد بذلك قول من أجاز ذلك لسائر الظروف والمجرورات.
الاشباه والنظائر : 383/1.

125- نفس المصدر : 166/1.

الفصل الثاني :

اهتمام نحاة الكوفة بالقراءات السبع وتسخيرها لنظرياتهم النحوية.

الكوفة بيئة قرآنية اهتمت بضبط القراءة وبتدعيم الاقراء وتركيزه وذلك يرجع لعوامل عدة سبق بيانها. إلاّ أن الاهتمام بالقراءات أخذ منحى جديدا عندما تدعم علم النحو. واهتم علماء اللغة بالسماع وخاصة القراءات القرآنية والشعر، وفي هذا الفصل سنحاول الكشف عن الصلة التي تربط نحو الكوفة بالقراءات عموما، والسبع منها خصوصا، وعن كيفية تسخير نحاة الكوفة القراءات السبع لنظرياتهم النحوية؛ والحال أن مؤسس مدرستهم هو أحد القراء السبعة على بن حمزة الكسائي ويعد تلميذه الفراء أيضا من القراء. كما أن أشهر رواد مدرسة الكوفة النحوية كانوا قراء أو ممن رووا القراءة[1].

لا شكّ أن هذا الفصل يتطلب منا الابانة عن حقيقة النظريات الكوفية النحوية لهذه المدرسة؛ وهل كان للكوفيين النحاة نظريات في مقابل ما لمدرسة البصرة من نظريات؟ فهل كان النحاة الكوفيون حريصين على اعتماد القراءات عموما؟ وما هي منزلة النحو الكوفي بين النظرية والتطبيق؟ علما بأن مدرسة الكوفة قد اشتهرت بكثرة السماع والتوسع فيه توسعا أقلق نحاة البصرة ممن كانوا يخالفون ذلك المنحى.

1- يرجع إلى تراجم اشهر علماء مدرسة الكوفة وأشهرهم الكسائي والفراء وثعلب وابن السكيت وغيرهم.

ويبقى في آخر الفصل البحث فيما أضافه الكوفيون اعتمادا على القراءات السبع وما هي أسباب استقلالهم بمصطلحات نحوية خاصة؟ وكيف عللوا الظواهر النحوية،وبماذا تميزت أحكامهم في هذا المجال عن أحكام مدرسة البصرة؟ كل ذلك مع محاولة التمييز بين جملة من المصطلحات تواتر استعمالها في كتب النحو وتقاربت معانيها لكنها اختلفت في حقيقة جوهرها. وهذا ما سنحاول الاجابة عنه.

المبحث الأول :

النحو الكوفي بين النظرية[2] والتطبيق

الحديث عن النظرية النحوية يرتبط ارتباطا وثيقا بما أطلق عليه العلماء "الصناعة النحوية" التي تقوم على أسس لها ضوابط دقيقة، وقواعد تتصف بالاطراد. ولم يشهد النحو العربي ذلك التطور إلاّ بعد ظهور أعلام حملوا المشعل العلمي جيلا بعد جيل، فأصبح النحو عندهم ملكة حاصلة بالتمرن، وانتقلوا شيئا فشيئا من مرحلة التصنيف إلى مرحلة التجريد؛[3] بعد تجميع القواعد وردها إلى ما تقوله العرب وتوثيق كل قاعدة بالشواهد[4].

وحين نبحث عن مدلولات لفظة "نظر" في التراث الثقافي العربي الاسلامي، نجدها أكثر التصاقا بمباحث المنطق والفلسفة وعلم الكلام وعلم الفلك؛ وإن كان جميع المختصين من المتقدمين والمتأخرين

2- النظرية -théorie- بالمعنى الحديث طائفة من الاراء نفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية فهي مطلوب يبرهن على صحته.
الصحاح في اللغة والعلوم : تجديد صحاح الجوهري : 582، اعداد نديم مرعشلي، أسامه مرعشلي.
دار الحضارة العربية بيروت لبنان. د : ت.
وفي كتاب الحروف نجد إحاطة من المؤلف، ومحاولة تفسير لتطور الصناعة النحوية شيئا فشيئا وظهور الاصطلاح إذ يقول : "ثم بعد ذلك يحدث للناظر فيها تأمل ما كان منها متشابها في المفردة منها وعند التركيب، وتؤخذ أصناف المتشابهات منها وبماذا تتشابه في صنف منها، وما الذي يلحق كل صنف منها، فيحدث لها عند ذلك في النفس كليات وقوانين كلية، فيحتاج فيما حدث في النفس من كليات الألفاظ وقوانين الألفاظ إلى الفاظ يعبر بها عن تلك الكليات والقوانين، حتى يمكن تعليمها وتعلمها".
الحروف : 147.

3- الأصول : 59-63.

4- نفس المرجع : 64.

متفقين على أنّ النظر والفكر فعلان صادران عن النفس لاستحصال المجهولات من المعلومات؛ وأنّ كلّ مجهول لا يمكن اكتسابه إلاّ من معلومات مناسبة[5]. ثم اختص النظر أكثر بالفلسفة لتعلقه بالمعقولات* وفي مبحثنا هذا سنكون أقرب في استخدامنا للمعاني الحديثة للنظرية منها إلى المعاني القديمة المغرقة في التجريد والمقتصرة على مباحث المنطق والفلسفة وعلم الكلام، وإن كنّا سنختص -كما هو معلوم- بعلم النحو كما يفرض علينا البحث؛ والنظرية في النحو هي الاطار العام الذي ينتظم جملة من القواعد المتداخلة بما يساعد على معرفة العلاقات بين المفردات داخل البناء النحوي[6]. مثال ذلك نظرية العوامل التي اشترك في تبنّيها نحاة الكوفة ونحاة البصرة على حد السواء؛ بالرغم من وجود تمايز واضح بين الفريقين ظهر ذلك واضحا من خلال المصطلحات التي استخدمها الفريقان، والتي تعد جزءا من البناء النظري للغة، تعكس ما وراء اختلاف المصطلح من اختلاف في النظريات، أو الآراء أو القواعد، بالرغم من أن المرحلة الأولى من بدء الصناعة النحوية مرحلة كان المصطلح النحوي فيها في فترة الطفولة المبكرة[7]، أيام سيبويه حين كان يطلق على النعت والحال والتمييز مصطلح صفة[8].

5- كشاف اصطلاحات الفنون : 2/1385-1388 .

* كشاف اصطلاحات الفنون : 2/1389

6- الأصول : 59 .

7- د/أحمد عبد العظيم عبد الغني : المصطلح النحوي:4دار الثقافة للنشر والتوزيع، مطبعة العمرانية للاوفست الجيزة - القاهرة، جمهورية مصر العربية 1410هـ/1990م .

8- الكتاب : 2/121 .

لكننا نرى أن مخالفة البصريين من قبل الكوفيين على مستوى المصطلحات تعكس نظرة جديدة للنحو العربي، بالرغم من كونه بدأ بصريا ونحاة الكوفة أنفسهم ممن أسسوا المدرسة الكوفية تتلمذوا علي بصريين وأخذوا عنهم نحو البصرة وغيروا فيه وفق ما يقتضيه منهج البحث عندهم من تميز على البصريين، بالاتساع في الرواية والاتساع في القياس، واستعمال مصطلحات غير ما أشاعه البصريون من مصطلحات النحو[9].

وإذا كانت الدراسة النحوية -في العصور المختلفة- مبنية من قبل العلماء على عوامل ثلاث: هي العامل الفلسفي الذي أدى إلى قيام مدرسة القياس[10]، والعامل التوقيفي الذي يقول أصحابه بأن اللغة من خلق الله وهو قادر أن يجعلها منذ البداية كاملة وعلى هذا الأساس يجب على من يخوض في اعرابها أن يضع في اعتباره توقيفها وأن لا يخوض في العلل[11]، والعامل الثالث هو العامل اللغوي -وهو ما يهمنا في هذا المبحث هو والعامل الفلسفي- ويقوم هذا العامل على إدراك الظواهر اللغوية سواء ما يتصل منها بأبنية الكلمات، أو ما يتصل بتآلف الجمل[12].

لا ننكر أن الكوفيين تأثروا بالخليل ابن أحمد الفراهيدي وبنظرياته التي وضع الخطوط الكبرى لقيام معالمها ونهجوا على نهجه

9- الأصول : 42.
10- مدرسة الكوفة : 260.
11- نفس المرجع : 265-266.
12- نفس المرجع : 269.

في جوانب، وخالفوه في جوانب أخرى. وإن كان بعض المحدثين يرى أن آراءهم لا ترقى إلى مستوى النظريات الكاملة المحكمة إلاّ قليلا*، وذلك راجع بالأساس إلى غلبة التطبيق على النحو الكوفي، وإغراق الكوفيين في الرواية، والتوسع فيها اتساعا قد يرى البعض أنه أبعدهم عن التحديد والتقنين، مما يجعل منهجهم أقرب إلى غلبة العامل اللغوي على عملهم[13]؛ والدليل على ذلك ما لاحظناه في الفصل السابق من استعمال الكوفيين وعلى رأسهم الكسائي للقياس النحوي؛ وكيف كانوا يقيسون على القليل النادر المقيس وغيره، بل إنهم كانوا يغرقون فيضعون قياسا افتراضيّا.

ولئن بدا هذا العمل مبنيا على توجهات نحوية ولغوية منهجية معينة، فإن ذلك يدل دلالة واضحة على غلبة العامل اللغوي عند الكوفيين وتأثيره لديهم في العامل الفلسفي المرتبط بالقياس حتى بدا العاملان متداخلين. وتتلخص معالم نظرية الخليل ابن أحمد الفراهيدي اللغوية فيما يلي :

1- ضبط نظام الحروف من حيث الانسجام والتنافر، مما يؤدي إلى أئتلاف موسيقي أو تنافر يستشف بالذوق[14].

2- القول بالاستعمال وتحديد دوره في الكلام[15].

---

* خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي : 114/113

13- مدرسة الكوفة : :274

14- انظر الباب الثاني من البحث : الفصل الخاص باهتمام القراء بالدراسات الصوتية.

15- مدرسة الكوفة : 273.

3- القول بوجود العوامل[16]، بعد ملاحظة ذلك التفاعل بين الحركات والحروف والكلمات[17]. وإذا أردنا تتبع أسس نظرية الخليل ومدى ايفاءها حقها عند الكوفيين فإننا نلاحظ اهتمامهم بالدراسة الصوتية مستفيدين من اختلاف القراءات ومن تعددها بما يخدم بعض التوجهات الصوتية عندهم تستشف من أحكام قراء الكوفة ومما اختاروه من باقي القراءات السبع منها خصوصا من ذلك ما لاحظوه من تأثر الحروف بعضها ببعض معللين ذلك بتأثير الحروف القوية في الحروف الضعيفة.وذلك بعد ضبطهم لصفات الحروف،[18] زيادة على ما قام به

16- يقول الجرجاني : العامل هو ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الاعراب. والعوامل ثلاثة أقسام :
أ- أصلية لا يمكن الاستغناد عنها،كأحرف النصب والجزم،وبعض حروف الجر والافعال.
ب- زائدة وهي التي يمكن الاستغناء عنها من غير أن يترتب غالبا على حذفها فساد المعنى المقصود، كبعض حروف الجر الزائدة مثل الباء و"من" وغيرهما من باقي الحروف التي لا تجيء بمعنى جديد، وإنما تزاد لمجرد تقوية المعنى وتوكيده.
ج- شبيهة بالزائدة وتنحصر في بعض حروف الجر التي تؤدي معاني جديدة دون أن تحتاج مع مجرورها إلى متعلق.
وتنقسم العوامل من حيث ظهورها في النطق وعدمه إلى قسمين :
1- لفظية : وهي التي تظهر في النطق والكتابة كالعوامل السابقة.
2- معنوية : وهي التي تدرك بالعقل دون تلفظ أو تكتب،ومنها الابتداء الذي يرفع به المبتدأ.
هذا وقد قسم الجرجاني العوامل إلى ثلاثة أقسام :

I- العامل القياسي
II- العامل السماعي ← يندرجان تحت العامل اللفظي.
III- العامل المعنوي

والعامل القياسي عنده هو ما يمكن أن يتوسع فيه ويقاس عليه غيره والعامل السماعي يختص بشيء معين ولا يمكن تعميمه على غيره.
انظر التعريفات : 145-146 ، المعجم المفصل في اللغة والأدب : 809/2.

17- مدرسة الكوفة : 274.

18- انظر: الفصل الاول والثاني من الباب الثاني.

الفـراء من دراسـة للحـروف تضاهي دراسـة الخليل وتعكس انتفـاعـه من أعمـاله برغم مـخـالفته له فـي بعض الجوانب مثل مخـالفـته له في عـدد مـخـارج الحـروف،وغـيـرها مـن المســائل،ومـثل مـلاحظتـه لأثر تقـارب مخـارج الحروف في اختـلاف اللغـات عند تفسـيـره لقول الله تـعالى : [(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) التكوير : 11/81] يقـول : (وفـي قـراءة عـبـد الله "قـشطـت" بالقـاف وهمـا لـغـتـان، والعـرب تـقـول : القـافـور والكـافـور. إذا تقارب الحرفـان في المخرج تعاقبا في اللغات، كما يقال : (جَدَفٌ وجَدَثٌ) وقـد تقـدم ذلك. وقـد حـاول الفـرّاء إضـفـاء لون جـديد على الدراسـة النحوية فخالف بـعض أصول البصريين[19] فلاحظ الفراء أن لبعض الحركات تأثيـرا فـي بعض وبنى على ذلك ظاهـرة "الاتبـاع" مـعـتـمـدا على "قـراءة"[20] [(الحمدِ لِلّه) سـورة الفـاتحة : 1/1]. يقـول : (وأمـا مـن خـفـض الـدال "من الحمد" فـانه قال : هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صـارت كالاسم الواحـد، فـثـقل عليهم أن يجتمـع في اسم واحـد من كلامـهم ضـمـة بعـدها كسـرة أو كسـرة بعـدها ضمة، ووجـدوا الكسـرتين قـد تجتمـعان في الاسم الواحـد مـثل إِبِلْ، فكسـروا الدال ليكـون على المثـال من أسـمـائهم)[21]. فهـو يؤكـد مـا للاسـتـعـمـال من أهمـيـة في ولادة الظاهـرة اللغـوية فـي اللغـة العـربيـة. وقـد روى عن العـرب كلام تـنطبق عليه تلك المـواصـفـات وذلك مثل قـولهم "هذا جحـر ضبٌّ خربٍ" فان الكوفـيين يقيسـون عليهـا معللين

19- المدارس النحوية : 196.

20- قرأ بها الحسن البصري وزيد بن علي والحارث بن أسامة بن لؤي وابراهيم بن أبي عبلة.
معجم القراءات القرآنية : 5/1.

21- معاني القرآن : 3/1.

إياها بالجوار وهو الاتباع في الصوتيات[22].

بقي القول بوجود العوامل فقد قال الكوفيون بعوامل الاعراب مثلما قال بذلك البصريون وكان العامل محور جدل الفريقين لاختلاف مناهجهما بما نتج عنه اختلاف في التفاصيل[23]، مستشهدين لجمل آرائهم باختلاف القراءات في كثير من المواطن كما سيأتي لاحقا توضيحه وبيانه. ومما سبق وبعد مقارنة هذه الأسسْ العامة للنظرية،أمكن القول بأن الكوفيين بالرغم من اعتمادهم الكامل على البصريين إلاّ أنهم لم يتوانوا في تدعيم الدراسة النحوية،ومحاولة فهم الظواهر اللغوية. ولعله من الأقرب إلى الموضوعية أن نعتبر كل أساس من الأسس السابقة بمثابة النظرية المستقلة،التي لم يمسها الكوفيون من الجذور، ولكن راحو يعملون في فروع النظريات،مثل قولهم بوجود عامل معنوي أطلقوا عليه إسم الخلاف[24].

22- مدرسة الكوفة : 275.

23- نفس المصدر : 276.

24- د/عفيف دمشقية : خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي. 113-114، ط2، دار العلم للملايين، مطبعة العلوم، بيروت ، لبنان. 1402هـ/1982م.

المبحث الثاني :
تسخير القراءات السبع للنحو الكوفي.

يمكننا في الحقيقة الوقوف على أهمية القراءات مصدرا بنى عليه الكوفيون عملهم،وسخروا اختلافه حجة رفعوها في وجه البصريين، مما جعل ردود خصومهم تعتمد على التأويل،أو مجابهة الردود المستشهد لها بالقرآن بنفس الطريقة. ولقد لاحظنا ذلك في كتاب الانصاف في مسائل الخلاف للانباري،من خلال أمثلة متنوعة شملت مساحات كبيرة من الدراسة النحوية،كانت تعتمدعلى اختلاف القراءات عموما والسبع منها خصوصا،فكان الكوفيون يستشهدون بالقراءة ثم يستخرجون منها القاعدة ويعتمدون على النقل،(القرآن وكلام العرب أو أحدهما) ويعتمدون على القياس والاجماع[25].

وهذه بعض الامثلة اجتهدنا في تبويبها تبويبا وفيا لكتب النحو القديمة حيث تذكر القواعد المتعلقة بالاسم،ثم المتعلقة بالفعل،ثم المتعلقة بالحرف، وللتدليل على ذلك نورد بعض الأمثلة الواقع فيها خلاف بين المدرستين.

أ- ما يتعلق بالاسماء :

I- المثال الأول : (القول في "رب" اسم هو أو حرف).

ذهب الكوفيون إلى أن (رب) اسم وذهب البصريون إلى أنه حرف جر. وقد استدل الكوفيون على رأيهم بدخول الحذف عليه فيقال

25- اجماع النحاة الكوفيين وردت الاشارة إليه مرارا في كتاب الانصاف في مسائل الخلاف للانباري.

فـيه "رُبَ" بـالتـخـفـيف وقـد قـرئ بـالتـشـديد والتـخـفـيف،فكانت قـراءة التـخفيف دليلا على دخـول الحذف عليه[26]. وقد قـرأ ابن كثيـر وابن عامـر وحـمـزة والكسـائي وأبو عـمـرو[27] بالتـشـديد،وانفـرد نـافع وعـاصم بالتخفيف[28]، والكوفيون يعتمدون على قراءة نافع وعاصم للقول باسمية (رب)[29] والآية الشـاهـد قـولـه تعـالى : [رُبَّمَـا يَوَدُّ الذِينَ كَـفَـرُواْلَوْكَـانُوا مسلمين" الحجر : 15/2].

المثال الثاني : (الفصل بين المضاف والمضاف إليه).

جوز الكوفيون الفصل بين المتضايفين بغير الظرف وحرف الخفض لضرورة الشعر ولم يجوز البصريون ذلك[30] وقد حكى الكسائي عن العرب قولهم : (هذا غلام والله زيد ...) ففصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله -والله- واستدل الكوفيون أيضا بقراءة سبعية هي قراءة ابن عامر الشامي حيث قرأ : [(وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلاَدَهُمْ شُرَكَائِهِمْ) الانعام : 137/6] وقد قرأها القراء الستة على خلاف قراءة ابن عامر، قرأوا : (وَكَذَلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) وهذه القراءة اعتبرها بعض النحويين منهم نحاة الكوفة حجة للفصل بين المضاف والمضاف إليه.

26- الانصاف : 833/2.

27- اعراب القراءات السبع وعللها : 339/1.

28- روي عن ابي عمرو التخفيف والتشديد.
الآلوسي : شهاب الدين محمود : روح المعاني : 8/14،ط4، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان. 1405هـ/1985م.

29- شرح الرضي على الكافية : 307/2.
شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك : 12/2طبعة مصورة على الطبعة الاصلية : د.ت.

30- الانصاف : 427/2 - 428.

وبعض الباحثين المحدثين يدعون إلى ذلك أيضا لجملة من الاعتبارات الموضوعية[31].

المثال الثالث : ("جواز إضافة إسم إلى اسم يوافقه في المعنى")

جوز الكوفيون إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظان ولم يجوز البصريون ذلك[32]. وقد استدل الكوفيون على ماذهبوا إليه بما جاء في القرآن، قال تعالى : [(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ") سورة الواقعة : 95/56] وقال تعالى :"ولدار الآخرة خير "يوسف 109/12 وقوله : [(وللدار الآخرة خير) سورة الانعام : 32/6]. فاليقين في الآية الأولى نعت للحق والنعت في المعنى هو المنعوت والآخرة في الآية الثانية نعت للدار كذلك في الآية الثالثة. والقاعدة المستخلصة : (يجوز إضافة اسم إلى اسم يوافقه في المعنى)[33]. هذا وقد أورد السيوطي رواية لأبي سعيد الضرير البغدادي اللغوي[34] تؤكد ما سبق بيانه حسب نص الرواية التالي : (قال أبو سعيد الضرير : سألني أبو دَلفِ عن بيت إمرئ القيس :

كبكر المقاناة* البياض بصفرة....

قال : أخبرني عن البكر : هي المقاناة أم غيرها، قلت هي

31- نظرية النحو القرآني : 78-79.

32- لم يجوز البصويون ذلك لانه انما يراد بالاضافة التعريف أو التخصيص، والشيء لا يتعرف بنفسه لانه لو كان فيه تعريف كان مستغنيا عن الاضافة، وان لم يكن فيه تعريف كان باضافته إلى إسمه أبعد من التعريف وعلى هذا الاساس يستحيل أن يصير شيئا آخر باضافة اسمه إلي اسمه.
الانصاف : 437/2 -438.

33- نفس المصدر : 437/2

34- هو أحمد بن خالد أبو سعيد العزيز البغدادي اللغوي لقي أبا عمرو الشيباني وابن الاعرابي رحل إلى خراسان وأقام بنيسابور والف التآليف.
بغية الوعاة : 305/1.

* كبكر المقاناة البياض بصفرة :. غذاها نمير الماء غير المحلل
الطويل.

هي، قال : أفيضاف الشيء إلى صفته قلت نعم، قال فأين؟ قلت قد قال الله تعالى ((ولدار الآخرة) يوسف : 109/12) فأضاف الدار إلى الآخرة وهي هي بعينها، والدليل علي ذلك أنه قال في سورة أخرى [(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ) القصص : 83/28] قال : أريد أشهر من هذا[35] فأنشدته قول جرير : (ياصب إن هوى القيون أضلكم - كضلال شعبة أعور الدجال[36]).[37] فدل بالدجال على الأعور وهو واحد.

المثال الرابع : (الفاظ الإشارة تاتي أسماء موصولة)

ذهب الكوفيون إلى أن (هذا) وما أشبهه من أسماء الاشارة يكون بمعنى الذي واحتجوا بقوله تعالى : ["ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم" : 85/02]. وتقديره : ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم. واستشهدوا أيضا بقوله تعالى : [(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) طه : 17/20] والتقدير : ما التي بيمينك[38] وقد أجمع القراء السبعة على قراءة الآيتين على نفس الحرف[39] وقد وافق الزجاج الكوفيين فيما ذهبوا إليه[40]. فوافق تقديره تقديرهم وأمكن القول أن الكوفيين يعتبرون ألفاظ الاشارة أسماء موصولة. غير أن البصريين نفوا عن أسماء الاشارة أن تكون أسماء موصولة معتمدين على الاستصحاب والتمسك بالأصل[41].

35- القرآن ابلغ واشهر ولعل قصده ايراد شاهد شعري فصيح والله أعلم.

36- من بحر الكامل.

37- الاشباه والنظائر : 306/3

38- الانصاف : 717/2.

39- قرا الحسن "تقتلون" وبذلك قرا ابو نهيك والزهوي.
اتحاف فضلاء البشر : 140/1.- البحر المحيط : 291/1 - القرطبى : 20/2.

40- معاني القرآن واعرابه : 167/1.

41- الانصاف : 719/2.

ب- ما يتعلق بالافعال :

المثال الأول : (يجوز أن يقع الفعل الماضي حالا)

جوز الكوفيون وقوع الفعل الماضي حالا. واحتجوا لذلك بقوله تعالى : [(أَوْجَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ.)[42] سورة النساء : 90/04] على اعتبار أن "حصرت" فعل ماضي وهو في موضع الحال وتقديره حصرةً صدورهم.[43] وقاس الكوفيون على أن "كلما جاز أن يكون صفة للنكرة جاز أن يكون حالا للمعرفة"[44]. وقد خالف البصريون ما ذهب إليه الكوفيون وجوزوا وقوع الفعل الماضي حالا في حالتين اثنتين :

- إذا كانت معه (قد).
- إذا كان وصفا لمحذوف.[45]

المثال الثاني : (جواز دخول نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وفعل جماعة النسوة) :

جوز الكوفيون لحاق نون التوكيد الخفيفة على فعل الاثنين وجماعة النسوة،نحو:(افعلان وافعلنان) وأجمعوا على ذلك إجماعهم على دخول نون التوكيد الثقيلة[46]. وإذا كان لحاق النون الخفيفة على فعل الاثنين وفعل جماعة النسوة يؤدي إلى اجتماع الساكنين فقد ورد في

42- قرأ بها القراء السبعة إلا عاصما.

43- قرأ "حصرة" عاصم والحسن وقتادة والمهدوي وحفص.
معجم القراءات القرآنية : 151/2 .

44- الانصاف : 252/1-253.

45- نفس المصدر : 252/1.

46- الانصاف : 650/2.

القراءات القرآنية ما يجوز ذلك ويدعمه وهما قراءتان :

- قراءة نافع المدني لقول الله تعالى : [(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ) الانعام : 162/06] سكون الياء من (مَحْيَايْ)[47] فجمع بين الساكنين الالف والياء[48].

- قراءة ابن عامر الشامي لقول الله تعالى : [(ولا تتْبَعَانْ) يونس : 89/10] قرأها بنون التوكيد الخفيفة[49] والمراد به موسى وهارون،[50]

وقد كان رد البصريين على أدلة الكوفيين مبنيا على التأويل والافتراض حيث افترضوا أن نافعا نوى الوقف فحذف الفتح وضعفوا قراءة ابن عامر الشامي لأنها لا توافق مذهبهم[51].

المثال الثالث : (حاشى في الاستثناء فعل)

ذهب الكوفيين إلى أن حاشى في الاستثناء فعل ماض، ودليلهم على ذلك أنه يتصرف وقد قال النابغة :

وَلاَ أَرَى فَاعِلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ * وَمَا أُحَاشِى مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ[52].

ولما كان متصرفا فيجب أن يكون فعلا. وبعضهم استدل بقراءة

47- قرأ بها من القراء السبع،نافع براوييه ورش وقالون،وقرأ بها أبو جعفر المدني من القراء العشر. وقرأ (مَحْيَايَ) المكي والبصري والشامي وعاصم وحمزة والكسائي. وقرئ في الشواذ (مَحيٍّ).
معجم القراءات القرآنية : 340/2.

48- الانصاف : 651/2.

49- وقرأ ابن عامر أيضا (تتبعان) وقرأ : (تتبعان) وتبعه في قراءتها على الأوجه الثلاث وقرأ بقية القراء (تتبعان).
معجم القراءات القرآنية : 90/3.

50- الانصاف : 651/2.

51- نفس المصدر : 666/2-667.

52- البيت من بحر البسيط.

أكثر القراء[53] لقوله تعالى [(حاش لله ما هذا بشرا) يوسف : 31/12] باسقاط الالف فدخل الحذف على حاشى مما يدل على أنه فعل[54] وذهب البصريون أن (حاشى) حرف جر، وذهب المبرد إلى أنه فعل ويكون حرفا[55].

المثال الرابع : (وزن الخماسي المكرر ثانية وثالثة)

تعد هذه المسألة من بين المسائل الصرفية، غير أنها أدرجت مع المباحث النحوية لتداخل الدراسة النحوية بالدراسة الصرفية وبغيرها من الدراسات اللغوية في عصور الاسلام الأولى فأدرجت هذه المسألة في هذا الموضع باعتبار تعلقها بالافعال وتحديدا بأوزان بعضها.

ذهب الكوفيون إلى أن(صمحمح)[56] و(دمكمك)[57] على وزن فعلل، وذهب البصريون إلى أنه على وزن فعلعل.

وحجة الكوفيين هي أن الاصل في (صمحمح) صمحّح وأن الأصل في (دمكمك) دمكك إلاّ أنهم استثقلوا جمع ثلاث حاءات وثلاث كافات فجعلوا الوسطى منها ميما ومثل ذلك كثير في الاستعمال ودليله من القرآن قوله تعالى : [(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالغَاوُونَ) الشعراء : 94/26]

53- قرأ:(حاشا) وصلا أبو عمرو وأثبت الألف،ونسب أيضا وجه بالوصل لنافع.وقرأ بقية القراء السبعة (حاش).
معجم القراءات القرآنية : 166/3.

54- الانصاف : 280/1.

55- نفس المصدر : المسألة : 37.

56- يقول الزبيدي : (والصمحمح والصمحمحي) الرجل الشديد. كذا في الصحاح.. وكذلك الدمكمك وهو ما بين الثلاثين والاربعين.
تاج العروس : 184/2.

57- و(الدمكمك) : (الشديد القوي) من الرجال والابل ومن كل شيء.
تاج العروس : 132/7.

والأصل كببّوا لأنه من "كببت الرجل على وجهه" إلاّ أنهم استثقلوا اجتماع ثلاث ياءات فأبدل من الوسطى باء[58].

ج- ما يتعلق بالحروف :

*** المثال الأول : (جواز استعمال "من" لابتداء الغاية في الزمان والمكان).**

ذهب الكوفيون إلى أن "من" يجوز استعمالها في الزمان والمكان ولم يجوز البصريون استعمالها في الزمان ودليل الكوفيين قول الله تعالى :[(لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) التوبة : 108/5] وقد أجمع القراء السبعة على قراءتها بهذا الوجه[59]. ودليل الحجية عند الكوفيين أن (أَوَّلِ يَومٍ) في الآية من الزمان[60] فكانت هذه القراءة وكلام العرب أساس استخراج هذه القاعدة عند الكوفيين.

*** المثال الثاني : ("أو" تأتي بمعنى الواو وبمعنى "بل") :**

ذهب الكوفيون إلى أن "أو" تكون بمعنى الواو وبمعنى "بل"[61] واحتجوا بقول الله تعالى : [(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) الصافات : 147/37] فقيل في التفسير إنها بمعنى "بل" أي بل (يزيدون) وقيل إنها بمعنى الواو. أي ويزيدون وقد قرأ جعفر بن محمد الصادق "وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ وَيَزِيدُونَ" بما يؤيد التفسير السابق فتكون "أو" في وجه من وجهيها بمعنى الواو[62]، وقد أيد الكوفيون أيضا بقول الله

58- الانصاف : 788/2.

59- لم تذكر كتب القراءات فيها اختلافا بين القراء السبعة.

60- الانصاف : 370/1.

61- نفس المصدر : 478/2-479.

62- وردت قراءة "يزيدون" في : البحر المحيط : 376/7 - تفسير القرطبي : 132/15 كشاف الزمخشري : 354/3.

تعالى : [(وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا) الانسان : 24/76] أي وكفورا. وقد أجمع القراء السبعة كذلك على قراءتها بهذا الوجه[63].

أما البصريون فقد ذهبوا إلى أن "أو" لا تكون بمعنى الواو ولا بمعنى بل[64].

*** المثال الثالث : (ان اذا جاءت بعدها اللام تكون بمعنى "ما" واللام بمعنى "الا")**

ذهب الكوفيون إلى أن "ان" إذا جاءت بعدها اللام تكون بمعنى "ما" واللام بمعنى "إلا"[65] واحتجوا لذلك بقوله تعالى : [(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) الاسراء : 76/17][66] أي : ما كادوا. وذهب البصريون إلى أنها -أي إن- مخففة من الثقيلة واللام بعدها، لام التأكيد[67] وقد كانت ردود البصريين معتمدة على القراءات المتواترة والاستشهاد بالنقل.[68] فبينوا أن "إن" التي بمعنى ما لا تجيء اللام معها، كما قال تعالى : [(إِنِ الكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) الملك : 20/67].

*** المثال الرابع : (ان الشرطية تقع بمعنى إذ)**

ذهب الكوفيون إلى أن "ان" الشرطية تقع بمعنى إذ واحتجوا لذلك بقوله تعالى : ["وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا .." البقرة : 23/02] وقوله تعالى : [(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) البقرة 278/02] والمعنى : واذ كنتم في ريب. وإذ

63- لم تذكر كتب القراءات فيها اختلافا بينهم.

64- الانصاف : 478/2.

65- الانصاف : 641/2.

66- أجمع القراء السبعة على قراءتها بهذا الحرف.

67- الانصاف : 641/2.

68- نفس المصدر : 642/2.

كنتم مؤمنين. لأن إن الشرطية تفيد الشك بخلاف إذ. ولا شك في كونهم مؤمنين[69] وقد ردّ الانباري على كلمات الكوفيين[70].

والذي يظهر من الأمثلة الأربعة السابقة أن القراءات المتواترة كانت أرضية خصبة لعمل النحاة استعانوا بالتفسير لبلوغ معاني الحروف واستخرجوا قواعد كثيرة بنوها على ما فهموه من أوجه اختلاف القراءات أو ما اعتمدوه بعد إجماع القراء السبعة على تلاوته بذلك الوجه. ولزيادة التوضيح نورد بعض الأمثلة الأخرى :

المثال الخامس : ("ان" إذا وقعت بعد "ما" فهي نافية مؤكدة)

ذهب الكوفيون إلى أن "ان" إذا وقعت بعد "ما" فإنها بمعنى "ما"[71] واحتجوا لذلك بقول الله تعالى : [(إِنِ الكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ) الملك : 20/67][72] وبقوله تعالى : [(إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ) يسٓ : 15/36][73] أي ما أنتم[74]. وذهب البصريون إلى أن "إن" إذا وقعت بعد "ما" فهي زائدة. والآيات التي استشهد بها الكوفيون واعتمدوها تدل على أن "إن" بمعنى ما فإذا ما قلنا "ما إن زيد قائم" فانها بمعنى ما. وهكذا كانت الشواهد القرآنية التي أجمع القراء السبعة على القراءة بمختلف أوجهها، دليلا على أن (إن) هي بمعنى ما وإنها إذا وقعت بعد "ما" النافية فهي نافية مؤكدة بمعناها.

69- نفس المصدر : 632/2.
70- نفس المصدر : 634/2.
71- الانصاف : 636/2.
72- أجمع القراء على قراءتها بهذا الحرف.
73- أجمع القراء على قراءتها بهذا الحرف.
74- الانصاف : 636/2.

المثال السادس : ("إلا تكون بمعنى الواو)

ذهب الكوفيون إلى أن (إلا) بمعنى الواو. واحتجوا بقوله تعالى : [(لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّـاسِ عَلَيْكُـمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) البقرة : 150/02][75] أي ولا الذين ظلموا، يعني والذين ظلموا لا يكون لهم أيضا حجة[76]. واستدلوا أيضا بقراءات أخرى تدعم ما قالوه. وقد رد عليهم البصرين بأن "إلا" هاهنا استثناء منقطع بمعنى "لكن" وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب[77].

نكتفي بما ذكرنا من الأمثلة المستمدّة من كتاب الانصاف فيما يتعلّق بالأسماء والأفعال والحروف وإن كنّا سنورد شواهد تتعلق بمسائل متفرقة[78].

د- مسائل في العطف.

المثال الأول : (جواز العطف على الضمير المرفوع المتصل في اختيار الكلام)

جوز الكوفيون العطف على الضمير المرفوع المتصل في اختيار الكلام نحو (قمت وزَيْدٌ) ولم يجوز البصويون ذلك إلا على قبح في ضرورة الشعر[79] واستدل الكوفيون على ما ذهبوا إليه بقوله تعالى : [(ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى). النجم : 7/53][80] فعطف هو على

75- قرا ابن عامر "الا الذين" وقرا الباقون "ألا الذين".
معجم القراءات : 127/1.

76- الانصاف : 266/1.

77- نفس المصدر : 269/1.

78- من أراد مزيد الاطلاع فليراجع مثلا : المسائل المشكلة : أبو على الفارسي : 141 وزارة الاوقاف العراقية- مطبعة العاني بغداد 1403هـ/1983م.

79- الانصاف : 474/2.

80- قرا حمزة والكسائي وخلف "استوى" و"الأعلى" بالامالة. وقرأهما ونافع وورش بالتقليل.
معجم القراءات القرآنية : 8/7.

الضمير المرفوع المستكن في (استوى). ويكون المعنى : فاستوى جبريل ومحمد بالأفق[81]، وقد فند البصريون هذا القول فاعتبروا الواو. واو الحال لا واو العطف[82].

المثال الثاني : (جواز العطف على اسم "إن" بالرفع قبل مجيء الخبر).

جوز الكسائي العطف على اسم "ان" قبل تمام الخبر وذلك نحو (إنّ زيدا وعمرو قائمان")[83] واستدل الكوفيون على ذلك بقول الله تعالى : [(إِنَّ الذين آمنُوا وَالذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى) المائدة : 05 /69][84] ووجه الدليل فيها أنه عطف "الصابئون" على موضع إن قبل تمام الخبر. هذا، وقد اختلف الفراء مع الكسائي في هذه المسألة واتخذ موقفا وسطا بين البصريين وموقف الكسائي. ففي حين أن الكسائي جوز ذلك في كل حال،فإن البصريين ذهبوا إلى أنه لا يجوز العطف على الموضع قبل تمام الخبر في كل حال. أما الفراء فإنه ذهب إلى جواز ذلك فيما لم يظهر فيه عمل إن[85].

المثال الثالث : (جواز العطف على الضمير المخفوض)

جوز الكوفيون العطف على الضمير المخفوض ومنعه البصريون ومثاله عند الكوفيين قولك : (مررت بك وَزَيْدٍ)[86] واحتج

81- الانصاف : 474/2.

82- نفس المصدر : 475/2.

83- الانصاف : 185/1.

84- قرأ ،"الصّابئين" ابن كثير من القراء السبعة وقرئت كذلك في الشواذ. معجم القراءات القرآنية : 230/2.

85- الانصاف : 185/1 - 186.

86- الانصاف : 464/2.

الكوفيون بقراءة حمزة بن حبيب الزيات -أحد القراء السبعة- لقوله تعالى : [(وَاتَّقُوا اللَّهَ الذي تَسَّاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ) سورة النساء : 1/04][87]. بالخفض وقد قرأها الباقون بالنصب كما استدل الكوفيون بقوله تعالي : [(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عليكم) النساء : 127/04][88]. فـ(ما) عند الكوفيين في موضع خفض لأنه عطف على الضمير المخفوض في (فيهن)[89] كذلك قوله تعالى : [(لكن الراسخون في العلم ... والمقيمين الصلاة) النساء : 162/04][90] (المقيمين) في موضع خفض بالعطف على الكاف في (إليك) والتقدير فيه : يؤمنون بما أنزل إليك إلى المقيمين الصلاة، يعني من الانبياء عليهم السلام. ويجوز أن يكون عطفا على الكاف في (قبلك) والتقدير فيه : ومن قبل المقيمين الصلاة يعني من أمتك[91] وخلاصة القول أن هذه القاعدة وهي : (عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور) قد أجهد الكوفيون أنفسهم في جمع الشواهد من أجل تأكيد وجودها في اللغة فلا يمكن بحال أن نعتبر ما استشهد به الكوفيون من الضرورات الشعرية واللغوية[92].

87- قرئت في الشواذ والارجام وبالارحام.
معجم القراءات القرآنية : 104/2.

88- (يتلى) قرأها بالامالة حمزة والكسائي وورش وخلف
معجم القراءات القرآنية : 166/2.

89- الانصاف : 464/2.

90- قرأ أبو عمرو في رواية هارون عنه (والمقيمون)،وقرأ في الشواذ خلق كثير.
معجم القراءات القرآنية : 180/2.

91- الانصاف : 464/2.

92- البحر المحيط : 147/2 فما بعدها.

هـ - العوامل والاعراب :[93]

تعتبر نظرية العوامل من أهم النظريات التي يسرت على النحاة تفسير الظواهر الاعرابية بما سمح للدرس النحوي أن يتدعم وتتوسع بذلك الصناعة النحوية.

ونستعرض بعض الأمثلة من كتاب الانصاف.

المثال الأول : (القول في رافع المبتدأ أو الخبر)

ذهب الكوفيون إلى أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ فكل واحد منهما يكون عاملا ومعمولا لانهما لا ينفكان عن بعضهما[94] ودليل الكوفيين من القرآن الكريم قول الله تعالى : [(أَيًّامَا تَدْعُو فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى) الاسراء : 110/17][95] والشاهد في ذلك نصب (أيًّامَا) بـ (تدعوا) وجزم (تدعو) بـ (أيًّا مَا) وهي شرط[96] وقوله تعالى : [(أَيْنَمَا تكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ) النساء : 78/04][97] فـ (أينما) منصوب بـ (تكونوا) و(تكونوا) مجزوم بـ (أينما) - وهذان الشاهدان لا يتعلقان بالمبتدأ والخبر وانما قاس الكوفيون هذه القاعدة في أن المبتدأ هو رافع الخبر والخبر رافع المبتدأ على أن بعض أسماء الشرط تعمل في الشرط

93- هو اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل لفظا أو تقديرا. التعريفات : 31.

94- الانصاف : 45/1.

95- قرأ حمزة والكسائي بالوقف على أيا. معجم القراءات القرآنية : 343/3.

96- التبيان في اعراب القرآن : العكبري : 836، ط2، دار الجيل بيروت،لبنان ، 1407هـ / 1987م.

97- قرئت في الشواذ : "يدرككم". البحر المحيط : 299/3.

والجواب جميعا[98].

*** المثال الثاني : (عامل الجزم في جواب الشرط)**

ذهب الكوفيون إلى أن جواب الشرط مجزوم على الجوار، لأن جواب الشرط مجاوز لفعل الشرط، لازم له لا يكاد ينفك عنه. فلما كان منه بهذه المنزلة في الجوار حمل عليه في الجزم، فكان مجزوما علي الجوار. ومثل هذا قد ورد في القرآن[99]. قال تعالى : [(وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُم إِلَى الكَعْبَيْن) المائدة : 6/5][100]: قرأها من القراء السبعة بالخفض على الجوار : أبو عمرو وابن كثير، وحمزة وشعبه، وقرأ بالنصب نافع وابن عامر والكسائي وحفص[101]، فمن قرأ بالنصب جعل العامل "إغسلوا" ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء[102]. ومثال الحمل على الجوار عند الكوفيين ما ورد في القرآن أيضا من قوله تعالى: [(لَمْ يَكُنِ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ..) البينة: 1/98][103] ووجه الدليل من هذه الآية أنه قال و"المشركين" بالخفض على الجوار إن كان معطوفا على "أهل الكتاب"[104]، وإن كان معطوفا على (الذين) فهو

98- الانتصاف من الانصاف : حاشية الانصاف : 1/44-45.

99- الانصاف : 602/2.

100- قراها الحسن البصري والوليد بن مسلم عن نافع "ارجُلُكُمْ". البحر المحيط : 438/3.

101- اتحاف فضلاء البشر : 530/1 - 531. الكشف : 406/1.

102- الجامع لأحكام القرآن : 91/6.

103- قرا بن مسعود علي التفسير : (لَمْ يَكُنِ المُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الكِتَابِ مُنفِكِّينَ). الجامع لأحكام القرآن : 140/20.

104- نفس المصدر : 140/20.

مرفوع لأنه إسم (يكن)[105]، وهذه الشواهد التي وردت كثيرة في القرآن جاء بها الكوفيون ليؤكدوا أدلتهمفي الاعراب؛الذي يقال على الجوار فيشمل قواعد كثيرة وحالات متنوعة في النحو. وقد ورد هذا النوع من الاعراب الذي على الجوار في الشعر أيضا مع كثرة وروده في القرآن[106].

*** المثال الثالث : (ما يجوز من وجوه الاعراب في الصفة الصالحة للخبرية إذا وجد معهما ظرف مكرر).**

ذهب الكوفيون إلى ان النصب واجب في الصفة إذا كرر الظرف التام وهو خبر المبتدأ. وذلك نحو قولك : (في الدار زيد قائما فيها)[107] واحتج الكوفيون بقول الله تعالى : [(وَأَمَّا الذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) هود : 108/11][108] فقوله تعالى : (خالدين) منصوب بالحال[109]، واحتج الكوفيون كذلك بقوله تعالى : [(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) الحشر : 17/59][110]، ووجه الدليل في هاتين الآيتين أن القراء أجمعوا فيهما على النصب[111]، ولم يرو عن أحد منهم أنه قرأ في

105- الانصاف : 602/2.

106- جعلها الكوفيون قاعدة معممة.

107- الانصاف : 258/1.

108- قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم السين والباقون بفتحها. الكشف : 536/1.

109- يقول العكبري : خالدين : حال، والعاملفيها "لهم" أو ما يتعلق به. التبيان في إعراب القرآن : 1216/2.

110- يقول العكبري : و(خالدين فيها) :حال، وحسن لما كرر اللفظ. المصدر السابق : 1216/2.

111- يقصد الكوفيون هنا باجماع القراء -أي جمهور القراء- أصحاب القراءات المتواترة لأنها قرئت (خالدان) في الشواذ على أنه خبر أن، وفي النار متعلق به، وقدم للاختصاص ، الآلوسي : 60/28.

واحدة منها بالرفع.[112] فوضح بذلك جليا اعتماد نحاة الكوفة على اجماع القراء على وجه من الوجوه بما يكون حجة عندهم في الاستدلال النحوي. وإذا كان نحاة الكوفة يعتمدون على إختلاف القراءات -كما سبق وأن تعرضنا إليه -ويختارون ما يتناسب مع اتجاههم في استخراج القاعدة،أو التدليل عليها؛فإننا نجدهم يأخذون من إجماع القراء واتفاقهم على وجه من الوجوه،ما يتناسب أيضا مع ما يهدفون إلى الاحتجاج له،أو تدعيمه اعتمادا على الشواهد القرآنية.

وليس من اليسير على الباحث أن يقف علي كل الاضافات التي قدمها الكوفيون للنحو العربي لأن معظم المصادر الأمهات التي دونها رواد هذه المدرسة لم يصل إلينا : وأهمها مؤلفات الكسائي إمام هذه المدرسة وبعض مؤلفات الفراء تلميذه -خاصة كتاب الحدود- فبقي كتاب معاني القرآن للفراء أهم المراجع في هذا المجال لأن من نقلوا لنا مسائل الكوفيين إما كانوا متأخرين عن اكتمال بناء مدرسة الكوفة النحوية،أو أنهم نقلوا مسائل مبعثرة هنا وهناك،وجمعوها،وكانت مذاهبهم النحوية في معظمها أميل إلى البصريين. وعلى كل حال -يمكن لنا اعتمادا على ما وصلنا-ضبط آثار إضافات الكوفيين للنحو الكوفي اعتمادا علي القراءات،فتكون الشواهد السابقة معينا لنا ورائدا في ضبطنا لمواطن الافادة.

فهذه بعض الأصول الكوفية التي رفضها البصريون،والتي اعتمد نحاة الكوفة في استخراجها على السماع،وعلى القراءات من

112- الانصاف : 258/1.

ضمنها :

1- كل ما جاز أن يكون صفة للنكرة جاز أن يكون حالا للمعرفة[113].

2- الحمل علي الجوار كثير[114].

3- كثرة الاستعمال تجيز القياس والخروج عن الاصل[115].

4- كثرة الاستعمال تجيز الحذف[116].

فمن هذه الأصول الأربعة ما وقع التوسع فيه أيما اتساع، فالحمل علي الجوار لم يقصره الكوفيون على أمثلة بعينها وردت في كلام العرب، بل اتسعوا فيها وقاسوا عليها وأجازوا ما أجازوا بعد نظر في كلام العرب وفي القراءات، وبذلك أصبحت هذه القاعدة أصلا ومرجعا في تفسير كثير من الظواهر اللغوية.

وهذه الأصول الأربع التي اخترناها من بين أصول عديدة خالف بها الكوفيون البصريين؛ فلأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية الخليل اللغوية، فإذا كان تأثير الحروف في بعضها ونظامها قد اهتم به الفراء خاصة من المدرسة الكوفية فإن القول بالاستعمال واستنتاج بعض القواعد الخاصة بمدرسة الكوفة يعكس مدى انسجام الكوفيين مع نظرية الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتوسعهم في ذلك وهو إقرارهم بأن كثرة الاستعمال تجيز القياس والخروج عن الأصل والحذف[117].

113- الانصاف : 1/252-253.

114- راجع المسألة 84 من مسائل الانصاف : 2/603.

115- الأصول :46.

116- نفس المرجع : 46.

117- الأصول : 46.

أما ما يتعلق بالعوامل فان الكوفيين جددوا في العوامل علي مستوى الفروع وتقبلوا النظرية من البصريين دون مناقشة لكنهم اهتدوا إلى اعتبار عامل معنوي في بعض المسائل المستعصية[118] بل إنهم أضافوا عوامل جديدة إلى لائحة العوامل البصرية. ك "الخلاف"[119] و"الجواز"[120] و"الصرف"[121] وناقضوا البصريين في ماهية بعض العوامل، كما في رفع المبتدأ والخبر.[122]

وإذا كان مذهب الكوفيين قد سمح بشيء فإنه قد سمح بثراء التفكير اللغوي عموما والنحوي خصوصا بما سمح للعلماء في بغداد بالترجيح بين آراء العلماء وظهور النحو البغدادي الذي استفاد من نحو المدرستين وتعمق في المسائل وطرحها طرحا عميقا على نهج بعض العلماء مثل أبوعلي الفارسي-في كتابه المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات -حيث كان يعرض لأشهر آراء الكوفيين والبصريين في المسألة المطروحة ثم يرجح ويقارن اعتمادا على القياس. وكان يعتمد علي اختلاف القراءات في طرح المسائل ويعتمد علي التأويل[123].

118- انظر الانصاف : المسألة:30 - 26 .

119- عامل كوفي ، أعمله الكوفيون في عدة مواضع. وهو عامل ينصب الخبر في مثل "زيد أمامك".
مدرسة الكوفة : 306.

120- الأصول : 43.

121- الصرف عند الفراء هو "الخلاف" الذي اعتمده الكوفيون إلاّ أنه أخص منه، يطبقه الفراء على الأفعال.
ويشمل عند الكوفيين الأسماء. في مثل قولنا : "جاء زيد وطلوع الشمس" فالصرف هو العامل الذي نصب المفعول معه.
مدرسة الكفوفة : 306 . الأصول : 43.

122- خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربى : 117.

123- انظر مثلا المسألة "أربعون" : ص 381.

أما ما يتعلق بقضية المصطلحات الكوفية التي خالفوا بها مصطلحات البصريين فلا نشك بأن هذا الاختلاف ليس لمجرد معارضة البصريين وإنما ينم عن عقلية خاصة تميزت بها النظرة الكوفية للنحو عن النظرة البصرية؛والمتأمل في بعض ما اصطلح عليه الكوفيون يلاحظ أن الفراء في معاني القرآن يطلق علي الفعل المتعدي الفعل الواقع، كما تتردد "أوقعت عليه الفعل" بدلا من "عديت إليه الفعل"[124]. واصطلح على تسمية النفي باسم الجحد[125].

وبصورة عامة فإن الكوفيين قد استقلوا بمصطلحات مثل "الفعل الدائم" الذي يقابل ضمير الفصل عند البصريين،(وشبه المفعول) وهو ما يقابل المفعول المطلق أو فيه أو معه أو لأجله،وأطلقوا علي "الظرف". "الصفة". و"المحل" ،كما سبق بيانه ولقبوا "البدل" بالترجمة[126].

وإذا كان المصطلح النحوي هو ما تواضع عليه المشتغلون بعلم النحو وأقروه ورضوه ليكون متداولا فيما بينهم،وليصبح اتفاقا وإجماعا، فإن هؤلاء المشتغلين قد يختلفون بحسب إختلاف المناهج ،والثقافة ،والبيئة الاجتماعية والجغرافية.

ولما كانت البصرة والكوفة مختلفتين في الطبيعة الجغرافية والطبيعة الاجتماعية ،وفي مستوى غلبة بعض العلوم والفنون على بعض؛ حيث سيطر القرآن وعلوم الحديث والفقه على الكوفة ،في حين سيطرت

124- معانى القرآن : 1/21-40-121.

125- نفس المصدر : 1/52.

126- الأصول : 43.

الفلسفة والمنطق والكلام واللغة على البصرة[127]، فإن مسألة الاصطلاح في النحو -لن تكون بمعزل عن هذا الاطار العام الذي تتنزل فيه هذه القضية، ولذلك شهدت مسألة الاصطلاح تطورا من البساطة إلى مستوى التنظير العلمي، وهذا ما حدث في الكوفة[128]، لأن مسألة التجريد نجدها أبلغ عند البصريين ولم تظهر في الكوفة بادئ الامر بسبب غلبة الثقافة الروائية،التي كانت واضحة الأمر الذي أدى إلى تأثير ذلك في المصطلحات من ذلك مصطلح "التحقير"[129] الذي يراد به "التصغير"،أقرب إلى المعنى اللغوي المشهور في استعمال التصغير منه إلى المعنى الاصطلاحي الذي ينتظم ضمن قاعدة،ونظرة شاملة تعتمد الاستقراء والملاحظة.وقد كان هذا الاستعمال مشتركا بين الفراء وسيبويه مما يدل على أن المصطلحات النحوية شهدت تطورا وتغيرا بعد اكتمال بناء المدرستين النحويتين الكوفية[130] والبصرية،وربما دخلت بعض المصطلحات الكوفية في الاستعمال زمن المدرسة البغدادية[131].

أما عن علاقة هذه المصطلحات بالقراءات القرآنية، فإنه مما لا شك فيه أن القرآن بصفة خاصة قد أثر تأثيرا بالغا،حيث كان أساس الثقافة الجديدة ولا يمكن بحال أن نعزل اللغة عن القرآن والنحو والاصطلاح لأنه عمل لا ينفك اِتصالا بالدّراسات القرآنية وبأوجه قراءة القرآن ما دام ذلك متصلا بلغة القرآن.

127- دراسة في النحو الكرفي : 209.

128- مثاله العامل المعنوي الذي افترضه الكوفيون.

129- معاني القرآن : 201/1.

130- تطور النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة : 72-78.

131- الأصول : 44.

الفصل الثالث :

نحو الكوفة نحو يعتمد على السماع ويهتم بما يعرف بالشاهد

يعد هذا الفصل الأخير من هذا الباب تتمة لما سبق طرحه في الفصلين السابقين، وقد يبدو للدارس لأول وهلة،أن هذا الفصل اجترار وإعادة لما جاء في الفصل الأول من هذا الباب. إلاّ أنه تختلف مباحث هذا الفصل-كما سنرى-عن مباحث الفصل الأول لأن الدرس سينصب في المباحث التالية على مصادر النحو الكوفي وعلى الشاهد النحوي كما يتصوره الكوفيون ويطبقونه، وأسس اختيارتهم في هذا المجال. وهذا الفصل سوف يسمح لنا بالوقوف علي بعض خصائص مدرسة الكوفة النحوية وعلي منزلة القراءات من مصادرها المعتمدة.

والرائد في هذا الفصل هو استخلاص أبرز سمات المنهج الكوفي في الدراسة النحوية،ومقارنته بالمنهج البصري،بما يسمح للباحث أن يقف على بعض أسباب اختلافات المدرستين،بمناهجهما المتباينة،بما سمح بتمايز دراستهما النحوية. وليس النحو الكوفي بدعا من النحو لانه شهد تطورا منذ عصر شيخ المدرسة الكوفية ومؤسسها علي بن حمزة الكسائي،إلى ظهور المدرسة البغدادية،وتطور الدرس النحوي. وسيقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث: المبحث الأول يتعلق بمصادر الدراسة الكوفية،وغلبة السماع على جملة هذه المصادر.

أما المبحث الثاني فهو يتعلق بالشاهد النحوي كما برز عند الكوفيين،والمبحث الأخير إستخلاص لأبرز سمات المنهج الكوفي في الدراسة النحوية، والاضافات التي قدمتها هذه المدرسة للنحو العربي اعتمادا على القراءات القرآنية.

المبحث الأول :

مصادر الدراسة الكوفية في النحو

من المعلوم أن النحو الكوفي متأخر نسبيا عن النحو البصري ومتأثر في نفس الوقت به. وهذا أهم ما يجب ملاحظته. لكن خصائص البيئة الكوفية غير خصائص البيئة البصرية. فالبصرة منفتحة بحكم موقعها،والكوفة منغلقة بحكم سيطرة النّزعات القبلية عليها.كما أن البصرة أكثر استقرارا من الكوفة على المستوى السياسي[1]. وأكثر نشاطا على المستوى الاقتصادي لوجودها في مفترق الطرق[2].

والمتأمل في العقلية الكوفية وثقافتها إبان أخذ الكسائي عن الخليل وخروجه إلى البادية،يجدها ثقافة عربية إسلامية أصيلة مبنية على الولاء للعروبة والاسلام،أبرز سماتها الرواية،ازدادت لها وفاء بمجيء الاسلام وحفظ القرآن،وتدعيم عمر بن الخطاب للكوفة بتركيزه للقراءة والاقراء بها[3]، ولذلك أمكن الحديث عن القرآن بقراءاته مصدرا من مصادر الدراسة الكوفية للنحو. أما الحديث النبوي فنادرا ما يستشهد به الكوفيون[4]، ولعل ذلك راجع إلى اشتهار بيئة الكوفة بوضع الأحاديث وكثرة الاضطرابات السياسية مما يجعل رواية الحديث في حاجة إلى التحري الشديد[5].

ومع القرآن بقراءات مصدرا من مصادر السماع يمكن الحديث

1- انظر الباب الأول : الفصل :I

2- مدرسة الكوفة : 14- 15.

3- سنن ابن ماجة : 9/1.

4- في مسائل الانصاف ما يؤكد ذلك تأكيدا قاطعا.

5- يرجع إلى الباب I، الفصل: I.

عن الشعر الذي اشتهرت الكوفة بروايته واشتهرت بالوضع فيه هي البصرة كما سبق أن رأينا[6] وقد استشهد الكوفيون بالشعر الجاهلي والمخضرم والاسلامي[7] واعتبروه من أهم المصادر لديهم.

ومع الشعر والقراءات نجد اللغات التي اعتمدها الكوفيون وتوسعوا في سماعها كما نجد أيضا النحو البصري الذي أخذوه. وهو المحور الأساسي الذي تفاعلت معه جملة المؤهلات العلمية والبيئية الثقافية لتفرز في الأخير نحوا على شاكلة نحو الكوفيين، ونرى أن طبيعة البحث تدعونا إلى التوقف عند هذه المصادر مصدرا مصدرا.

أ- القراءات القرآنية :

القراءات القرآنية إسم جامع لجميع أصناف القراءات التي قرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ بها أصحابه بعده. وقد رأينا كيف أن الكوفة كانت بيئة القراءات السبع كما اتصل بها سند القراءات العشر[8] بقي معرفة ما إذا كان سند القراءات الشاذة الأربعة بعد العشرة قد اتصل به الكوفيون؟

هؤلاء القراء الأربعة هم على التوالي : ابن محيصن[9]،

6- انظر : ص : 37.

7- سيأتى بيانه : انظر ص : 361.

8- انظر الفصل : I من الباب الثالث. ص: 300.

9- هو محمد بن عبد الرحمان بن محيصن السهمي المكي مقري أهل مكة مع ابن كثير،كان رجلا ثقة روى له مسلم. عرض على مجاهد بن جبير، ودرباس مولى ابن عباس وسعيد بن حبير وعرض عليه القراءة شبل بن عباد وأبو عمرو بن العلاء. وكان ابن محيض أعلمهم بالعربية وأقواهم عليها. قال فيه أبو حاتم السجستاني : (ابن محيض من قريش وكان نحويا). وقال ابن مجاهد : (كان لابن محيص اختيارفي القراءة على مذهب العربية،فخرج به عن إجماع أهل بلده،فرغب الناس عن قراءته،وأجمعوا علي قراءة ابن كثير). توفي ابن محيص سنة ثلاث وعشرين ومائة. غاية النهاية : 167/2.

والأعمش[10]، والحسن البصري[11]. ويحي اليزيدي[12].

وتختلف أصول هؤلاء القراء الأربعة في كثير من أحكامها مع أصول القراء السبعة،ومع القراء الثلاثة المكملين للعشرة؛ وكفى بكتاب معاني القرآن للفراء حجة نتأكد من خلاله،من وصول سند هذه القراءات إلى الكوفة. وهذه بعض الشواهد :

يقول الفراء عند تفسيره لقول الله تعالى : [(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ) البقرة 28/2] قال : المعنى -والله أعلم- وقد كنتم، ولولا أضمار "قد" لم يجز مثله في الكلام[13]. ثم أورد الفراء قراءة الحسن البصري منتقدا حيث قال : (وقد قرأ بعض القراء -وهو الحسن البصري- : [(حَصِرَةً صُدُورُهُمْ : 90/4)]. كأنه لم يعرف الوجه في : (أصبح عبد الله قام) أو (أقبل أخذ شاة). كأنه يريد فقد أخذ شاة. وإذا

10- أخذ سنده في القراءة عن ابراهيم النخعي عرضا،وزر بن حبيش،وعاصم ابن أبي النجود.روى القراءة عنه عرضا وسماعا:حمزة بن حبيب الزيات. كان أقرأ أهل زمانه بالكوفة وهو أسدى،من بني أسد، توفي:(148هـ - 764م).
غاية النهاية : 315/1.

11- سنده في القراءة الأسانيد العالية،حيث قرا على حطان بن عبد الله الرقاش،عن أبي موسى الاشعري،وقرأ على أبي العالية عن ابي بن كعب،وزيد بن ثابت،عن عمر بن الخطاب،وروى أبو عمرو بن العلاء البصري،وسلام الطويل،وعاصم الجحدري،وعيسى الثقفي.
غاية النهاية : 235/1.

12- هو أبو محمد يحي بن المبارك بن المغيرة العدوي البصري المعروف باليزيدي عرف باليزيد لصحبته يزيد بن منصور خال المهدي: اخذ القراءة عرضا عن أبي عمرو بن العلاء البصري وعن حمزة واخذ عن الخليل بن احمد ولم يخرج عن قراءة أبي عمرو ولم يخالفه إلاّ في حروف يسيرة واليزيدي نحوي أديب، ولد يزيد بن منصور خال المهدي توفي سنة:(202هـ) بمرو.
غاية النهاية : 375/2 - 377.

13- معاني القرآن : 24/1.

كان الأول لم يمض لم يجز الثاني بقد ولا بغير قد).[14]

واستشهد الفراء بقراءة الحسن أيضا عند تفسيره لقول الله تعالى:("يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا" البقرة: 104/2) وقد قرأها الحسن البصري "لاَ تَقُولُوا راعنًا" بالتنوين أي لا تقولوا حمقا.[15] وكذلك قرأها ابن محيصن[16].

وفي قوله تعالي : [("مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا" البقرة : 106/2)] أورد الفراء قراءة من يقرأ. "أو ننساها" أي نؤخرها من النسيئة[17] نجد أن من القراء الذين قرأوا بها : اليزيدي وابن محيصن وغيرهم.[18] ومن قوله تعالى : ("وَاتَّقُوا اللّهَ الذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ" : 1/4) اشتهر بقراءة الخفض في الميم القارئ حمزة لكن سند القراءة بالخفض أورده الفراء قال : (حدثني شريك بن عبد الله عن الأعمش عن إبراهيم[19] أنه خفض الأرحامِ. قال : هو كقولهم : بالله والرّحم.)[20]

فوضح بهذه الأمثلة أن سند هؤلاء القراء الأربعة متصل بسند قراء الكوفة مما يؤكد اطّلاعهم على هذه القراءات وحذقهم لمختلف حروفها وإن كان الفراء في معاني القرآن لا يصرح بأغلب أسماء هذه

14- نفس المصدر : 24/1 وانظر : 96/1.

15- معانى القرآن : 70/1.

16- البحر المحيط : 338/1.

17- معانى القرآن : 65/1.

18- البحر المحيط : 343/1 - الجامع لاحكام القران 67/2.

19- هو أبو عمران ابراهيم بن يزيد النخمي الكوفي توفي سنة : 96هـ غاية النهاية : 29/1 - 30.

20- معاني القرآن : 252/1.
البحر المحيط : 157/3.

21- انظر مثلا : معاني القرآن 230/1 - 190/1 - 175/1 - 173/1.

الطبقة من التابعين وغيرهم إلاّ من اشتهر منهم فانه كثيرا ما ينسب القراءة لبعض الصحابة مثل أبي بن كعب،وعبد الله بن مسعود،وعبد الله ابن عباس،وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم[21].

وأما ما يتعلق بالقراءات الأخرى الزائدة على الأربعة عشر فإنّ الفراء من خلال معاني القرآن يبدو مطلعا علي الكثير منها. غير أنه كان لا يسمى أصحابها بل يجوّز القراءة بها،أو يردها،وهو في ذلك كله يعتمد على الاسناد العالي،فينسب القراءات إلى الصحابة،وقد يأتي بأوجه تجوز في اللغة -لكنها لم ترد في القراءات- فيعلق عليها بأنه لم يسمع قراءة بها، لأن القراءة عنده سنة متبعة يأخذها اللاحق عن السابق بالاسناد إلى اعلام القراء ورواتها الذين صح الأخذ عنهم. ومن خلال ما لدينا من المراجع الكوفية فإن الكوفيين قبلوا كل القراءات واحتجوا بها لأنهم قبلوا جملة مستكثرة من لغات العرب،واتسعوا في السماع.وقد رأينا سابقا[22] اعتماد الكسائي علي اختلاف القراءات بمختلف أصنافها، إذ هو يستخرج القاعدة النحوية اعتمادا على قراءة شاذة[23]، فضلا عن قراءة متواترة.

ب- الشعر العربي :[24]

يعتبر الشاهد الشعري من أهم الشواهد، بل إنّه يعتبر عند

21- انظر مثلا : معاني القرآن 230/1 - 190/1 - 175/1 - 173/1.

22- انظر ص : 105.

23- انظر ص : 307 فما بعدها.

24- اشهر رواة الشعر الجاهلي في العصر الاسلامي من البصريين والكوفيين:ابو عمرو بن العلاء،وحماد الراوية،وخلف الاحمر،ومحمد بن السائب الكلبي، والمفضل الضبي،أظهروا في عملهم مهارة كبرى.
العصر الجاهلي: د/ شوقي ضيف : 148،ط 4،دار المعارف بمصر،1378هـ/1960 م.

اللغويين والنحاة الدعامة الأولى لهم، لأن الشعر كان ديوان العرب على نحو ما تكون كتب التاريخ دواوين للامم[25]؛ ولأنه كان أيسر في الحفظ عليهم،لقربه من قلوبهم،زيادة علي حلاوة موسيقاه[26]، وسلاسة ألفاظه واختصار معانيه.

وكان لكل شاعر راوية ينقل عنه شعره ويذيعه في الناس، وكثيرا ما يكون الراوية شاعرا معروفا،يروي عنه رواة آخرون[27]. ونرى ابن رشيق يصنف الشعراء إلى طبقات ممن أخذ العرب عنهم واستشهدوا بشعرهم، وقبلهم كانت مواقف العلماء متباينة من الاحتجاج بالاشعار، متفقة في بعض الشروط،مختلفة في البعض الآخر[28].

وأشهر الطبقات : طبقة الشعراء الجاهليين، طبقة الشعراء المخضرمين، طبقة الشعراء الاسلاميين، طبقة الشعراء المولدين[29]، وعند النحاة إجماع على الاستشهاد بشعر الجاهليين والمخضرمين[30]، واختلاف في الاستشهاد بمن تبقى من طبقات الشعراء.

25- الأصول : 90.

26- دراسة في النحو الكوفي : 163.

27- الأصول : 90.

28- العمدة : ابن رشيق : 90/1 ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان. د.ت.

29- ذهب أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وابن الأعرابي إلى أنّ الشعر القديم هو الذي يعتد به وما سواه -بعد الاسلام- فهو مولد ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبح فهو من عندهم. ولا يرى ابن قتيبة هذا الراي.
يقول السيوطي : يقال هذه عربية وهذه مولدة، والمولد من الكلم المحدث. وليس المولد كالمصنوع الذي يورده صاحبه على أنه عربي فصيح.
المزهر : 304/1. العمدة : 90/1-91.

30- طعن في شعر بعض الشعراء الجاهليين والمخضرمين لان الفاظهما ليست نجدية.
د.أحمد مختار عمر : البحث اللغوي عند العرب : 44.

والاهتمام بأمر الشعر ورواته وأنواعه صناعة[31] لا تقل أهمية عن الصناعة النحوية،أو الصناعة الحديثية. فعرف أهل هذا الفن الموضوع منه من الصحيح المنسوب إلى أصحابه؛يقول ابن سلام الجمحي : (في الشعر مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته، ولا غريب يستفاد، ولا مثل يضرب، ولا مدح رائع ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف، وقد تناوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأخذه إذا أجمل أهل العلم والرواية الصحيحة علي إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي)[32]. وهذه القولة تؤكد صحة وصف فن الاهتمام بالشعر بالصناعة لأن الصنعة تتطلب صناعا مهرة يميزون بين أضرب الشعر وأنواعه،فتبرز مواطن العلة وينكشف الموضوع من السليم المنسوب إلى قائلة على الحقيقة.

وكتاب معاني القرآن للفراء مليء بالشواهد الشعرية،فكان يروي أشعارا مختلفة،بصيغ مختلفة،عن رواة مختلفين منهم من اعتمد علي روايته كثيرا،ومنهم من لم ينقل عنهم إلاّ بيتا أو بيتين ولا ينسب الاشعار إلى أصحابها في كثير من المواضع، على نهج سيبويه في الكتاب[33].

أما صاحب الانصاف فقد أورد العديد من الشواهد الشعرية التي استشهد بها الكوفيون والبصريون. بلغت جملتها اثنين وخمسمائة شاهد شعري (502) كان نصيب الكوفيين منها أقل بكثير من نصيب البصريين.

31- المزهر : 171/1.

32- الشعر والشعراء : 5 المزهر : 171/1.

33- دراسة في النحو الكوفي : 173.

وقد استشهد الكوفيون بشعر: عنترة العبسي[34]، والأعشى[35]، وامرؤ القيس[36]، والاخطل[37]، وذو الرمة[38]، والمرقش، والكميت[39]، وأبو زبيد الطائي[40]، وأبو فخر الهذلي[41]، والنابغة الذبياني[42]، وزهير بن أبي سلمى[43]، والفرزدق[44]، وحسان بن ثابت[45]، والهذلي[46]، وغير هؤلاء كثير ممن ذكروا بأسمائهم أو ذكرت أشعارهم

34- الانصاف : 26/1.

35- نفس المصدر : 58/1.

36- نفس المصدر : 83/1.

37- نفس المصدر : 99/1.

38- نفس المصدر : 100/1.
هو غيلان بن عقبة بن بهيس ويكنى أبا الحارث يرجع نسبه إلى عدي بن عبد مناة. كان أحسن الناس تشبها، لا يجيد المدح ولا الهجاء.
الشعر والشعراء : 350-358.

39- نفس المصدر : 101/1.

40- نفس الصدر : 109/1.
أبو زبيد الطائي : هو المنذر بن حرملة (من طيء) وكان جاهليا قديما، وأدرك الاسلام، إلا أنه لم يسلم ومات نصرانيا. وكان نديم الوليد بن عقبة، عمر طويلا.
طبقات الشعراء : ابن قتيبة : 185، ط2، الكتب العلمية بيروت ، لبنان، (1405هـ/1985م).

41- نفس المصدر : 53/1.

42- نفس المصدر : 278/1.

43- نفس المصدر : 347/1.

44- نفس الصدر : 395/1
الفرزدق : هو همام بن غالب بن صعصعة، كان أبوه غالب سيد بادية تميم كان الفرزدق خطيبا بارعا يفتن في كلامه يقول في كل شيء، سريع الجواب، كان يشبهه أبو عمرو بن العلاء بزهير من شعراء الجاهلية.
الشعر والشعراء : 310-314.

45- نفس المصدر : 1/: 97
هو حسان بن ثابت بن المنذر الانصاري ويكنى أبا الوليد، شاعر مخضرم عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين سنة ومات في خلافة معاوية. وكان الاصمعي يعتبر شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر فلما جاء الاسلام قطع متن شعره لحال النبي صلى الله عليه وسلم.
الشعر والشعراء : 188.

46- نفس المصدر : 809/2.

وحققها صاحب الانتصاف من الأنصاف.

المتأمل في قائمة هؤلاء الشعراء يجد الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين،مع تفاوت في نسبة الاستشهاد إذ يغلب اعتماد الكوفيين علي الشعر الجاهلي والفصيح منه علي الخصوص. وقدروى الفراء في معاني القرآن أشعارا لشعراد آخرين[47].

وإذا كان النحو كما عرفه الكوفيون والبصريون قبلهم صناعة والعناية بالأشعار وروايتها ونقدها كذلك صناعة فان الصناعة النحوية اعتمدت اعتمادا كبيرا علي الصناعة الشعرية حتى بدا عمل النحاة مستحيلا بدون رواية الأشعار ونقدها والتمييز بين غثها وسمينها. ومن هذا المنطلق تتوضح أهمية الشعر مصدرا من مصارد النحو الكوفي[48].

ج- النحو البصري :

اتصل الكوفيون الأوائل ممن اشتهروا بتدريس النحو في الكوفة بالبصريين، فأخذ أبو جعفر الرؤّاسي عن عيسى بن عمر الثقفي،[49] -لكن هذا العَلَم لا يعد أساس النحو الكوفي،لأن الانطلاقة الحقيقية كانت مع الكسائي كما سبق ذكر ذلك -ولأن الروايات التي تتحدث عن مؤلفات الرؤّاسي وعن اتصاله بالخليل بن أحمد الفراهيدي متعارضة،[50] مما يجعلنا نشك في صحة ما نسب إليه من مؤلفات في النحو الكوفي

47- دراسة فى النحو الكوفى : 171.

48- استلزم الامر بالنسبة للنحاة الأوائل أن يجمعوا بين جملة من الفنون اهمها اتساع السماع ومعرفة القراءات والشعر والشعراء وحذق القياس ومعرفة لغات القبائل.

49- بغية الوعاة : 83/1.

50- نفس المصدر : 82/1-83.

وإن صح ذلك فإن رواية عن الكسائي تقلل من قيمة كتاب الرؤاسي المعروف بالفيصل،[51] لذلك يعتبر الكسائي والفراء من بعده المؤسسين الحقيقتين لمدرسة الكوفة النحوية- مثلما سبق بيانه-وقد أخذ الأول عن الخليل بن أحمد الفراهيدي -أول ما أخذ علم النحو- وأخذ الثاني عن يونس بن حبيب البصري لما لم يجد ضالته النحوية في الكوفة.

الواضح من خلال هذا العرض أن الكوفيين أخذوا النحو عن البصريين ثم بنوا نحوهم علي ما أحكمته البصرة من الأركان العامة للنحو وقرأ الكسائي والفراء كتاب سيبويه[52] وأفادا منه أيّما إفادة.

د- لغات القبائل :

من المعلوم أن الكوفيين توسعوا في السماع توسعا كبيرا، فسمعوا من بعض من رفض البصريون السماع منهم،لأنهم وثقوا بلغاتهم وعدوها فصيحة.[53] ولم يسمع الكوفيون من لخم وجذام،لمجاورتهم أهل مصر والقبط،ولا من قضاعة وغسان وإياد،لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى، ولا من تغلب لمجاورتهم للبيزنطيين،ولا من عبد القيس وأزدعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة،ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة،ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لفساد ألسنتهم[54]. وهذه المجموعة من القبائل أغلبية بالمقارنة مع

51- المدارس النحوية نقلا عن مجالس العلماء للزجاجي - انظر ص : 153.
52- المدارس النحوية : 158 - 159.
53- مدرسة الكوفة : 332.
54- المزهر : 212/1.

من أخذ عنهم اللغة من القبائل الأخرى التي تعد أقلية، ونسبة ما أخذه البصريون من القبائل المسموح بالأخذ عنها أقل مما أخذ الكوفيون.

وخلاصة القول هي أن "السماع" الذي بنى عليه نحاة البصرة والكوفة[55] عملهم-من بين أمصار العرب- قد وقع التحري فيه شديد التحري،ليكون البناء النحويّ متماسكا،ولتكون الأسس ثابتة بما يساعد على حفظ لغة القرآن، خاصة وأنّ العاطفة الدّينيّة كان لها أثر كبير في دفع اللغويين والنحاة العرب إلى ضبط اللغة ضبطا كاملا. وإذا كان السماع عند الكوفيين أكثر اعتمادا على مستوى استخلاص القواعد والاكثار من الأقيسة،فإن البصريين بسبب تأصل التجريد فيهم،وغلبته على عقليتهم -بحيث كانوا أكثر إلتزاما- عابوا على الكوفيين التوسع في السّماع.

55- نفس المصدر : 212/1.

المبحث الثاني :

الشاهد النحوي عند الكوفيين

الشاهد في النحو ركن أساسي من أركان الصناعة، دأب على اختياره النحاة واللغويون لتصبح اللغة موثقة مقننة مدعمة، حتى يستطيع العربي أن يميز بين ما هو أصيل وبين ما هو دخيل، وقد بذل علماء اللغة من المؤسسين جهودا كبيرة لجمع مادة السماع ،وتمحيصها حتى يسلم اللسان العربي من كل دخيل مرذول،أو مبتذل.[56]

وفي هذا المبحث سنحاول حوصلة الشواهد النحوية بمختلف أنواعها،ومقارنتها بشواهد البصريين من خلال الانصاف وبعض المصادر الاخرى،ثم ننظر في منزلة هذه الشواهد وترتيبها بمختلف انتماءاتها سواء كانت قرآنية أو شعرية أو نثرية.

أ- شواهد الانصاف بين نحاة الكوفة والبصرة :

الناظر في كتاب الانصاف يمكن أن يحصي جملة مسائل كتاب الانصاف في مسائل الخلاف لابن الانباري واحدا وعشرين ومائة مسألة خلافية جمعها المؤلف وعرض لكل مسألة،مبرزا أدلة الفريقين مرجحا بشواهده الرأي أو الحكم الذي يراه أقرب للسلامة اللغوية،بعد تجربة وخبرة للصناعة النحوية،لا تقل عن أربعة قرون علي الأقل. فالأنباري توفي سنة(577هـ-1214م) والخليل إذا ما اعتبرناه أول النحاة

56- يقول السيوطي متحدثا عن السماع : (واعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرا عن مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بدّ في كلّ منها من الثبوت.)
الاقتراح : 36.

بالمعنى العلمي للكلمة قد توفي سنة (170هـ-796م) وبين الخليل وابن الانباري مدارس نحوية وأجيال من اللغويين والنحاة أفنوا أعمارهم في الصنعة، فجادت عقولهم بالكثير، وأفادوا من جاء بعدهم إلى عصر الأنباري. كذلك نجد آراء نحوية ثرية في الانصاف،وشواهد شعرية متنوعة.استقل بها صاحب الكتاب بعد عرضه لآراء أشهر ما قيل من قبل الفريقين في كل مسألة خلافية.وهي غير معتبرة في مبحثنا هذا.

وفي هذا المبحث لم نعتبر الشواهد التي أضافها الأنباري لتأييد رأي،أو لتفنيد قول ، واكتفينا بما نسب إلى أصحاب مدرسة الكوفة أو مدرسة البصرة.

وبعد المسح لكتاب الانصاف في مسائل الخلاف يتضح أن الشواهد متنوعة؛فنجد البصريين والكوفيين يستشهدون بالقرآن الكريم وقراءاته مكتفين بها شاهدا[57] إذا لم يوجد معه شعر عربي جاهلي،أو مخضرم،أو إسلامي، ونجد صنفا ثانيا من المسائل يستشهدون له بالقرآن والشعر، وصنف ثالث يستشهد له بالشعر، وصنف أخير يُستشهد له بالنثر مسندا بالشعر أو القرآن،أو يكتفون به وحده.

وأول ما يُلاحظ هو أن الكوفيين قد فاقوا البصريين إشهادا بالنقل؛حيث كان عدد الشواهد النقلية متنوعا.شمل اثنتين وسبعين مسألة من بين واحد وعشرين ومائة مسألة خلافية.

57- الشاهد الشعري من أهم الشواهد لأنه أوسع وأكثر، بما يسمح بمسح معظم ظواهر اللغة العربية.ولذلك علق ابن رشيق على مذهب"أبو عمرو ابن العلاء وابن الاعرابي والاصمعي"حين يفضلون الشعر الجاهلي والمخضرم،لحاجتهم في الشعر الشاهد ،وقلة ثقتهم بما يأتي به المولّدون.
العمدة : 91/1.

أما البصريون فقد شملت الشواهد النقلية خمسين مسألة من جملة مسائل الانصاف،وما تبقي من المسائل استشهدوا له بالقياس.

ومن أهم التقاليد العلمية في كل عمل هادف الاستعانة بالأرقام لتكون المقارنات والاستنتاجات علمية،فوضعنا لذلك جدولين ضبطنا فيهما عدد المسائل المستشهد لها بالقرآن بقراءاته،وعدد المسائل المستشهد لها بالقرآن والشعر معا،والمسائل المستشهد لها بالشعر، وأخيرا المسائل المستشهد لها بالأثر حديثا كان، أو أمثالا.

وقد أتبعنا الجدولين برسمين بيانيين يوضحان منزلة الشاهد الشعري من الشاهد القرآني من الشاهد النثري، مما سيظهر بالصفحات الموالية.

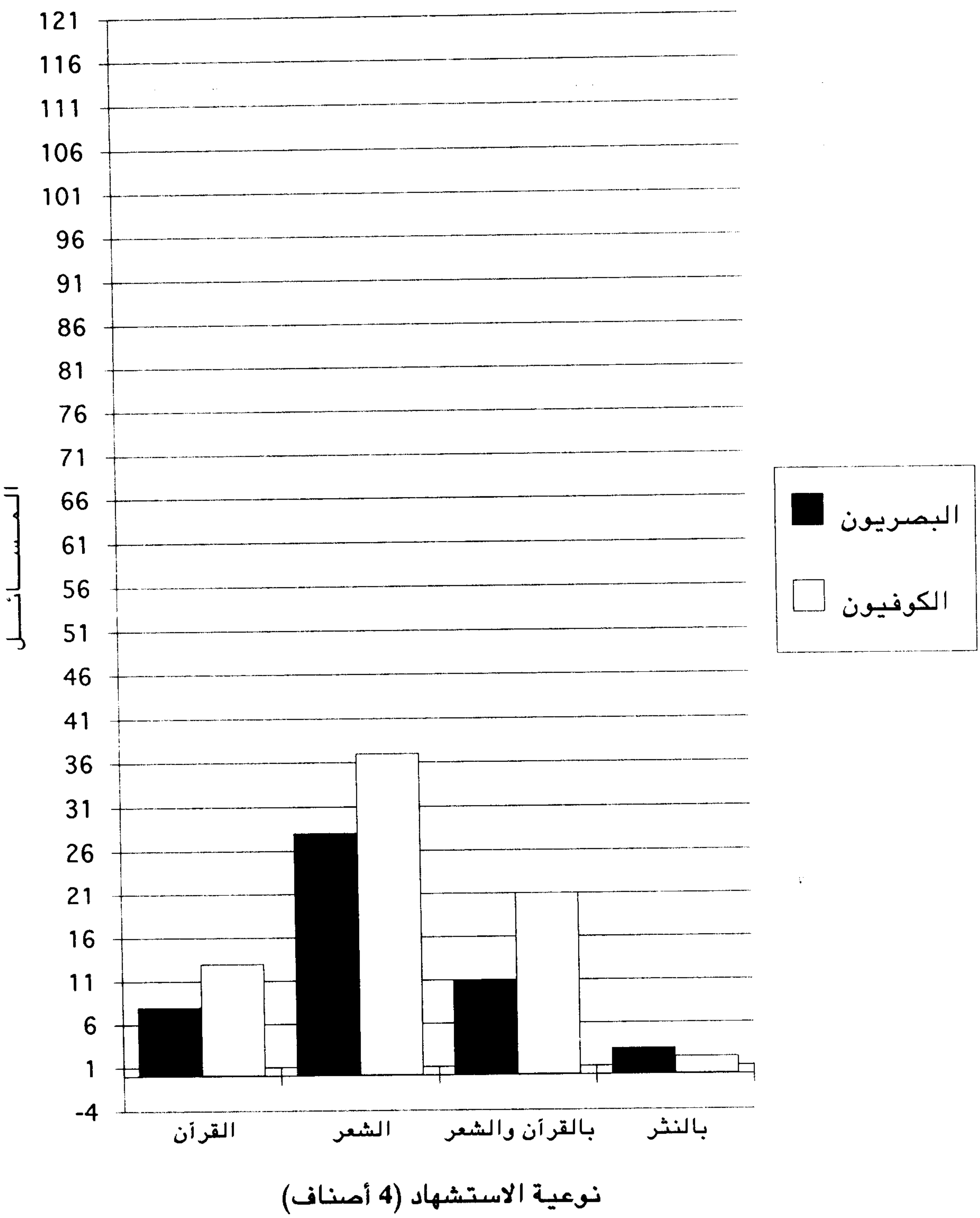
جدول نسب الاستشهاد لدى الكوفيين

	نوعية الاستشهاد	المسائل	عددها	النسبة المائوية: من النقل	من كل المسائل
1	بالقرآن وقراءاته	(م5) (م6) (م11) (م23) (م33) (م45) (م89) (م94) (م97) (م102) (م107) (م108) (م121)	13	17.8	10.74 %
2	بالشعر	(م4) (م8) (م10) (م13) (م15) (م16) (م17) (م22) (م25) (م36) (م38) (م39) (م41) (م42) (م46) (م47) (م48) (م55) (م56) (م57) (م59) (م60) (م62) (م63) (م80) (م81) (م82) (م87) (م95) (م96) (م104) (م106) (م109) (م116) (م117) (م119) (م120)	37	50,6	30,58 %
3	بالقرآن والشعر	(م14) (م27) (م32) (م35) (م37) (م40) (م54) (م61) (م64) (م65) (م66) (م67) (م70) (م71) (م72) (م77) (م84) (م88) (م90) (م103) (م113).	21	28,76 %	17,34 %
4	حديث أو مثل	(م72) (م99).	2	2,73 %	1,6 %
	المجموع		**73**	**100 %**	**59 %**

جدول نسب الاستشهاد لدى الكوفيين

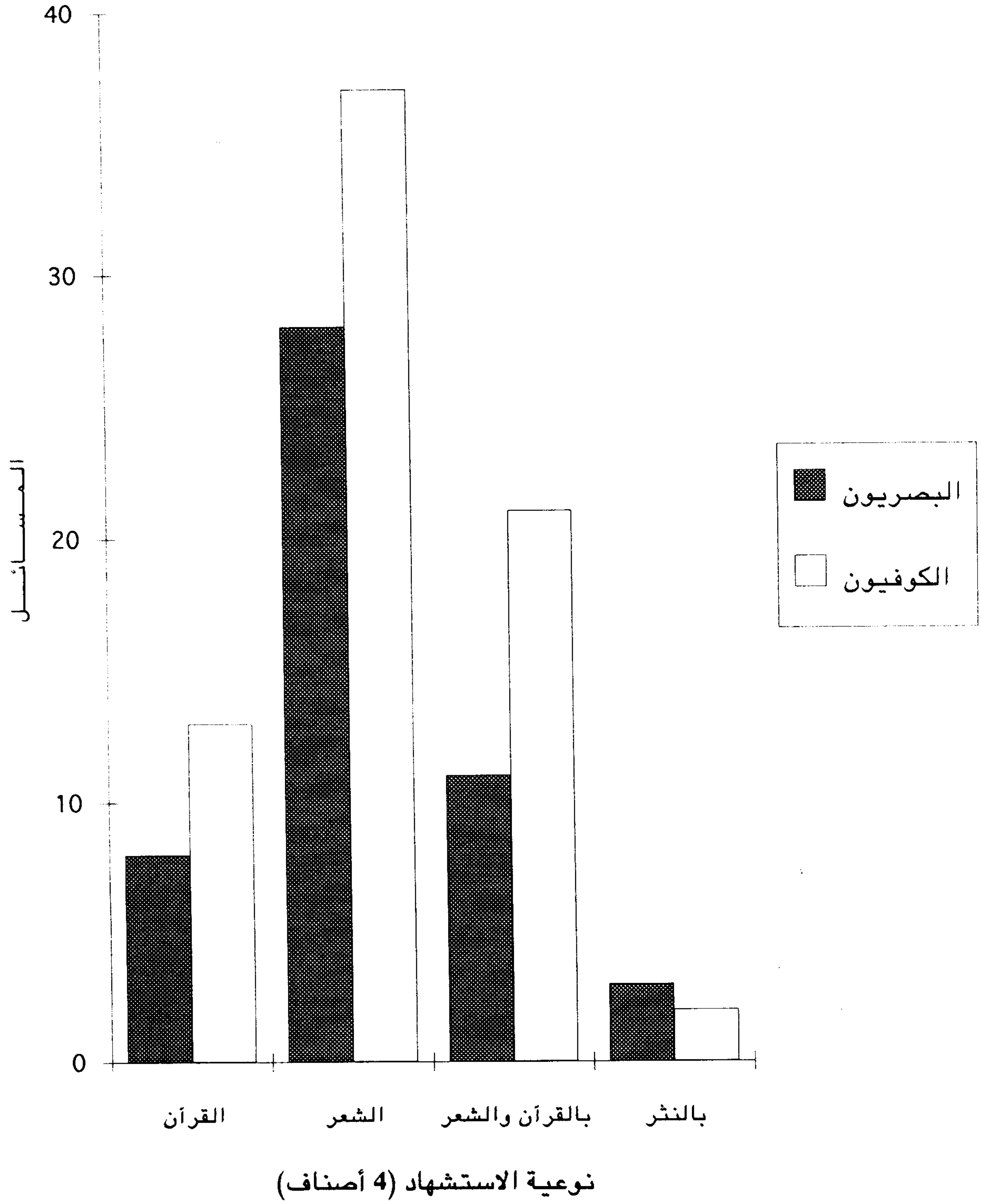
نوعية الاستشهاد		المسائل	عددها	النسبة المائوية	
				من النقل	من كلّ المسائل.
1	بالقرآن وقراءاته	(م5) (م11) (م18) (م50) (م71) (م78) (م95) (م117)	8	16 %	6,6 %
2	بالشعر	(م1) (م2) (م9) (م14) (م15) (م16) (م26) (م41) (م43) (م45) (م48) (م49) (م53) (م59) (م60) (م66) (م69) (م70) (م72) (م77) (م83) (م98) (م105) (م110) (م111) (م115) (م118) (م119)	28	56 %	23,4 %
3	بالقرآن والشعر	(م8) (م10) (م13) (م24) (م32) (م37) (م38) (م39) (م62) (م89) (م97)	11	22 %	9 %
4	بالأمثال	(م31) (م98) (م99)	3	6 %	2,4 %
المجموع			**50**	**100 %**	**41 %**

رسم بياني مقارن في نسب الاستشهاد



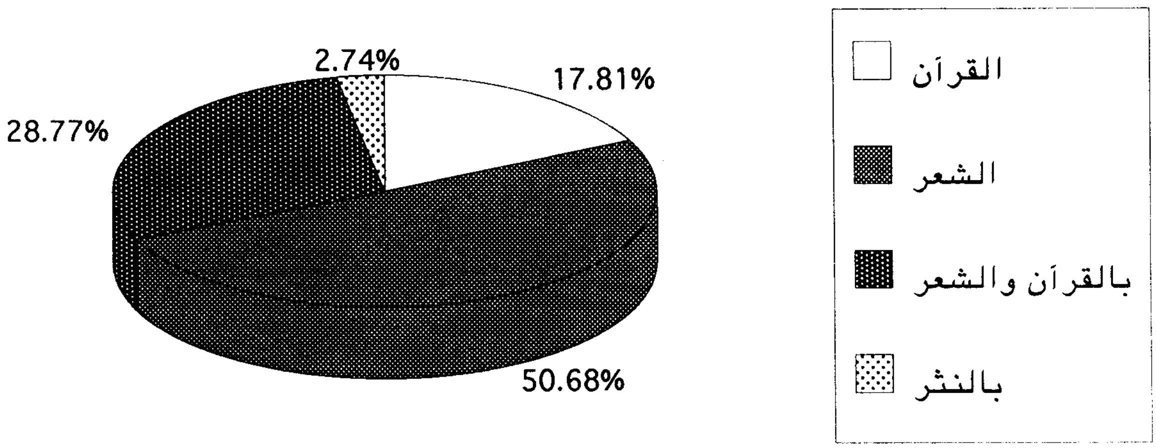
جملة مسائل كتاب الانصاف : 121 مسألة

رسم بياني مقارن في نسب الاستشهاد



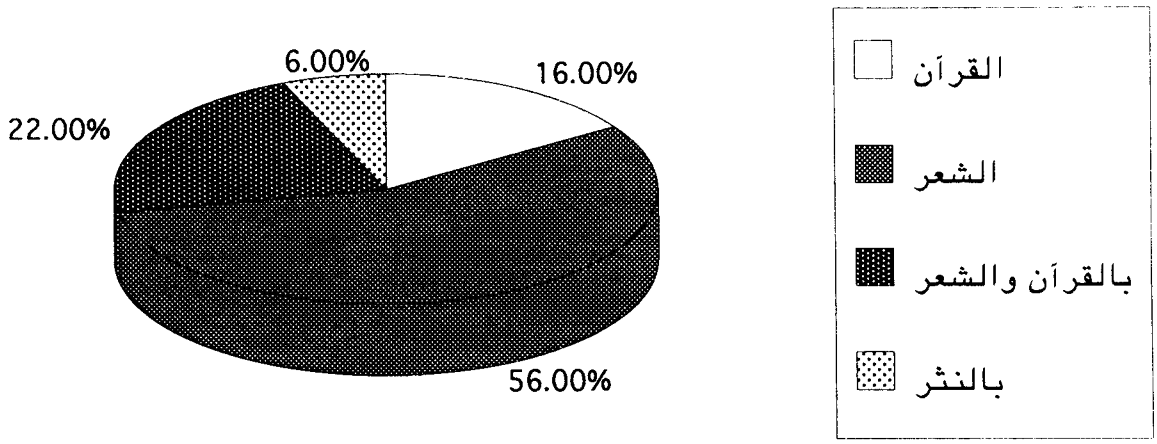
جملة مسائل كتاب الانصاف : 121 مسألة

رسم بياني مقارن في نسب استشهاد الكوفيين



جملة المسائل المستشهد لها بالنسبة للكوفيين 72

رسم بياني مقارن في نسب استشهاد البصريين



جملة المسائل المستشهد لها بالنسبة للبصريين 49

ب- التعليق والاستنتاج :

يلاحظ الدارس بعد استقراء أرقام الجدولين،وبعد ملاحظة الرسم البياني،أن الكوفيين متفوّقون عددا في الاستشهاد بالنقل والرواية على البصريين،مما يدعم القول أن النحو الكوفي نحو يعتمد علي السماع.

وأعلى نسبة في الاستشهاد عند الكوفيين هي نسبة الاستشهاد بالشعر، حيث شمل سبعا وثلاثين مسألة،عولوا في الاستشهاد لها بالشعر مفردا؛ وهذه النسبة تفوق نسبتها (50٪) من جملة المسائل المستشهد لها بالنقل،وتفوق هذه النسبة بكثير إذا اعتبرنا الشعر المستشهد به مع القرآن،بالنسبة إلى المسائل المستشهد لها بالقرآن والشعر.

أما عند البصريين فإن نسبة الاستشهاد بالشعر أقل من نسبة الكوفيين؛بالرغم من أن عدد الاشعار المستشهد بها قد يكون متوازيا بين المدرستين،غير أن الكوفيين اتسعوا في عدد الشعراء،حيث لم تقف رواية الفراء مثلا على أبي ثروان العكلي،وأبي الجراح العقيلي[58]، بل كان يعتمد على آخرين من أمثال أبي القمقام،وأبي زياد الكلابي،وأبي فقعس وأبي دثار[59]، وغيرهم،ممن اعتد الكوفيون بروايتهم وسماعهم،وردهم البصريون ووصفوهم بالضعف لأن مقاييس الأخذ عندهم مختلفة عن مقاييس الكوفيين.

58- مدرسة الكوفة : 381.

59- دراسة في النحو الكوفي : 171.

كما يلاحظ أن حظ الاستشهاد بالنثر من بين الشواهد كان قليلا، برغم وفرة الامثال العربية.واختصاص بعض أعلام الكوفة والبصرة برواية الشواهد وحفظها،من ذلك حفظ الأحمر الكوفي لأربعين ألف بيت شاهد، مما يدل على وفرة المحفوظات والسماع؛ واشتهار الأصمعي من البصرة بحفظ الأمثال والأخبار والنوادر،وكذلك المبرد بعده،وقد عيب على أعلام البصرة والكوفة تقصيرهم في الاعتداد بالنثر.[60] إلاّ أن ابن السكيت من الكوفيين لم يهمل هذا الجانب واستشهد في كتابه إصلاح المنطق بالقرآن،والشعر والنثر.

ويأتي الاستشهاد بالقرآن والشعر في مرتبة أقل؛حيث استشهد الكوفيون لواحد وعشرين مسألة بالقرآن والشعر؛ واستشهد البصريون في الخط الموازي لإحدى عشرة مسألة. وكان الكوفيون يقدمون ذكر الشاهد القرآني على الشاهد الشعري؛ مما يوحي بتفضيلهم للشهواهد القرآنية باعتبار قطعية حجيتها وورودها بالنسبة لما تواتر. وبالرغم من ظنية القراءات الشاذة من حيث الورود والدلالة فان الكوفيين يعتبرونها من الشواهد المعتبرة في النحو،سواء انفردت أو عضدها شاهد شعري أو نثري.

أما الاستشهاد بالقرآن بقراءاته فإن عدد المسائل التي استشهدوا به فيها بلغت ثلاثة عشر مسألة، في حين بلغت مسائل البصريين ثمانية،ولا نجد فرقا شاسعا في عدد المسائل المستشهد لها

60- مدرسة الكوفة : 335.

بالقــرآن بين المدرســتين. وهذا إن دل على شيء فـإنما يـدل على أهـمــيــة الشــاهد القرآني عند البـصـريين الذين كانوا يميـزون في الشـواهد القرآنيـة فيقدمون ما تواتر ويعتبرونه أبلغ حجية وأقوى[61].

وأما الاستشـهاد بالحديث والأمثال فإن نسـبتها ضعيـفة بالمقارنة مع نسبة الشـواهد الأخرى؛ فمن الواضح أنهم لا يعتدون بها إلا قليلا. لكنه من الواضح أن البـصـريين مـتـفـوقـون على الكوفـيين فـي هذا المجـال بالرغم من ضعف النسب عند الفريقين.

وخــلاصــة القــول هـي أن النسـب والأرقــام تقــرب لنـا وضع الاسـتـشـهـاد ولا تعـتـبـر دليلا قـاطعـا على النـحـو الكوفي أو البـصـري،لأن كـتـاب الانـصـاف جـمع المســائل الخلافيـة،ولم يعـرض كل جـزئيـات النحـو العربي كوفيـه وبصريه،وأنواع استشـهاد الفريقين،لكننا إذا استأنسـنا ببعض المصادر الأخرى فبالامكان التوصل إلى بعض النتائج الجزئية.

فالفـراء فـي معـاني القرآن إعـتـمـد الشـعـر وتوسع فـي اعـتـمـاده، واعتنى بالقراءات واستشهد بالحديث الشريف[62].

ونرى ابن السكيت من الكوفيين، يلتزم بإيراد الشواهد المتنوعة، ويتسع في إيرادها اتساعا كبيرا فيعتمد على الشعر والقراءات القرآنية[63] على مـخـتلف أوجـهـا وأصنافهـا،ويعـتـمـد أقـوال الأعـراب والأمـثـال[64]. ولا

61- انظر ردّ الانباري : 107. الانصاف : 739/2.

62- معانى القرآن : 162.

63- ابن السكيت، اصـلاح المنطق : 75، شـرح وتحقيق : أحـمـد مـحـمـد شـاكـر - عـبـد السلام هارون ، طبعة دار المعارف بمصر ، 1368هـ/1949م.
وانظر ص : 85ـ136ـ 86.

64- نفس المصدر : 131.

نجده يستشهد بالحديث النبوي لأن معظمه مروي بالمعنى. وبالرغم من أن كتاب إصلاح المنطق أقرب إلى كتب فقه اللغة منه إلى النحو؛ إلا أنه يهدينا إلى تلمس منهج الكوفين وعقلية البناء اللغوي والنحوي عندهم، بحيث يمكن القول: أن ما سبق بيانه، من أن الثقافة الكوفية ثقافة روائيّة نقلية صرفة، يمكن تأكيده؛ إلا ما كان من تقصيرهم في الاستشهاد بالأحاديث النبوية.

أما القرآن بقراءاته والشعر العربي فقد كان الاستشهاد بهما طاغيا مكثفا ينم عن ثقافة روائية نقلية متأصلة. وما يلاحظ في إصلاح المنطق أن ابن السكيت يعتمد على أشهر فحول اللغة العرب ممن اشتهروا بالفصاحة وتتبّع ألفاظ العربية، وتعدد واتساع السماع، ليساهم هو أيضا في تقويم اللسان العربي ومقاومة ظاهرة اللحن، التي كانت متفشية في عصره.

أما المسائل التي أغفل فيها الكوفيون ذكر الشواهد النقلية أو أنهم لم يجدوا لها من النقل ما يستشهد به فإنهم انما اعتمدوا علي ما تعارف عليه أهل اللغة والنحاة[65]، وما أجمعوا عليه[66]، وفي بعض الأحيان يعتمدون على المنطق والقياس[67]. وبالجملة؛ فان ما أجمع عليه وما استدل به وما وقع التوسع في استخدامه والقياس عليه لا يخرج عن حدود الثقافة النقلية والروائية التي حفظت اللغة العربية وأنصفتها، بالرغم من اتهامها بقلة التجريد وسوء التقعيد.

65- الانصاف : 61.

66- الانصاف : 19/1، 65/1.

67- نفس المصدر : 56/1، 86/1-87.

المبحث الثالث :

خصائص الدراسة الكوفية للنحو العربي.

كانت للظروف التاريخية وللمراحل التي مرت بها الكوفة منذ تأسيسها آثار واضحة في المسار العام الذي سلكته وفي السمة البارزة التي اشتهرت وتميزت بها الكوفة لتكون قلعة حصينة من قلاع اللسان العربي والفكر العربي والثقافة العربية[68].

وإذا كان بعض الباحثين المعاصرين قد تحدثوا عن خصائص المنهج الكوفي في الدراسة النحوية من زوايا متعددة[69] فإننا سنحاول استخلاص بعض النتائج من خلال ما سبق البحث والخوض فيه.ولعله من المفيد التماس الاضافات التي كان سببا في ظهورها قراء الكوفة النحاة، ودور القراءات،والاقراء،في تحقيق هذا الجانب. وهذه أبرز خصائص الدراسة الكوفية للنحو العربي :

1- ساهم الكوفيون في بلورة دراسة صوتية متناسقة للغة العربية معتمدين على الظواهر اللغوية التي حفظتها القراءات القرآنية؛ فكانت بعض القواعد التي توصلوا إليها مبنية على مبدأ "الاستعمال"، و"النزوع نحو المجهود الادنى"،وتحقيق نطق سليم للحروف العربية بما ساعد على حفظ اللغة وتعليمها؛ مثل ضبط الادغام وشروطه،والاقلاب والامالة،وغيرها من الظواهر الصوتية، سخروا الدراسة الصوتية للدراسة اللغوية والنحوية مثلما فعل الفراء حين عرض لصيغة الافتعال وما يطرأ

68- انظر ص :

69- انظر مثلا : مدرسة الكوفة. بداية من ص : 358

عليها من ادغام بعض الحروف، وكذلك لظاهرة الابدال الذي كان توجها صوتيا أصيلا في البيئة الكوفية، كما أن الفراء لم يغفل الاهتمام بمخارج الحروف وعددها وله رأي خاص في ذلك.

2- اعتمد الكوفيون علي مادة سماعية مكثفة وثرية مع مقارنة بين اللهجات، والانتصار للهجة بني أسد، هذا ما كان يقوم به الفراء في معاني القرآن[70]، فنقل لنا مختلف اللهجات،ونقدها اعتمادا على ما توصل إليه،واعتمادا على ثقافة بيئته السماعية.

3- كان الكوفيون يعتمدون علي المثال الواحد ويعتدون به فيستخلصون منه قاعدة عامة،وهذا نجده خاصة في أقيسة الكسائي ومن تبعه من الكوفيين[71].

4- كانت القراءات في كثير من المسائل فيصلا،عول عليها الكوفيون واستخرجوا منها القواعد وعمموها، علي عكس البصريين الذين كانوا يعتمدون على التأويل[72].

5- استقل الكوفيون بمصطلحات نحوية،تنم عن خصوصية العقلية الكوفية،وتعكس لنا المنهج المستخدم والمادة المعتمدة، ولم يكن هذا الاصطلاح في دقة مصطلحات البصريين،ولكنه تطور بمرور الزمن واستوى على سوقه،حتى أصبح الكوفيون يضيفون على مستوى التجريد والتأويل،من ذلك إضافتهم (للخلاف) مصطلحا علميا حين فكروا في نظرية العوامل وعملوا عملهم فيها.

70- معاني القرآن : 1/41-3/274.

71- انظر ص : 221 .

72- انظر ص : 272 .

6- يعتبر الكوفيونأهم تيار فكري لغوي حافظ علي تراث اللغة العربية،مستندا إلى السماع المزكي من قبل قراءات القرآن. فما ورد مدعما بقراءة سبعية أو أخرى متواترة أو ما اشتهر على المتواتر أو روى آحادا،يعتبر عندهم وجها فصيحا أو أفصحا في اللغة،وبذلك لم يستثنوه من دائرة سماعهم سوى أحرف قليلة تركوها وبقيت تروى في كتبهم،لكنها لا يعتد بها عندهم[73].

7- اعتمد الكوفيون علي الدراسة الصرفية وربطوها بالدراسة النحوية وأضافوا الكثير إلى اللغة،وأول من قام بهذا العمل؛على بن حمزة الكسائي.ولنا في ابن السكيت بعده،خير خلف للكسائي الفقيه اللغوي[74].

8- حافظ الكوفيون بالمقارنة مع البصريين على الاعتداد بالقراءات القرآنية بالرغم من تضعيف الفراء لبعضها[75]، لكنه لم يصل إلى مرتبة البصريين في رد القراءات المتواترة وتغليطها[76].

9- كان الاعتماد على رسم المصحف العثماني بالكوفة ركنا أساسيا من أركان عمل الكوفيين، فلم يخالفوه برغم وجود مصحف ابن مسعود رضي الله عنه -مما يدل دلالة واضحة على تبلور أركان القراءة الصحيحة عند الكوفيين،ولنا دليل على ذلك حين عدل الكسائي عن وجه

73- مثل الكشكشة التي نبه الفراء إلى ضعفها وابتعادها عن اجه الفصاحة.

74- تبويب كتاب اصلاح المنطق يؤكد ذلك.

75- انظر ص : 270 .

76- مدرسة الكوفة : 337.

من القراءة بسبب مخالفته لرسم المصحف الامام واتخذ وجها موافقا للسماع ولرسم المصحف[77].

كما أنّ الكوفيين اعتمدوا على رسم المصحف لتدعيم آرائهم النحوية في مقابل آراء البصريين؛ وذلك في مثل اختلافهم في (حاشى) أهي فعل؟ أو حرف؟ أو ذات وجهين.

فذهب الكوفيون إلى أن حاشي في الاستثناء فعل ماضي وذهب بعضهم إلى أنه فعل استعمل استعمال الادوات، وذهب البصريون إلى أنه حرف جر ورأى المبرد أنه تارة يكون فعلا وتارة يكون حرفا[78] وقد احتج الكوفيون على قولهم بامكان تصريف (حاشى) فإذا انصرف فهو فعل واستشهدوا بقول النابغة.

وَلَا أَرَى فَاعِلاً فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ وَمَا أُحَاشِي مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ([79]) [80]

وأضاف الكوفيون دليلا قرآنيا على صحة ادعائهم بأن (حاشى) فعل حين لاحظوا أن (حاشى) يدخله الحذف، والحذف يكون في الفعل، ومما يدعم قولهم، أن أكثر القراء[81] قرأوا بالحذف قوله تعالى: "حَاشَ لِلَّـــــهِ"[82] باسقاط الالف وكذلك هو مكتوب في المصاحف فدل على

77- اعراب القراءات: 394/1.

78- الانصاف: 280/1.

79- البيت من البحر البسيط.

80- فى ديوان النابغة: "ولا احاشى" عوضا من "وما احاشى" ديوان النابغة: 20.

81- قرا ابو عمرو البصري وحده (حاشا) بألف، وصلا ووقفا إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه: 309/1.

82- سورة يوسف: 31/12.

أنه فعل[83]؛ فما يهمنا من هذا المثال خاصة استشهاد الكوفيين الذي بدأ بإيراد بيت شعري صاحبه جاهلي ثم دُعّم ذلك بالشاهد القرآني وبرسم المصاحف[84]، حيث أكد الكوفيون على أن الحذف يكون في الفعل على عكس الحرف أو الاسم. فليس الاشهاد بالقرآن مقصورا على السماع فحسب بل هو مدعم بكيفية الرسم وبقواعد الكتابة.

10- اتسع الكوفيون في القياس إلى درجة ظهر فيها اختلاف بين الكسائي والفراء في هذه الأقيسة،مما يفسر اتساع الآراء وتنوعها في مدرسة الكوفة النحوية،إلى درجة يخال الباحث فيها نفسه أمام تيارين مختلفين من التفكير النحوي. والحقيقة هي أن الفراء وشيخه الكسائي كلاهما قد بلغ درجة من التنظير العلمي،بحيث استقل الطالب ببعض الآراء عن شيخه،في صلب الدراسة الكوفية للنحو العربي. وليس هذا عيبا وإنما هو من محامد أعلام المدرسة الكوفية،المنطبعين بعقلية التأسيس والبناء العلمي.

11- يعتبر النحو الكوفي نحوا تطبيقيا بعيدا عن التجريد والنظر العقلي الموغل في استعمال المنطق والتعليل-بالرغم من أن الكوفيين تأثروا بهذا الجانب المنهجي بالبصريين،واتبعوهم في كثير من النظريات- وأما وصفنا النحو الكوفي بأنه نحو تطبيقي عملي فلأنه يعتمد على المثال الواحد لاستخراج القاعدة وتعميمها،على عكس النحو

83- في مصحف عثمان وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما (حش) بغير الف فيهما- إعراب القراءات السبع وعللها : 309/1.

84- ذهب أبو عمرو إلى محض الفعل، وفيه اربع لغات : حاشى زيد وحاش زيد وحاش لزيد وحاشى لزيد.
إعراب القراءات السبع وعللها : 310/1.

البصري الذي يشترط الاطراد؛ والاطراد شرط تشدد فيه البصريون إلى درجة جعلت نحوهم أكثر دقة وأحكم بناء على المستوى النظري. وهذا الوصف للنحو الكوفي بأنه تطبيقي لا ينفى التطبيق عن النحو البصري إلاّ أن هذا التطبيق يأتي بعد الاطراد في السماع،ثم التجريد ،وبعدها ينعكس علي اللغة في شكل أحكام وقواعد،علي عكس النحو الكوفي الذي يكتفي بالسماع الواحد ليطلق حكما نحويا ويؤسس قاعدة عامة.

ولقد كان القرآن بقراءاته بالنسبة إلى الكوفيين خاصة -ثم البصريين- أرضية صلبة يقفون عليها لاستخراج القواعد النحوية وتعميمها والعمل بمقتضاها[85] .

هذه إذن أبرز سمات النحو الكوفي، وأبرز إضافات المدرسة الكوفية النحوية التي دخلت معترك الحياة العلمية بظهور الكسائي شيخ هذه المدرسة، وإذا كان لبعض الأعلام فضل في إسهام هذه المدرسة في إعلاء صرح البناء اللغوي العربي؛فإن الخليل بن أحمد الفراهيدي يناله أكبر فضل،لأنه مثل تيار النهضة الفكرية واللغوية وأرشد الكسائي وأعلام تلك الفترة إلى منابع الدراسة ومصادرها،وكان آخذا لمجمل شتات العلوم بطرف،يسر له رصد الظواهر،وإحكام البناء النحوي بإحكامه للمنهج العلمي الذي تتبع خطواته وسار على نهجه. والكوفة النحوية اللغوية بأعلامها، مدينة للخليل بن أحمد الفراهيدي.

85- يراجع الفصل الثالث من الباب الثاني.

الخاتمة

تتضح أهمية القراءات السبع في التوجهات النحوية بالنسبة لمدرسة الكوفة.

ولا ندعي أننا أتينا على كل جزئيات الموضوع،خاصة وأننا حاولنا الفات نظر من له رغبة في زيادة التوسع في البحث في هذا المجال.

كما حاولنا التغلب على الصعوبات،فظهر تبعا لذلك أن مدرسة الكوفة النحوية اعتمدت في أصولها على القراءات بأنواعها؛المتواترة والشاذة،وإن كنّا قد قصرناها على السبع منها،محاولين البرهنة على أنّ القياس النحوي الكوفي قد وجّه جانب كبير منه بالقراءات، فكانت القواعد الفرعية المستخلصة تبعا لذلك معتمدة على هذا الاختلاف. وكانت شواهد القراءات السبع مقدمة في كثير من الأحيان على الشواهد الشعرية أو موازية لها،كما تأكد من خلال هذا الموضوع أن التوجهات الصوتية الكوفية كانت متأثرة بأحكام القراءات،وهذا ما انعكس على أصول الدراسة وعلى بعض القواعد العامة؛من مثل قاعدة

"التجاور الصوتي" وقاعدة "الاستعمال" ...

كما حاولنا حلّ اشكالية البحث عبر المرور بمراحل بدأت ببيان الاتصال الوثيق بين الدراسة الصوتية،والدراسة النحوية،وعلم القراءات والتجويد،مرورا بتوظيف الاستشهاد بالقرآن في الدراسات النحوية، وصولا إلى تأكيد ارتباط توجهات المدرسة النحوية الكوفية بالقراءات القرآنية.

ويمكن حصر النتائج التي توصلنا إليها فيما يلي :

أولا : أن الكوفة كانت بيئة القراءة والاقراء.اتصل بها سند القراء السبعة في القرن الثاني،قبل التسبيع الذي اشتهر بداية من القرن الرابع الهجري.

ثانيا : أن التوجه الكوفي قائم على الرواية والسماع باعتماد الشواهد النقلية،بما فيها من شعر وأقوال.

والملفت للنظر قلة اعتماد نحاة الكوفة على الحديث النبوي.

ثالثا : أن الدراسة النحوية الكوفية كانت تطبيقية،متسعة في استعمال النقل،تمس فروع النظريات العلمية.

رابعا : أن قراء الكوفة اهتموا بالصوتيات وربطوها بالدراسة الصرفية،وهذا ما ظهر خاصة في قراءة حمزة بن حبيب الزيات،وفي قراءة الكسائي تلميذه. فاللافت للانتباه في قراءة حمزة خاصة أنه يبني

الوقف على خطة صوتية محكمة تراعي أصل الكلمة ومخرج الحرف وصيغة الفعل في حالة الوقف عليه.

خامسا : أن القراءات القرآنية عموما والسبع منها خصوصا كانت موجهة للنحاة، عولوا عليها في اختيار الفصيح من كلام العرب شعره ونثره،وذلك عبر اعتماد أوجه القراءات المتماشية مع فصيح القرآن وفصيح اللغة.

سادسا : أن البيئة الاجتماعية،بشيوع بعض الظواهر اللغوية فيها، لها دور هام في تحديد مقاييس القراءة أو توجهاتها عند القراء،فيختار القارئ حرفه اعتمادا على الرواية،موجها بالظواهر اللغوية الشائعة،أو المكرسة في الاستعمال الشفوي الذي ينتمي إليه. مثال ذلك اختيار الكسائي وحمزة الإمالة لشيوعها في بني أسد وهما منهم :

سابعا : البرهنة على أن الدراسات الصوتية في اللغة العربية تدعمت بعمل القراء النحاة،الذين لم يدخروا وسعا في وضع أسس صوتيات عربية،تخدم الدراسات القرآنية،وتحفظ تبليغ النص القرآني من اللحن الخفي،وهذا ما تطور بعد ذلك في علم التجويد.

ثامنا : البرهنة على أن ردّ بعض الأوجه في القراءآت السبع كان الهدف منه التمسك بالفصيح المتواتر. وهذا ما رمى إليه القراء السبع.

فهذه أهم النتائج التي برزت من خلال هذا العمل وإن كان بعضها قد وقعت الاشارة إليه، إلا أن البرهنة عليه اعتمادا على أحكام القراءات ومباحث النحو، تحتاج إلى تدقيق وتقصّ لا ندعي أننا أتينا عليها جميعا، لأن بعض مصادر القراءات مازالت تتطلب مزيد البحث والكشف عن خطة أصحابها في التأليف، كما أن كتب الاحتجاج للقراءات وتوجيهها وإبراز عللها في حاجة إلى مزيد من النقد والمقارنة، لأن النحاة اجتهدوا في هذا العمل، فاتسعت دائرة التأويل، وكان الأثريون أكثر حرصا على تطويع المادة النحوية لتصحيح بعض القراءات التي اتهمت بأنها ضعيفة في اللغة العربية.

كما أن عامل الانتماء إلى مدرسة من المدارس النحوية، جعل الاحتجاج تبريريا، في بعض الاحيان، يسبق فيه عامل المذهب الحجة والبرهان الذي لم يكن بريئا من الآراء المسبقة والتعصب المذهبي. لذلك فان كتب الاحتجاج جميعها في حاجة إلى قراءة علميّة تحدد مناهج أصحابها، والأسس التي انطلقوا منها لتدعيم هذا النوع من الدراسة مما سمح باتساع دائرة التفكير النحوي.

كما أن مسألة التوجه القياسي لبعض المدارس في حاجة إلى مزيد الدراسة للبحث عن أسباب ثراء هذه التوجهات النحوية أيضا.

ولا يفوتنا في نهاية المطاف أن ننوه بالجهود التي بذلها الاستاذ المشرف **الدكتور التيجاني بوريقة** الذي تتبع مراحل البحث خطوة خطوة مراجعة،وتوجيها،واصلاحا،كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساعدني على إتمام هذا البحث وإخراجه،ليكون لبنة تضاف إلى الدراسات القرآنية واللغوية،والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم،وأن ينفع به إنّه سميع قريب مجيب.

العنوان:	أثر القراءات السبع في التوجهات النحوية لدى مدرسة الكوفة
المؤلف الرئيسي:	العلاني، محمد الحبيب
مؤلفين آخرين:	بوريفة، التيجاني(مشرف)
التاريخ الميلادي:	1994
موقع:	تونس
الصفحات:	1 - 500
رقم MD:	856780
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة الزيتونة
الكلية:	المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
الدولة:	تونس
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	النحو العربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/856780

فهرس مصادر ومراجع الرسالة.

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

حرف الهمزة : (أ)

1) - الابانة عن معاني القراءات السبع : مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق تقديم : د/محي الدين رمضان.
ط 1،دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا. 1399هـ/1979م.

2) - أبو على الفارسي : د/عبد الفتاح شلبي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة، القاهرة، مصر 1377هـ/1958م.

3) - ابن الانباري وجهوده في النحو : د/جميل علوش، ط1، الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس. 1401هـ/1981م.

4) - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الاربع عشر : الدمياطي، ط1، عالم الكتب : بيروت - لبنان، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر. 1407هـ/1987م.

5) - الاتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان.1394هـ/1973م.

6) - أثر القراءات في تطور الدرس النحوي : عفيف دمشقيّة. ط1، .بيروت 1398 هـ / 1978م .

7) - أثر القراءات في الأصوات النحو العربي : د/عبد الصبور شاهين، ط 1، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، مصر 1408هـ/1988م.

8) - أثر القـراءات القـرآنية فـي الدراسات النحـوية : د/عـبـد العـال سـالم مكرم، ط2، مؤسسة الصباح بالكويت 1398هـ/1978م.

9) - الأحـرف السبعة ومنزلة القراءات منها : د/حسن ضياء الدين عتر، ط1، دار البشائر الاسلامية للصباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 1409هـ/1988م.

10) - أحكام تجويد القرآن في ضوء علم الأصوات الحديث : عبد الله الحميد سويد، مطابع الوحدة العربية الزاوية، الجماهيرية العربية الليبية، د.ت.

11) - إرشاد الفحول إى تحقيق الحق من علم الأصول : محمد بن على الشوكان، دار الفكر، بيروت - لبنان، د.ت.

12) - أساس البلاغة : محمد بن عمر الزمخشري، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان. 1385هـ/1965م.

13) - الاستيعاب في تمييز الأصحاب : ابن عبد البرّ : يوسف بن عبد الله، هامش كتاب الاصابة.، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة. مصطفى محمد- مصر 1358هـ/1939م.

14) - الاشباه والنظائر : جلال الدين السيوطي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان 1404هـ/1984م.

15) - الاصابة في تمييز الصحابة : ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، مصر 1358هـ/1939م.

6) - أصول الفقه : محمد الخضري بك، ط1، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد، المطبعة الرحمانية، مصر. 1399هـ/1979م.

17) - أصول النحو : ابن السرّاج، تحقيق : د/عبد الحسين الفتلي، ط3، مؤسسة الرسالة بيروت - لبنان. 1408هـ/1988م.

18) - الأصول : دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي : د/تمام حسان، ط1، الشركة الجديدة، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب الأقصى 1401هـ/1981م.

19) - إصلاح المنطق : ابن السكيت، شرح وتحقيق : أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر 1368هـ/1949م.

20) - إعراب القراءات السبع وعللها : ابن خالويه : الحسين بن أحمد، تحقيق وتقديم : د/عبد الرحمان بن سليمان العثيمين، ط1، مكتبة الخانجي، مطبعة المدني القاهرة ج.م.ع.1413هـ/1992م

21) - الاعلام الزركلي : خير الدين، ط5، دار العلم للملايين بيروت - لبنان. 1400هـ/1980م.

22) - الأغاني : أبو الفرج الأصبهاني، ط3، دار الثقافة، بيروت -لبنان- 1391هـ/1971م.

23) - الاقتراح : السيوطي، جلال الدين، ضبط وتعليق وشرح : د/أحمد سليم الحمصي، د/محمد أحمد قاسم، ط1، جروس برس،1408هـ/1988م.

24) - الامالة في القراءات واللهجات العربية : د/عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة، القاهرة مصر. د. ت.

25) - الامالي : أبو علي القالي ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د.ت.

26) - إنباه الرواة إلى أنباه النحاة : القفطي : علي بن يوسف الوزير، ط1، دار الكتب المصرية ومطبعتها،مصر، 1371هـ/1952م.

27) - الانتصاف من الانصاف : محمد محي الدين عبد الحميد : هامش الانصاف. المكتبة العصرية للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت - لبنان 1407هـ/1987م.

28) - الانصاف في مسائل الخلاف : ابن الانباري : أبو البركات، المكتبة العصرية للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، لبنان 1407هـ/1987م.

29) - الايضاح في علل النحو : الزجاجي، تحقيق : د/مازن المبارك، ط5، دار النفائس، بيروت لبنان. 1406هـ/1986م.

حرف الباء : (ب)

30) - البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان 1403هـ/ 1983م.

31) - البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الفكر، بيروت - لبنان. 1400هـ/1980م.

32) -بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : السيوطي : جلال الدين، ط2 تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت - لبنان 1399هـ/1979م.

33) - البيان في إعراب غريب القرآن : أبو البركات ابن الانباري، تحقيق : د/طه عبد الحميد طه، مراجعة : مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ومطبعتها القاهرة ج.م.ع.1400هـ/1980م

34) - البيان والتبيين : الجاحظ : عمرو بن بحر، شرح وتحقيق : حسن السندوبي، مطبعة الاستقامة، القاهرة مصر، 1375هـ/1956م.

35) - بنية العقل العربي : محمد عابد الجابري، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت - لبنان 1406هـ/1986م

حرف التاء (ت)

36) - التأويل في البيئة النحوية : د/تيجاني بوريقة، طبعة مرقونة.

37) - التبيان في إعراب القرآن : أبو البقاء العكبري، ط2، دار الجيل، بيروت - لبنان 1407هـ/1987م.

38) - تاج العروس : الزبيدي : محمد مرتضى، ط1، المطبعة الخيرية، جمالية مصر 1306هـ/1889م.

39) - تاريخ الامم والملوك : محمد بن جرير الطبري، ط1، دار الفكر بيروت - لبنان 1407هـ/1987م.

40) - تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت - لبينان، د. ت.

41) - تاريخ التراث العربي : فؤاد سزكين : تعريب : د/فهمي أبو الفضل، مراجعة : د/محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الثقافية، القاهرة - مصر. 1391هـ/1971م.

42) - تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي : دار الجيل، بيروت، لبنان 1408هـ/1988م.

43) - تاريخ الشعوب الاسلامية : كارل بروكلمان : ترجمة نبيه أمين فارس - منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان - 1408هـ/1988م.

44) - التصريف العربي من خلال علم الاصوات الحديث : د/الطيب البكوش، ط2، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، المطبعة العربية تونس. 1407هـ/ 1987م

45) - تطور النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة : د/طلال علامه، ط1، دار الفكر اللبناني بيروت - لبنان 1413هـ/1993م.

46) - تاريخ العرب : فيليب حتّى، ط4، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت لبنان. 1385هـ/1965م.

47) - تاريخ الكوفة : حسن بن أحمد البراقي : ط4، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان 1407هـ/1987م.

48) - تاريخ اليعقوبي: اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب، دار صادر. بيروت، لبنان د.ت.

49) - التعريفات : محمد بن علي الجرجاني : ط3 دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان 1408هـ/1988م.

50) - التفسير الكبير : الفخر الرازي، المطبعة المصرية 1352هـ/1354هـ

51) - التفسير والمفسرون : د/محمد حسنين الذهبي، ط1، دار الكتب الحديثة القاهرة ج.م.ع. 1381هـ/1963م.

52) - تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطإ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين : علي بن محمد النوري الصفاقسي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، 1407هـ/1987م.

53) - تنمية اللغة العربية في العصر الحديث : د/إبراهيم السامرائي : منشورات جامعة الدول العربية، مطبعة الجبلاوي، 1393هـ/1973م.

54) - تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني، طبعة دار صادر. بيروت - لبنان 1387هـ/1986م مصورة على ط1 حيدر آباد،الهند 1325هـ/1908م.

6) - التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو الدّاني تصحيح : أوتويرتزل. ط2 دار الكتاب العربي- بيروت - لبنان. 1404هـ/1984م.

حرف الجيم (ج)

57) - جامع البيان في تفسير آي القرآن : محمد بن جرير الطبري. المطبعة الكبرى الاميرية مبولاق، بمصر المحمية، (1323هـ - 1329هـ)

58) - الجامع لاحكام القرآن : أبو عبد الله القرطبي : ط1، دار الكتب المصرية ومطبعتها القاهرة. مصر 1369هـ/1950م.

59) - الجمع الصوتي الأوّل للقرآن : لبيب السعيد، ط2، دار المعارف بمصر ج.م.ع 1398هـ/1978م.

60) - جمال القراء وكمال الأقراء : السخاوي الشافعي، تحقيق الدكتور حسن البواب. مكتبة التراث مكة المكرمة مطبعة المدني المملكة العربية السعودية. 1407هـ/1987م.

61) - الجمهرة : ابن دريد، دار صادر بيروت - لبنان د.ت.

حرف الحاء (ح)

62) - حجة القراءات : أبو زرعة عبد الرحمان بن محمد زنجلة، تحقيق سعيد الافغاني، ط2 مؤسسة الرسالة بيروت لبنان 1399هـ/1979م

63) - حق التلاوة : حسني عثمان، ط1، دمشق سوريا 1394هـ/1974م.

64) - حرز الاماني ووجه التهاني : أبو عبد الله الشاطبي، ط1. ملتزم الطبع محمد الجديد، مطبعة التقدم بدرب الدليل بمصر المحمية 1326هـ.

حرف الخاء (خ)

65) - الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق : محمد علي النجار. دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. د.ت.

66) - خطط البصرة ومنطقتها : د/صالح أحمد العلي : طبع ونشر المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق 1406هـ/1986م.

67) - خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي، د/عفيف دمشقية، ط 2، دار العلم للملايين مطبعة العلوم بيروت - لبنان 1402هـ/1982م.

حرف الدّال (د)

68) - دائرة المعارف الاسلامية : مجموعة من الباحثين. أحمد الشتاوي وآخرين، د.ت

69) - دراسة النحو الكوفي من خلال كتاب معاني القرآن للفراء : الاستاذ المختار أحمد ديزة. ط1 دار قتيبة للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت - لبنان 1411هـ/1991م.

70) - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : د/غانم قدوري الحمد، ط1 وزارة الاوقاف والشؤون الدينية إحياء التراث الاسلامي - سلسلة الكتب الحديثة، مطبعة الخلود بغداد، الجمهورية العراقية 1406هـ/1986م.

71) - دروس في المذاهب النحوية : د/عبده الراجحي. ط2، درار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان 1408هـ/1988م.

72) - الدفاع عن القرآن : د/أحمد مكي الأنصارد، ط1، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مطابع أبو الفتوح، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1405هـ/1985م.

73) - الديارات : الشابشتي : تحقيق، كوركيس عواد، ط2، منشورات مكتبة المثنى بغداد المعارف، بغداد، الجمهورية العراقية 1386هـ/1966م.

حرف الراء (ر)

74) - رسم المصحف والاحتجاج به : د/عبد الفتاح شلبي، مكتبة نهضة مصر نشرا وطبعا، الفجالة - مصر 1380هـ/1960م.

75) - رسائل الجاحظ عمرو بن بحر، ط2، دار مكتبة الهلال، بيروت - لبنان 1411هـ/1991م.

76) - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة : مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د/أحمد حسن فرحات، دمشق-سوريا، 1393هـ/1973م.

77) - روح المعاني : الآلوسي، شهاب الدين محمود، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان 1405هـ/1985م.

78) - الروض الأنف : السهيلي، مطبعة الجمالية بمصر 1332هـ/1914م.

79) - الروض المعطار في خبر الأقطار : محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري : ط2 مؤسسة ناصر للثقافة، دار السراج، بيروت لبنان، 1400هـ/1980م.

حرف السين (س)

80) - السبعة في القراءات : أبو بكر بن مجاهد، تحقيق د/شوقي ضيف ط2 دار المعارف بمصر، 1400هـ/1980م.

81) - سراج القارئ المبتدى وتذكار المقرئ المنتهي : ابن القاصح، مراجعة الشيخ علي محمد الضباع، المكتبة الثقافية بيروت - لبنان - د.ت.

82) - سرّ صناعة الاعراب: أبو الفتح عثمان بن جني،ط1تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مط. مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر 1374هـ/1954م.

83) - سنن أبي داود، مراجعة : محمد محي الدين عبد الحميد، دار احياء التراث العربي بيروت لبنان. د.ت.

84) - السنن : ابن ماجة : تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، لبنان د.ت.

85) - السيرة النبوية : أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق : مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت - لبنان 1402هـ/1982م.

حرف الشين (ش)

86) - شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة : محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة 1349هـ.

87) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان 1409هـ/1988م.

89) - شرح ابن عقيل علي ألفية بن مالك في النحو، طبعة مصورة على الطبعة الأصلية د.ت.

90) - شرح البخاري : الكرماني؛ الكواكب الدّراري في شرح صحيح البخاري. القاهرة، المطبعة المصرية. 1353هـ/ 1934م.

91) - شرح الرضي على الكافية : رضي الدين الاستراباذي، تحقيق : يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي - مطابع الشروق - بيروت. د.ت.

92) - شرح المفصل في صنعة الاعراب : ابن يعيش إدارة الطباعة المنيرية بمصر. دار صادر بيروت، لبنان، د.ت

93) - شرح المفصل في صنعة الاعراب : القاسم بن الحسين الخوارزمي، تحقيق : د/عبد الرحمان بن سليمان العثيمين، مكة المكرمة جامعة أمّ القرى. ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت- لبنان. 1410هـ/1990م

94) - شرح النووي على صحيح مسلم، حاشية شرح النجاري للقسطلاني.

95) - الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينوري، تحقيق د/مفيد قميحه، ط2، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان 1405هـ/1985م.

96) - شواذ القراءات : ابن خالوية، (مختصر القراءات الشاذة) المطبعة الرحمانية بمصر 1934م.

حرف الصاد (ص)

97) - الصحاح في اللغة : الجوهري : إعداد نديم المرعشلي وأسامة المرعشلي، بيروت لبنان 1395هـ/1975م.

98) - الصحاح في اللغة والعلوم : تحديد صحاح الجوهري : د/نديم مرعشلي، د/أسامه مرعشلي، ط1 دار الحضارة العربية بيروت- لبنان. 1394هـ/1974م

99) - الصاحبي في فقه اللغة : ابن فارس، تحقيق : أحمد صقر، طبع عيسى بابي الحلبي - القاهرة. د.ت

حرف الضاد (ض)

100) - ضحى الاسلام : أحمد أمين : ط 10، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. د.ت

حرف الطاء (ط)

101) - طبقات الشعراء : ابن قتيبة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1405هـ/1985م.

102) - الطبقات الكبرى : ابن سعد الواقدي : دار بيروت للطباعة والنشر بيروت - لبنان 1377هـ/1957م.

103) - طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي : ط1، مكتبة الخانجي، مصر 1954م.

حرف الظاء (ظ)

104) - ظاهرة الاعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم : د/أحمد سليمان ياقوت ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1403هـ/ 1983م.

حرف العين (ع)

105) - عبقري من البصرة : د/مهدي المخزومي، ط2 دار الرائد العربي - بيروت - لبنان 1406هـ/1986م.

106) - العصر الجاهلي : د/شوقي ضيف، ط4، دار المعارف بمصر 1379هـ/1960م.

107) - العقد الفريد : ابن عبد ربه الأندلسي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، مصر 1359هـ/1940م

108) - علم الأصوات العام : بسام بركة، مركز الأنماء العربي - بيروت - لبنان د.ت.

109) - العمدة : ابن رشيق القرواني، دار الجيل، بيروت - لبنان. د.ت.

110) - العين : الفراهيدي، (الخليل بن أحمد) : ج، تحقيق : د/مهدي المخزومي ود/إبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام في الجمهورية العراقية، مطابع الرسالة الكويت 1400هـ/1980م.

111) - العنوان في القراءات السبع : أبو طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الانصاري الاندلسي تحقيق وتقديم : د/زهير زاهد- د/خليل العطية. ط2، عالم الكتب بيروت - لبنان1406هـ/1986م

حرف الغين (غ)

112) - غية النهاية في طبقات القراء : محمد بن الجزري : ط3، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان 1402هـ/1982م.

113) - غيث النفع في القراءات السبع : سيدي علي النوري الصفاقي، هامش كتاب سراج القارئ المبتدى ومنهاج المقرئ المنتهي. المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، د.ت

حرف الفاء (ف)

114) - فتح الباري : ابن حجر العسقلاني، القاهرة، المطبعة البهية المصرية، 1348 هـ.

115) - فتوح البلدان : البلاذري :أبو الحسن أحمد بن يحيى،مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت - لبنان. 1407هـ/1987م.

116) - فقه اللغة : د/عبد الواحد وافي : دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة. القاهرة - مصر د.ت.

117) - فقه اللغات السامية : كارل بروكلمان : ترجمة د/رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية 1397هـ/1977م.

118) - في رحاب القرآن الكريم : د/محمد سالم المحيسن، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر 1400هـ/1980م.

119) - فنون الافنان في عيون علوم القرآن : اين الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمان ط1دار البشائر الاسلامية بيروت - لبنان 1408هـ/1987م.

120) - الفهرست : ابن النديم، دار المعرفة، بيروت - لبنان. د.ت.

حرف القاف (ق)

121) - قراءات المعروفين بروايات الرواة المشهورين : الاندرابي : أحمد بن أبي عمر، تحقيق د/أحمد نصيف الجنابي، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. 1407هـ/1986م

122) - القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث : د/عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي مصر. د.ت

123) - القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: د/عبد العال سالم مكرم ط١، دار المعارف بمصر، ط٤، مؤسسة الصباح للنشر بالكويت.

124) - القراءات واللهجات : الاستاذ عبد الوهاب حمودة. ط١، النهضة المصرية. د.ت.

125) - قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : د/عبد العالم سالم مكرم. ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان. 1408هـ/1980م

126) - القاموس المحيط : الفيروزبادي : ط2. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م

127) - القواعد والاشارات في ذكر القراءات : الحموي (أحمد بن عمر)، تحقيق: د/عبد الكريم بكار، ط١، دار القلم، دمشق، سوريا ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

128) - القياس في اللغة العربية : محمد الخضر حسين، ط2دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان 1403هـ/1983م.

129) - القياس النحوي بين مدرستي الكوفة والبصرة : محمد عاشور السويح، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته الجماهرية العربية الليبية، 1406هـ/1986م.

حرف الكاف (ك)

130) - الكتاب : سيبويه،تحقيق عبد السلام هارون، ط3 ، عالم الكتب، بيروت لبنان، 1403هـ/1983م

131) - كتاب الحروف : أبو نصر الفارابي، ط2، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت - لبنان. 410هـ/1990م.

132) - كشف الظنون عن أسامي الكتب والعلوم والفنون : حاجي خليفة : دار الفكر، بيروت - لبنان 1402هـ/1982م.

133) - كشاف اصطلاحات الفنون : التهانوي : دار قهرمان للنشر والتوزيع استانبول، تركيا 1404هـ/1984م.

134) - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجود التأويل، الزمخشري محمود بن عمر، ط2 دار المصحف، القاهرة ج.م.ع.

135) - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها : مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق : د/محي الدين رمضان، ط2 مؤسسة الرسالة بيروت لبنان. 1401هـ/1981م.

136) - الكامل في التاريخ : ابن الأثير : عزالدين : دار الفكر، بيروت، لبنان. 1398هـ/1978م.

137) - الكنى والألقاب : الشيخ عباس القمّي : ط2، مؤسسة الوفاء، بيروت-لبنان 1403هـ،1983م.

حرف اللاّم (ل)

138) -لسان العرب : ابن منظور،دار الفكر، دار صادر- بيروت لبنان د.ت.

139) - لغة القرآن لغة العرب المختارة : د/محمد رواس قلعه جي. ط ١، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

140) - اللغة العربية منباها ومعناها : د/تمام حسان، الشركة الجديدة، دار الثقافة الدار البيضاء.د.ت.

141) - اللهاجات العربية في التراث : د/أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب . ليبيا- تونس ، 1403هـ / 1983م .

حرف الميم (م)

142) - المحتسب في توجيه القراءات الشاذة من كلام العرب : ابن جني.
تحقيق: علي نجدي ناصف وآخرين، لجنة إحياء التراث، القاهرة، مصر، 1386 هـ / 1966م .

143) - المحرر الوجيز : ابن عطيّة. تحقيق المجلس العلمي بفاس، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية. المغرب 1395هـ/1975م

144) - المخصص : ابن سيدة. دار الطباعة الأميرية بالقاهرة 1321هـ

145) - مدرسة البصرة النحوية : عبد الرحمان السيّد.

146) - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : د/مهدي المخزومي، ط3، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان 1406هـ/1986م.

147) - المدارس النحوية : د/شوقي ضيف، ط6، دار المعارف، القاهرة ج.م.ع. 1409هـ/1989

148) - مذاهب التفسير الاسلامي : اجنتس جولد زيهز : ترجمة عبد الحليم النجار، نشر دار اقرأ د.ت.

149) - مناهل العرفان في علوم القرآن : عبد الباقي الزرقاني : ط3، دار الفكر. بيروت، لبنان 1408هـ/1988م.

150) - مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد دار المعرفة بيروت - لبنان د.ت.

151) - المزهر في اللغة والأدب : جلال الدين السيوطي : دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

152) - المسائل المشكلة المعروف بالبغداديات : أبو علي الفارسي، وزارة الاوقاف العرقية، مطبعة العاني، بغداد 1403هـ/1983م.

153) - المستدرك : الحاكم النيسابوري. حيدرآباد. الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية . (1334 هـ).

154) - المسالك والممالك : الأصطخري : تحقيق : د/محمد جابر عبد العال الحيني، دار القلم، الجمهورية العربية المتحدة. 1381هـ/1961م.

155) - المصطلح النحوي : د/أحمد عبد العظيم عبد الغني، دار الثقافة للنشر والتوزيع مطبعة العمرنية للاوفست - الجيزد القاهرة ج.م.ع. 1410هـ/1990م.

156) - معجم أعلام المورد : منير البعلبكي، رمزي البعلبكي. ط1 دار العلم للملايين. بيروت لبنان 1412هـ/1992م.

157) - معجم الأدباء : ياقوت الحموي : دار المشرق، بيروت - لبنان د.ت.

158) - معجم القبائل العربية : عمر محمد رضا كحالة : ط5،مؤسسة الرسالة، بيروت ،لبنان.1405هـ/1985م.

159) - معجم البلدان : ياقوت الحموي : شهاب الدين، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت - لبنان. 1376هـ/1957م.

160) - معجم القراءات القرآنية : د/عبد العال سالم مكرم د/أحمد مختار عمر. ط ١ ، ذات السلاسل ، جامعة الكويت ، الكويت ، 1405هـ/ 1985م .

161) - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، د. ت .

162) - معجم متن اللغة : أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان 1379هـ/1960م.

163) - المعجم المفصّل في اللغة والأدب : د/ميشال عاصي، د/اميل يعقوب. ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان . 1407هـ/ 1987م .

164) - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : مجموعة من المستشرقين. ونسنك ، مكتبة بريل ، ليدن ، 1936م .

165) - معجم النحو : عبد الغني الدقر ، دار قهرمان للنشر والطباعة والتوزيع ، استانبول ، تركيا . د.ت .

166) -معالم المدن العراقية : د/صالح أحمد العلي، ط1 دار الشودون الثقافية، بغداد العراق 1409هـ/1989م.

167) - معاني القرآن : يحي بن زياد الفرّاء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار ، دار السرور ، بيروت ، لبنان . د. ت .

168) - معاني القرآن وإعرابه، الزجاج : تحقيق : د/عبد الجليل عبده شلبي،

169) - معاني القرآن : الأخفش الاوسط. دراسة وتحقيق، د/عبد الأمير محمد أمين الورد ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، 1405هـ/ 1985م .

170) - مشكل إعراب القرآن : مكي بن أبي طالب القنسي، تحقيق ياسين محمد السواس ط2 دار المأمون للتراث - دمشق سوريا. د.ت.

171) - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 1407هـ/1987م

172) - المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة : د/محمد سالم المحيسن. ط ٤ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، 1408هـ / 1988م .

173) - المفصل في علم العربية : محمود بن عمر الزمخشري. دار الجيل، بيروت ، لبنان . د . ت .

174) - المقدمة : عبد الرحمان بن خلدون، المطبعة الأزهرية بمصر . 1311هـ.

175) - مقدمة التفسير : ابن تيمية، مكتبة المعارف ، الرباط ، الدار البيضاء ، المغرب الأقصى .

176) - منجد المقرئين ومرشد الطالبين: محمد بن الجزري، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان د.ت.

177) - المنح الفكرية على متن الجزرية : سلطان القاري. المطبعة الميمنية ، مصر 1308هـ .

178) - المنطق الصوري والرياضي : عبد الرحمان بدوي ط2، مكتبة النهضة المصرية 1383هـ/1963م.

179) - منهج السالك إلى ألفية بن مالك. مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.

180) - المهذب في القراءات العشر : د/محمد سالم المحسين. ط٤، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر. ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٨م.

181) - الموافقات : أبو إسحاق الشاطبي. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان. د.ت.

حرف النون (ن)

182) - نحو القراء الكوفيين : خديجة مفتي، رسالة ماجستير - جامعة أم القرى بمكة المكرمة، طبع ونشر المكتبة الفيصليّة، مكّة المكرمة. 1406هـ/1985م.

183) - نحن والتراث : محمد عابد الجابري. ط٥، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦ م.

184) - نشأة النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة: د/طلال علامة، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان ١٤١٢ هـ/١٩٩٢ م.

186) - النشر في القراءات العشر : محمد بن الجزري الشافعي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. د.ت.

186) - نظرية النحو القرآني : د/أحمد مكي الانصاري. ط١، دار القبلة للثقافة الاسلامية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية. مطابع أبو الفتوح. د.ت.

187) - نكت الانتصار لنقل القرآن : أبو بكر الباقلاني. دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. د.ت.

حرف الهاء (هـ)

188) - هدية العارفين من كشف الظنون : إسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، بيروت لبنان، 1402هـ/1982م.

189) - همع الهوامع : جلال الدين السيوطي. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، د.ت.

حرف الواو (و)

190) - وفيات الاعيان : ابن خلكان. ط1، أحمد بابي الحلبي، المطبعة الميمنية، مصر 1306هـ.

المجلات

❑ المجلّة الزيتونية :

دراسة للدكتور محمد التومي العدد 223/5 لموسم 1978هـ/ 1399هـ).

❑ مجلّة كلية الآداب والعلوم :

مقال للدكتور مهدي المخزومي : العدد 2 جوان 1957م من ص98 ← 89

المـراجـع باللغـة الفرنسيـة

- Encyclopédie de l'Islam
  Edition Française

- Les théories grammaticales d'Ibn Jenni
  Publication de l'université de Tunis 1976.
  Imprimé par la Société Tunisienne des Arts Plastiques (S.T.A.P.)